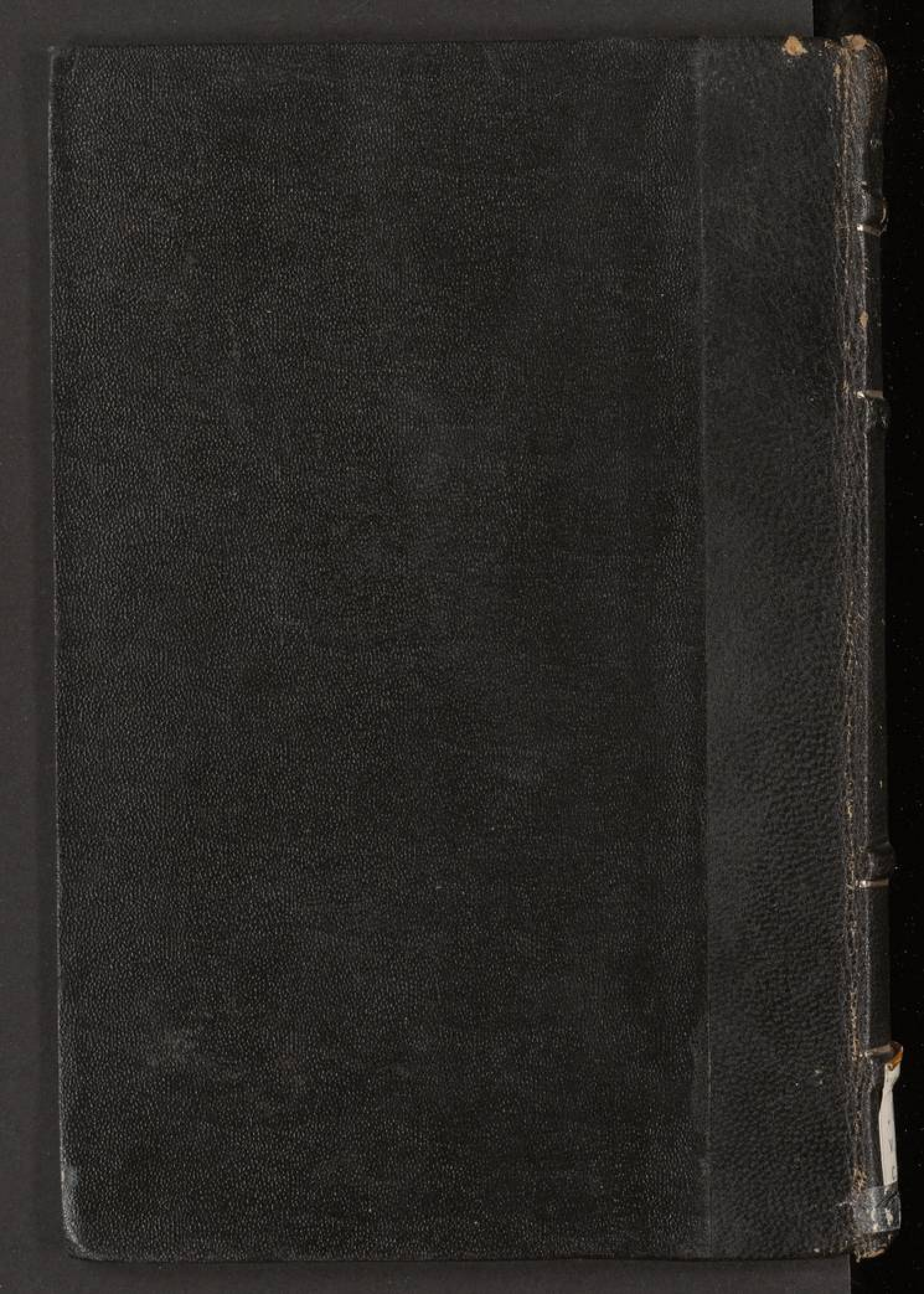
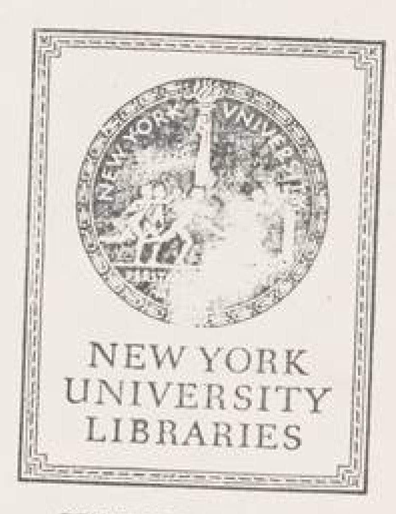
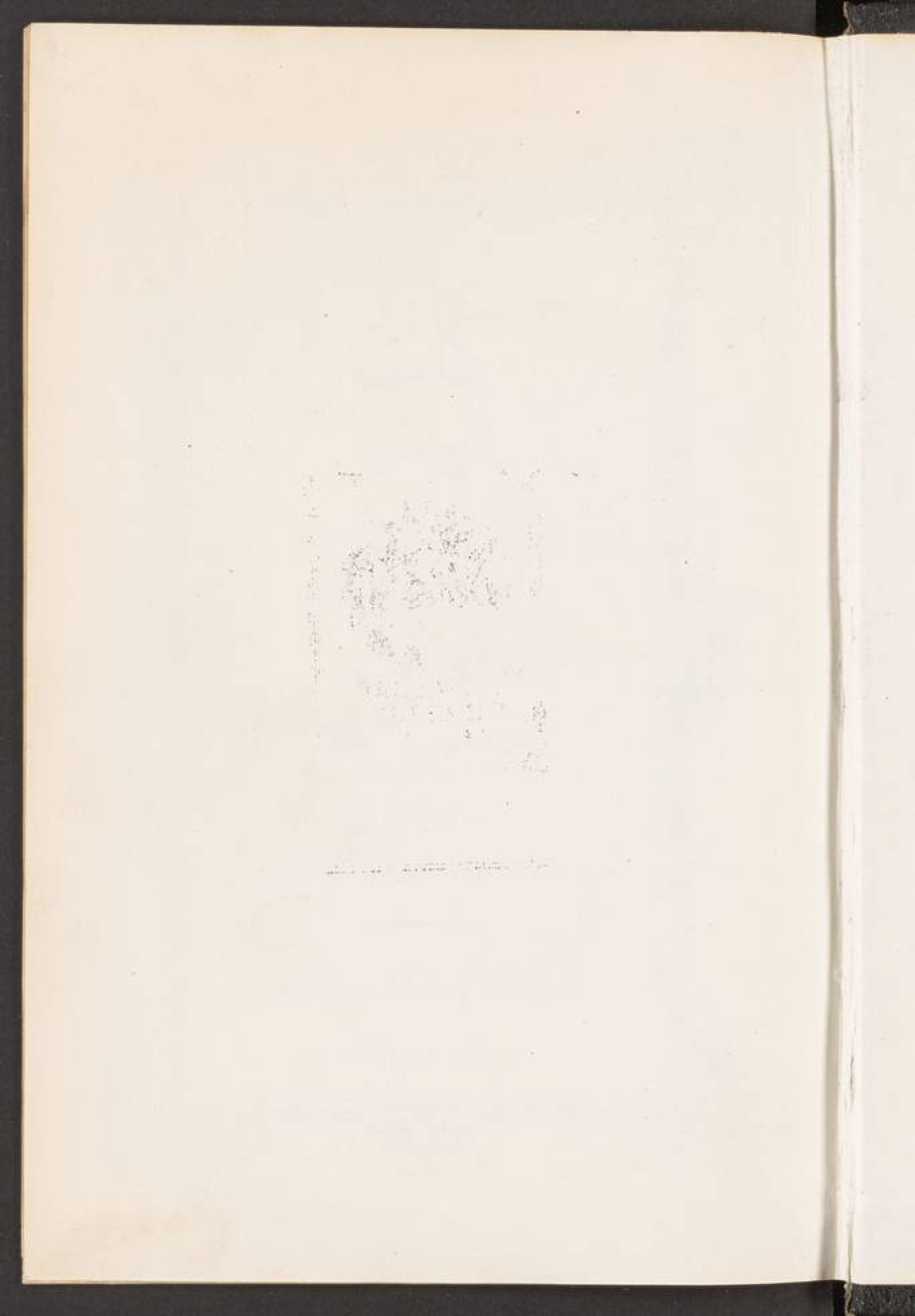
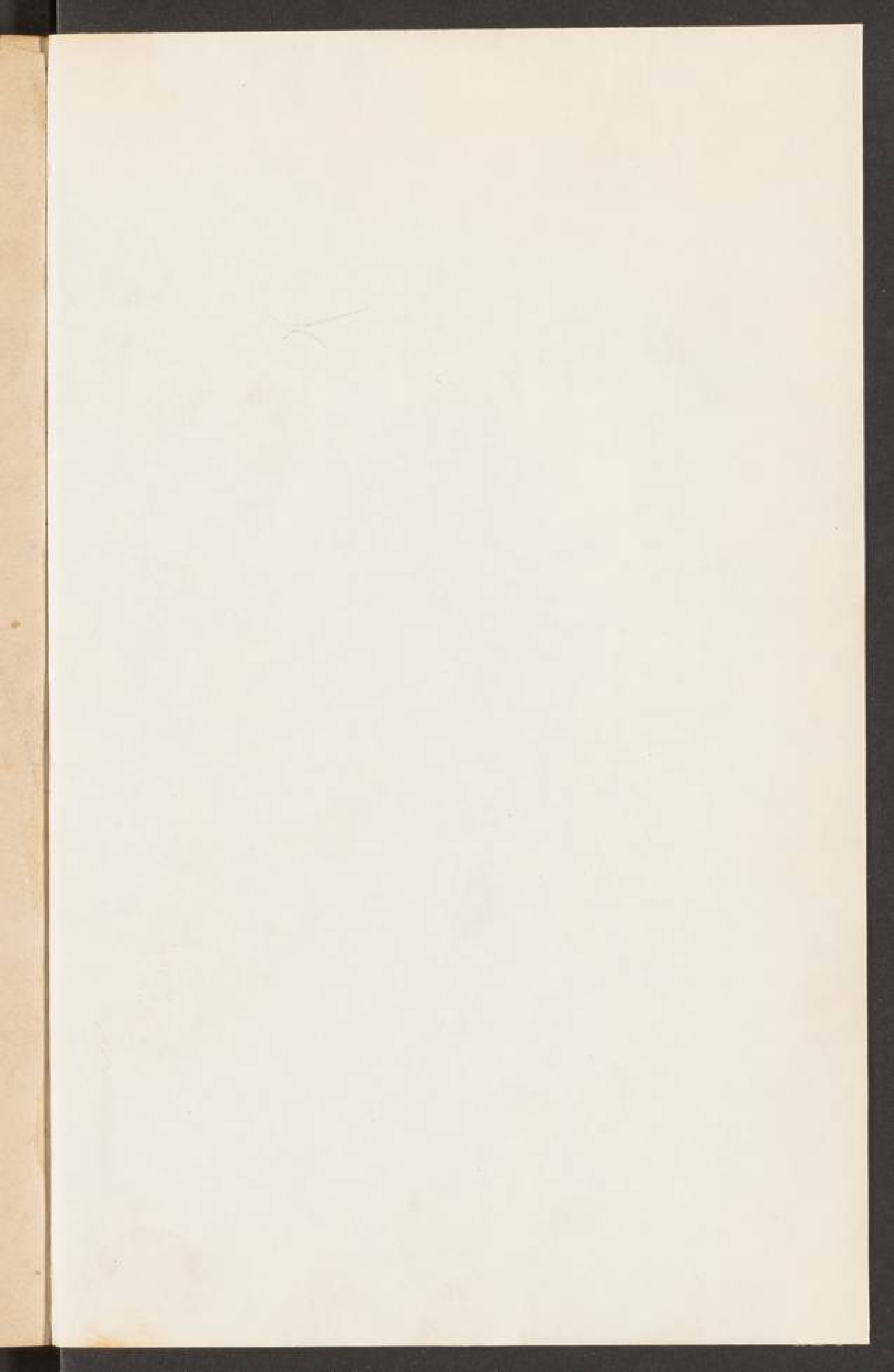
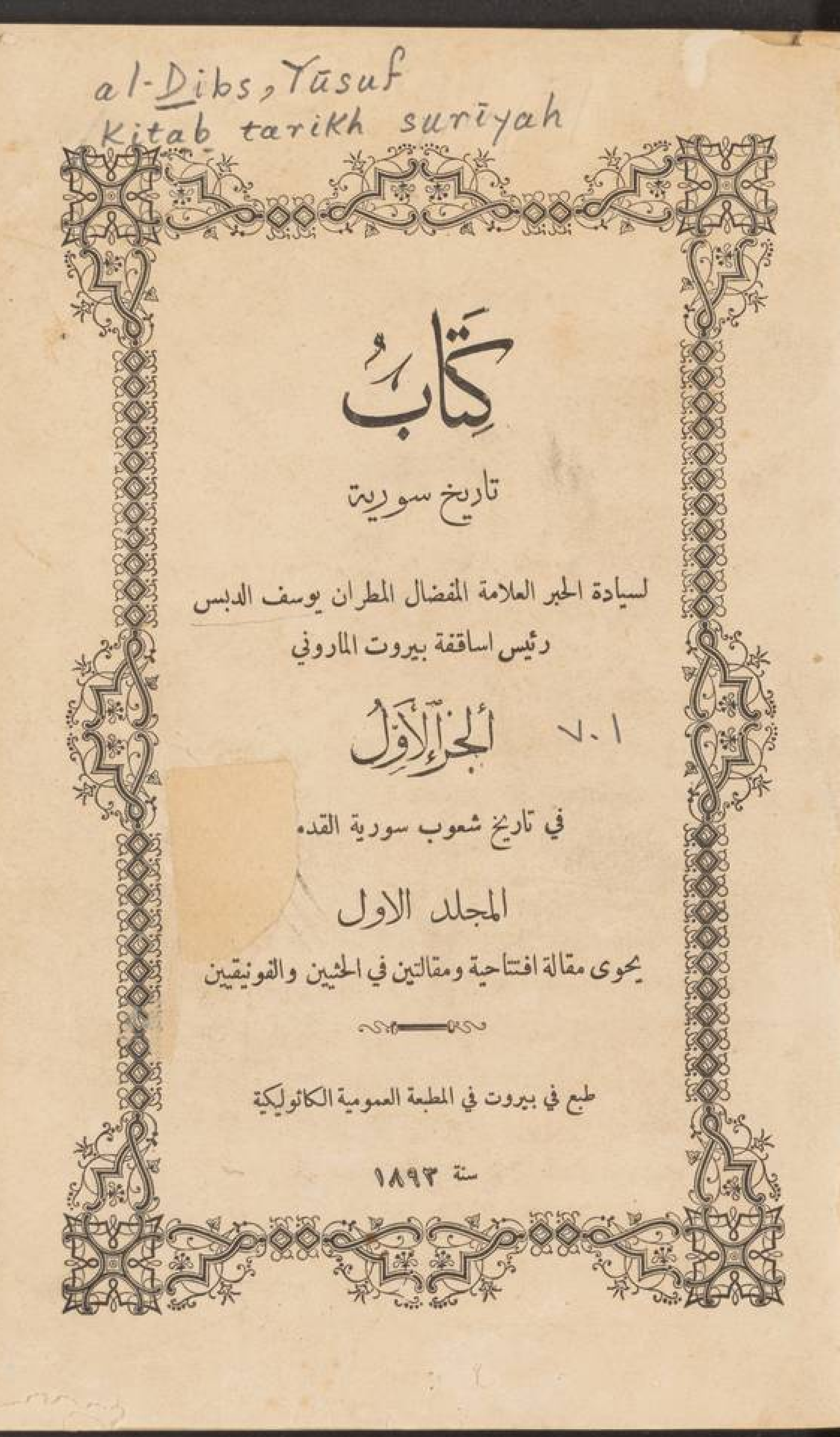



BOBST LIBRARY
3 1142 02824 5226


NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES







كتاب

تاريخ سورية

لسيادة الحبر العلامة المفضال المطران يوسف الدبس
رئيس اساقفة بيروت الماروني

الجزء الاول

في تاريخ شعوب سورية القد

المجلد الاول

يحوى مقالة افتتاحية ومقالتين في الحثيين والفونيقيين

طبع في بيروت في المطبعة العمومية الكاثوليكية

سنة ١٨٩٣

ترجمة تقدمة هذا الكتاب

لقداسة امام الاحبار البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً

ايها الاب الاقدس

لم تكن لي حاجة الى اشغال فكرتي طويلًا لاهتدي الى من اقدم كتابي هذا له. فكل من جال الطرف فيه قضى بلزوم تقديمه لقداستكم لا لانكم فقط معلم المسكونة الذي اقامه المخلص نائبًا له لتعليم العالم الحق وهدايته طريق الخلاص وخليفة القديس بطرس رئيس الرسل الذي امره وجميع خلفائه فادينا ان يثبت اخوته بالايمان اي جميع المؤمنين في اصقاع الارض كلها وفي كل عصر بل ايضاً لان هذا الكتاب من ثمار ارشاداتكم وتحريضاتكم للاكليرس والعلماء الكاثوليكيين ان يكبوا على مطالعة الاسفار المقدسة لان لهم بالتفتيش بها الحياة والقوة لمناصبة اعداء ايماننا الكاثوليكي المقدس الذين كثر عديدهم وتفاقمت جسارتهم في هذا العصر وليس ما يفحمهم ويكبح جموح افكارهم مثل ما ان يروا صحة ما رواه موسى وسائر من كتبوا بوحي الله مثبتة بآثار القبائل القديمة لاسيما ما كشف عنها او حلت رموزها في هذا العصر.

اتوسل الى قداستكم ان تسمح لي لالخص لها الغرض من هذا الكتاب وما حواه لتحيط علماً بمجمله اذ لم تتشرف العربية بمعرفتكم لها

ان جلّ الغرض من كتابي هذا لاسيما في جزئه هذا الاول الذي تم بعون الله وفي جزئه الثاني المعقود العزم على تأليفه انما هو جعل الاكتشافات الحديثة معروفة لدى عامة الشعوب المتكلمين باللغة العربية لنفعهم وتقوية ايمانهم بواسطة هذه البينات الحديثة المتسامية عن كل ردّ وهي انطاق الله الحجارة بصحة ما اوحاه لموسى وسائر من كتبوا الاسفار المقدسة

ولما لم يكن لنا بالعربية حتى الآن كتاب يشمل تاريخ وطننا سورية القديم والحديث ويستحق الاركان اليه اردت ان يكون كتابي على سبيل تاريخ تثبته تلك الآثار لاعتقادي ان هذا السبيل يغري المطالع غير الاكليركي ايضاً بالمطالعة اكثر من ان يكون الكتاب دينياً او لاهوتياً فيعثر اثناء مطالعته تاريخاً على بينات سديدة لا تردّ تثبت له صحة رواية الاسفار المنزلة

ان قداستكم تعلم ان من اراد ان يكتب تاريخ سورية القديم انفسح له مجال الكلام ليتطرق الى كل ما يلتحم بكلامه من تاريخ مصر وبلاد الكلدان واشور طبق نسق الكتاب المقدس وهذه البلاد هي مواطن اكثر الاكتشافات الحديثة التي لم يكن لقومنا المتكلمين بالعربية الا علم شائع بها اذ لم يتصدَ احد قبل الآن ان يكتب فيها شيئاً بالعربيــة اللهمَّ الا فقرات قليلة في بعض الجرائد او شيئاً يسيراً في غيرها مع ان موضوع اكثر ما كشف عنه اجدادنا او قدماء سكان بلادنا وقسم كبير منها وجد في ارضنا . وقد بذلت اللجان العلمية الاوروبية وعمداء بعض الدول مبالغ جسيمة من المال في هذا السبيل وغنم بهذه الكنوز سكان اوروبا على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم وكان ابناء اللغــة العربية عن ذلك غافلين اغفالاً يُعدّ عاراً وخسراناً فشئت ان ابذل كل ما يقدرني الله عليه لنفع قومي ايضاً بهذه الكنوز التي اوجدتها عناية الله في هذا العصر لشدة الحاجة اليها .

وقد كان لي ايها الاب الاقدس داعٍ آخر لتأليف هذا الكتاب وهو انه ليس عندنا في اللغة العربية حتى الآن شيء من تفسير اسفار العهد القديم مطبوعاً على ما اعلم

الاّ تفسير المزامير وقد كنت عنيت بطبع تفسير الاناجيل اخذته عن افضل المفسرين ثم تفسير رسائل بولس والرسل جعلت احد كهنتي الخوري يوسف العلم يعتني بجمعه ثم تفسير رؤيا يوحنا لأحد علمائنا في القرن الماضي ولم يتهيأ لي اشهار شيء من تفسير اسفار العهد القديم فمشيت الآن على كل القسم التاريخي في الكتاب المقدس من سفر التكوين الى سفري المكابيين في تاريخ العبرانيين وتطرقت الى كل ما يلتحم بكلامي من آيات الكتاب غير الاخبارية وتعمدت بيان كل غموض وحل كل اشكال فكان لنا بذلك تفسير لجزء كبير من الاسفار المقدسة وعلى المنوال الحديث بعض الاكتشافات .

اما ما تضمنه هذا الجزء الاول الذي نجز طبع المجلد الاول منه والمجلد الثاني مأخوذ بطبعه وسوف اقدمه لجانب سدتكم الرسولية في وقت آخر فهو اربع مقالات اولها مقالة افتتاحية ضمنتها ذكر تخوم سورية وجبالها وانهرها وبحيراتها واشهر مدنها القديمة ثم الكلام في خلق العالم والابوين الاولين ثم ذكر شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر ومخالفة ابوينا ثم ذكر الآباء قبل الطوفان والتطابق بعددهم العشري بين كلام الكتاب وآثار القبائل القديمة لاسيا الكلدان. ثم ذكر نوح والطوفان ومباحثه. ثم ذكر برج بابل وبلبلة اللغة، ثم ذكر اللغات واصليها العامين وفروعهما وتفرق القبائل بحسب الانساب التي ذكرها موسى واثبت في كل من هذه المواد على ما يثبتها علمياً ايضاً من آثار القبائل القديمة ومن الصفائح الكلدانية والمصرية والفارسية وسائر ما اكتشف وتوصلت معرفتي اليه من آثار قدماء الشعوب وبالجملة تضمنت هذه المقالة كل ما جاء في الفصول العشرة الاولى من سفر التكوين واختتمت بذكر سكان سورية قبل الطوفان وبعده .

وتلي هذه المقالة مقالة ثانية في تاريخ الحثيين الحديث النشأة مشيت فيها اولاً على جميع الآيات المقدسة التي جاء فيها ذكرهم مبيناً ما تنور بالاكتشافات من هذه الآيات الغامضة ثم تتبعت تاريخهم عن الآثار المصرية ثم عن الآثار الاشورية ثم عن آثارهم هم انفسهم والحقت ذلك بذكر جالياتهم وارتحالاتهم من سورية الشمالية الى اسيا الصغرى بلاد اليونان وغيرها ثم بذكر الملوك الرعاة في مصر الذين يرجح ان اصلهم

منهم وما اكتشف من آثارهم معاونًا على فهم آيات الكتاب الملاحظة استيزار يوسف في مصر وحصول المجاعة وتعيين مدة سني عبودية بني اسرائيل فيها .

واتبعت هذه المقالة بمقالة ثالثة في الفونيقيين ذكرت فيها تاريخ اصلهم وجالاتهم وما كان لهم من العلاقات مع المصريين والكلدان والاشوريين والفرس ومع ملوك يهوذا واسرائيل واتفاقهم مع داود وسليمان ثم تجارتهم التي انبسطت في الآفاق مع حروف كتابتهم وصناعتهم ومعبوداتهم وهيا كلهم ومدافنهم وما جاء في نبوات الانبياء عنهم .

ولما كانت المقالة الثانية في سكان شمالي سورية وهم الحثيون والثالثة في سكان وسطها وهم الفونيقيون تحتم ان تكون الرابعة في سكان جنوبيها اي فلسطين وهم العبرانيون وفي تاريخ هؤلاء قد مشيت على كل القسم التاريخي من اسفار العهد القديم من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين الى سفري المكابيين مبتدئًا من تاريخ ابراهيم ومنتهيًا ببداية ملك اسكندر الكبير الذي به نهاية هذا الجزء وقد اوردت في هذه المقالة كل ما يثبت علميًا صحة رواية من كتبوا بوحي الله من الآثار المصرية والبابلية والاشورية والفارسية وغيرها وتطرقت الى كل ما يلتحم بكلامي من نبوات الانبياء وآيات الكتاب المقدس غير الاخبارية متعمدًا ما سبقت الاشارة اليه من الاعتياض بقدر الامكان عن تفسيرٍ لاسفار العهد القديم

وقد اعتمدت في ذكر هذه الآثار على علماء فضلاء مثل الاب فيكورو احد كهنة سان سولبيس والاب قيصر دي كارا اليسوعي وفرنسيس لانرمان في طبعة كتابه الاخيرة وغير هؤلاء من العلماء الثقة المتكلمين في الآثار المصرية والاشورية . وفي عزمي ان الحق هذا الجزء بجزء ثانٍ يشمل تاريخ سورية في عهد خلفاء اسكندر والملوك الرومانيين الى ظهور الاسلام فيدخل في طي هذا الجزء كل ما كان تاريخيًا في سفري المكابيين واسفار العهد القديم كلها على الاسلوب الذي اتبعته في هذا الجزء فيكون تاريخي كنائسيًا علميًا . واردف ذلك بجزء ثالث يتضمن تاريخ سورية منذ ظهور

الاسلام الى استيلاء سلاطيننا العثمانيين عليها في مبادي القرن السادس عشر ثم الجزء الرابع في تاريخها في مدة سلاطيننا العثمانيين العظام الى اليوم

فهذه ايها الاب الاقدس خلاصة الغرض من كتابي وما حواه بالاجمال فتنازل الى قبول تقدمة ابن حقير يفتخر بطاعته دون تردد لكرسيكم الرسولي وباتعابه الواجبة في كرم الرب فانه قد اصرف بنعمة الله ما مرّ من عمره مشتغلاً كما قدّره الله بما فيه مجده وخلاص النفوس ورفع شأن امنا الكنيسة الرومانية الجامعة المقدسة وفي عزمه ان يصرف ما بقي له من الحياة الى الممات متفانياً بهذا السبيل مستعدّاً لا ان يسكب اعراقاً فقط بل ان يسفك دمه ايضاً اذا اقتضى حبّاً بايماننا المقدس وبرئيسه نائب المسيح وخليفة بطرس رئيس الرسل



مقدمة الكتاب

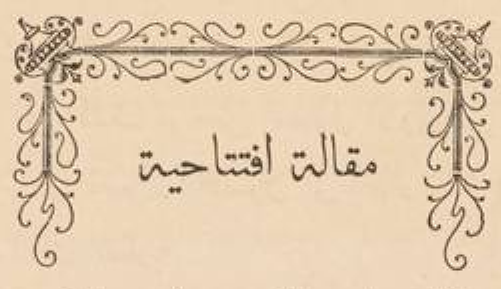
حمدًا لمن جعل آثار من سلف . عبرة وحجة لمن خلف . سواءٌ اتفق بعضهم مع البعض ام اختلف . اذ برأ الكائنات من العدم . وكوَّن آدم من تراب وحوَّاء من ضلعه فكانت منهما الامم . وغالبت احداها اخراها على متاع الدنيا وسؤددها . وعلى منتجع الارض ومصدرها وموردها . وألف غيرهم الجار وصافاه . فشقي وسعد كل بما اصطفاه . لانه تباركت اسماؤه رفع من احسن المسعى بمن فضله . وخفض من ساءه بمنن عدله . وألهم ايداع الآثار والصحف ما كان للاولين . ليكون تبصرةً وذكرى للآخرين . فسبحانه من اله قسط حكيم رحيم

اما بعد فيقول المفتقر الى عفو ربه . المطران يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت الماروني اذا كان علم التاريخ على اجماله من اجلّ العلوم واكثرها عائدة . واكبرها فائدة . ومَن وعاه في صدره . اضاف اعمارًا الى عمره . فعلم المرء بتاريخ سلفه ووطنه انفع واولى على ان المؤلفات الشاملة تاريخ بلادنا نادرة لا تصل اليها ايدي العامة وما تداولته منها ايدي الخاصة ألف في سالف الدهور فلم يدرك عصر التحقيق والتنقيب ولم يستطع من افضلوا بكتبه ان يستطلعوا ما كشفت عنه الاكتشافات الحديثة ولم يغنموا ما غنم اهل العلم في هذا العصر بكنوز رموز الخطوط الهيروكليفية . وحل معميَّات العلامات المسمارية . ولذلك اصبح فقهاءُ وطننا حتى من عدَّ فيهم عالمًا يفقهون تاريخ الامم النائية . والبلاد القاصية . ويغضون على تاريخ بلادهم . وعلم أحداث اجدادهم . وقد تعددت اللجان العلمية الاوربية وعمدآء الدول فاكثروا من الاحتفار في ارضنا والتنقيب عن آثار قدمائنا باذلين الوف الالوف من الدراهم والدنانير في هذا السبيل الأثيل

فثروا بالكشف عن كثيرها واكتنزوا كنوز معارف جلَّ عوارفها بيان تاريخ اجدادنا وما جرى في بلادنا . ونحن عن ذلك غافلون كأنه في ديار لم يكنها احد منا . فاعتمنا في ما علموا . ولم نعتنم بما غنموا . فبئس المسير والمصير . ولما كنت قد وقفت كل ما وهبه الله لي من قوة ومعرفة على نفع مواطنيَّ وابناء جلدتي لم اتوقف عن ان تقحمت مشاقَّ هذا التأليف المذبة . ولو تكلفت لها عرق القربه . واستأتيت من الكتب والمجلات العلمية ما دار نفعه في خلدي . ولم يظاهرني فيه الا جلدي وكدي . وعلى ما عليَّ من المهام الشاقة وما تربق بعنقي من الفروض الحقة وما تنازعت به حاجاتي اوقاتي شددت له عن عمد عينِ مئزري واتخذت الثبات مؤازري . وشمرت عن ساق عزيمة . وان كليلة . وساعد همة . وان عليلة . واكلاً بعون من يقوي الضعيف . وينير الحسيف والكفيف . فكنت استرق الساعات واسارق النظر اليه . وافترص الفرص بالانكباب عليه . هذا وقد كان داعٍ آخر الى هذا التصنيف الا وهو ان اسفار العهد القديم المنزلة لم يكن لها الى اليوم في العربية من تفسير يوضح ابهام بعض آيها ويحلُّ ما اشكل منها مع ان ذلك مما هو للدين والعلم ضربة لازب . وقد كنت عنيت باذاعة تفسير الاناجيل وغيرها من اسفار العهد الجديد ولم يتهيأ لي ان اردفه بشيء من تفسير اسفار العهد القديم فضمنت هذا الجزء من كتابي ما يزيل الاشكال ويجلو الابهام عن كل ما جاء من القسم الاخباري في هذه الاسفار من سفر التكوين الى سفري المكابيين على احسن منوال نسج عليه بعد الاكتشافات الحديثة وقد تمهد بها كثير من العقبات وانحلَّ كثير من المعضلات فترى في مقالتي الافتتاحية تفسيراً جلياً لكل ما جاء في الفصول العشرة الاولى من سفر التكوين وهي تنطوي على اعضل المشكلات ثم ترى في مقالتي في العبرانيين اني مشيت على كل ما كان اخبارياً في هذه الاسفار من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين الى

سفري المكابيين (حيث الكلام في اخبار اسكندر الكبير وخلفائه وهو مرجأ الى الجزء الثاني) واستطردت الى بيان كل ما التحم بكلامي من آيات الكتاب النبوية وغير الاخبارية . وعليه فارتجي ان يكون كتابي للمجتهد فيه ذا نفعين ويصيب المستجهد فيه غرضين دينياً وعلمياً . وقد اتممت بعون المنان هذا الجزء الاول مضمناً اياه مقالة افتتاحية من خلق العالم الى تفرق القبائل في آفاقه وثلث مقالات اخرى في اخص شعوب سورية القدماء وصحيح اخبارهم منذ نشأتهم الى عهد اسكندر الكبير وجعلته في مجلدين وعقدت العزم ان اتبعه بثلاثة اجزاء اخرى ان أقدرني الله اعني ان سيكون الجزء الثاني في تاريخ سورية في عهد اليونان والرومان من سنة ٣٣٠ قبل الميلاد الى سنة ٦٣٠ بعده والثالث في تاريخها في عهد الخلفاء وغيرهم الى سنة ١٥١٥ اذ طلعت على هذه الديار بدور سلاطيننا العثمانيين العظام . والرابع في تاريخها ايام دولتهم الزاهرة وولايتهم الباهرة الى العهد الحميدي السعيد عهد مولانا الاعظم وعاهلنا الافخم السلطان عبد الحميد الغازي خان ايَّد الله وابَّد اريكة سلطنته ما تتالى الملوان

وقد رفعت هذا الكتاب تقدمة لمقام حبر الاحبار بحر العلم ومشكاة الحكمة وواحد هذا العصر وحليته التي يفاخر بها كل دهر . الاب الاقدس . ودر تاج الكنيسة الانفس . البابا لاون الثالث عشر اطال الله عمره . وحقق نصره . واليه سبحانه اضرع ان ينطقني بالحق والصدق . ويهديني اقوم الطرق . وان يكتب لي الفوز باتمامه . ويتكبني الخطأ والزلل في احكامه . وينزهني عن سوء الغرض . ويتيح لي اصابة سواء الغرض . وان ينفع به الباب مطالعيه ومريديه . وان ينجع فيها كلامي فيه . وان يتقبل ما عانيت فيه من العناء والمشاق ضحية ازدلف بها الى وجهه الكريم . وكفارة يمحو بها مساويَّ فهو الغفور الرحيم . وبه المستعان وعليه التكلان . في كل حال وزمان



مقالة افتتاحية

قد ضمنا هذه المقالة مباحث لا بد من العلم بها لان بعضها ملازم الغرض وهو تاريخ سورية او هو جزء منه وبعضها يمهد السبيل الى ادراكه او ينزل منه منزلة الاساس من البناء. وعليه فتشتمل هذه المقالة اولاً على لمعة جغرافية في سورية . ثانيًا على كلام في الخطوط المصرية المعروفة بالهيروكليفية (اي الكتابة المقدسة) ثم في الخطوط الاشورية المعروفة بالمسمارية. وفي من اهتدى الى مغزى هذه الرموز وفتح هذه الكنوز لاعتمادنا عليها في تاريخ سورية القديمة كلما تيسر لنا ان نستعين بها على اثبات الحقائق التاريخية . ثالثًا في خلق العالم وآدم وحوا وموقع الفردوس الارضي . رابعًا في الاباء الاولين الى نوح. خامسًا في الطوفان . سادسًا في ابناء نوح اصول سكان العالم في الدور الثاني . سابعًا في تفرق قبائل هؤلاء في المعمور . ثامنًا في اخذهم في تشييد الصرح العظيم في بابل وبلبلة السنتهم واللغة الاولى واصول اللغات المعروفة الان . تاسعًا على لمعة في الكتابة وكيف كانت اولاً ومن اوجد الكتابة بالحروف ثم نتخطى الى الكلام في شعوب سورية الاولين ثم نتبع هذه المقالة بثلث مقالات اخرى نتكلم فيها على اشهر قبائل سورية القديمة ونذكر سائرهم ضمنًا موصلين تاريخنا في هذا المجلد الى ايام اسكندر الكبير

على ان بعض هذه المباحث وان كان لا يجئ توًا مصيبًا الغرض في تاريخ سورية فليس من نكير انه ملازم له وملتحم به التحام الفرع بالاصل

وانه اقوم السبل الى كتب تاريخ كامل راسخ في الصحة . ولا يخفى ما يتوفر بذكر هذه المباحث من الفوائد الدينية والادبية والعلمية وما تتكفل به هذه المقالة من المماثلة على كشف غوامض الفصول الاولى من التوراة وقد جزأنا هذه المقالة وما يليها الى فصولٍ والفصول الى اعداد رغبةً في زيادة التفصيل وتيسيرًا لوجدان المعاني المطلوبة

الفصل الاول

﴿ لمعة في جغرافية سورية واسمها ﴾

من احسن ما جرى عليه المؤرخون وانفعه انهم اذا شاؤوا كتب تاريخ بلاد قدموا عليه كلامًا موجزًا في تخومها وجبالها وسهولها وابحرها وبحيراتها وانهرها واشهر مدنها توسلاً لادراك تاريخها حق ادراكه وكلفًا بزيادة رسوخه وكذا رأى الجغرافيون ان يشفعوا كلامهم بشيء من تاريخ البلاد التي يتصدون لكتب جغرافيتها فالتاريخ والجغرافية علمان متقاربان متعاونان فجريًا على عادتهم وتيقنًا بنفع مأخذهم نقول :

﴿ عد ١ ﴾

في تخوم سورية

بسطت تخوم سورية تارةً وضاقت اخرى بحسب تقلب الايام والدول فيها فكانت تشمل احيانًا ما بين النهرين وارمينيا وبعض اسيا الصغرى وبعض بلاد العرب وتضيق احياناً عن هذه التخوم . والذي نعتمد الآن الكلام فيه يحده شمالاً اسيا الصغرى من خليج اسكندرونه الى نهر الفرات وشرقًا نهر الفرات والبادية الى بلاد العرب وجنوباً قسم من العربية

يسمّى تيه بني اسرائيل الى تخوم مصر وغرباً البحر المتوسط المسمّى بحر الروم ايضاً وطولها المتوسط على هذه التخوم من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر وعرضها المتوسط من الغرب الى الشرق نحو اربعمائة وخمسين كيلومتراً (١) وكان القدماء يقسمونها الى سورية بحصر اللفظ ويريدون بذلك قسمها الشمالي وبعض الشرقي والى فينيقى وهي على الاصح من ارواد الى جبل الكرمل مع بعض لبنان والى فلسطين وهي ما يلي فينيقى الى الجنوب والى نهر الاردن وكانوا يقسمون سورية ايضاً الى كوماجان وهي ما فيها حلب الى نهر الفرات والى سورية المجوَّفة ويريدون بها السهول الواقعة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي المسمّى انتيلبنان (اي المقابل للبنان) ويعبرون احياناً عنها باسم سورية الاولى الى الشمال وهي ما فيها انطاكية وسورية الثانية وهي ما فيها حماه وسورية الثالثة وهي ما فيها دمشق وجبل لبنان وهذه البلاد تشمل الان القسم الاكبر من ولاية حلب ثم ولايتي دمشق او سورية وبيروت ومتصرفيتي لبنان والقدس الشريف

عد ٢

في جبال سورية

اشهر جبال سورية في الشمال جبل اللكام وقد سماه اليونان آمانوس ويبتدي من اخر جبل طورس في اسيا الصغرى وينتهي على الصحيح في الشمال من مصب نهر العاصي على مقربةٍ من السويدية ويبتدي في جنوب مصب نهر العاصي جبلٌ شامخ يسمى الجبل الاقرع وهو كاسيوس عند القدماء . ويمتد منه الى الجنوب سلسلة تنتهي على مقربةٍ من دير الحميرا وهذه السلسلة هي

(١) عن المعجم التاريخي الجغرافي لبوبليا في كلمة سورية

المعروفة بجبال النصيرية . ثم تبتدي سلسلة جبل لبنان ممتدة الى الجنوب الغربي الى ان تنتهي في وادي الليطاني عند قلعة الشقيف . وتبتدي سلسلة اخرى تمتد جنوباً الى نواحي صفد والناصرة وتنحرف شرقاً الى نابلس وبين هذه الجبال وجبل الكرمل مرج ابن عامر ويبتدي جبل الكرمل عند حيفا ويمتد الى الجنوب الشرقي فيتصل بجبل نابلس ويمتد الى الجنوب حتى جبل الشراة الى جنوبي بحيرة لوط ومن هذه السلسلة جبال اليهودية . وفي مرج ابن عامر جبل منفرد يسمى جبل الطور . واما لبنان الشرقي فيبتدي من الشمال على مرحلة من حمص ويمتد الى الجنوب الغربي وبينه وبين لبنان الغربي سهول بعلبك وبقاع العزيز واعلى رؤوس الشرقي جبل الشيخ فوق حاصبيا ويسمي القدماء هذا الجبل حرمون وتمتد منه شعبة الى الجنوب الشرقي ثم الى الجنوب الصريح وتنتهي في محل يسمى تل الفرس. وبين هذه الشعبة المسماة جبل حيش وبين جبل الشيخ وادي التيم الاسفل . وفي جنوب هذه الشعبة في شرقي الاردن جبل عجلون وفي جنوبيه جبل الصلت الذي يسميه الكتاب جبل جلعاد . وفي جنوبي الصلت جبل البلقاء وفي جنوبي هذا جبال موآب نحو الشرق من بحيرة لوط . وعند الطرف الجنوبي من هذه البحيرة سلسلتا جبال بينهما الغور الذي يودي السفر به جنوباً الى ايلة على خليج عقبة الممتد من البحر الاحمر (١) والحاصل ان في سورية سلسلتي جبال احداهما ساحلية تمتد من الشمال الى الجنوب الغربي على قرب متباين من البحر فتنتهي في اخر اليهودية. والثانية داخلية تمتد من نواحي حمص شمالاً الى اخر سورية جنوباً وبين السلسلتين وحولهما السهول الخصبة الفسيحة . ويضاف الى هذه الجبال جبل حوران وجبل العلا في الجنوب الشرقي

(١) المراة الوضية في الكرة الارضية للعالم كورنيليوس فانديك

من حماه وجبل نبو في الشرق من بحيرة لوط

﴿ عد ٣ ﴾

في انهر سورية

اما الانهر في سورية فاشهرها العاصي والاردن . فالاول مصدره ينبوع اللبوة والينبوع الذي سماه ابو الفدا مغارة الراهب وينابيع اخرى الى الشمال من بعلبك ويجري الى الشمال مارًا بجانب حمص وفي حماه حتى يقرب من انطاكية فينحرف نحو الجنوب الغربي ويمر بين جبل اللكام والجبل الاقرع فيصب في بحر الروم عند السويدية . واما الثاني وهو الاردن فؤلف من عدة ينابيع منها ينبوع حاصبيا ومياه بانياس وتل القاضي وكلها تصب في بحيرة الحوله وتجري منها الى بحيرة طبرية وتخرج الامواه منها فتجري الى الجنوب الغربي بتماريج كثيرة فتصب في بحيرة لوط المسماة البحر الميت ايضًا وتجتمع هناك امواه انهر اخرى من الشرق والغرب اعظمها اليرموك والزرقا. والنهر المعجب فتموت هذه الامواه هناك اي لا يظهر لها مخرج فوق الارض وغاية الامران في سورية نهرين كبيرين مخرجهما في وسطها يجري احدهما من الجنوب الى الشمال فيصب في قرب تخمها الشمالي وهو العاصي . ويجري الثاني من الشمال الى الجنوب ويصب في قرب تخمها الجنوبي وهو الاردن . ولا يبعد مخرج احدهما عن مخرج الاخر الا مرحلتين او ثلثا

واما سائر الانهر فهي نهر حلب منبعه قرب عينتاب ويجري الى الجنوب فيمر في حلب ويسمى نهر قويق ويصب في اجمة في جنوبي حلب ثم نهر عفرين ونهر يغرا والنهر الاسود منابعها في شرقي جبل اللكام ومصبها في بحيرة انطاكية ونهر القنديل ويصب في البحر المتوسط بين السويدية شمالاً واللاذقية

جنوباً . والنهر الكبير مخرجه في جبال النصيرية ويجري الى الجنوب الغربي ويصب في البحر المتوسط في جنوب اللاذقية وفي جنوبيه نهر الصنوبر ثم نهر المضيق ثم نهر الروس ثم نهر المسكين ثم نهر برغل ثم نهر الملك ثم نهر السن او الابتر ثم نهر مرقية ثم نهر حسين ثم نهر عمريت ثم نهر الابرش ثم النهر الكبير الذي يسميه القدماء الوتادوس وهو غير الاول ومخارج كل هذه الانهر او الجداول في جبال النصيرية ومصبها في البحر المتوسط ويليها جنوباً نهر عكار ثم نهر عرقا ثم النهر البارد . واما الانهر الجارية في لبنان فهي نهر ابي علي وتجتمع فيه امواه نهر رشعين ومنبعها من سفح جبل الضنية في قرب زغرتا وماء ينبوع جوعيت بين اهدن وجبال الضنية وماء ينبوع مار سركيس على جانب اهدن وماء ينبوع قديشا مخرجه بين بشري وارز لبنان الشهير فتمر هذه الامواه في اطرابلس وتصب الى الشمال من ميناها . ثم نهر الجوز ومخرجه على مقربة من كفر حلدا ويصب في شمالي البترون ثم نهر ابرهيم وهو نهر ادونيس عند القدماء ومصدره مغارة افقا وتضاف اليه مياه ينبوع اخر في جانب العاقورة يعرف بينبوع الجوزات ويصب في الجنوب من جبيل ثم نهر الكلب وهو ليكوس في كتب القدماء منبعه مغارة جعيتا وتجتمع اليه في مدة الشتاء امواه عدة ينابيع في الجبل ويصب بين جونية وضبية . ثم نهر بيروت الذي يسميه بلينيوس ماغوراس (وهذا الاسم وصف للاله بعل) ومصدره ينبوع الداشونية وتجتمع اليه لاسيما في فصل الشتاء امواه من جهة ترشيش وكفر سلوان ومن جهة حمانا وفالوغا ويصب في جانب بيروت الشمالي . ثم نهر الدامور وسماه بوليب داموراس واسترابون تميراس وهو مجتمع امواه من الغابون ثم من ينبوع الصفا بالقرب من عين زحلتا ومن ينبوع القاع ومن وادي عيندارا ويصب في الجنوب من معلقة الدامور . ثم نهر الاولي وسماه القدماء بوسترانوس ومخرجه من ينبوع الباروك ويجري الى الجنوب الغربي ثم

يرتد نحو الغرب ويصب في شمالي صيدا ويسقي بساتينها ويليه جنوباً نهر الزهراني ثم نهر الحيصراني ثم نهر ابي الاسود ثم النهر الليطاني ومخرجه في قضاء بعلبك ويجري في سهل البقاع ويمر تحت قلعة الشقيف ويصب في البحر في شمالي صور ويسمى هناك نهر القاسمية ٠ ثم نهر النعمان وهو بيلوس عند القدماء وكان مشهوراً عندهم بصلوح رماله لاصطناع الزجاج ومخرجه من تل الكرداني ومصبه في جنوبي عكاء ثم النهر المقطع الذي سماه القدماء والكتاب (ملوك ٣ فصل ١٨ عد ٤ بمعرض قتل ايليا انبياء بعل) قيشون ومخرجه في الشرق من مرج ابن عامر ويجري الى الشمال الغربي ويصب في قرب حيفا ويليه جنوباً نهر الدخله ونهر المفجر ونهر الفلايك ثم النهر الاعوج ومخرجه في محل قريب من لد وتصب هذه الانهر في الشمال من يافا وفي جنوبيها نهر روبين ثم نهر صقرير شمالي عسقلان

وبقي نهر بردى ومخرجه قريب من الزبداني ويجري الى الجنوب الشرقي وتضاف اليه مياه عين فيجة ويتشعب في غوطة دمشق ودورها وشوارعها ويصب في بحيرة المرج الى الشرق من دمشق ثم النهر الاعوج غير المذكور آنفاً ومخرجه من سفح جبل الشيخ الشرقي ويجري الى الجنوب الشرقي ويصب في بحيرة هيجانة الاتي ذكرها خلافاً لما جاء في كلام بعضهم من انه يصب في بحيرة المرج

عد ٤

في بحيرات سورية

اما بحيرات سورية فمنها بحيرة انطاكية يجتمع فيها ماء النهر الاسود ونهر يغرا ونهر عفرين المار ذكرها ويخرج منها نهر يتصل بالعاصي قرب الجسر المسمى

جسر الحديد . وبحيرة افاميا في الشمال الغربي من حماه يجتمع ماؤها من عدة اجام وبحيرات وذكرها ابو الفدا . وبحيرة حمص في الجنوب الغربي منها وهي مصطنعة من امواه العاصي بسد عليه وتسمى بحيرة قادس لان قادس القديمة كانت هناك وسترى ذكرها مرات في تاريخ الحثيين . ثم البحيرات المتكونة من امواه الاردن وهي بحيرة الحولة وبحيرة طبرية وهي المسماة في الانجيل بحر الجليل وبحيرة جاناشر ثم بحيرة لوط التي تسمى البحر الميت والبحيرة المنتنة وسطحها اوطأ من سطح البحر المتوسط نحو الف وثلاثماية قدم . ثم بحيرة المرج في الشرق الجنوبي من دمشق وتسمى البحيرة الشرقية وتصب فيها فضلة نهر بردى وغيره ونحو الجنوب منها ثلث بحيرات تسمى الاولى منها بحيرة هيجانة وفيها مصب لنهر الاعوج كما مر وتسمى الثانية بحيرة بلع والثالثة مضخة برك

عد ٥

في مدن سورية

من اشهر المدن التي نكتب تاريخها الان كركميش المعروفة الان بايرابولس على الجانب الغربي من الفرات وقد تولاها الحثيون من اقدم الايام . ويليها حلب وتسمى في الاثار القديمة كالب وحلبون ويظهر انها من بنايات الحثيين ايضاً لوجود كثير من اثارهم فيها ويليها نحو الجنوب على مسافة اربع مراحل حماه اسستها قبيلة الحمثي من ولد كنعان ويليها في الجنوب على بعد مرحلة حمص ويظهر انها احدث من حماه او لم تكن ذات شهرة قديمة لسبق قادس اليها وموقع هذه في الجنوب من حمص بجانب بحيرتها والاظهر ان سكان قادس الاولين اراميون ثم تغلَّب عليها الحثيون كما سترى في تاريخهم وفي الجنوب الغربي من حمص على مسافة مرحلتين بعلبك ويظهر انها كانت مدينة كهنوتية لعظمة

الهيكل الباقية اثاره فيها · وضخامة الصخور المبني بها سفله مؤذنة بانه من بنايات الفينيقين او شاركهم به الاراميون السكان الاولون لهذه الانحاء على ما يظهر · ويلي بعلبك جنوبًا على بعد مرحلة دمشق والاظهر انها من بنايات الاراميين ولد ارام بن سام حتى يقال ان تسميتها والبلاد التابعة لها شامًا نسبة الى سام بن نوح وقال ابو الفدا سميت شامًا لان قومًا من بني كنعان تشأموا اي تياسروا اليها لانها عن يسار الكعبة وقال اخرون سميت كذلك لبقع فيها بيض وحمر وسود تشبيهًا لها بالشامات · واما تدمر فهي نحو الشرق من حمص على بعد تسعين ميلاً وينسب بناؤها الى سليمان ولعل المراد انه زاد فيه وبنى فيها صرحًا او حصنًا ·

واما المدن الساحلية فمنها انتراود اي طرسوس الحالية وجزيرة ارواد المقابلة لها والظاهر ان سكانهما الاولين الارواديون ولد ارواد من بني كنعان ويليها جنوبًا عمريت الشهيرة باطلالها ويليها جنوبًا على بعد مرحلة عرقا في الجبل مسكن العرقي من ولد كنعان ونحو الجنوب الغربي من عرقا على مسافة بضع ساعات اطرابلس وهي احدث مما تقدمها من المدن اذ يقال ان بناها نزالة من ارواد وصيدا وصور في ثلثة احياء ولذا سماها اليونان تريبولي اي المدن الثلث. وفي جنوبيها على بعد ست ساعات البترون وينسب بناؤها الى ايتو بعل ملك صور او كاهنها في زمان اخاب ملك اسرائيل · ويليها جنوبًا على بعد ثلث ساعات جبيل ويظهر ان سكانها الاولين اراميون تغلب عليهم الفينيقيون · ويليها جنوبًا على بعد سبع ساعات بيروت ويظهر انها كانت اولاً مستعمرة ارامية ولكن تغلب عليها الفينيقيون من اقدم الايام ويليها في الجنوب على مسافة مرحلة صيدا وهي مسكن قبيلة صيدون بكر كنعان ويليها جنوبًا على بعد نحو ست ساعات صور وهي في الاصل مستعمرة صيدونية ويليها جنوبًا على مسافة مرحلة عكا واقدم سكانها كنعانيون ويليها نحو

الجنوب الشرقي في الجبل على بعد نحو ست ساعات مجدّو والارجح انها اللجون الان على طرف مرج ابن عامر وكانت محطة الحروب بين المصريين وسكان سورية وفي جنوبيها على بعد نحو خمس ساعات السامرة وهي سبسطية الان بناها عمري ملك اسرائيل (ملوك ٣ فصل ١٦ عد ٢٤) وفي جنوبيها على بعد نحو عشر ساعات يابوس وهي اورشليم بناها اليابوسيون والاموريون من ولد كنعان . وفي الجنوب الغربي منها على بعد مرحلة حبرون وهي المعروفة الان بالخليل وكانت تسمى في اقدم الايام قرية اربع نسبة الى رجل اسمه اربع هو جد بني عناق فاخذها منهم الحثيون . ويليها غربًا على مسافة يوم غزة من مدن الفلسطينيين ولكنها كانت قبلهم وقد ورد ذكرها في الآثار المصرية قبل ايامهم . وكان من مدن الفلسطين ايضًا عسقلان في شمالي غزة على ساحل البحر ويليها شمالاً ايضًا اسدود

وبقي المدن التي في شرقي الاردن وبحيرة لوط فمن اشهرها راموت جلعاد وهي الصلت الان . وفي جنوبيها الشرقي ربة عمون وهي عمان الان وفي جنوبيها الغربي حشبون وهي حسبان الان في شرقي جبل نبو وفي جنوبيها عراعير وهي عراعر الان وفي جنوبيها رابة مواب وهي ربة الان وفي جنوبيها كير مواب وهي الكرك الان . واول سكان هذه المدن الاخيرة الايميون والزمزميون من الجبابرة ثم صارت موطنًا للعمونيين والموابيين وكان يتولاها في عصر موسى سيحون ملك الاموريين وعوج ملك باسان فافتتحها موسى لبني اسرائيل (تثنية الاشتراع فصل ٢ و ٣) وسترى في مساق هذا التاريخ ذكر هذه المدن كلها وغيرها وان شئت استقراء كل ما كان في كل منها ارشدك اليه الفهرست المعلق في اخر هذا الكتاب مشفوعًا بخريطة سورية

عد ٦

في اسم سورية

سمى الكتاب المقدس في العهد القديم سورية ارام نسبة الى ارام الخامس من ابناء سام بن نوح لان كثيراً من سكانها الاقدمين من اعقابه على ان الكتاب اضاف اسم ارام الى اعمال عديدة فقال ارام النهرين ويراد بها ما بين النهرين دجلة والفرات . وارام دمشق ويراد بها مملكة دمشق . وارام صوبا ويراد بها على الراجح سورية المجوفة اي ما بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي. او هي مملكة كانت بين دمشق جنوباً وحماه شمالاً . وارام معكة ويظهر ان المراد بها مملكة كانت في موقع حاصبيا ومرجعيون وبانياس وارام رحوب ويظهر انها كانت في محل الجولان الان . واول من سمى هذه البلاد سورية اليونان مع ان اوميروس شاعرهم سمى سكانها ارامين . على ان هيرودت (الذي ولد سنة ٤٨٤ ق م) هو على ما نعلم اول من سمى هذه البلاد سورية وتابعه في ذلك سائر اليونان والرومانيون ولكن ما الذي حملهم على هذه التسمية ففيه للعلماء القدماء اقوال اقربها الى الصحة قولان : الاول انها سميت سورية نسبة الى صور مدينتها البحرية الشهيرة وقد عرف اليونان اهلها لكثرة ترددهم الى بلادهم للتجارة فسموهم سوريين وبلادهم سورية بابدال الصاد بالسين لعدم وجود الصاد في اللغة اليونانية . وكلمة صر بالفينيقية معناها الصخر او السور ويرى هذا الاسم منقوشاً على المسكوكات القديمة التي وجدت في هذه المدينة . والثاني ان اليونان سموا هذه البلاد سورية نسبة الى اسور او اسّريا بلاد الاشوريين لان الاشوريين كانوا يتولون اعمال سورية عند استفحال امر اليونان فنسبوا سورية اليهم مخففين اللفظة بحذف الهجاء الاول منها والمبادلة بين السين والشين

فاشية حتى في كلمة اشور واسود . ونرى بعض قدما اليونان وغيرهم يطلقون اسم سورية على ما بين النهرين ايضاً وعلى ارمينيا وبعض بلاد فارس فكان اسم سورية مرادفاً لاسم اسيريا اي مملكة الاشوريين

اما علماء هذا العصر الباحثون في الآثار فوافق بعضهم على ما رآه القدماء وخالفه بعضهم . قال مسبرو (١) «ان توتمس ابن امنهوتاب الذي خلفه في الملك كان اول من اقتاد المصريين الى فتح اسيا والبلاد التي وصلوا اليها بعد خليج السويس كانت تسمى منذ حينئذٍ سورية » وقال في حاشية علقها على كلمة سورية ان اللفظة المصرية كسارو خففت فصارت سارو ثم سورية فهذا التخمين بعيد المرمى ضعيف المستند وتعقبه الاب دي كارا (٢) وقال بروغش (٣) ما اسم سورية الا مخفف اسيرية سميت كذلك بعد ان دانت اعمال سورية على التعاقب لتجلت فلاصر الثاني (من سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٧ ق م) ثم لسرغون (من سنة ٧٢٢ الى سنة ٧٠٥ ق م) وهذا كان بعد عهد توتمس بنحو الف سنة على ان الاب دي كارا (٤) رد رأي بروغش ورأى الاولى نسبة اسم سورية الى اسور او اسوريم بن ددان بن يقشان بن ابرهيم الخليل من قطورة (٥) لحسبانه ان الشعوب الذين ارتحلوا الى فينيقي واسسوا مدينة صور كانت مهاجرهم بلاد العرب الشمالية وان اسم اسور او اشور يُطلق على احد اعمال بلاد العرب وفي الآثار المصرية ذكر شعب يسمى اسور من جملة الشعوب حلفاء الحثيين سكان سورية الشمالية لمحاربة رعمسيس الثاني ملك مصر وهذا

---

(١) في التاريخ القديم لشعوب المشرق فصل ٥ صحيفة ١٤٧ طبعة ٤
(٢) في كتابه الملوك الرعاة فصل ٩
(٣) في تاريخ مصر
(٤) في المحل المذكور انفاً
(٥) تكوين فصل ٢٥ عد ٣

كان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد اذ لم يكن لمملكة الاشوريين شيء من السطوة في سورية. وذكر الاب دي كارا مستندًا اخر لرأيه هو انه قد وجدت صفيحة في سان بمصر كتب عليها في ثلث لغات اسم سورية فكان في الهيروكليفية روثانو وفي اليونانية سورية وفي لغة الشعب المصرية اسار او اسود وليس من علماء الاثار المصرية من يمترى بان الروثانو يراد بهم سكان سورية الشمالية خاصة ثم ان هذا الاسم اشور او اسود وجد مكتوبًا بين اسماء القبائل التسع التي كتبت على جدار هيكل ادفو في مصر انباء بان رعمسيس دوخها ورعمسيس احد ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر كان قبل استيلاء الاشوريين على سورية بقرون وان هيرودت واسترابون وغيرهما من القدماء وبعض علماء هذا العصر ايضًا قالوا بارتحال قبائل عديدة من بلاد العرب او من جانب خليج العجم الى سورية منذ اقدم الايام وعليه فتسمية هذه البلاد سورية هي اقدم كثيرًا من ايام علماء اليونان المعروفين. هذا ملخص ما قاله الاب دي كارا ونراه قريبًا من الصحة

الفصل الثاني

(في الخطوط المصرية الهيروكليفية والخطوط المسمارية ومن اكتشف عن رموزها)

عد ٧

في الخطوط المصرية

ترى في الخطوط المصرية صور دبابات وطيور واعضاء بشرية وغيرها من اشباه الاشياء المادية وقد انقضت السنون بل القرون ولم يهتدِ احد الى حل هذه الرموز ولا الى استخراج شيء من هذه الكنوز الظاهرة للابصار الخفية عن البصائر.

ولما غزا القائد بونابرت (نابليون الاول) الديار المصرية سنة ١٧٩٨ الى سنة ١٨٠٠ صحبه بعض العلماء للاستقصاء في الآثار المصرية واكساب العلم والصناعة شيئاً من التبحر فيها فكتبوا شيئاً كثيراً في حالة مصر القديمة والحديثة وفي ما شاهدوه فيها ونشرت حكومتهم ما الفوه في كتاب موسوم برسوم مصر انطوى في تسعة مجلدات وتكاملت طباعته سنة ١٨٠٩ وما يليها في بريس . الا ان هولاء لم يبلغوا المراد مما كتبه فراعنة مصر على آثارهم . على ان ضابطاً من الجيش الافرنسي يسمى بوشار Bouchard عثر في رشيد على صفيحة كتب عليها بالهيروكلفية واليونانية والصفيحة الان في المتحف البريطاني وقد اكثر العلماء من التفحص عما كتب فيها فلم يفتح على احد منهم فكأن الكشف كان محفوظاً لشاب افرنسي يسمى يوحنا فرنسيس شامبوليون Champollion ولد في فيجاك سنة ١٧٩٠ وتوفاه الله في بريس في ٤ اذار سنة ١٨٣٢ وكان ذا فكر ثاقب ورأي اصيل صائب اشغل ذكاءه المتوقد اياماً متطاولة في التفحص عما كتب في هذه الصفيحة وفي صفيحة اخرى كانت قد وجدت في جزيرة الهائف في النيل (على بعد اربعة كيلومترات نحو الجنوب من اسوان) مكتوبة باللغتين الهيروكليفية واليونانية معاً وكان من التوفيقات الربانية ان اسماء الاعلام تكتب عندهم ضمن اطار يحيطها من جهاتها الاربع وقد كتب في صفيحة رشيد اسم بتولمايس وفي صفيحة الهائف اسم كلوبترا ووجد شامبوليون في صفيحة اخرى اسم الكسندروس (اسكندر) فاخذ يعارض الحروف الواقعة في هذه الكلمات بعضها ببعض فوجد مثلاً الحرف الاول من بتولمايس والحرف الرابع من كلوبترا واحداً فعلم ان تلك العلامة دالة على الباء والثاني من بتولمايس والخامس من كلوبترا واحداً فعلم ان تلك العلامة بمثابة حرف التاء والثالث من بتولمايس وكلوبترا واحداً فهو الواو والرابع من بتولمايس والثاني من كلوبترا والكسندروس واحداً فهو اللام والثامن من بتولمايس والاخير من الكسندروس واحداً فهو السين والسادس

من كلوبترا والسابع من الكسندرس واحداً فهو الراء والاول من كلوبترا والثالث من الكسندروس واحداً فهو الكاف فكذا عرف بعض الحروف من هذه الكلمات وغيرها من غيرها الى ان وجد مفتاحاً لقرأة هذه الخطوط وكان قد درس اللغة القبطية القديمة وبرع فيها فاداه ثباته وذكاؤه الى الشرف الوسيم بان يكون اول مكتشف عن قرأة الخطوط المصرية واول من حل رموزها وفتح كنوزها . فنشر سنة ١٨٤٢ كتابه المعنون . خلاصة نظام الكتابة الهيروكليفية . ضمنه صور العلامات التي اكتشف عنها وكيفية التلفظ بها ووضع اصولاً لحل الغازها لم تزل راهنة يعتمد عليها . ولم يطل الله عمره بل توفاه في الثانية والاربعين منه . ومن على فراش موته كان يملي على اخيه كتابه في نحو اللغة المصرية . وقد انبأتنا المجلة الافرنسية المسماة الارض المقدسة في عددها المؤرخ في غرة شباط سنة سنة ١٨٩٢ ان البعض في برلين نفسها عقدوا العزم على نصب تمثال اجلالاً لشامبوليون ذلك الفاتح الشهير ومن بعد وفاة شامبوليون تصدى لتكملة عمله علماء كثيرون منهم شرل لانرمان (Lenormant) ونسترلى هوت (Nester L'hote) من افرنسة وسالفوليني (Salvolini) وروزاليني (Rosellini) من ايطاليا . ثم ليمان (Leemans) من هولاندا واسبورن (Asburn) وبيرش (Birech) من انكلترا ولبسيوس (Lepsius) من المانيا وبلغ هذا الفن شأوه عمنويل دي روجه (Em. de Rougé) ودي سولسي (de Saulcy) ومريات (Mariette) وشباس (Chabas) وغيرهم من افرنسة وبروغش (Brugsch) ودوميكان (Dumichen) وغيرهم من المانيا وبلايت (Blete) من هولاندا وكودوين (Coodvvin) ولاباج (LePage) من انكلترا وغيرهم وتكامل هذا الفن حتى اصبح علماؤه يقرأون ما كتب على الاثار المصرية كما يقرأ الخبيرون باللغة اللاتينية كتب شيشرون وغيره ممن

كتبوا فيها قديماً ٠

ولهذه الكتابة المصرية ثلثة فروع الهيروكليفية وكان يكتب بها على الاثار الخطيرة ما يراد تخليده ٠ والهياراتكية وهي موجزة الاولى ومشتقة منها علامة علامة وكانوا يستعملونها في الحاجات العامة والصكوك المدنية والعلوم ٠ ثم الداموتيكية وهي مختصر الفرع الثاني ومعناها العامية اذ كانت العامة تستعملها في اواخر ايام المملكة المصرية وما كتب بهذه الفروع الثلثة ان لم يكن اللغة القبطية القديمة نفسها فهو لا يختلف عنها الأ اختلافاً قليلاً ٠ وفي هذه الكتابة عدا الحروف الهجائية علامات اخرى كثيرة لفصل الكلام ولضبط المعاني كالدلالة على ان الاسم مذكر او مؤنث وبعض العلامات يدل على هجاء كامل او على حرفين معاً وبعضها يدل على تصور لا على حروف كصورة الارقام الهندية عندنا فمن ذلك انك تجد في هذه الكتابة صورة انسان ويده ممتدة الى فمه دلالة على فعل اكل ورسم دائرة عبارة عن الشمس ولذلك كانت هذه الخطوط عديدة كثيراً حتى ابلغها بروغش سنة ١٨٧٢ الى ما ينيف على ثلاثة الاف علامة ٠ ومن ثمه قد انبعثت لغة المصريين القدماء وكتاباتهم من ارماسها ففتح لنا كنز معارف عديدة جدت على العلم عظيم الجدوى وزادتنا بياناً وتيقناً بصحة ما رواه الكتاب المقدس في محال عديدة واوضحت لنا ايات كثيرة كانت عسرة المدرك وحلت مشكلات رابكة كما سترى في كتابنا هذا

﴿ عد ٨ ﴾

في الخطوط المسمارية

سميت هذه الخطوط مسمارية لان هيئة حروفها اشبه بمسمار او زاوية ومن تلك المسامير ما هو عرضي وما هو عمودي مفرداً او مكرراً وكذا الزوايا متعددة الهيئات وكان امرها مجهولاً كل الجهل حتى كان بعض العلماء انفسهم

يحسبون في اوائل القرن السالف انها ليست كتابة بل نقوش يقين منها كم تؤلف هيئة المسمار من الهيئات المختلفة المتباينة ولم يكتشف عن انها تهجيات وتحل الغازها الا بعد سنين من الاكتشاف عن الكتابة الهيروكليفية وادراك رموزها وكان يُكتب بالخطوط المسمارية بثلث لغات الفارسية والمادية والاشورية واول من وفق الى معرفة بعض حروفها باللغة الفارسية هو العالم كروتفاند (Grotefend) من هانوفر في المانيا سنة ١٨٠٢ فقد كان وجد في فرسبوليس (في الشمال الشرقي من شيراز في مملكة ايران) صفيحتان كتب في احداهما « داريوس الملك العظيم ملك الملوك ابن (كيستاسف او) هيستسب الكني) (Achéménides) (١) هو الذي بنى هذا القصر وكتب على الثانية « كسركس (في الاصل الفارسي كسايرسا ولعله الذي يسميه ابو الفداء وغيره من مؤرخي العرب كيخسرو) الملك العظيم ملك الملوك ابن الملك داريوس (دارا) الكيني » فتكرار العلامات الدالة على كلمة ملك وترويه بان احد هذين يخلو نصفه من كلمة ابن اذ لم يكن ابوه ملكاً نبهاه الى ان الكلمة المكررة يراد بها ملك وباقي الكتابة علَمهُ ولما كان يعلم ان ذلك المحل من اثار الملوك الكينيين فانبأه ذكاؤه وجدّه ان الملكين انما هما داريوس وكيخسرو وكان بالتوفيق الرباني ان اوتي الى بريس باناء من مرمر وجد في مصر (وهو الان محفوظ في متحف بريس) مكتوباً عليه باربع لغات من جملتها الهيروكليف المصري والمسماري الفارسي اسم كيخسرو او كسركس وكان وجد شامبوليون هذا الاسم فتيقن كروتفاند ان حدسه اصابة وصدقه العلماء في اكتشافه الا انه لم يوفق الى الكشف التام عن هجاء هذه اللغة واستمر هذا الفن

(١) الكلمة في الاصل الفارسي هاكا مانيزيا وفي الافرنسية كما رأيتها وهذه الدولة سماها ابن خلدون في اخباره عن ملوك الطبقة الثانية من الفرس الكينية لان اسم كل واحد من ملوكها الاولين يبتدي بكي وسماها ابو الفدا في الفصل الثاني من تاريخه في ملوك فارس الكيانية وقال ان كي معناه الروحاني او الجبار

نحوًا من ثلاثين سنة لم يتقدم خطوة . الى ان اكتشف العالم اوجان بورنوف (Burnof) الافرنسي والعالم لاسان (Lassan) الالماني عن تهجيات اخرى وحققا ان ما كتب في الصحيفتين المار ذكرهما انما هو باللغة الفارسية القديمة على ان الذي اكمل احياء هذه الكتابة انما هو العالم هينك (Hincks) من دوبلين في ايرلندا سنة ١٨٤٦ والعالم اوبر (Oppert) في بريس سنة ١٨٤٧ دون علاقة لاحدهما بالاخر . والاكتشاف على مآل الخطوط المسمارية في اللغة الفارسية يسَّر الاكتشاف على مآلها في اللغات البابلية والاشورية والمادية واكتشاف العالم بوتَّا (Botta) قنصل افرنسة في الموصل عن موقع نينوى سنة ١٨٤٦ وما غنمه من الاثار واكتشاف العالم هنري لايرد (Henry Layard) الانكليزي من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٨٥١ عن اثار اكثر من ان تعد في كوينجك وفي نمرود يسَّرت للعلماء راولينسون وهينك وفكس تلبوت من انكلترا ودي سولسي واوبر من افرنسة حل رموز هذه الكتابة واغتنام كنوزها وظهر ان بعض علامات هذه الكتابة دالة على تصور كامل كما مر في الهيروكليفية وان قسمًا كبيرًا منها يدل على هجاء تام اي على حرف وحركته وبعضها يدل على حروف معًا فكان لنا بهذه الخطوط ايضًا كنز توفر النفع به للعلم والدين . وقد قدَّر الاب فيكورو (في كتابه المسمى الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ١٧٦ طبعة ٤) (١) ان الاثار التي وجدها لايرد في المكتبة الملكية في نينوى لو ترجمت برمتها تألف منها خمسماية مجلد حوى كل مجلد خمسماية صفحة بقطع الربع وهي مشتملة على كل فن وعلم اللاهوت والفلك والتاريخ السياسي والتاريخ الطبيعي وكتب اصول اللغة ومعجماتها والجغرافية وغيرها وكلها مطبوع في الاجرّ فضلاً عما وجده غير لايرد من الاثار وفضلاً عما نقش على الابنية والصخور والمدافن وسترى اهمية

J. Vigoureux la Bible et Lesdécouvertes modernes

هذه الاكتشافات عند مطالعة كتابنا هذا فنسدي الله حمدًا لا ينقضي وشكرًا لا ينتهي على ما منّ به في هذا العصر وقت معظم الحاجة اليه وسنعلق على هذا الكتاب مثالاً للخطوط الهيروكليفية والمسمارية

الفصل الثالث

﴿ عد ٩ ﴾

في خلق العالم

ليس من تاريخ اقدم زمانًا واصدق انباء من اسفار التوراة التي كتبها موسى بالهام الله فنعتمدها في كلامنا ونزيد ثبوتها بيانًا بما ورد في كتب الاقدمين وبما جدّت علينا به الاكتشافات الحديثة ففي مفتتح سفر التكوين « في البدء خلق الله السماوات والارض وكانت الارض خاوية خالية (وفي العبرانية توهو بوهو) وعلى وجه الغمر (بالعبرانية تهوم) ظلام وروح الله يرف على وجه المياه » (١) الى ان قال ان الله خلق في اليوم الاول النور وفي اليوم الثاني فصل بين المياه العليا والمياه السفلى وفي اليوم الثالث خلق النبات والاعشاب والاشجار وفي الرابع الشمس والقمر والكواكب وفي اليوم الخامس الاسماك والطيور وفي اليوم السادس خلق الدبابات والبهائم ثم الانسان على صورته ومثاله ذكرًا وانثى خلقهما وفرغ من عمله واستراح في اليوم السابع . وقال في كل مما مر « وكان مساء وكان صباح يوم اول » ثم يوم ثانٍ الى الاخر . ثم عاد في الفصل الثاني مفصلاً كيف خلق الله الانسان فقال انه جبل الانسان ترابًا من الارض ونفخ في وجهه نسمة حياة فصار الانسان نفسًا حية واوقع سباتًا على آدم فنام فاستل

(١) انا نعتمد في ذكر الكتاب المقدس نسخته التي طبعت في مطبعة الاباء اليسوعيين في بيروت

احدى اضلاعه وبنى الضلع التي اخذها من ادم امرأة واتاه بها . فهذه خلاصة ما كتبه موسى في خلق العالم والانسان متعمدًا به لا ان يعلّم العبرانيين علوم الطبيعة والجيولوجية (اي الكلام في الارض وطبقاتها وتكونها) والفلك بل ان يرشدهم بعبارة ساذجة يدركونها الى الصحيح في خلق العالم والانسان وقاية لهم من فساد اذهانهم بما كان يعلمه الوثنيون من مصريين وغيرهم من احاديث خرافة في مادة هي اول اركان الدين واساس المعتقد الصحيح

فالآية الاولى الكريمة وهي « في البدء خلق الله السماوات والارض » تاولها بعضهم بمعنى انها خلاصة موجزة لكل ما تبعها من الكلام في خلق العالم ومافيه والاظهر ان المراد بها خلق المادة الاولى او عناصر المادة ويؤيده قوله التابع ان الارض كانت خاوية خالية اي ليس فيها شيء الا المادة وهي مشوشة لا نظام لها . وقوله في البدء معناه قبل ان يكون شيء وخلق (بالعبرانية بَرَا) اي اتى بالمادة من العدم الى حيز الوجود اذ لم تكن موجودة قبلاً يضاد موسى بذلك الذين قالوا بازلية المادة وهو مستحيل لان المادة معلول ولا معلول دون علة فيتحتم وجود علة خالقة لها ويستحيل ان تكون علة لنفسها والا فتكون وتفعل قبل ان تكون . وقوله ان روح الله كان يرف على المياه بعد خلق المادة وقبل ايجاد النور يراد به الروح القدس او الريح فان اللفظ العبراني (رواح) يتناول المعنيين والثاني هو الاظهر فكأن موسى اراد ان يبين ان الله جعل في ذرات المادة التي خلقها حركة كحركة الريح كانت علة لتكونها التابع كما سترى

قد روى موسى ان الله كوّن العالم بستة اعمال سماها اياماً وجعل كلاً منها مفصولاً عن الاخر بمساء وصباح فكلمة (يُوم) بالعبرانية لا يعبر بها دائماً عن اليوم الطبيعي المؤلف من اربع وعشرين ساعة بل كثيرًا ما يراد بها مجموع ايام عديدة . فقد ورد في سفر التكوين نفسه (فصل ٢ عد ٤) « هذه

مبادي السماوات والارض اذ خلقت يوم صنع الرب الاله الارض والسماوات ، ولا مرية بان اليوم في هذه الاية عبارة عن مجموع ايام عديدة ولا اقل من الستة الايام التي ذكرها في الفصل الاول . ومثله قوله في سفر التثنية (فصل ٩ عد ٢٤) . منذ يوم عرفتكم ما برحتم معاصين الرب ، ولا اشكال بان المراد باليوم هنا المدة لا اليوم الطبيعي . وامثال هذا كثيرة في سائر الاسفار ونبوات الانبياء وقد حقق خبيرون باللغة العبرانية ان ليس فيها لفظ يدل على اليوم والمدة والعصر الا كلمة (يُوم) ثم ان اليوم الطبيعي مقياسه حركة الشمس فلا مقياس له قبل ابداعها في اليوم الرابع واذا لم تكن الايام الثلثة الاولى اياماً طبيعية فلا تكونها كذلك الايام التابعة . ولا نجهل ان بعض الاباء قالوا بحسب حالة العلم في عصرهم ان ايام الخلق طبيعية لكن بعضهم الاخر واشهرهم منهم القديس اغوسطينوس وجميع علماء مدرسة الاسكندرية الذين فسروا الكتاب والقديس توما الاكويني اثبتوا ان الكلمات يوم ومساء وصباح في الفصل الاول من سفر التكوين مجازية لا يراد بها معناها الحقيقي بل العصر او الحقبة او المدة . فقد عبر موسى اذًا بكلمة يوم عن العصر الذي انقضى بين تكون كلٍ من الكائنات التي ذكرها وبين ما تلاه فغرضه من ذكر المساء نهاية ذلك التكون ومن ذكر الصباح بداية تكون غيره واما كم هو مقدار تلك الاعصار او الاحقاب فلم يتيسر للعلماء الى الان تعيينه وما دل عليه علما الجيولوجية والفلك انما هو ان تلك الاعصر كناية عن الوف مؤلفة من السنين

﴿ عد ١٠ ﴾

في تكون الكائنات

واما كيفية تكون الكائنات فما على المؤرخ الكلام فيها لان ذلك من مواد علميّ الجيولوجية والفلك على اننا نلخص شيئًا منه كلفًا بتوفر الفوائد وبيانًا

للمطابقة بين اكتشافات العلم وما كتبه موسى فالمذهب الذي يسلم به عامة العلماء بهذا الفن ان الذرات (التي سماها بعضهم الاثير لفظ يوناني) اي مبدأ المادة ومبدأ تكوّن السماء والارض خلقها الله اولاً وقد انبأتنا اكتشافات الاب ساكّي اليسوعي وغيره ان التركيب الكيماوي في الاجرام السموية والارضية واحد في اصله وجوهره . وكان الظلام في البدء عاماً طبق ما قال موسى • وعلى وجه الغمر ظلام • وجعل الله في عناصر المادة قوة التجاذب فوجدت مراكز للجذب في نقط عديدة من الفضاء فكانت مبدأ لكرات سديمية اي ضبابية ومبدأ للحركة ثم ان حركة هذه الكرات في داخلها نحو مركزها ودورانها على محورها اصدرت شيئاً من الحرارة واشتداد الحرارة تدريجاً اصدر النور وعند تكاثف الكرات انبعثت من جوانبها انوار تغشى ثم تجزأت فكانت اجزاؤها كواكب وانتهت بان جعلتها الحرارة ملتهبة والارض كوكب من هذه الكواكب والى حالتها هذه اشار موسى بقوله • كانت الارض خاوية خالية • وابان هذا التكون بقوله ان الله خلق في اليوم الاول النور وفصل بين النور والظلام • ثم ان الكرة الارضية بعد انتقالها من الحالة الغازية الى حالة سائل ملتهب ابتدأ وجهها يتجمد بواسطة البرد وتكوّن حولها جلَد مظلم مشبع بخارات معدنية ومائية وبمقدار ما كان يتواصل البرد كانت المواد المتطائرة حول الكرة تجمّد تباعاً الثقيلة منها اولاً على ان ما كان منها اكثر خفة كبخار الماء الذي كان في اعلى الفضاء تكاثف بمماسته للانحاء الاكثر برودة فتكونت منه قبة من سحاب كثيف فوق الكرة وانبسط الجلد كما نراه في الفضاء المتوسط بين هذا المحيط الهوائي المطروق من الارياح وبين وجه الارض وهذا هو معنى فصل المياه العليا عن المياه السفلى بواسطة الجلد الذي ذكر موسى ان الله صنعه في اليوم الثاني (١) او المراد بهذا على

(١) كودا في الدروس الكتابية Godet Etudes Biliques I Seric. p. 106

قول اخرين تجمد قسم من البخارات المائيـة المسماة المياه السفلى وفصلها عن المياه التي لبثت في حالة البخار فسماها مياها علوية

على ان الجو لم يكن حينئذٍ نقيًا حتى يمكن ان يتصل الى الارض نور كافٍ الأّ لانماء النبات فيها فان النور ضروري لنمو النبات فاذ صلحت الارض لذلك في العصر الثالث جعلها الله فيه تنبت نباتًا يبذر بذرًا طبق ما قال موسى ان الله خلق النبات في اليوم الثالث على انه قد تبين لعلماء الجيولوجية من الآثار التي اكتشفوا عنها انه لم يكن في هذا العصر الثالث كل انواع النبات بل ما كان منها اقل احتياجًا الى النور والحرارة ولم يكن نبات هذا العصر زاهيًا بالوانه بل كان اكثر نموًا وضخامة وباقي النبـات اوجده الله بعد ظهور الشمس والقمر في العصر الرابع وذكره موسى هنا قبل وقته مستطردًا لئلا يتكلم مرتين على خلق النبات. وطالما اعترض الكفار على تاريخ موسى قائلين كيف ينمو النبات دون الشمس وقد وجد قبلها ويكفي مؤونة رد زعمهم ما قاله العالِم بفاف (١) . ان النبات لايحتاج الشمس بل يكفيه النور والحرارة وليس من يمتري بوجدانهما قبل الشمس . وقد اختبر بعض العلماء إنماء بعض النبات فكفاهم له ضوء كبير من الغاز

قد ذكر موسى ان الله خلق في اليوم اي العصر الرابع الشمس والقمر والكواكب وذهب بعض العلماء ان الشمس كانت في الاعصر السالفـة كجرم منير ولكن لم تكن اشعتها تتصل الى الارض لعدم صفاء الجو وحيث ان موسى كان يكتب تاريخ الارض فلم يذكر ابداع الله لها الا عند اتصال اشعتها اليها وانتفاعها بها . على ان فهم كلام موسى بحسب ظاهره وحرفيته لا يضاد العلم بشيء . قال العالِم بفاف (في المحل المار ذكره) . ان شمسنا كوكب حقيقي ثابت وعليه فظهورها بمنزلة كوكب ممتاز عن غيره يحتمـل ان كان مع ظهور سائر

(١) في كتابه في خلق العالم Phaff Schop Fungsgeschichte pag 745

الكواكب الثوابت وليس في علم الفلك ما يعترض به على هذا المذهب ...
فلا محل هنا اذًا للبحث في تناقض بين علم الفلك والكتاب ،

لما كان النبات الذي وجد في العصر الثالث امتص كمية كبرى من الاكسيد اي الحامض الكربوني وجاَت اشعة الشمس في العصر الرابع تزيد الحرارة والنور فتنقي الجو وصلحت الارض للحياة الحيوانية فابدع الله حيوانات البحر والطيور اولاً طبق قول موسى ان الله خلق في اليوم اي العصر الخامس زحافات البحر والحيتان العظام والطيور . وقد قسم علماء الجيولوجية عصر التوليد هذا الى ثلث مدد المدة الثانوية وهي عبارة عن العصر الخامس في كلام موسى والمدتين الثالثة والرابعة وهما عبارة عن العصر السادس في كلام موسى وطبقات الارض تثبت هذا التقسيم اثباتًا قاطعًا . واخص ما يستدل به على المدة الثانوية طبقات صخور ترى في محال عديدة وفيها بقايا حيوانات بحرية ظاهرة وكثيرة وقد وجد في طبقة الارض هذه بقايا زحافات كبيرة هائلة حتى كان طول بعضها عشرين مترًا واكتشفت فيها ايضًا بقايا طيور كبيرة من نوع النعام ولم يوجد البتة اثر لطائر قبل هذه المدة كل ذلك مصداق لما كتب موسى ثم ان هذه المدة الثانوية لم يوجد فيها شيء من الاثار لذوات الاثداء اي البهائم والوحوش وتلك بينة اخرى قاطعة على صحة كلام موسى ان الله اوجد البهائم والدبابات والوحوش في اليوم اي العصر السادس الموافق بداية المدة الثالثة في كلام علماء الجيولوجية وقد اكتشف في طبقة الارض المنسوبة الى هذه المدة بقايا بهائم وذوات اربع في محال عديدة وبعضها كبير الهيكل كثيرًا ووجد في طبقة الارض عند الانتقال من المدة الثالثة الى الرابعة بقايا ذوات اثداء قريبة من ذوات الاثداء في ايامنا . ولا توجد اثار مؤكدة لبقايا الجسم الانساني الا في طبقة الارض المنسوبة الى المدة الرابعة الموافقة لاخر اليوم اي العصر

السادس الذي انبأنا موسى ان الله خلق الانسان فيه

وعليه فتاريخ موسى مطابق لما اكتشفته العلوم الطبيعية طباقاً تاماً من حيث الجوهر ولما كان موسى لم يتعمد ان يكتب الا تاريخ الانسان ابتدأ تاريخه من خلق الانسان لا من خلق المادة الاولى واكتفى بالاشارة الى ابداعها والى تكون سائر الكائنات دون ان يتعرض لذكر كمية السنين التي مرت قبل خلق الانسان وقد مر ان العلماء مجمعون على انها الوف مالفة من السنين ٠

﴿ عد ١١ ﴾

في خلق الانسان

انا نراه تعالى استعمل نوعاً مخصوصاً في خلق الانسان فاجتزأ بمجرد الامر في خلق سائر الكائنات بقوله ليكن نور ولتكن نيرات ولتنبت الارض نباتاً الى الاخر. واما في خلق الانسان فكأنه عقد مشورة اذ قال لنصنع انساناً على صورتنا ومثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض فما ذلك الا لانه جعله مترفعاً على الكائنات الارضية متسلطاً عليها كأن الارض وما سُخّر لها خلقت له ٠ ثم عاد الى الكلام في تكوينه في الفصل الثاني من سفر التكوين فقال ، ان الرب الاله جبل الانسان تراباً من الارض ونفخ في انفه نسمة حياة فصار الانسان ذا نفس حية ، ميناً بذلك انه مؤلف من جزئين ترابي وهو الجسد وروحاني وهو النفس جزء كونه من تراب وجزء بسيط اكسبه اياه بنفخه في انفه نسمة الحياة وسماه بعد ذلك آدم ومعنى الكلمة احمر مأخوذاً عن ادمه بالعبرانية ومعناها التراب الاحمر الذي جبله منه كأنه ليتذكر دائماً ان اصله من تراب ثم قال الكتاب ، ان آدم لم يوجد له عون بازائه فاوقع الرب الاله سباتاً على آدم فنام فاستل احدى اضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امرأةً فاتى بها آدم فقال ها هذه المرأة عظم

من عظامي ولحم من لحمي . وسمى الكتاب المرأة حوا ومعناه الحياة لانها والدة الاحياء في البشر . وما احسن ما قال القديس توما (١) ان الله لم يأخذ حوا من رأس آدم لئلا تدعي ان تدبره وتتسلط عليه ولا من رجله لئلا يحتقرها ويعتدها جارية له بل اخذها من وسطه ليعتبرها ويحبها كجزء من جسمه . زعم الكاردينال كايتانوس (٢) ان كلام الكتاب في تكوين حوا من احدى اضلاع آدم انما هو مجازي لا تاريخ حقيقي وعلل رأيه بانه لو كان هذا الكلام تاريخياً وضعياً لأدانا الى القول باحد محالين اما ان آدم كان مسخاً لزيادة ضلع في تركيب جسده اما ان جسده كان بعد اخذ الضلع ناقصاً غير كامل وقد كان اوريجانوس جنح الى مثل هذا التفسير (في رده مزاعم شلسوس) فالكنيسة لم تحرم حتى الان القول بمقال كاتيانوس لكن اباءها مجمعون على خلافه . فقال القديس ايرونيموس (٣) . ان الله جبل آدم وكوّن حوا من جنبه . وقال القديس اغوسطينوس (٤) . ان كلام موسى في سفر التكوين ليس البتة مجازياً او من باب الكناية كنشيد الانشاد بل هو ايراد اخبار وضعية مقروناً بالسذاجة والامانة كاخبار سفر الملوك ومن الضلال القطيع الزعم انه لا يورد تاريخاً وضعياً الا بعد ذكر الطرد من الفردوس الارضي . على ان برهان الكردينال كايتانوس قاصر ضعيف المستند نقول هذا على اجلالنا لمقامه وعلمه أفلا يقدر الله على ذلك ? فهذا هو المحال حقيقة واخذ ضلع من جسد آدم لا ينتج منه انه كان مسخاً ولا انه امسى بعد ذلك ناقصاً اذ صرح الكتاب بانه سد مكان الضلع بلحم ومن يعلم قدر ما اخذ الله من جسد آدم (٥)

(١) مجلد ١ بحث ٩٢ (٢) مجلد ١ صفحة ٢٢ من تاليفه المطبوعة في ليون
(٣) في تفسيره رسالة فيليمون (٤) في تفسيره الحرفي لسفر التكوين
(٥) ملخص عن الوجيز الكتابي للاب فيكورو عد ٢٨٦ Vigouraux manuel biblique

عد ١٢

في اثبات ابداع الله العالم والانسان بالاثار القديمة

اذا تبصرنا في اثار كل القبائل القديمة لا سيما بعد الاكتشافات الحديثة الفينا عندها التقليد الدال على خلق العالم والانسان كما جاء في الكتاب وان مشوبًا بحكايات واقاصيص ادخلها الجهل وعبادة الاوثان على التقليد الصحيح . ولما كان موسى من ذرية ابرهيم وابرهيم هاجر ارض الكلدانيين آتيًا الى ارض الكنعانيين واستودع ذريته التقليد الصحيح في خلق العالم وما تبعه كتبه موسى كما تلقاه من اجداده فلهذا اذا عارضنا ما كتبه موسى بما اكتشف من اثار الكلدان القديمة العهد وجدنا ما كتب في بابل وبلاد الكلدان في خلق العالم وما يليه شديد المطابقة لما كتبه موسى وكأنه لا فرق بينهما الا في بعض الشوائب المشار اليها والا من حيث التعليم بوحدانية الله في كتب موسى وبالشرك في ما كتبه الكلدان في اثارهم حتى اذهلت هذه المطابقة اباء الكنيسة وهم لم يكونوا يعلمون من تقليد الكلدان الا ما كتبه باروز الكاهن البابلي في اليونانية في عصر خلفاء اسكندر كاشفًا عن تاريخ بلاده منذ خلق العالم فكيف الان وقد اكتشف عن اثار عديدة انبأتنا ما كان تعليم المدارس الكهنوتية على ضفات الفرات ودجلة وظهر لنا منها ان تكوين العالم كان في ستة ايام وان المخلوقات كُوّن بعضها بعد بعض في النظام نفسه الذي كتبه موسى وقصت علينا اخبار الطوفان وبلبلة الالسن وتفرُّق الامم كأنها واخبار موسى سواء الا من حيث الوحدانية والشرك والتباين في الاسماء والتشوش ببعض اقاصيص وثنية حتى قال فرنسيس لانرمان (١) انه يحق لنا ان نرى احد امرين اما ان ما كتب في سفر

---

(١) في التاريخ القديم للمشرق مجلد ١ صفحة ١٩ طبعة ٩
F. Lenormant Hist. aneinne de l'Orient

التكوين نسخة عن التقليد الكلداني نقاها موسى بالهام الله من ضلال الشرك ومذهب الحلول (اي انتشار الاله في كل موجود) اما ان تعليم سفر التكوين وتعاليم كهنة الكلدان نسختان عن اصل واحد عام هو التقليد الاولي حُفظت الاولى منهما بعناية الله سالمة وشيبت الثانية باحاديث خرافة واقاصيص ادخلها كهنة الاوثان تمكيناً لمزاعمهم ولم يتمكنوا من اخفاء الاصل وان شوهوه

واولاً ان الاثار الكلدانية عند ذكرها خلق السماء والارض تذكر السماء قبل الارض كما في رواية موسى . ومما يستدعي الالتفات انه وجدت اثار كتب عليها بثلث لغات الفارسية والسوسية والاشورية ما يتعلق بخلق العالم وكل من هذه الكتابات ترجمة حرفية عن الاخرى الا في كلمة « بوميم » التي هي في الفارسية بمعنى الارض فانك ترى تجاهها في الاشورية كلمة دالة على السماء في اثار عديدة كتبت بهذه اللغات الثلث معاً فاثبت تعدد الكتابات على نمط واحد ان الامر لم يكن اتفاقاً ولا سهواً بل غرضاً مقصوداً ولدى التفحص عن وجهه وُجد ان الفرس يسمون هرمزدا ابا الارض والسماء والاشوريين يعتقدون الاله خلق السماء اولاً ثم الارض فالمترجم الفارسي ابى مجاراة الاشوريين في معتقدهم . ومهما يكن فذلك دليل صراح على ان الهاً خالق العالم ثم قد مر بك ان قول الكتاب « وكانت الارض خاوية خالية » هو في العبرانية توه وبوه اي عديمة النظام وان الظلام من قوله « وعلى وجه الغمر ظلام هو في العبرانية تهوم فقد وجد في اثار الاشوريين كلمة بوه مراداً بها آلهة الغمر اي البحر او آلهة الكاؤس اي التشوش وعدم النظام فكأنهم سموها بذلك للدلالة على قدمها او على معاونتها في انتظام ذلك البوه وقد وجد ايضاً في بعض اثار الكلدان تسمية احدى معبوداتهم تهوم او تهومتي ومعنى الكلمة عندهم الغمر او مجتمع الماء والبحر . واللجة . ولنأتِ الى ما

هو اكثر بيانًا ان باروز المار ذكره قال في تاريخه ان اوناس الذي جعله اول انسان كتب كتابًا قال فيه ، انه كان زمان لم يكن فيه الا ظلام وماء ، الى ان يقول ، وكانت امرأة اسمها اوموركا تولت الخلق يسميها الكلدان تهوت (او تهومت) وفي اليونانية الغمر وبينما كانت الاشياء في هذه الحال اتى بالوس (الاله) فشق المرأة (اي البحر او المياه) نصفين فكانت الارض من نصفها السفلي والسماء من نصفها العلوي (وفسر باروز ذلك بقوله) هذا كلام مجازي يتبين منه خلق العالم والكائنات من مادة رطبة . . . ، وكذا ميزبالوس وهو الذي يسميه اليونان ثاؤس (الله) النور من الظلام وفصل السماء عن الارض ورتب العالم . . . وكون الكواكب والشمس والقمر والسيارات الخمس ، وقد جاءت اثار الاشوريين والكلدان وصورهم مصداقًا لما كتبه باروز في تاريخهم .

واوضح مما مر ما ترجمه العالم جرج سميت (١) عن بعض صفائح الاجر في مكتبة نينوى التي اكتشف عنها لايرد ونشره في اواخر سنة ١٨٧٥ فانه عثر في هذه المكتبة على صفائح يظن اصلها اثنتي عشرة صفيحة كتب عليها تاريخ خلق الكائنات ولسوء البخت لم تخلُ احداها من تشويه على ان الباقي وافٍ بشيء من المقصود وقد كتب على هذه الصفائح في عهد اشور بانيبال ملك اشور لنحو سنة ٦٧٠ ق م لكن المكتوب نسخة عن نصوص اكثر قدمًا مأخوذة من بلاد الكلدان وقد برهن سميت ان النصوص الاصلية كتبت من اكثر من الفي سنة قبل الميلاد حتى يترجح ان هذا التقليد الذي حفظه لنا الكتبة الاشوريون اقدم من ايام موسى بل من ايام ابرهيم ايضًا وقد نظم سميت ما وجده في هذه الصفائح في اقسام فجعل في الاول منها الكلام في الكاؤس اي الغمر وعدم الانتظام ومولد الالهة . وفي الثاني تأسيس الغمر . وفي الثالث

(1) J. Smith The Chaldaen. accaunt of genesis P. 29

خلق الارض . وفي الرابع ابداع الاجرام السماوية . وفي الخامس ابداع الحيوانات الارضية . وفي السادس وهو مؤلف من ثلث صفائح خلق الانسان . وفي السابع وهو مؤلف من عدة فقرات الحرب بين الالهة والارواح الشريرة وهاك ما كتب اولاً ويظن لتكسر الصحائف انه من الصفيحة الاولى . انه كان وقت لم يكن يسمى فيه ما فوق سماء ولا ما تحت ارضاً فالغمر غير المتناهي كان اصلها (اي اصل السماء والارض) والغمر الذي تولد منه كل شيء كان كاؤس (اي عديم النظام) فاجتمعت الامواه معاً وكان حينئذٍ ظلام دامس ولا شيء من النور وكانت ريح عاصفة . . . ولم يكن اسم تسمى . ثم يفصل موالد الالهة . وما احرى هذا الكلام ان يكون شرحاً لايات سفر التكوين . وكانت الارض خاوية خالية وكان على وجه الغمر ظلام وكان روح الله يرف على المياه .

على ان الصفائح الثلث التابعة الاولى لم تزل مفقودة ويترجح انها تشتمل على تاريخ ابداع النور ثم الجلد او الرقيع ثم تيبيس الارض وابداع النبات ووجدت فقرة موجزة يتبين منها جعل الارض يابسة كتب فيها . وعندما وضعت دعائم الارض فسميتها اساس الارض . . . انت جعلت السماء . ثم ان ما كتب في الصفيحة الخامسة يطابق ما كتبه موسى في مبدعات اليوم الرابع فان هذه الصفيحة تنبئنا بابداع الكواكب والقمر والشمس لتكون علامات تفصل بين الفصول والايام والسنين كما جاء في سفر التكوين ودونك ما كتب فيها ان الاله . قسم المنازل وهي سبع عدداً على الالهة الكبار وعين الكواكب لتكون مراكز للدوائر السبع وخلق مدار السنة وقسمه الى عشرات وجعل لكل من الاثني عشر شهراً ثلثة كواكب من يوم بداية السنة الى نهايتها واعطى الاله نبير منزلته لتجدد الايام في حدودها كيلا تقصر ولا تنتهي . . . وعهد الى نانار (القمر) ان ينير الليل وجعله يتجدد ليخفف ظلام الليل ويديم النهار ففي كل

شهر تم (ايها القمر) دائرتك وفي مبتدئها يستحوذ الليل فلا ترى القرون (كأنه يريد جوانب القمر) . . . وفي اليوم السابع تكمل الدائرة من اليمين الى الشمال ولكن يبقى النصف منه محجوباً بالظلام وفي وسط الشهر تكون الشمس في اعماق السماء عند بزوغك . . . فاطلع وغِبْ بحسب الشرائع الابدية ، وترى القمر هنا مفضلاً على الشمس كما في سائر اقاصيص الاشوريين فان الاله اور او سين اي القمر عندهم مقدم على الاله شماش اي الشمس

وقد وجدت فقرة يظن انها من بقايا الصفيحة السابعة تطابق ما قيل في الكتاب عن مبرؤآت اليوم السادس وهي ، وفي هذا الزمان ابدع الالهة باجتماعهم . . . ثم كونوا مخلوقات حية . . . حيوانات البرية ووحوش البرية ودبابات البرية ، فترى تقسيم الحيوانات الى ثلثة اصناف طبق ما قيل في الكتاب (تك فصل ١ عد ٢٥) ، فصنع الله وحوش الارض بحسب اصنافها والبهائم بحسب اصنافها وكل دبابات الارض بحسب اصنافها ، واما الفقرات التي موضوعها خلق الانسان فهي مفقودة او مشوهة حتى لا يمكن تحصيل معنى اكيد لها ومع هذا حَسِبَ سميت انه استطلع منها على خطاب القاه الله على الانسان الاول والمرأة الاولى حضهما به على العمل بما فُرض عليهما واوصاهما بالمحافظة على البرارة والتقى . وروى لانرمان (١) انه وجدت فلذة من اجرّ يظن انها من الصفائح المذكورة (المحفوظة كلها في المتحف البريطاني) كتب عليها ان ايًا اله الفهم السامي ورب الحكمة هو الذي ، صور بيديه الجبلة البشرية لتكون خاضعة للالهة وهو اله الحياة البارة والمرشد الى التقوى وهو الذي يحيي الموتى . . . والرحيم الذي به الحياة ،

ثم ان اسم آدم في الاشورية ، ادمي او ادمي ، عن العبرانية وقد وجد في

(١) مجلد ١ من تاريخه القديم للمشرق المار ذكره صفحة ٣، طبعة ٩

اثار اشورية كثيرة ذكر يوم السبت او السابع من الاسبوع موصوفاً بانه يوم راحة لا يحل فيه عمل طبق ما جاء في التكوين (فصل ٢ عد ٣) وتسميه هذه الاثار ساباتو كما يسميه العبرانيون وبعضها يفسر الكلمة بمعنى يوم راحة القلب والحاصل ان الاثار الكلدانية تطابق نص موسى في خلق العالم والكائنات ولا تخالفه الا بما شوهه الجهل او الشرك وعبادة الاوثان ولننظر في اثار غيرهم من القبائل

ان الاثار المصرية ايضاً يظهر منها ما يطابق كلام موسى في ابداع العالم . فقد نشر العالم شباس سنة ١٨٥٧ ترجمة ترنيم لازوريس احد معبودات المصريين يقال فيه ان ازوريس هذا . صنع هذا العالم بيده امواهه ورقيعه ونباته وجميع ماشيته وطيوره واسماكه ودباباته وذوات الاربع فيه . فالتعداد تام ويخلو عن الانسان فقط لان المصريين ينسبون خلق الانسان الى الاله توم او كوم كما سترى بعيده (١) وهناك مقابلة بين كلام موسى واثار المصريين اوردها العالم مريات في مقالة كتبها في ام الاله ايس ونشرها سنة ١٨٥٦ فقال . ان المصريين رغبة في الدلالة على مجموع الهتهم استعملوا كالتوراة (في كلمة الوهيم) تعبيراً دالاً على الجمع وللمفرد في هذا التعبير المحل الاول اذ من وراء الجمع اله وحيد يُراعى به تعداد قواته ككلمة الوهيم في التوراة . ولكن حيث يقول العبراني في الاله غير المتناهي . ان الرب الاله (الوهيم) خلق . بالمفرد يقول المصري لما لا يخفى من مبدئه . ان الرب الالهة خلقوا . بالجمع على ان الاله الوحيد عند المصريين ليس الاله الوحيد عند اليهود فموسى لاستمساكه بتصور الاله العظيم يصرح بدون خوف بقوله يهواه الوهيم خلق والكهنة المصريون يروغون ولا يمكنهم ان يقولوا الا ان الرب الالهة خلقوا لاعتبارهم الرب بمنزلة مجموع

(١) ذكر ذلك الاب فيكورو في معجم الكتاب في كلمة ادم

الهة اخرى . ويتفق الفريقان على ان العالم مخلوق وان الرب خالق وان اختلفا في تصوره واسمه وعدده

وقد تبين من اثار مصرية عديدة ان المصريين الاقدمين اعتقدوا ان الاله السامي توم او خنوم (ومعناه مصور الكائنات وباريها) كوَّن الانسان من تراب وترى في هيكل دندرة صورة ناتئة تصلح ان تكون مثالاً لما ورد في العدد السابع من الفصل الثاني من سفر التكوين من ان الرب جبل الانسان ترابًا من الارض ونفخ فيه نسمة الحياة فتشاهد في تلك الصورة الاله خنوم جالسًا على كرسي ويده الواحدة على رأس غلام يكونه والاخرى على رجليه وتجاه الاله الآلهة جاثية تقدم الى انفه رسم صليب في اعلاه حلقة او ممسك وهو رمز الحياة في عرفهم (انظر الصورة عد ١) وذكر لانرمان (١) صورة اخرى في هيكل اسنه تمثل الاله خنوم جالسًا على كرسي ورافعًا يديه وامامه شخصان على عنقيهما عقد الملك وتجاهه الالهة بيدها رمز الحياة وهو الصليب تدنيه من انفيهما . (انظر الصورة عد ٢) وكثيرًا ما ورد في اثارهم ان الانسان كوّن من طين النيل . ومن تقليداتهم المقررة ان مبدأ الاشياء المادية كلها هو السائل الاولي اي الامواه السموية

ومن تقليدات الفينيقيين التي اوصلتها الينا فقرات سنكونياتون تسليمهم بانسان اول وامرأة اولى اوجدهما الريح كلبياس وعرسه باهو (هو مشوش ما ورد في الكتاب عن الغمر توه وبوه وعن روح الرب الذي كان يرف على المياه) وان اسم المرأة ايون (يظهر انه ترجمة اسم حوآء اي الحياة) وانها هي التي اخترعت الاكل من ثمر الشجر وفي فقرة اخرى ، ان الانسان كوّن من الارض ومنه تناسل الناس (٢)

(١) في كتابه التاريخ القديم مجلد ١ صفحة ٢١ طبعة ٩
(٢) فيكورو في معجم الكتاب ولانرمان في المحل المذكور صفحة ٢٠

ومن تقليدات اليونان الاقدمين ان الاله بروماثه هو الذي كوّن الانسان من اربعة عناصر لا سيما التراب والماء وعلى قول اخرين من قدمائهم ان بروماثه لم يكوّنه بل وهبه الحياة بواسطة نار اخذت من السماء (١) واما الفرس فمن معتقداتهم ان اهورمزدا الاله الصالح العظيم خلق العالم والانسان في ست مدد متتالية مجموعها سنة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً واخر ما صنعه انما هو الانسان وان الانسان الذي برز من يدي الخالق ولا عيب فيه يسمى «كايومريتان» اي الحياة المائتة (٢) ومن معتقدات اهل الصين ان هوانكتي الروح القديم هو الذي خلق الانسان اولاً وكوّن الرجل والمرأة . وفي عبارة اخرى من كتاب تعليمهم الديني ان مينهوا يبّس التراب الاصفر وكوّن منه الانسان وان هذا هو الاصل الحقيقي للنوع البشري هذا ما رواه الاب كو في مقالة كتبها في الصينيين نقلاً عن علمائهم القدماء . وقد جمع عالم صيني في هذه الايام كل ما عثر عليه هناك من الاثار الدالة على الالهة القدماء فكان من جملته ان كائناً سامياً خلق الانسان الاول وان لباسه كان محزماً من اوراق الشجر . روت ذلك المجلة العلمية الموسومة بالدروس الدينية سنة ١٨٩٠ صفحة ٤٨٠ (٣)

بل ان القبائل الهمجية نفسها وسكان امركا الاولين وجدت عندهم اثار دالة على ما كتبه موسى في خلق العالم والانسان فقد وجد في برونستون (في نبسيلفانيا من اعمال امركا الشمالية) صخر نقشت عليه صور عديدة منها صورتا رجل وامرأة وبيد المرأة ثمر (تاريخ الفصاحة والصناعة مجلد ٩ صفحة ٢٨٠) ووجد في جزيرة جافا (احدى جزائر السند) صخر قديم منقوش عليه صورتا رجل وامرأة متمسكين باغصان شجرة عليها ثمر وحية ملتفة على جذعها

(١) فيكورو في المحل المذكور من معجم الكتاب ولانرمان صفحة ٢٤ من المجلد المذكور (٢) لانرمان صفحة ٢٥ من المجلد المذكور

(3) Etudes religieuses

(مجلة الجمعية الاسياوية في لندره في حزيران سنة ١٨٣٢) وفي البارو في جنوب امريكا يسمى الانسان الاول الذي ابدعته القدرة القديرة على كل شيء • الباكاسكا • اي التراب المتنفس • ومن معتقدات قبلة المندان في امريكا الشمالية ان الروح العظيم كوَّن صورتين من تراب ويبسهما وجعل فيهما نفساً بنفخ فمه وسمّيت الاولى منهما الانسان الاول والثانية قرينة او رفيقة • وقبيلة التهتين هناك تعتقد ان الاله العظيم كوَّن الانسان من تراب احمر (١) والحاصل ان ابناء آدم اينما حلوا تركوا اثراً دالة على اصلهم كما كتبه موسى وان شوهت الايام والجهل وعبادة الاوثان هذه المعقائد

الفصل الرابع

﴿ عد ١٣ ﴾

﴿ في محل الفردوس الارضي ﴾

جاء في سفر التكوين (ف ٢ عد ٨ وما يليه) • وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقاً وجعل هناك الانسان الذي جبله • • • وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة ومن ثم فيتشعب فيصير اربعة اروس اسم احدها فيشون وهو المحيط بجميع ارض الحويلة حيث الذهب وذهب تلك الارض جيد هناك المقل وحجر الجزع . واسم النهر الثاني جيحون وهو المحيط بجميع ارض الحبشة (كذا في نسخة الاباء اليسوعيين والاولى ان يقال ارض كوش او الكوشيين لما سترى) واسم النهر الثالث حداقل (كذا في نسخة الاباء

---

(١) لانرمان صفحة ٢٢ من المجلد المذكور وفيكورو في معجم الكتاب في كلمة ادم

اليسوعيين واسمه في الاثار القديمة حيدقلا او هيدقلا فلفظة حيد او هيد معناها النهر اي نهر داقل وفي السريانية ܕܩܠܬ دِقلَت دجلة) وهو الجاري في شرقي اشور والنهر الرابع هو الفرات ٠

قال كلمت (١) قلما وجد صقع في العالم لم يدّعِ بعضهم ان موقع الجنة كان فيه فتعددت الاقوال في انه اذا كان في اسيا او افريقيا او اوربا او امركا او في بلاد التتر او على شاطئ الكنج او في الهند او الصين او جزيرة سيلان او ارمينيا او تحت خط الاستواء او فيما بين النهرين او سورية او بلاد فارس او بابل او بلاد العرب او فلسطين او بلاد الحبشة حيث جبال القمر او على مقربة من لبنان او في لبنان الشرقي او دمشق انتهى ٠ اما نحن فلا نتصدى للتفحص عن هذه المدعيات كلها ولا عما يقوله كل من القائلين بها ولا نسلّم لمن قال ان من تقليدات الموارنة ان موقع الفردوس الارضي كان في ناحية اهدن فما ذلك من تقليداتنا ولا نعتقد نحن ولا غيرنا من علماء الموارنة هذا التقليد صحيحًا او عامًا وما اتى في كتب بعض علمائنا من ذلك جيء به مفاكهة او توسعًا بايراد ما كتبه بعض علماء اوربا في هذا الشان فجل ما نعمده هنا ان نبين ان هذه الاقوال العديدة لا يظهر لنا منها قريبًا من الصدق الا قولان يجعل احدهما موقع الفردوس الارضي في ما بين النهرين والثاني في ارمينيا ٠ ولما كان الكتاب صرح بذكر النهرين الشهيرين دجلة والفرات ولم تكشف الاثار ما يخالف هذا الظاهر تعين ان يكون محل الفردوس الارضي في الانحاء التي فيها هذان النهران اما من حيث منبعهما في ارمينيا واما من حيث مجراهما في ما بين النهرين الى الخليج العجمي

قال العالم اثرى راولينسون ان موقع الفردوس الارضي بابل او احدى

(١) معجم الكتاب في كلمة فردوس

ضواحيها واسند قوله الى بعض بينات محلية منها ان هذه المعاملة سميث مراراً في الاثار القديمة « غان دونياس » اي جنة دونياس فغان تقرب من الكلمة السريانية ܓܢܬܐ ومعناها جنة او حديقة ودونياس اسم اله عندهم . وهذا التعبير يقرب من غان ادن اي جنة عدن . ومنها ان نهرين من انهر الفردوس الاربعة اي دجلة والفرات يسقيان سهول بابل الخصبة . ومنها انه وجد في مكتبة اشور بانيبال في نينوى تسابيح قديمة في اللغة الاكادية والاشورية تفيض بذكر حديقة مقدسة مغروسة في اريدو وهي ابوشارين الان على مقربة من بابل . وقد جدّد راولينسون بقوله هذا مذهب السيد هوا اسقف افرانش (١) في فرنسا الذي نشر كتاباً مخصوصاً في موقع الفردوس الارضي طبع في باريس سنة ١٦٩١ وتابعه غيره من العلماء في هذا المذهب على ان الذي عنى بتأييد هذا المذهب انما هو فريدريك داليتش (٢) معلم اللغة الاشورية في كلية لبسيك وافرد له كتاباً مخصوصاً طبع في لبسيك سنة ١٨٨١ جدَّ فيه ليثبّت ان مهد النوع البشري كان في السهول التي بُنيت فيها بابل بعد ذلك ومن براهينه اولاً ان دجلة كان في اقدم الايام يلتحم مع الفرات في شمالي بابل مسافة طويلة ثم ينفصل عنه في جنوبها . ثانياً ان فيشون وجيحون ليسا نهرين حقيقة بل قناتان كبيرتان وان اسم ناهار الذي يسمّى به الفرات وفروعه الثلثة بالعبرانية واللفظ المرادف له في الاشورية والبابلية نهرو وفي الارامية السريانية ܢܗܪܐ نهرا وفي العربية نهر كل هذه الالفاظ تحتمل معنى القناة ايضاً . ثالثاً ان ارض كوش التي جاء في الكتاب ان جيحون كان يسقيها يراد بها ارض الدولة العيلامية التي كانت تلي بابل في اقدم الايام وورد في الاثار القديمة ذكرها مسماة

(1) Huet évêque d'Avranche de Situation du paradis Terrestre
(2) Frédéric Delitysch

كاسي او كاشي فاذًا يرد في الكتاب اسم كوش دالاً على شعبين احدهما في افريقية يراد به الحبشة وما جاورها والثاني في اسيا من حيث خرج نمرود بن كوش وملك في بابل (تك فصل ١٠ عد ١٠) قلنا ان بني كوش بن حام كانوا اولاً في اسيا قبل ان يرتحلوا الى افريقية ولا بد ان يكون قد بقي منهم بقية في مهاجرهم الاصلية فحق لموسى ان يسمي بلادهم بلاد كوش وهذا ما يجعلنا نرى انه كان الاولى ان يترجم النص العبراني في نسخة الاباء اليسوعيين بكلمة كوش بدلاً من كلمة الحبشة ومن براهين داليتش على مذهبه ان ارض حويلة (ارض الرمل) التي ورد في الكتاب ان فيشون كان يسقيها يراد بها الارض المتاخمة الفرات من برية سورية وان الذهب والمقل وحجر الجزع توجد في انحاء بابل فحويلة على الضفة الغربية من الفرات وكوش على ضفته الشرقية فالفرات اذًا هو الذي يسقي جنة عدن باروسه الاربعة التي يضحي كل منها نهرًا مستقلاً مع دجلة وتحت بابل قناتان كبيرتان من امواه الفرات وكلٌ منهما نهر يسمى احدهما بالاكوباس يسقي مدينة اور التي خرج منها ابرهيم ويصب في الخليج العجمي وهو فيشون على رأي المؤلف . والثاني هو شطّ النيل كما سماه العرب وهو نهر ايضًا ينفجر من الفرات وهو جيحون على رأيه ويسقي ارك التي ذكرها سفر التكوين (ف ١٠ عد ١٠) ثم يلتحم مع الفرات وهناك بلاد كوش والمدن الاربع التي كانت لنمرود ابنه وهي بابل وارك واكد وكلنه كما انبأنا سفر التكوين في المحل المذكور آنفًا . وقال داليتش استدراكًا لما يرد عليه من ان اسمي بالاكوباس وشط النيل لا شبه بينهما وبين اسمي فيشون وجيحون انه لا يلزم ان نتناسى ان هذه الاعلام عرضة للتغير والنقل وان شط النيل كان اسمه في اللغة البابلية ارحتو وهي قريبة من ܐܘܪܚܐ ارحُو الطريق ولكن كان يسمى في اللغة السومارية كاحان وذكره سنحاريب مرات وتبين من كلامه انه

نهر تسير فيه السفن والعلامة « كا » في هذه اللغة تحتمل لفظ كو فيصير الاسم كوحان وهذا لا يبعد عن كلمة جيحون والكلمة بيشان وبيشانو في الاشورية معناها قناة فربما سمى الكلدان بالاكوباس بيشان اي القناة علماً له والفرق بين بيشان وفيشون ليس كبيرًا وبدل الباء بالفاء مستفاض فهذه خلاصة مذهب داليتش (١)

على ان الاب فيكورو تعقب داليتش بمذهبه هذا مندداً به وقال انه نظريّ لا يطابق حقيقة نص موسى لا سيما من جهة النهرين فيشون وجيحون اللذين جعلهما داليتش فرعين عن الفرات وذكرهما موسى اولاً كانهما اصلان ولم يذكر الفرات الا في المحل الرابع وان سهول بابل يسميها الكتاب شنعار لا عدن . واخيرًا ان الانسان الاول طُرد ونسله من الفردوس الارضي وحرّم عليه الدخول اليه وسهول بابل استمرت دائمًا معمورة مأهولة من اقدم الايام الى نهاية مملكة الفرس وصرح فيكورو انه يرى الاقرب الى الصدق مذهب القائلين بان الفردوس كان في جهة ارمينيا ولم يورد ادلته في كتابه المسمى الكتاب والاكتشافات الحديثة بل في كتابه الاخر الموسوم بالوجيز الكتابي (٢) وهوذا ملخص ما قاله في هذا الكتاب عد ٤٨٧ ان الطوفان والانقلابات العديدة التي شوهت وجه بعض الارضين يحتمل ان تكون بدلت هيئة المكان الذي كان فيه الفردوس الارضي فجعلت المبحث مشكلاً يتعسر حله على ان القول الذي يظهر اقرب الى الحق انما هو قول من جعلوا الفردوس في ارمينيا في تلك الهضاب التي ما برحت من اخصب الارضين في المعمور واخص من بث هذا المذهب ودافع عن صحته كلمت (في مقالته في الفردوس وفي معجم الكتاب) ويؤيده ان

(١) ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة للاب فيكورو مجلد ١ صفحة ٢١٤ الى ٢١٨ طبعة ٤

(2) Manuel Biblique

الفرات ودجلة منبعهما في هذه الديار ومصدر دجلة على بعد نحو من ساعة عن الفرات في الشمال من ديار بكر واما فيشون فهو اما النهر الذي سماه القدماء فاش او فاس ويحتمل ان يكون النهر المسمى الان ريون ويجري من الشرق الى الغرب ويصب في البحر الاسود واما نهر كور الذي سماه القدماء كورش ومنبعه في نواحي القرس غير بعيد عن المنبع الغربي للفرات ويصب في بحر الخزر المسمى بحر قزبين ايضاً بعد ان تختلط مياهه بمياه نهر اركس الاتي ذكره وحويلة التي يسقيها فيشون هي اقليم كولشيد الواقع بين جبل قاف شمالاً والبحر الاسود غرباً والمشهور بالمعادن الثمينة كما في الكتاب . واما جيحون فهو النهر المسمى الان الرس وكان القدماء يسمونه أرَكْسْ ويسميه العرب جيشون او جيحون الرس والفرس جيون ومنبعه في جوار المنبع الغربي للفرات ويصب مع نهر كور في بحر الخزر وارض كوش التي يحيط بها على ما في الكتاب هي بلاد الكوسين او الكوشين (Kosçéns) الواقعة بين بلاد فارس جنوباً وجبل قاف شمالاً وفي وسط هذه البلاد بحيرة تسمى الى اليوم كوتشا فهذا ما قاله الاب فيكورو في الوجيز الكتابي وهو اشبه بما رواه كلمت في معجم الكتاب في كلمة فردوس

وليس لمثلنا ان يرجح او يضعف اقوال مثل هولاء العلماء الاعلام لاسيما لقصر يدنا عن الكتب اللازمة مطالعتها في هذه المسائل الغامضة لكننا على مزيد اجلالنا للاب فيكورو واعترافنا بطول باعه وكثرة مطالعاته نرى تنديده بقول من زعموا ان الفردوس كان في نواحي بابل قاصراً وغير سديد لاسيما ان برهانه الاخير بان سهول بابل استمرت معمورة يمكن عكسه على القول الذي رآه اشبه بالحق بان يقال بان الانسان خسر المحل الاول وحظر عليه وعلى نسله الدخول اليه والحال ان ارمينيا استمرت دائماً معمورة فلا تصلح ان تكون

هذا المحل الاول . وليس من غرضنا ان نرجح القول الاول على الثاني بل اننا ايضاً نراه محتملاً

عد ١٤

تقليدات القبائل في شأن الفردوس الارضي

حفظت اكثر قبائل المعمور ذكر الفردوس الارضي واقوى شاهد لذلك إدّعاء كل منها ان هذا الفردوس كان في ارضها كما رأيت في العدد السابق . وقد مرّ بك ذكر الحديقة المقدسة التي كان يجعلها الكلدان القدماء في اريدو ويترنمون بوصف جمالها • وجعل كثيرون مهد البشرية على الجبال الشامخة في اسيا الوسطى بجانب ينابيع الانهر الكبرى فزعم الهنود ان الاربعة او الخمسة الانهر الكبرى كانت تجري من شمال الجبل المقدس وهو حملايا (او هملايا) وتسقي جهات العالم الاربع • رواه لوكان في كتابه في تقليدات البشر (١) مجلد ١ صفحة ٩٨ واعتقد الايرانيون القدماء ان في اعلى جبال بلادهم ينبوع تجري منه امواه محيية منحدرة من السماء فتصدر الخصب في الارض كلها رواه لوكان ايضاً في المحل المار ذكره • ووصف الصينيون المحل الذي كان مهداً للبشرية بانه جبل في وسط سهل خصب في اسيا الوسطى وفي هذا الجبل جنة يهبّ فيها ابداً النسيم العذب وموقع هذه الجنة عند ابواب السماء المغلقة والامواه الجارية فيها غزيرة وصفراء ومصدرها يسمى منبع عدم الميتوتة ومن شرب منه لا يموت ويتفرع الى اربعة انهر تجري نحو الجهات الاربع روى هذا ايضاً المؤلف المذكور و اطال في تعداد هذه التقاليد واسهب الاب داراس (٢) في تاريخه البيعي (مجلد ١ صفحة ١٤٤) بايراد تقليدات الصينيين والهنود واليونان والفرس واليابونيين

(1) H. Luken Traditions de L'humanité
(2) L'abbé Darras. Histoire Ecclésiastique

والمنغول وقدماء المكسيك في شأن الفردوس الارضي • ونكتفي بهذا الاجمال حبًّا بالايجاز وتفاديًا من ملل المطالع

الفصل الخامس

﴿ في شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحية ومعصية الانسان ﴾

انَّا نثبت اولاً ما جاء في الكتاب في هذا الامر ونتبعه ببيان المراد به بموجب التعليم الكاثوليكي ثم نؤيده بذكر تقليد القبائل القديمة واثارها

﴿ عد ١٥ ﴾

في شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة

جاء في سفر التكوين (ف ٢ و ٣) « وانبت الرب الاله من الارض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة الماكل وشجرة الحياة في الجنة وشجرة معرفة الخير والشر • • • وامر الرب الاله الانسان قائلاً من جميع شجر الجنة تاكل واما شجرة معرفة الخير والشر فلا تاكل منها فانك يوم تاكل منها موتًا تموت • • • وكانت الحية احيل جميع حيوان البرية فقالت للمرأة ايقينًا قال الله لا تاكلا من جميع شجر الجنة فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة ناكل واما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تاكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا انما الله عالم انكما في يوم تاكلان منه تنفتح اعينكما وتصيران كآلهة عارفين الخير والشر ورأت المرأة ان الشجرة طيّبة للماكل وشهية للعيون فاخذت من ثمرها واكلت واعطت بعلها ايضًا منها فاكل فانفتحت اعينهما فعلما انهما عريانان فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مآزر » ثم يقول ان الرب ظهر لآدم فوبه

على صنيعه فاعتذر بان امرأته اعطته فاكل من ثمر الشجرة واعتذرت المرأة بمكر الحية بها فقضى الرب عليهما وعلى نسلهما بالموت وبمشقة العمل لتحصيل معاشهم وعلى المرأة بمقاساة مشاق الحبل والولادة وعلى الحية باكل التراب والسلوك على صدرها وصنع الرب لادم وامرأته اقمصة من جلد وكساهما واخرجهما من جنة عدن ليحرث الارض التي اخذ منها واقام شرقي جنة عدن الكروبين وبريق سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة . فهذا ما جاء في الكتاب

ذهب مفسرو الكتاب واباء الكنيسة الكاثوليكية ان شجرة معرفة الخير والشر لم تسمَ كذلك لخاصة جوهرية بها بل لوصية الله ونهيه عن الاكل منها ولما كان لاكل ثمرها من النتيجة ونجتزئ عن التطويل بما قاله القديس يوحنا فم الذهب في تفسيره سفر التكوين وهو . يحق لكل ان يسأل قائلاً اية قوة كانت في هذه الشجرة لتفتح ثمارها عقل من ياكل منها ولِمَ سمّيت شجرة معرفة الخير والشر . . . ان اعين آدم وحوا لم تنفتح لاكلهما من ثمر هذه الشجرة فانهما كانا قبلاً يبصران بل لاقترافهما المعصية باكلهما منه فلما خالفا النهي الالهي خسرا النور الذي كانا يجللهما اذ جعلا نفسيهما غير اهل له . وكذا أجيب على السؤال الثاني وهو لِمَ سمّيت هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشر قائلاً زعم بعض الحمقى ان آدم لم يكن يميز بين الخير والشر الا بعد ان اكل من الثمر المحظور اكله وتلك حماقة متناهية . . . فمن يجسر ان يزعم ان الانسان لم يعرف الخير والشر الا بعد اكله الثمر المنهى عنه وهو قد كان من قبل مملوءًا من الحكمة (كما اثبت الكتاب) . . . فيقال ان الكتاب نفسه سمّى الشجرة شجرة معرفة الخير والشر اجل وما على هذا من نكير ولكن كل من له شيء من المام باساليب كلام الكتاب ادرك باقل تكلف ما يراد بهذا التعبير فلم تسمَ الشجرة بهذا الاسم لانها اولت الانسان معرفة الخير والشر بل لانها كانت وسيلة للمعصية

فعرفت الانسان بجريمته وبالعار الذي الحقته به فمن عادة الكتاب ان يتخذ لبعض الاشياء اسماً من بعض احوالها فسمى هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشر لانها كانت مزمعة ان تكون وسيلة للخطيئة او الفضيلة . والحاصل انها سمّيت بما آلت اليه لا بما كانت عليه .

واما شجرة الحياة فهي شجره اعدها الله في الفردوس لحفظ حياة ادم ونسله لو اطاع وصيته بان لا ياكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر . وزعم قوم ان شجرة الحياة هي شجرة المعرفة نفسها مخرجين قول الكتاب . شجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر . بمعنى ان في وسط الجنة شجرة الحياة او شجرة معرفة الخير والشر كأن لهذه الشجرة اسمين وقالوا ان حرف العطف في العبرانية يتحمل معنى التقسيم والتفسير ايضاً . الا ان الاظهر والاطبق لنص الاية المذكورة وغيرها انهما شجرتان ولا وجه لجعل الله للامرين شجرة واحدة وزعم بعضهم ان شجرة معرفة الخير والشر كانت من طائفة التفاح واستدلوا على ذلك بقول نشيد الانشاد (ف ٨ عد ٥) . لقد نبهتك تحت شجرة التفاح هناك وضعتك امك . وفي بعض النسخ . هناك فقدت امك برارتها . والصحيح انه لا يمكن القطع بنوعها

ومهما يكن من هذه المباحث فان الله نهى ادم وحوا عن الاكل من ثمر هذه الشجرة اختباراً لطاعتهما وليعلما انه ربهما وخالقهما وان العالم لم يوجد من نفسه بل هو خالقه ومدبره فيلزمهما الاذعان لامره خاصة لانه سلطهما على كل ما في العالم ولا يبتغي منهما بدلاً من ذلك الا الخضوع له والاقرار باحسانه فمثله مثل مالك كريم سلط رجلاً على ملكه ولم يطلب منه بدلاً الا ما يتبين به ان الملك للمولى وان المنتفع تحت امرته فحظر الله على ادم وحوآء الاكل من ثمر شجرة واحدة تقريراً لسلطته وهددهما باليم العقاب ان عصيا

امره (١) واطلق لهما حرية العمل ان ينقادا طائعين او يعصيا متكبرين ليكون لهما وسيلة للاستحقاق فالله صالح طبعًا لكنه بغامض حكمته لم يشاء ان يسعد احدًا او ان يشقي احدًا دون سعي ارادته ومجده ثابت في كل حال فمن سعد او خلص مجّد رأفته ومن شقيٍ اوهلك هلك باثمـه ومجَّد به عدله . ثم ان بعض المواهب التي أتيها الانسان كانت تفوق طبعه فهو لتركبه من عناصر مادية كان متعرضًا طبعًا للانحلال والموت والامراض فعصمتـه من ذلك لو لزم الطاعة لم تكن من خواص طبعه بل تفوقه وكذا الوحم والوصب والطلق في ولادة المرأة تلازم طبعها وعصمتهـا منها تفوقه فكانت العصمة اذًا من الموت والامراض والاوجاع هبة مجانية من فضل الله لا يقتضيها طبع الانسـان وكانت تركة سعيدة يشترك بها ابناؤه لو احتفظ الاب عليها فلما زل وعصى امر الله خسر المواهب المجانية الممنوحة له كرمًا بشرط طاعتـه واضاع ما كان مزمعًا ان يبقى ملكًا لبنيه فصرنا نولد جميعًا بعد ضيـاع هذا الارث او الملك ولا حق لنا به لان والدنا اضاعه قبل ولادتنا فهذا احسن اسلوب لبيان الخطيئة الاصليـة واتصالها بنا . ورأى بعض الاباء ان النوع البشري لم يخسر بادم المواهب الفائقة طبعه فقط بل جرح ايضًا بالمواهب الطبيعية وكلها الآء كرم الله يوليها من شاء وكيف شاء

عد ١٦

في الحية

زعم اوريجانوس وغيره من علماء مدرسة الاسكندرية ان كلام الكتاب في اغواء الحيـة لحوا مجازي يراد به ان ابليس اغرى المرأة ان تاكل من الثمر وتطعم زوجها بانشائه في عقلها وارادتها الرغبة في اكل الثمر المحظور لا بكلام

(١) ملخص عن كلام فم الذهب في خطبته ١٦ في سفر التكوين

الحية احدى العجماوات . وقد جدد الكردينال كايتانوس هذا المذهب بقوله لم يكن هذا كلاماً شفاهياً بل أُريد به الاغواء الباطن اذ جعل ابليس في مخيلة المرأة هذا الفكر السيء وكذا يلزم ان تفهم هذه المحاورة كلها بين الحية والمرأة وقد نزل عقاب الحية منزلة تاريخ وليس من الحكمـة ان يفهم بحسب حروفه فهذه معانٍ مجازية لا تحسب كالاقاصيص بل تجلّ كاسرار وتنطوي مجازاً على ما يختص بالايمان (ملخص عن مجلد ١ من تآليفه صفحـة ٢٥) على ان الكنيسـة لم تنهَ عن القول بمذهب هولاء كانه مخالف لعقائد الدين ولكن ابى سائر الاباء واللاهوتيين الا المخالفة له . وما احسن ما قاله بوصوا في هذا الشان (في خطبة على الاسرار) (١) لنا ان نقول ان ظاهر كل شيء هنا يدل على مجاز . فحية عجماء تتكلم وامرأة تسمع لها ورجل مستنير كامل يغترُّ بتجربة غير شديدة والنوع البشري برمته يقع معه في وهدة الاثم ويستحوذ عليه الموت . ذلك كله يظهر غريباً ولكن تزول الغرابة اذا نظرنا الى الحية ليس من حيث هي حيوان غير ناطق بل من حيث هي آلة لدهاء ابليس الذي دخل بسماح الله في جسم هذا الحيوان واية غرابة في ذلك والله نفسه كان يظهر للانسان بهيئة محسوسة . . . فالانسان مؤلف من جسد ونفس فلله ان يجعله يعرفه بكليهما بالروح والحس وكذا كان الملائكه يتراون للناس بهيئة يريدها الله . فلم تنذهل اذًا حوا عند سماعها الحية تكلمها كما لم تنذهل عند رؤيتها الله يظهر لهما بهيئة محسوسة . ومما ينبه اليه ان نص الكتاب لم يقل حية بالنكرة بل الحية بالتعريف فذاك دليل على ان الكلام ليس في حية كسائر الحيات بل في حية مخصوصة يراد بها ابليس لاتخاذه اياها آلة للمكر . ولو لم يكن للحية مدخل في اغواء حوا لما نسب هذا المكر اليها اذ لم تكن الحية في عرف الاقدمين ولا في عرف المتأخرين

(1) Bossuet Elévation sur les Mystères

مثالاً للدهاء بل للحكمة او غير الدهاء من المعاني

﴿ عد ١٧ ﴾

﴿ اثار القبائل القديمة الدالة على ما في الكتاب بهذا الباب ﴾

انا نجد عند اكثر القبائل اثاراً تنبئنا باعتقادهم شجرة حياة وشجرة معرفة الخير والشر ومعصية الانسان الاول ونسبتها الى الحية وان كنا لم نجد حتى الان اثراً مكتوباً للكلدان مشعراً بما كان معتقدهم بهذه الامور فقد وجدنا في اثارهم صوراً عديدة يتبين منها اعتقادهم ذلك ولا يمكن تأول مغزى تلك الصور ورمزها الى غير ما كتبه موسى . ومنها صورة الشجرة المقدسة الاشورية الكلدانية التي وجدت على قصر في نمرود حيث ترى صورة شجرة وعلى جانبيها ملكان او كاهنان بملابسهما الحبرية دلالة على اجلال الشجرة ومن فوقها دائرة ذات اجنحة كانت في عرفهم كناية عن الاله السامي (انظر في مثالها صورة عد ٣) وقد اكتشفت في هذا القصر صورة اخرى هي الان في المتحف البريطاني ترى على جانبيها ملاكين مجنحين جاثيين اجلالاً لهذه الشجرة يمد كل منهما يده بكل وقار نحو ثمرة منها ليجنيها او ليذب عنها ويحرسها . واكثر بياناً مما مر الصوره التي نقلها العالِم فالكس لاجار (١) (في كتابه المعنون الابحاث في عباده ميترا) ثم ان العالِم سميث (في كتابه اثار الكلدان عن التكوين) اكتشف (٢) عن اثر بابلي حيث ترى شجرة عن جانبيها رجل وامرأة يمد كل منهما يده الى ثمرتين فيها ومن وراء المرأة حية منتصبة الى رأس المرأة كانها تلقنها شيئاً وهذه الصورة الان في المتحف البريطاني (انظر مثالها في الصورة عد ٤) ومن رآها قضى بانها تمثل ولا جرم ما رواه موسى في وسوسة الحية لحوا واكلها

(1) Felix Lajard Recherches sur le Culte de Mithra
(2) Smith Chaldaean of Genesis. P. 94

مع ادم من شجرة معرفة الخير والشر

ان الاريانيين (١) (وهم سكان كل البلاد الواقعة بين فارس والهند) كان التقليد العام عندهم قبل انقسامهم الى ايرانيين وهنود ان الانسان الاول كان اسمه عند سكان ايران (ايما) وعند الهنود (ياما) والفريقان يقولان انه ابن السما لا ابن الانسان وها هوذا ما كتب في الكتاب الذي يسمونه ماسكيا ومسكيانا «كان الانسان كان ابو العالم كانت السماء معدة له بحيث ان يكون متواضع القلب ويعمل بحسب الشريعة متذللاً وبشرط ان يكون باراً في افكاره صادقاً في كلامه مستقيماً في اعماله وان لا يلجأ الى الديوا (ابليس ولعل الاصل من ܕܝܘܐ الارامية بمعنى ابليس) وكان مفروضاً على الرجل والمرأة في هذه الحال ان يسعى كل منهما بالحظ للاخر وكذا كانت بداية بدء افكارهما واعمالهما ... وقالا اولاً ان اهورمزدا اوجد الماء والارض والاشجار والبهائم والكواكب والقمر والشمس وكل خير يصدر عن اصل طاهر وثمرة صالحة ثم غلب الكذب على ذهنهما فغير استعدادهما وجعلهما يقولان ان انكرومانيوس (اله الشر) انما هو الذي اوجد الماء والارض والاشجار والحيوانات وكل ما مر ذكره فخادعهما منذ البداية بما يتعلق بابليس وما انفك هذا القاسي يمكر بهما حتى النهاية فصار كلاهما لتصديقهما هذا الكذب اشبه بالشياطين وتستمر انفسهما في الجحيم الى انبعاث الاجسام واكلا (ثماراً) مدة ثلاثين يوماً واتشحا مطارف سوداً وذهبا بعد ذلك يصطادان فوجدا عنزاً بيضاء فامتصا الحليب من ضرعها فطاب لهما كثيراً فازداد الديوا (ابليس) الكذاب جسارة فقدم لهما مرة ثانية ثماراً فاكلاها فلم يبقَ لهما الا منفعة واحدة من ماية منفعة كانت لهما ... وظهر لهما بعد مدة خروف وارشدهما الالهة السمويون الى ايجاد النار باحتكاك

(1) Aryas

الاخشاب فاضرما ناراً وشويا الخروف واكلا اللحم واكتسيا بالجلود ، فتأمل كيف تشف هذه الرواية عما ورد في سفر التكوين عن حالة البرارة التي ابدع الله بها ادم وحوآء وعما امرهما به وعن اغواء ابليس وخسارة ما كان لهما من المواهب وعن اقتيات الانسان اولاً بالثمار وعدم اغتذائه باللحم اولاً وعن اكتسائه بجلد البهيم . روى ذلك لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ١ صفحة ٣١ و ٣٢ طبعة ٩)

وقد روى لانرمان ايضاً (صفحة ٣٤) ان اثار الايرانيين انبأتنا بوجود رسم شجرة الحياة عندهم وترى في اثارهم تارة شجرة واحدة منبتها في وسط المنبع المقدس الذي يسمونه اردويسورا وتارة شجرتين (اي شجرة الحياة وشجرة المعرفة) طبق ما جاء في الكتاب عن شجرتي الفردوس وترى في اثار الهنود ايضاً رسم شجرة الفردوس مسماة (هاوما) اي شجرة الحياة وفي بعض اثارهم صوره اربع شجرات منبتها على اربعة جوانب جبل مارو المقدس واقدم اسم لبابل في لغة اقدم سكانها هو « تين تيركى » تأويله مكان شجرة الحياة . وعن الاب فيكورو (في كتابه المعنون الكتاب والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٢٨ طبعة ٤) ان الفرس كانوا ينقشون على فصوص خواتمهم صورة الشجرة المقدسة البابلية مع انه لا يعرف لها مثال في النبات واستمروا على ذلك من عهد الملوك الكينيين (المار ذكرهم اي منذ القرن الثامن قبل الميلاد) الى عهد ملوك الدولة الساسانية

وقد وجد العالِم شسنولا في احد المدافن القديمة في دالين (هي ايداليون القديمة) في وسط جزيرة قبرس وعاء من صنع الفينيقيين في القرن السابع او السادس قبل الميلاد وقد رسمت عليه صورة شجرة في اسفل جانبيها شبه عنقودين وحية كبيرة تدنو من الثمرة مادت عنقها لتقتطف من الثمر وهذا الوعاء محفوظ

في متحف الصنائع في نويرك وقد علق لانرمان صورته على كتـابه المذكور صفحة ٣٧ وهذا يدل بلا امتراء على ان الفينيقيين ايضاً كانوا يعتقـدون شجرة الفردوس ووسوسة الحية لحوآء بل ان رانان نفسه لم يتردد عن ان يسلم بوجود هذا التقليد عند الفينيقيين منقاداً الى ذلك بما جاء في فقرسنكوياتون التي ترجمها الى اليونانية فيلون الجبيلي وهو ان الانسان الاول وايون التي يراد بها حوآء اخترعت الاقتيات بثمار الشجر ٠

وقد وجد مثل هذه التقليدات عند السكانديناف (وهم قبيلة هاجرت من اقدم الايام من اسيا وتوطنت اسوج ونروج في شمالي اوربا) ففي كتاب معتقداتهم القديمة الذي ترجمته السيدة دي بوجا الى الافرنسية ونشر سنة ١٨٤٠ ما ملخصه ، ان ايدهونا غير المائتة كانت تسكن مع براجى في اسكرد في وسط العالم في الفردوس محرزة كمال البرارة فسلم اليها الالهة حراسة ثمار عدم الميتوتة على ان لوكى المحتال علة كل شر وممثل المبدا الشرير خدعها بثمار اخرى قال انه رآها في غابة واغراها باتباعه فتبعته لتجني منها فخطفها جبار فلم تبقَ السعادة بعد ذلك في اسكرد ، ومن البين ان هذه الرواية ايضاً تشف عما كتبه موسى في هذا الشان وان داخلها بعض التشوش (روى ذلك لانرمان في المحل المذكور صفحة ٣٢)

وكثيراً ما نرى في اثار مصر شجرة الحيـاة مصورة على المدافن خاصة فكأن التقليد انبأهم ان شجرة الحياة حُظر الوصول اليها فلا وسيلة لجني ثمرها في هذه الارض بل في عالم اخر ولا نشاهد هذه الشجرة السرية مفصولة البتة عن مياه الحياة . ونشاهد في اثارهم ايضاً ان الحية اباب تخاصم الاله رع (يراد به الشمس) عند تنظيمه العالم فيقتلها الاله هار او هاروس (وقد علق لانرمان في كتابه المذكور صفحة ٣٩) صورة هذا البطل او الاله مأخوذة عن هيكل ارفو في

مصر فتراه وبيده رمح يسحق به راس الحيـة (انظر الصورة عد ٥) وهذا يشف عما جاء في الكتاب « واجعل عداوة بينكِ (الضمير للحية) وبين المرأة ونسلك ونسلها فهو يسحق رأسكِ » ومن هذه الاثار ان الملك الارضي الذي افتتح به الاله (رع) وجود العالم والبشر كان عصرًا ذهبيًا لم يكن للاسف والحسد فيه من اثر . وكان المصريون اذا ارادوا التعبير عن شيء لامثيل له قالوا لم يكن له من مثيل من عهد الاله رع . ولا ريب ان في هذا اشارة الى ما قاله الكتاب في حال البر التي كان فيها ادم وحواء

واثبت لانرمان ايضًا (في صفحة ٣٦ من المجلد المذكور) صورة اخذت عن مدفن في متحف الكابيتول (الكمبيدوليو) في رومة رُسم فيها الاله برومائه جالسًا وقد اقام بيده الشمال على ركبتيـه صورة بشرية رسم هيكلها وبيمناه المنقاش ليرسم خطوطها وبجانبـه سلة ملأى ترابًا وصورة اخرى تامة ومينرفا الآلهة تضع على رأس الصوره التي بيد الاله طائرًا ذا اربعة اجنحـة رمزًا على الحياة ويرى في طرف الصورة الانسان الاول والمرأة الاولى عريانيين بجانب شجرة يقتطف الرجل من ثمارها الى غير ذلـك من الرموز الدالة على خلق الانسان وتنفسه واستحواذ الموت عليه وتناوله من شجرة معرفة الخير والشر ويقدر ان هذه الصورة نقشت في القرن الاخير قبل التاريخ المسيحي

الفصل السادس

(في الاباء الاولين قبل الطوفان)

عد ١٨

في قاين وهابيل

لم ينبئنا الكتاب كم كانت المدة التي اقام فيها ادم في الفردوس واول ما ذكره من احداثه بعد طرده منه انه عرف امرأته حوآء فحملت وولدت قاين وقالت رزقت رجلاً من عند الرب. فمعنى كلمة قاين قنية وثمرة وقد وردت في الكتابات القديمة في نينوى وبابل بمعنى من يقتني عبدًا وربما كانت منها كلمة قن بالعربية بمعنى الرقيق او كان بذلك أثر للعنة التي استحقها قاين لقتله اخاه • وعن ابن الاثير في الكامل • ان اهل العلم مختلفون في اسم قابيل فبعضهم يقول قين وبعضهم يقول قائن وبعضهم يقول قاين وبعضهم يقول قابيل •

ثم قال الكتاب • عادت (حوا) فولدت اخاه هابيل • وفسر الربيون هابيل بمعنى البخار او الهبلة بلغة العامة وبمعنى الباطل والغم والحداد وفي العربية هبلته امه بمعنى ثكلته وتسولوا الى ذلك بان مقتل هابيل كان لذويه علة الغم والحداد على ان اطلاق هذا الاسم عليه كان قبل مقتله لا بعده ومع هذا قال اهل العلم بهذا التفسير لعدم وجدانهم غيره ومن جعلوا معنى هابيل الباطل وجدوا له مسندًا في قول الجامع • باطلة الاباطيل وكل شيء باطل • فالكلمة في العبرانية هابيل وكأنه لقصر حياته زال كالبخار او كالشيء الباطل. على ان كثيرًا من الآثار الاشورية انبأنا ان كلمة هابيل ترد بمعنى ابن او ولد من الفعل هَبَل وَلَدَ (ولعل اصل اللفظ حبل) فهابيل بمعنى المولود • قال بذلك اوبر في كتابه

الدروس الاشورية صفحة ٣٥ (١) وترى كلمة هابال او ابال في مركب اعلام كثيرة اشورية مثل اشور بان هيبال اي ابن اشور وكذا سرد انابال وقال العالم سيلام (في كتابه بيان العهد القديم بالعلوم الاشورية صفحة ١٠ (٢) « من البين ان كل اللغات السامية الا الاشورية اضاعت كلمة هبلو بمعنى ابن فثبوت هذه الكلمة في تاريخ التكوين دال دلالة وضيحة على قدم هذا التاريخ » (ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ١ صفحة ٢٤٠ الى ٢٤١ طبعة ٤)

وكان هابيل على رعاية الماشية وقاين على حراثة الارض ومنه تبين ان هاتين الصناعتين المتوقف عليهما معاش الانسان كانتا معاصرتين له من بدئه وعمل بهما ادم كحكم الله عليه ان يأكل خبزه بعرق جبينه وعنه اخذ ابناؤه . وقد اوعز ادم الى ابنيه ان يقدما تقدمة للرب فقدم قاين من ثمار الارض وهابيل من ابكار غنمه وسمانها فتقبل الرب تقدمة هابيل بانزال نار سموية عليها كما في ترجمة تاودوسيون وعليه اكثر الاباء والمفسرون او بعلامة اخرى ولم يتقبل تقدمة قاين فشق ذلك على قاين ونكده واضمر الندر باخيه فاستدعاه الى الصحراء ووثب عليه فقتله فظهر له الرب مونبًا قاضيًا عليه بان يكون طريدًا شريرًا لا تعطيه الارض غلتها فادرك جريمته وارتاع قائلاً خطيتي اعظم من ان تغفر وتوهم ان كل من وجده يقتله فقال له الرب من قتل قاين فسبعة اضعاف يقاد به ليثبت الانتقام له وينهي غيره عنه وجعل الله فيه علامة كيلا يقتله كل من وجده . وقد اجمع المفسرون على انه لا بد ان كان لقائن اثام سابقة اقتضت رذل الله تقدمته . وعلى ان ما حمله على قتل اخيه انما هو حسده له لايثار الله له عليه . لكنهم لم

(1) Oppert Etudes Assyriennes (2) Sillem. das alte Testament im. Lichte der Assyrischeen Forschungen

يجمعوا على الذريعة التي توسل بها لقتله فلاهل العلم بذلك تخمينات لا يمكن ابلاغها درجة من التوكيد العلمي لعدم المسند لها منها قول ابي الفدا في تاريخه • وقيل بل كان لقابيل اخت توأمة وكانت احسن من توأمة هابيل واراد ادم ان يزوج توأمة قابيل بهابيل وتوأمة هابيل بقابيل فلم يطب لقابيل ذلك فقتل اخاه هابيل واخذ توأمته • وكذا ورد في الكامل لابن الاثير وفي غيره من كتب العرب وعنها اخذ سعيد ابن بطريق البطريرك الاسكندري هذه القصة في تاريخه العربي وذكرها ايضاً ابن العبري في تاريخ الدول عن مثوديوس وسمى توأمة قاين قليميا وتوأمة هابيل ليوذا بل روى ابن الاثير ان هذا الخصام بين ابني آدم كان قبل تقدمتهما فقال آدم لقاين يا بنيَّ لا تحل لك توأمتك فابى ان يقبل كلامه فقال له ابوه قرّب قرباناً ويقرّب اخوك هابيل قرباناً فايكما قبل الله قربانه فهو احق بها • فقربا القربان فكان ما رأيت وفرَّ قاين بتوأمته

قال القديس ايرونيموس (في تفسيره فصل ٢٧ من نبوة حزقيال) ان من تقليدات العبرانيين ان مقتل هابيل كان في صحارى دمشق وينسب مدفن هناك الى هابيل ولكن هذا لا وسيلة لاثباته • وذهب بعض الاباء ان هابيل لم يتزوج وفي التاريخ الاسكندري انه قتل قبل زواجه وقال غيرهم بل تزوج فلم يعقب ومهما يكن فموسى لم يذكر له عقباً ويرجح هذا قول حواء بعد ولادة شيت • اقام الله لي نسلاً اخر بدل هابيل • (تكوين ف ٤ عد ٢٥) فيتلخص منه انه لم يكن لهابيل نسل • على ان فم الذهب وغيره من الاباء اثبتوا زواجه بقولهم ان الضرورة دعت ان يتزوج باخته وفسر بعضهم قول الكتاب ان دمه ينادي او يصرخ من الارض بمعنى ان ذريته تطلب الانتقام من قاتله والله اعلم

اما قاين فاقام بعد مقتل اخيه في ارض سماها الكتاب ارض نود ووصفها بانها شرقي عدن فيتعلق تعينها بتعيين عدن وقد رأيت ما في ذلك من الخلاف •

واما العلامة التي جعلها الله له كيلا يقتله كل من وجده ففيها اقوال والذي قال به اكثر الاباء ان هذه العلامة كانت ارتجافًا في كل اعضائه نشأ عن مناخس ضميره وارتياعه من جنايته وقال بعض علماء هذا العصر ان العلامة كانت اسوداد جسمانه وجعلوه اصل السودان وجنح لانرمان نفسه الى شيء من هذا المذهب كما سترى في كلامنا على الطوفان . وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٣) ان قاين ازداد شرًا على شر وعكف على السلب والنهب وادخل الخداع والمكر في العالم ولم يذكر مسندًا لقوله وليس في الكتاب اشارة اليه . واما في شان موته فيقال ان لامك احد احفاده قتله اتفاقًا ظانًا اياه وحشًا وانه عرف بعد خطاءه فقال لامرأتيه عادة وصلة ما جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٣) . اني قتلت رجلًا لجرحي وفتىً لشدخي انه ينتقم لقاين سبعة اضعاف واما للامك فسبعة وسبعين . وقال بعضهم بل قتل نفسه او مات تحت ردم بيت سقط عليه (معجم الكتاب لكلمت في كلمة قاين) ولا يُعلم كم كانت سنوه فقال بعضهم ثماني ماية سنة وغيرهم نحوًا من سبعماية واخرون انها ستماية وثماني وثمانون سنة والله اعلم

قد عثر بعض الجوالين في هذا العصر على اثار وتقليدات عند امم بربرية مؤذنة بان مصدرها قتل قاين هابيل اخاه . منها ما رواه هومبولد (المجلد ١ من كتابه في منظر جبال كورديلار في امريكا) (١) عن اثر في المكسيك يمثل امرأة تخاطبها حية وعلى جانبهما رجلان يعتدي احدهما على الاخر وقال هذا العالم في ذلك ان هذه الصورة مثال للمرأة مع الحية وهي في عرف اهل المكسيك ام النوع البشري ومن تقليداتهم انها ولدت رجلين توأمين فصورة رجلين عريانين بجانبها يعارك احدهما الاخر تذكرنا بقاين وهابيل . وروى العالم

(1) de Humboldt vue des Cordillieres to 1

دومون دورفيل (في كتاب سفره في استرولاب السفينة التي سافر فيها (١) ان اخص معبودات اهل زولاندا الهان اخوان قتل اكبرهما اصغرهما واكله . وانه وجد في جزيرة تونكا (من جزر الاوقيانوس) تقليدًا بان احد الهتهم كان له ابنان اصغرهما مجمل بالحكمة وقد اخترع كثيرًا من الصنائع والمعارف واما الاكبر فكان مكسالاً لعابًا يعدو الى هنا او هناك او ينام ويذري باعمال اخيه الى ان صادفه يومًا في الصحراء فقتله فانحدر اليه ابوه محتدمًا فسأله لِمَ قتلت اخاك اما كان لك ان تعمل كاعماله قبح الله صنعك (عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة قاين)

عد ١٩

في شيث

جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٥) « وعرف ادم امرأته ايضًا فولدت ابنًا وسمته شيثًا » وقال بعيده ان مولد شيث كان لسنة ١٣٠ لادم وفي الترجمة السبعينية لسنة ٢٣٠ له وقد ضبط ابو الفدا كلمة شيث بالثاء المثلثة وكذا في الكامل لابن الاثير وفي تاريخ ابن خلدون وفسر ابو الفدا الكلمة بمعنى هبة الله والاظهر تفسير لانرمان لها (في مجلد ١ من تاريخه صفحة ٤٣) بمعنى اساس واصل فهي تقرب من كلمة ܫܬܐܣܐ (الاساس والاصل) في اللغة السريانية اخت العبرانية ان لم نقل بنتها او امها وشيث كان اصلاً لجميع بني ادم الذين ذكرهم الكتاب الا ذرية قاين . وقد سمى سفر التكوين (في ف ٦ عد ٢) ذريته ابناء الله لعملهم بسنة الله وسمى ذرية قاين بنات الناس لانحرافهم عن جادة الحق والبر وعكوفهم على الشهوات والمعاصي . وولد ادم وحواء بعد مولد شيث بنين وبنات اخرين ذكر الكتاب اجمالهم ولم يصرّح باسمائهم ولا تعدادهم اذ

(2) Dumont d'Urville Voyage de l'Astrolabe an 1832 tom Iv par 1

قال ٠ وعاش ادم بعد ما ولد شيثاً ثماني مئة سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت كل ايام ادم التي عاشها تسعماية سنة وثلاثين سنة ومات ٠ (تك ف ٥ عد ٤ و ٥) وكان ولد قبل شيث بنات زوجهن باخوتهنّ بسماح الله وحكم الضرورة وتزوج شيث ايضاً باخت له سماها القديس ابيفانيوس (في ارطقة ٣٩) اوريا فولد له وعمره ماية وخمس سنين ابنه انوش وفي كتب المؤرخين العرب ومنهم ابو الفدا في التاريخ ٠ تقول الصابية انه ولد لشيث ابن اخر اسمه صابي ابن شيث واليه تنسب الصابية ٠ وعاش شيث بعد ما ولد انوش ثماني ماية وسبع سنين ولد فيها بنين وبنات فكانت ايام شيث تسع مئة سنة واثنتي عشرة سنة ومات ٠ (تك ف ٥ عد ٧ و ٨)

عد ٢٠

في ذرية قاين

اما ذرية قاين فقال فيها الكتاب (تك ف ٤ عد ١٧) ٠ وعرف قاين امرأته فحبلت وولدت اخنوخ ثم بنى قرية فسماها باسم ابنه اخنوخ ٠ وسماه ابن الاثير في الكامل حنوخ بالحاء المهملة وسترى ان احد اعقاب شيث يسمى بهذا الاسم ايضاً واما القرية او المدينة التي بناها وسماها باسم ابنه اخنوخ او حنوخية فلا يعرف موقعها فيتعين ان يكون في شرقي عدن حيث اقام قاين كما قال الكتاب غير ان شرقي عدن بل عدن نفسها غير متفق على موقعها وكلمة شرقي تتناول كثيراً من البلاد الى الشرق فلا تحقيق ومع هذا نروي ما قال بعضهم ٠ ذكر بتولمايس مدينة تسمى احنوختا في سوسيانا وهي الان خورستان الواقعة بين بلاد فارس شرقاً وبلاد اشور غرباً وخليج العجم جنوباً ٠ وفي الكتاب المنسوب لباروز وعنه اخذ ادريكوميوس ان مدينة حنوخ كانت الى الشرق من لبنان في نواحي دمشق ٠ وعند غيرهم انها كانت في بلاد العرب الحجرية

والصحيح ان موقعها غير معروف كما مر

ثم ان اخنوخ بن قاين ولد عيراد ولا يعرف شيء من اخباره الا اسمه وعيراد ولد محويائيل وهذا ولد متوشائيل وجعل ابن الاثير هولاء الثلثة اخوة ابناء حنوخ خلافًا للتوراة وسماهم غيرد ومحويل واتوشيل . ومتوشائيل ولد لامك وشهره الكتاب بانه اتخذ امرأتين معًا ويظن انه اول من ادخل في العالم عادة الزواج باكثر من امرأة واحدة وكان اسم اولى امرأتيه عادة واسم الثانية صلة (وفي كلام ابن الاثير عدى وصلى بالقصر) فولد له من الاولى يابل ويوبل ومن الثانية توبل قاين وبنتًا اسمها نعمه (تك ف ٤ عد ١٩ الى عد ٢٣) وقال يوسيفوس (ك ١ من تاريخ اليهود ف ٢) انه ولد للامك من امرأتيه ستة وسبعون ابنًا لكن الكتاب لم يذكر الا ثلثة بنين وبنتًا كما رأيت وقال لامك ذات يوم لامرأتيه « اسمعا قولي وانصتا لكلامي اني قتلت رجلاً لجرحي وفتىً لشدخي انه ينتقم لقاين سبعة اضعاف واما للامك فسبعة وسبعين » (تك ف ٤ عد ٢٤) وتقليد العبرانيين ما قدمناه اي ان لامك قتل قاين خطأً وقال بعض المفسرين بل قتل رجلاً اخر فان ذرية قاين اعتادت مثل هذه الفظائع

وقال الكتاب في يابل ابن لامك انه « ابو ساكني الخيام ومتخذي المواشي » فكلمة اب في مثل هذا التعبير في الكتاب يراد بها الاول او البادىء بطريقة ما فيكون المعنى ان يابل اول من اعتاد الارتحال والسكنى تحت الخيم ورعاية المواشي كرحل ايامنا . واما يوبل فقال الكتاب فيه انه (ابو كل عازف بالكنارة والمزمار) اي انه اول من ادخل فن الضرب بالبونج والصنج والعزف بالكنارة والمزمار . واما اخوهما لابيهما توبل قاين فقال الكتاب انه « اول صقيل لجميع المصنوعات النحاسية والحديدية » اي اول من اخترع صنع الآنية والادوات من النحاس والحديد . وقد اثبتت الاكتشافات الحديثة ان اول العمل في المعادن

وما يصنع منها كان في اسيا . واثبتت المجلة المعروفة بالكاثوليكية (١) التي تطبع في لوفان (البلجيك) في احد فصولها في اب سنة ١٨٧٨ (في صفحة ١٢٠ الى صفحة ١٣٨) ان صناعة العمل في المعادن ابتداها توبل قاين هذا (فيكورو في الموجز الكتابي عد ٢٩٣ ومعجم الكتاب لكلمت في الكلم المذكورة) ولم يذكر الكتاب غير هولاء من ذرية قاين

عد ٢١

ابناء شيث الى نوح

قد مرَّ ان شيثًا ولد انوش وعمرهماية وخمس سنين فكان مولد انوش لسنة مائتين وخمس وثلاثين لآدم على ما في العبرانية وقال الكتاب (تك ف ٤ عد ٢٦) « وحينئذٍ (اي في ايام انوش) أُبتدي بالدعاء باسم الله » وفسَّر كثيرون هذه الآية بمعنى ان انوش وضع نظامًا لعبادة الله الخارجيـة وللصلوة العامة اذ كان يجتمع بذويه فيسبحون الله ويشكرونه . وذهب كثيرٌ من الربيين ان عبادة الاوثان ابتدأت في عهد انوش فترجموا الآية « وحينئذٍ أُبتدي باحتقار اسم الله » اي شرع بعض الناس يسمي المخلوقات والاصنام آلهة . ويمكن ترجمة الآية « وحينئذٍ أُبتدئ بالتسمية باسم الله » ليكون المعنى ان الناس الصلّح طفقوا يسمّون انفسهم ابناء الله او عبيد الله تميزًا لهم عن الاشرار فيكون هذا تمهيدًا لما قاله موسى بعد ذلك (ف ٦ عد ٢) « لما رأى ابناء الله (اي نسل انوش الصحيح المعتقد) بنات الناس » اي نسل قاين الاشرار . وعن بعض المؤرخين العرب ان شيثًا جعل ابنه انوش سيدًا متسلطـًا وحبرًا على الناس بعده وانه اول من اقام المحاكم واول من اوصى بالصدقة . وعاش انوش تسعين سنة الى ان ولد قينان وعاش بعد ما ولده ٨١٥ سنة وولد فيها بنين وبنات فكان مجمل سنيه ٩٦٥ .

(1) Revue catholique de Louvin

وفسَّر لانرمان (مجلد ١ صفحة ٤٣) اسم انوش بمعنى انسان

فولد اذًا قينان لسنة ٣٢٥ لآدم ولم ينبئنا الكتاب شيئًا من اخباره الاَّ انه ولد مهلائيل لسبعين سنة من عمره وانه عاش بعد ما ولده ٨٤٠ سنة ولد فيها بنين وبنات وان مجموع سنيه كان ٩١٠ سنين واذا اضفنا الى سني آدم المار ذكرها سبعين سنة عمر قينان حين ولادته وجدنا مهلائيل ولد سنة ٣٩٥ لآدم وفسَّر لانرمان (في المحل المذكور) كلمة قينان بمعنى خليقة (واظن الاولى تفسيرها بقنية او مقتنى) وكلمة مهلائيل بمعنى تسبحة الله وعن ابن الاثير عن هاشم ابن الكلبي ان مهلائيل اول من بنى البناء واستخرج المعادن وامر اهل زمانه باتخاذ المساجد وبنى مدينة بابل في العراق ومدينة السوس بخورستان. وهذا مما يورد ولا يمكن اثباته اذ لا سبيل الى اقامة البينة عليه

وولد مهلائيل يارد لسنة ٦٥ من عمره وعاش بعد ما ولده ٨٣٠ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت كل سنيه ٨٩٥ سنة واذا اضفنا ٦٥ سنة الى سني آدم السابقة وجدنا يارد ولد سنة ٤٦٠ لآدم ولم ينبئنا الكتاب من اخبار يارد الا انه عاش ١٦٢ سنة الى ان ولد اخنوخ (او حنوخ) سنة ٦٢٢ لآدم وعاش يارد بعد ما ولد اخنوخ ٨٠٠ سنة ولد فيها بنين وبنات ومات وله من العمر ٩٦٢ سنة وسماه المؤرخون العرب يرد ايضًا وفسَّر لانرمان اسمه بمعنى انحدار او ذرية

واخنوخ هو الذي يسميه المؤرخون العرب ادريس وقد جاء في التوراة ان اخنوخ ولد متوشالح لسنة ٦٥ من عمره وانه سلك مع الله بعد ما ولده ثلاثماية سنة ولد فيها بنين وبنات وان كل ايامه كانت ٣٦٥ سنة ولم يوجد بعد لان الله اخذه (تك ف ٥ عد ٢٤) وفهم بعض المفسرون الاية الاخيرة بمعنى ان اخنوخ مات موتًا طبيعيًا لكنه لم يدرك سني سائر الاباء الاولين اذ عاش اقل من جميعهم ٣٦٥ سنة فكأن الله اراد ان يقيه الفساد فاماته قبل الوقت

المعتاد في تلك الايام . الا ان اكثر الاباء والمفسرين على انه لم يمت بل حجبه الله عن مرأى الناس كما فعل بايليا بعده ويؤيد هذا قول بولس الرسول « وبالايمان نقل اخنوخ لكي لا يرى الموت ولم يوجد بعد لان الله نقله اذ قبل نقلهِ شهد له بانه ارضى الله » (عبرانية ف ١١ عد ٥) وقال فيه ابن سيراخ (ف ٤٤ عد ١٦) « اخنوخ ارضى الرب فنقل » وزادت النسخة اللاتينية العامية « الى الفردوس » اي الارضي ولا وجود لكلمة الفردوس في اليونانية وفهم القديس ايرونيموس بذلك انه نقل الى السماء وكذا يعتقد المؤرخون المسلمون العرب فقد جاء في تاريخ ابي الفدا « واما حنوخ وهو ادريس فانه رفع لما صار له من العمر ثلاثمائة وخمس وستون سنة رفعه الله الى السماء »

ويعزى الى اخنوخ سفر لم تثبته الكنيسة الكاثوليكية بين الاسفار المقدسة على ان القديس يهوذا الرسول قال في رسالته (عد ١٤) « وقد تنبأ على هولاء (الاثمة) ايضًا اخنوخ سابع آدم (اي السابع بعده) حيث قال هوذا يأتي الرب في ربوات قديسيه ليجري القضاء على جميعهم ويحج جميع المنافقين منهم على كل اعمال نفاقهم التي نافقوا بها » فكان هذا للمفسرين معضلة يعسر الاهتداء لوجهها أاخذ الرسول هذه الاية عن كتاب لاخنوخ كان في صدر النصرانية ام عَلِمَ ذلك بتقليد او وحي خاص والاظهر ان الرسول قرأ هذه الفقرة في سفر اخنوخ او في كتاب اشتمل عليها وهو لاستنارته بالالهام الالهي اشتشهد بها بما انها حقيقة وان لم يكن السفر برمته قانونيًا على ان مشاهير الاباء لم يعتبروا من هذا السفر منزلاً الا هذه الفقرة لاثبات يهوذا الرسول لها في رسالته المعدودة من الاسفار الموحاة . وفسَّر لازمان (في المحل المذكور) كلمة اخنوخ بمعنى المبتدى

واما متوشالح بن اخنوخ فكان مولده سنة ٦٨٧ لآدم ونبأنا الكتاب انه

عاش ١٨٧ سنة الى ان ولد لامك وعاش بعد ولادته ٧٨٢ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت سنوه ٩٦٩ سنة واذا اضفنا سني عمره الى سني آدم حين مولده كان مجموعها ١٦٥٦ سنة هي سنة الطوفان بحسب النسخة العبرانية واللاتينية العامية فيكون قد مات سنة الطوفان قبل حدوثه . وفسَّر لانرمان اسمه بمعنى رامي السهام والظاهر من المقاربة بين العبرانية والسريانية ان الكلمة مركبة من ܡܝܬ مات و ܫܠܚ ارسل او بعث ولذا جعل بعضهم تأويل اسمه مات فارسل الطوفان لما مر من امر وفاته سنة الطوفان سماه موسى بهذا الاسم واما لامك بن متوشالح ويسمى لمك ايضاً فولد سنة ٨٧٤ لادم وعاش ١٨٢ سنة الى ان ولد نوحاً وعاش بعد ولادته ٥٩٥ سنة فكان مجموع سنيه ٧٧٧ سنة فان اضفنا هذا المجموع الى سني ادم حين ولادته وجدنا ان موته كان ١٦٥١ خمس سنين قبل الطوفان وقبل موت والده متوشالح . وفسر لانرمان كلمة لامك بمعنى الشاب السمين القوي

واما نوح فقسر الكتاب اسمه بمعنى الراحة والتعزية واذا اضفنا سني مولد ابيه الى سني ولادته نوحاً وجدنا ان مولد نوح كان سنة ١٠٥٦ لادم وانبأنا الكتاب (تك ف ٥ عد ٢٢) انه كان ابن خمسماية سنة لما اخذ يلد ابناءه ساماً وحاماً ويافث . ثم انه كان ابن ستماية سنة لما كان ماء الطوفان على الارض (تك ف ٧ عد ٦ و ١١) وعليه فكان الطوفان سنة ١٦٥٦ لادم هذا بحسب الاصل العبراني والترجمة اللاتينية العامية وغيرهما من النسخ على ان النسخة السامرية انقصت شيئاً من سني الاباء الى ان ولدوا فكان الطوفان بموجبها سنة ١٣٠٢ لادم وزادت النسخة السبعينية في عداد تلك السنين فكان الطوفان على موجبها سنة ٢٢٤٢ لادم وسنضع جدولاً يتبين منه هذا الفرق بين النسخ ومواطنه

قد رأيت ان جميع الاباء الا نوحاً ولدوا وآدم في الحياة وامكنهم ان يعاشروه ويتلقوا عنه الاخبار الصحيحة عن ابداع العالم وما علمه الله اياه وكثير منهم لا سيما متوشالح ولامك عاشروا نوحاً سنين متطاولة فسلموا اليه ما تسلموه من آدم ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ثلاثماية وخمسين سنة (تك فصل ٩ عد ٢٨) امكن ابرهيم ان يعيش معه نصف قرن ونيفاً بحسب الاصل العبراني ويتلقى عنه التقليدات الصادقة ولا اقل من ان يتلقاها عن سام ابنه بحسب الترجمة السبعينية وتبلغ الى اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة قليلة الحلقات كما سترى

عد ٢٢

طول حياة الاباء الاولين

ان طول حيوة الاباء قبل الطوفان الى نيف وتسعماية سنة كان من قرون مشكلاً توفرت الاقوال في حله ومنذ زمان القديس اغوسطينوس كان يحاول بعضهم ايجاز هذه المدد المتطاولة زاعمين ان ليس المراد بالسنة الا ستة وثلاثون يوماً على ان موسى لم يقل كلمة تجعل اللبس في ان المراد بسني الاباء غير المراد بالسنة في باقي كلامه بل ان ذكره الشهر السابع والعاشر (تك ف ٧ عد ١١ وف ٨ عد ٤) هو نص صريح على ان الشهر يختلف عن السنة التي تتألف لا اقل من ثلاثماية وستين يوماً . وما احسن ما قاله القديس اغوسطينوس (كتابه في مدينة الله راس ١٥) في هذا الصدد وهو ان شيئاً ولد ابناً وعمره ماية وخمس سنين وقينان ولد ابناً وعمره سبعون سنة فلو كانت السنة ستة وثلاثين يوماً لنتج ما هو مستحيل بيّن اي ان شيئاً ولد وعمره نحو من عشر سنين وقينان ولد وعمره نحو من سبع سنين فالمراد اذاً بسني عمر الاباء سنون حقيقية وان الاباء قبل الطوفان كانوا طويلي الاعمار لحكمة من قبل الله يظهر لنا من مقاصدها

السامية نماء النوع البشري والتكمل بالمعارف والمحافظة على ما علّمه الله آدم بالتقليد كما رأيت قبله وقد جعل الله بنية هولاء الاباء قوية تتحمل كرور هذه السنين وعاونت على ذلك صيانتهم بالبرارة والاعتدال وتنكبهم كل افراط . وقال يوسيفوس (في ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٣) ان الله اطال عمر هؤلاء ثوابًا لفضائلهم وتوسلاً للتكمل بالمعارف والعلم ... وكل من كتبوا التاريخ يونانًا كانوا او غيرهم يشهدون لما قلته فان مانيتون الذي كتب تاريخ المصريين وباروز الذي كتب تاريخ الكلدان وموكوس واستيوس وهيروم المصري الذين كتبوا تاريخ الفينيقيين قالوا هذا القول نفسه . واسيود واكرتا واكوسيلاس وايلانيك وايفور ونيقولاوس رووا ان الاولين كانوا يعيشون حتى الف سنة .

فيقول جاحدوا التنزيل ان طول العمر بهذا المقدار مخالف للطبع ومضاد علم التشريح (الفيسيولوجيا) لكن هذا العلم لا مستند له الأ ما يشاهد في الحال الحاضرة ومعتمده في تحديد عمر الناس انما هو الاختبار والمعاينة لتركيب الاجسام الان فلا تمتد نتائجه الى ما لا يرى الان فلو سلمنا بان تركيب الاجسام الان يستحيل معه البلوغ الى عمر الاباء قبل الطوفان لما نتج منه ما يخالف قول الكتاب في الاباء الاولين . هذا وكثيرًا ما وجد في هذه الاعصر اشخاص تجاوزوا العمر المعتاد وبلغوا الى ماية وخمسين او مايتي سنة ايضًا من عمرهم فروى بريشارد (١) امثلة كثيرة منها ان رجلاً اسمه توما بار من شروب على تخوم بلاد غال (٢) اشتهر بطول عمره وبلغ منه ١٥٢ سنة فرغب كرلس الاول ملك انكلترا في ان يراه فاشخصوه الى بلاطه واراد بعضهم الاحتفاء به والايلام له فافرط في الماكل فمات متخومًا فشرّحه الطبيب هرفاي الشهير فوجد امعاءه وباقي

(1) Prichard (2) Thomas Parr du comté de Shrop

اعضائه الرئيسيَّة على تمام السلامة وقضى انه كان يمكنه ان يعيش سنين عديدة لولا التخمة التي اصابته . وحقَّق الجوَّالون في هذا العصر ان طول الحياة ليس نادراً في العرب سكان صحارى افريقية ويكثر وجود افراد يتجاوزون المائة من سنهم في البلاد الباردة كروسيًا وغيرها وربما كان الهواء قبل الطوفان اصلح منه للصحة بعده فضلاً عما يوجد من البون الكبير بين المعيشة والاشغال قبلاً والان (عن الوجيز الكتابي لفيكورو عدد ٢٩٤ بتصرف)

عد ٢٣

التطابق بين عدد الاباء قبل الطوفان في الكتاب وبين عددهم في اثار القبائل

من المستغرب انا نجد عند اكثر القبائل القديمة عشرة اباء او ملوك اولين طبق عدد الاباء العشرة الذين ذكرهم الكتاب من آدم الى نوح وتزول الغرابة اذا تذكرنا ان اصل الناس واحد وان التقليد الذي اودعه موسى سفر التكوين حفظته هذه القبائل باثارها يمازجه شيء من التشوش او تغير الاسماء من جرى كرور الاعوام واختلاف اللغات والجهل وعبادة الاوثان . فقد نبأتنا تقليدات الكلدان تتابع عشرة اباء قبل الطوفان سمتهم ملوكاً ونظم فرنسيس لانرمان (في مجلد ١ من تاريخه صفحة ٤٣ طبعة ٩) عن فقر لاروز اسماءهم في جانب اسماء العشرة الاباء قبل الطوفان في جدول اختلفت فيه الاسماء وتطابق العددان في الكتاب والاثار . وروى ان ابيدان (هو كاتب يوناني كتب تاريخ بعض شعوب اسيا في عهد خلفاء اسكندر) جمع من تقليدات الاشوريين ما يتبين منه ان هذه القبيلة كان فيها في بدء امرها قبل بناء نينوى عشرة ابطال تولوا تدبيرها ومن معتقدات الايرانيين القدماء انه قام فيهم عشرة ملوك يسمونهم باشدين

اي رجال السنة القديمة ويقولون انهم كانوا يقتاتون بشراب يسمونه (هوما) اي شراب عدم الميتوتة اشارة الى طول اعمارهم . واعتقد الهنود وجود تسعة اباء يسمونهم (براهمديكاس) ويضيفون اليهم براهما اصلهم واولهم ويسمون الكل (البيتريس العشرة) اي الاباء العشرة . وقال الجرمانيون والاسكنديناف (سكان اسوج ونروج القدماء) بعشرة جدود (لاودين معبودهم) . واعتقد الصينيون عشرة سلاطين اشتركوا بالطبع الالهي قبل بزوغ انوار الاعصر التاريخية . ومن تقليدات العرب تتابع عشرة ملوك من قبيلة (عاد) وهم مع قومهم اول من سكن شبه جزيرتهم بين البحر الاحمر والخليج العجمي وعدَّ سنكونياتون عشرة مواليد للاباء الاولين عند الفينيقيين اولهم بروتوكونوس اي المولود الاول وايون اي حواء . ذكر هولاء الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤١ طبعة ٤) وروى لانرمان (في التاريخ القديم مجلد ١ صفحة ٤٣ و ٤٤ طبعة ٩) ما رواه فيكورو وزاد عليه ان ابيدان المار ذكره آنفاً عدَّ عشرة ابطال عند الارمن القدماء تقدموا ارام (بن سام بن نوح) جد هذه القبيلة على مذهبه الذي تابعه به علماء مدرسة الرها وغيرهم . وان المصريين اعتقدوا ان الالهة حكموا في الارض في الاعصر الاولى للبشرية على ان فقرَ مانيتون التي تكلم فيها على هذه الاعصر الاولى بلغت الينا مشوهة لا يهتدى بها الى توكيد عدد هولاء الحكام . لكن البابير التاريخي الكائن الان في متحف تورين يستنار منه ان الالهة الذين تولوا سياسة الناس في البدء كانوا عشرة طبق تقليدات سائر الامم فهذا التطابق في عدد الاباء العشرى في الكتاب وفي اثار هذه القبائل كلها يستحيل ان يكون مصادفةً واتفاقاً ولا وجه له الا انه عن مصدر واحد هو التقليد الاولى الذي استودعه موسى سفر التكوين والقبائل اثارها

ان التقليد البابلي في عهد باروز كان يجعل لولاية الملوك الذين حكموا قبل الطوفان مددًا مديدة من السنين يقسمونها الى ماية وعشرين مدة ويسمون كلاً منها (سارًا) وجعل باروز كل سار منها ثلاثة الاف وستماية سنة فكان عدد السنين معظمًا كثيرًا . على ان سويداس (وهو مؤلف يوناني يظن انه كان في القرن التاسع او العاشر بعد الميلاد) افادنا في معجمه ان السار في عرف البابليين عبارة عن ثماني عشرة سنة وستة اشهر فالماية وعشرون سارًا تساوي في عرفهم ٢٢٢٢ سنة لان السار يساري ٢٢٢ شهرًا قمريًا فيتألف منها ثماني عشرة سنة وستة اشهر فاذا ضُربت في ماية وعشرين كان الحاصل الفين ومايتين واثنتين وعشرين سنة . وعليه فكان للسار استعمالان احدهما فلكي يساوي ٣٦٠٠ سنة والاخر مدني يساوي ١٨ سنة وستة اشهر . وعلى مقال سويداس يلزم اعتبار الماية والعشرين سارًا قبل الطوفان بحسب الاستعمال المدني واذا حسبناها كذلك وجدنا بين تاريخ الكتاب وتاريخ الكلدان تطابقًا او تقاربًا مدهشًا لا سيما اننا نتوصل الى ذلك بطريقتين مختلفتين فتؤدينا كلتاهما الى نتيجة واحدة فالطريقة الاولى اساسها السنة التي ولد فيها احد الاباء ابنًا كما هي في سفر التكوين والثانية اساسها المدة التي حكم فيها كل من الملوك العشرة عند الكلدان قبل الطوفان فهذه الاعداد تؤدينا على مباينتها الى ظهور الاتفاق بين نص الكتاب والاثار الكلدانية كما سترى في الجدول التابع الذي يكشف لك ايضًا عن الفرق الكائن بين نسخ الكتاب العبرانية والسامرية والسبعينية وعن مواطنه كما وعدنا انفًا بذلك وهاك الجدول

الاباء قبل الطوفان	عن النسخة العبرانية والعامية	السامرية	السبعينية	عدد المدات	مجموعها مضروبة في ١٨ سنة ونصف	اسماء ملوك الكلدان قبل الطوفان
ادم ولد شيثاً	١٣٠	١٣٠	٢٣٠	١٠	١٨٥	الوروس
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥	٣	٥٦ ½	الاباروس
انوش	٩٠	٩٠	١٩٠	١٣	٢٤٠ ½	المالون
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠	١٢	٢٢٢	امينون
مهلائيل	٦٥	٦٥	١٦٥	١٨	٣٣٣	امكالروس
يارد	١٦٢	٦٢	١٦٢	١٠	١٨٥	داونوس
اخنوخ	٦٥	٦٠	١٦٥	١٨	٣٣٣	ادورنكوس
متوشالح	١٨٧	٦٧	١٦٧	١٠	١٨٥	امابسينوس
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨	٨	١٤٨	اتيرتس
نوح سنة الط	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠	١٨	٣٣٣	كيسوترس
١٠	١٦٥٦	١٣٠٢	٢٢٤٢	١٢٠	١٢٢١	١٠

فالظاهر من هذا الجدول ان مجموع السنين الحاصل من المابة والعشرين ساراً مدد ملوك الكلدان الى الطوفان محسوبة على مذهب سويداس يوافق عداد السنين التي خلت من خلق الانسان الى الطوفان بموجب النسخة السبعينية وليس من فرق بينهما بسوى احدى وعشرين سنة مع ان النسخة السبعينية تزيد على العبرانية ٥٨٦ سنة وعلى السامرية ٩٤٠ سنة والكنيسة لم تقطع في القول بشيء من هذه الاعداد ولو كان هذا الاتفاق بين الكتاب واثار غير الكلدان لربما امكن تخريج وقوعه على المصادفة ولكن وقوعه في اثار الكلدان الذين كثيراً ما تساوت تقليداتهم وتقليدات العبرانيين يصوب لنا حسبان هذا التطابق حقيقياً واقعياً . انتهى ملخصاً عن فيكورو (في مؤلفه الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤٥ طبعة ٤)

﴿ عد ٢٤ ﴾

في الجبابرة

جاء في سفر التكوين (ف ٦ عد ١ وما يليه) ، ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الارض وولد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس انهنَّ حسنات فاتخذوا لهم نساء من جميع من اختاروا . . وكان على الارض جبابرة في تلك الايام وايضاً بعد ان دخل بنو الله على بنات الناس وولدنَ لهم اولاداً اولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر ، وقد مرَّ ان المراد ببني الله ابناء شيث وانوش الذين ابتدأوا يدعون باسم الله واستمروا يحفظون سننه وان المراد ببنات الناس ذرية قاين الذين سلكوا طريق الاثم . وقد ورد ذكر الجبابرة في آيات اخرى عديدة من الكتاب بعد الطوفان ايضاً كجبابرة بني عناق الذين ذكرهم جواسيس موسى في ارض الموعد (سفر العدد فصل ١٣ عد ٣٣) وكعوج ملك باشان (نشيد فصل ٣ عد ١١) وكجليات الذي صرعه داود (ملوك ١ فصل ١٧ عد ٤) وقد وافقت اثار القبائل وتقليداتها ايات الكتاب في ذكر الجبابرة فقال باروز سنداً الى تقليدات الكلدان ان الاناس الاولين كانوا ذوي قامة وقوة عجيبتين وانه استمر مثل هولاء بعد الطوفان ايضاً وترى الاثار الكلدانية تعبر عن الجبابرة بكلمة (كبرو) او (جيبور) كما يعبر الكتاب عنهم . وترى اثار اليونان واشعار شعرائهم طافحة بذكر الجبابرة واعمالهم ومن تقليداتهم ان جنوب جزيرة رودس وجزيرة كوس كان اول سكانها من الجبابرة وروى مار اباس كاتينا مؤرخ الارمن حروب هولاء الجبابرة في ارمينيا ومابين النهرين وقد فشا في كتب العرب واثارهم وصف الجبابرة في قبيلتي عاد وثمود وبني عناق والعمالقة وترى مثل ذلك في اثار المصريين والهنود وغيرهم من القبائل العريقة في القدم (روى ذلك لانرمان في تاريخه مجلد ١ صفحة ٤٧ وفيكورو في الكتاب

والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٤٦) وما من ناكر انه وجد ويوجد في بلادنا وغيرها اعضاء بشرية تتجاوز في طولها وضخامتها اعضاء البشريين في هذه الايام

على ان كلمة الجبابرة في الاصل العبراني في اية التكوين هي نوفل او نيفليم ومعناها رجل مرعب او قدير وترجمها اكويلا في اليونانية بكلمة معناها الرجال المحاربون او المعتدون وسيماخوس بكلمة معناها الرجال القساة او المحبو الاعتداء والسبعينية بجيكاس او جيبور ومعناه الرجل القدير المحارب ولذلك ذهب بعض العلماء القدماء والحدثاء ان الجبابرة الذين ذكرهم الكتاب كانت شهرتهم باعتدائهم وشراسة اخلاقهم واثامهم اكثر منها بقوتهم وطول قاماتهم على ان الاكثرين من الاباء والعلماء علموا بانه كان جبابرة امتازوا لا باعتدائهم وسطوهم فقط بل بقوتهم وطول قاماتهم ايضاً وقد اسهب كالمت (في معجم الكتاب في كلمة جبابرة) بايراد الحجج الدامغة والبينات الوضعية على وجود جبابرة ضخام الجثث طويلي القامات دلت عليهم بقايا اجسامهم العديدة فضلاً عن ايات عديدة من الكتاب لا يمكن تخريجها الى معنى الاعتداء والمعاصي وفضلاً عن شهود عدل من المؤرخين وعما ذكرناه من اثار القبائل بل لا يمكن اصحاب الزعم المضاد ان يقيموا نكيراً على انه يوجد في هذا العصر وقد وجد في كل عصر اناس غير عاديين في طول قاماتهم وقوتهم ووجود بقايا بشرية لا تزيد على اعضاء اهل عصرنا لا يثبت ولو مهما كثرت تلك البقايا انه لم يكن جبابرة بل يقتصر اثباتها على انه لم يكن كل الناس جبابرة وعلى كلا الرائين يبقى صدق الكتاب كاملاً سالماً فان فهم بالجبابرة قبل الطوفان الاثمة واصحاب المعاصي او طوال القامات والمقتدرون فسيان في صدق الكتاب وربما كان المعنى الاول انسق واكثر التحاماً مع كلام الكتاب في انزال الله الطوفان عقاباً لمعاصي الاشرار

واي محال في وجود اشخاص غير عاديين قبل الطوفان او بعـده وقد وجد مثل هولاء في كل عصر بالنسبة الى سائر اهله

الفصل السابع

(في الطوفان)

(عد ٢٥)

رواية الكتاب خبر الطوفان

جاءنا سفر التكوين في الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع منه باخبار الطوفان وما تعلق به فكانت الخلاصة انه لما فسدت الارض اي اهلها امام الله وملئت اثمًا وجورًا استآء الله من الناس استيآءً عبر عنه الكتاب بالندم والاسف على انه خلقهم وعزم ان يمحوهم من الارض مع ما ابدعه من الحيوان والطير الا نوحًا واسرته فامره ان يصنع فلكًا ويقسمه الى طبقاتٍ ومواضع ويطليه من داخل ومن خارج بالقار ويجعل طوله ثلثماية ذراع وعرضه خمسين وعلوه ثلاثين ذراعًا والذراع عبارة عن نصف المتر في ايامنا على الصحيح وان يدخل الفلك باهله اي امرأته وبنوه ونساوهم وان يدخل معه من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة ذكورًا واناثًا ومن الحيوانات الغير الطاهرة اثنين ذكرًا وانثى مع ما يلزم من العلف والقوت فصنع نوح كما امره الرب وفي سنة الستماية من عمره في السابع عشر من الشهر الثاني (الذي يظهر انه تشرين الثاني) تفجرت حينئذٍ عيون الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء وكان المطر على الارض اربعين يومًا واربعين ليلة حتى حمل الماء الفلك وكثرت المياه حتى غطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء كلها وعلت على الارض خمسة عشر ذراعًا وتغطت الجبال فهلك كل ذي جسد

يدب على الارض والطير والناس كافة وتعاظمت المياه على الارض ماية وخمسين يوماً فارسل الله ريحاً على الارض فتناقصت المياه وانسدت عيون الغمر وكوى السماء واحتبس المطر واستقر الفلك في السابع عشر من الشهر السابع (نيسان على ما مر) على جبال اراراط ففتح نوح كوة الفلك بعد مدة واطلق الغراب فجعل يتردد الى ان جفت المياه ثم اطلق الحمامة فلم تجد مستقرًا لرجلها فرجعت اليه . ثم اطلقها بعد سبعة ايام فعادت وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم ان قد جف الماء فخرج نوح وامرأته وبنوه ونسوتهم من الفلك في السابع والعشرين من الشهر الثاني فتكون مدة اقامتهم في الفلك سنة وعشرة ايام وخرجت ايضاً الحيوانات وبنى نوح مذبحاً وقدم عليه ذبيحة للرب من الحيوانات الطاهرة والطير فتقبَّل الرب ذبائحه ووعده بان لا يكون طوفان اخر مثل هذا على الارض وقال له ولبنيه انموا وا كثروا واملأوا الارض وفرض عليهم بعض السنن واباحهم اكل لحم الحيوان والطير وجعل القوس في الغمام علامة لعهده معهم . فهذه خلاصة ما في الكتاب في هذا الباب وجعله القوس في الغمام علامة لعهده لا ينتج منه ان هذه القوس لم تكن قبلاً فتكونها طبيعي كلما وقعت اشعة الشمس على غمام غير متكاثف فقد جعل تعالى ماكان علامة لما سيكون من انه لا يسمح بحصول طوفان كهذا في ما بعد كما يجعل احد الصخور الكائنة في محل علامة وتخماً لملك مالك

عد ٢٦

مباحث في الطوفان واولاً اعامًا كان او خاصًا

أعمَّ الطوفان الارض كلها واباد الناس على اخرهم الأ نوحاً واهله ام اقتصر على المعمور حينئذٍ فقط ولم يعم الارض بكليتها ذالك مبحث اعتاص امره على الاباء والعلماء فكان لهم فيه ثلاثة اقوال اولها قول بعض الاباء والعلماء ان

كلام الكتاب على اطلاقه اي ان الطوفان عمَّ الارض كلها لا المأهولة حينئذٍ فقط بل ما كان منها اهلاً للسكنى ايضاً . والثاني قول بعضهم ان كلام الكتاب ليس على اطلاقه بل يلزم قيده بالارض المأهولة حينئذٍ فقط وعلى القولين ان الناس اجمع بادوا بالطوفان لا يستثنى منهم الاَّ نوح واهله الذين ذكرهم الكتاب . والثالث قول قوم من اهل العلم المتأخرين من ان الطوفان لم يبد الناس كافة وبالاولى انه لم يعم الارض كلها واقام كلٌّ من اصحاب هذه الاقوال حججاً وبينات على مدَّعاه فمن حجج اصحاب القول الاول ان نص الكتاب صريح « بان المياه غطت جميع الجبال التي تحت السماء كلها ، وانها اهلكت « كل ذي جسد يدب على الارض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الارض والناس كافة » ومن حججهم ايضاً ان جميع القبائل حفظت ذكر الطوفان وافترضته عاماً ومنها ايضاً على زعمهم وجود الاودية والجبال في كل ارضٍ فينسبون وجودها الى الطوفان ومنها وجود الصدف وبقايا الحيوانات البحرية في الجبال على ان هاتين الحجتين الاخيرتين قاصرتان فان الجبال كانت قبل الطوفان وهذا ثابت بنص الكتاب نفسه ووجود الجبال يستلزم طبعاً وجود الاودية واما وجود البقايا البحرية في الجبال فيسهل تخريجه بان هذه البقايا من قبل الطوفان في الاعصر الاولى لتكوّن العالم . ومع هذا فقد استمسك بهذا القول اكثر القدماء وكثير من الحدثاء ايضاً ومن جملتهم كلمت في معجم الكتاب في كلمة طوفان وبرجيا في معجم اللاهوت في هذه الكلمة

ولاصحاب القول الثاني بان الطوفان لم يعم الكرة كلها حجج اولاها ان كلام الكتاب الدال على التعميم لا يفهم دائماً على اطلاقه . مثلاً جاء في سفر التكوين نفسه (فصل ٤١ عد ٥٤) « وشمل الجوع جميع وجه الارض ... وقدم اهل الارض باسرها الى يوسف ليمتاروا لان الجوع كان شديداً في الارض كلها »

وليس من قائل ان مجاعة مصر حينئذٍ عمت البسيطة كلها بل كانت مقصورة على مصر وما جاورها من البلاد . وجاء في سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢ عد ٢٥) . وانا في هذا اليوم ابدأ بايقاع زعرك وخوفك على وجه الامم الذين تحت السماء . ومن يقول ان خوف موسى وقع على وجه كل الامم التي تحت السماء . وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٤) . وكانت كل الارض تلتمس مواجهة سليمان لتسمع حكمته . ومن يفهم كلمة الارض هنا على اطلاقها وفي الابركسيس (فصل ٢ عد ٥) انه كان في عيد البنديكستي في اورشليم . يهود رجال اتقياء من كل امة تحت السماء . ومن البين ان التعميم في هذه الايات كلها لا يفهم على اطلاقه . فاي الموانع اذًا من فهم قول التكوين في الطوفان على غير اطلاقه

وحجتهم الثانية ان من الاصول المفروضة لتفسير الكتاب ان يراعى في نصه العصر الذي كتب فيه وكيفية فهم الكاتب والمكتوب اليه معنى كلامه . ففي وقت الطوفان لم تكن الارض ملأى بالسكان فلم يفهم نوح ولا موسى بالارض كلها الكرة برمتها كما عُرفت الان بعد الاكتشاف عن امركا وغيرها بل فهما من ذلك الارض المأهولة حينئذٍ ويؤيد هذه الحجة ان الداعي الى الطوفان انما هو اهلاك الناس الاثمة ولم يكن حينئذٍ اناس على وجه البسيطة باطلاقها .

وحجتهم الثالثة ان مذهبهم اسلم من النقد واعون على رد الاعتراضات الواردة على الطوفان ومن جملتها كيف استطاع نوح ان يجمع كل الحيوانات من اقاصي الارض وكيف وسعتها فلكه مع اعلافها سنة وكيف امكنه ان يرسلها بعد الطوفان الى جميع الافاق وكيف اتى بالحيوانات التي كانت الابحر المحيطة (الاوقيانوس وهو متمدد) يفصل بينه وبينها وكيف امكن الحيوانات التي تعيش في الجزر ان تعود اليها بعد الطوفان فكل هذه الاعتراضات لا يبقى لها قوام ولا محل اذا سلمنا

بان الطوفان لم يشمل الا الارض المعروفة حينئذٍ وبانه لم يدخل السفينة من الحيوانات الأَ ما كان في الاصقاع المأهولة حول نوح ولايبقى مشكل في جمعها ولا في وسع الفلك لها ولا تبقى حاجة الى القول بسلسلة معجزات لنقل الحيوانات من وراء الابحر المحيطة وردها الى هنالك والى الجزر الشاسعة فقد انزل الله الطوفان ليبيد الناس لشرهم ولم يكن لازماً من وجه ان يبيد انواع الحيوان كلها واية حاجة لله ان يوحي الى نوح وجود حيوانات لم يكن عرفها ولاسمع بها . ولا يلزم الالتجاء الى المعجزات الخارقة الطبع في ما يمكن بيانه دون خرق شرائع الطبيعة فالحيوانات العائشة في البلاد الغير المأهولة بالناس استمرت في مواطنها ولم تحتج النجاة بالفلك اذ لم يتصل الطوفان اليها على هذا المذهب

ان للطبيعيين معضلات اخرى منها ان الماء الذي على الكرة كلها لا يكفي لتغطية كلها فيلزم عندهم لذلك قدر من المياه فوق قعر البحر يساوي عمقها علو اعلى الجبال كحملايا الذي يساوي ارتفاعه نيف وثمانية الاف وخمسماية متر فمن اين الماء ليغمر الارض كلها ويرتفع خمس عشرة ذراعاً فوق الجبال العالية . ومنها ان تغطية سطحي الكرة معاً مستحيلة مع حفظ شرائع الطبيعة الحالية فيلزم خرقها من اوجه . ومنها ان الاسماك العائشة في المياه العذبة يميتها ماء البحر الملح ولم يذكر الكتاب ان نوحاً ادخل فلكه نوعاً من الحيوانات التي تعيش في الماء فمن اين الان الاسماك التي تعيش في الماء العذب . فهذه المعضلات وان التمس لها اصحاب القول الاول اوجهاً لبيانها كأن الارض كانت مغطاة بالماء قبل ظهور اليابسة وان في قلبها مستودعات ماء يسلّم بوجودها بعض علماء الجيولوجية وان حالة الجو كانت في ايام نوح غير ما هي في ايامنا الا ان هذه الاوجه لا تزيل الاشكال ويضطر اصحاب القول الاول ان يعزو كل ذلك الى قدرة الله القادرة على كل شيء بخرقها شرائع الطبيعة وابدائها معجزات عديدة

معًا فاذا سُلّم بالقول الثاني ان الطوفان لم يعم من الكرة الا ما كان مأهولاً زالت هذه المعضلات بالاهتداء الى وجهها ولم تبقَ حاجة الى قدر الامواه اللازمة لتغطية الارض بكمالها بل يكفي المطر العرمرم وفيضان امواه البحر في بعض الاماكن وانفجار احواض الماء التي في قلب الارض كما اشار الكتاب. ولا يتغطى حينئذٍ سطحا الكرة معًا وتبقى امواه عذبة يعيش بها السمك غير البحري

ان هذا القول الثاني لا يضاد الايمان ولا وسمته الكنيسة الكاثوليكية بسمة ضلال فقد بُحث في هذه المسألة في رومة سنة ١٦٨٥ بداعي كتيبات نشرها اسحق فوسيوس (١) يثبت بها ان الطوفان لم يكن عامًا فاكثر مجمع فحص الكتب التحري في هذا الشان واستوضح العلامة مابيلون الشهير (٢) ما يراه في اقوال فوسيوس هذه فاثبت انها لا تخالف الكتاب بوجه من الوجوه بل هي اعون على تفسيره واورد بعض ما اوردنا آنفًا واستشهد باقوال بعض الاباء لرأيه فلم ينهَ هذا المجمع حينئذٍ ولا الكنيسة بعدًا عن اتباع هذا المذهب

واما القول الثالث بان الطوفان لم يهلك الناس كلهم ايضًا فقال به بعض اهل العلم عن عهد قريب زاعمين ان بعض قبائل المنغول في الصين والاحباش والسودان هي من اصل قبل الطوفان وممن قالوا بهذا المذهب العالم دي كاترفاج والعالم شوبال الذي جعل (في المجلة تاريخ الفلسفة المسيحية في كانون الاول سنة ١٨٧٦) قاين اصلاً لذرية السوذان وان الطوفان لم يهلكها وجنح فرنسيس لانرمان (في تاريخ المشرق مجلد ١ صفحة ٥٦ وفي موجز هذا التاريخ) الى هذا المذهب بحجة عدم وجود اثر للطوفان عند السودان خلافًا لسائر الامم. وقد دافع عن هذا المذهب العالم اوماليوس دي هالوى البلجكي في خطبة القاها

(١) وهو عالم الماني ولد سنة ١٦١٨ وتوفي سنة ١٦٨٩ (1) ysac Vossius

(٢) وهو احد مشاهير رهبانية القديس مبارك ولد سنة ١٦٣٢ وتوفي في بريس سنة ١٧٠٧ (2) Mabillon

في المجتمع العلمي في البلجيك سنة ١٨٦٦ وتابع هولاء بعض العلماء الالمانيين الكاثوليكيين . وصرح الاب بالينك اليسوعي البلجكي بان هذا المذهب يمكن تأييده وان لم يتمسك هو به لانه قال (كما ورد في المجلة الدروس الدينية في نيسان سنة ١٨٦٨) . ليس من قصدنا ان ندافع عن هذا المذهب اذ لا نرى الدفاع عنه لازماً في حالة العلم الحاضرة لكننا لا نندد بمن يظن هذا المذهب سيتغلب يوماً ما . على ان ما صرح الكتاب به انما هو ان الله اراد ان يغرق جميع الناس لان جميعهم غرقوا في لجة الاثم ما خلا نوحاً واهله . وصرح بطرس الرسول (في رسالته الاولى فصل ٣ عد ٢٠) انه خلص بالفلك . نفر قليل اي ثمانية انفس . وقال ايضاً (رسالته ٢ فصل ٢ عد ٥) . ولم يشفق على العالم القديم وانما وقى نوحاً كارز البر وهو ثامن ثمانية واتى بالطوفان على عالم المنافقين . (ملخص عن الوجيز الكتابي لفيكورو عد ٣٢٣)

﴿ عد ٢٧ ﴾

هل يثبت علم الجيولوجية (١) حصول الطوفان

وضع الاب فيكورو في كتابه الوجيز الكتابي (عد ٣٢٢) فصلاً في هذا المبحث فنلخص هنا ما كتبه هناك . قال ظن علماء الجيولوجية الاولون انهم وجدوا حججاً بيّنة تثبت نصاً تغريق جزء من الارض على الاقل بطوفانٍ حصل في العصر التاريخي اي بعد ان اهلت كرتنا بالبشر . على ان عامة العلماء هجروا هذا القول الان لانه لا يظهر قريباً من الصدق ان طغيان ماء على سطح الارض سنة واحدة يترك فيها اثاراً يمكن تحقيقها بعد قرونٍ وتمييزها عن اثار طغيانات اخرى سابقة . فقالوا اولاً ان بين طبقة الارض المعروفة عندهم بالثالثة وبين ارضنا

(١) معنى اللفظة الكلام في الارض وهذا علم يبحث فيه عن تكون الارض وطبقاتها الى غير ذلك من متعلقاتها

الان في اكثر انحاء البسيطة طبقة مؤلفة من حصى وتراب خزفي ورمل بحري وحصى ملساء فاعتبروا ذلك راسبًا من ماء الطوفان وسموا طبقة الارض هذه طوفانية . اما علماء الجيولوجية الان فيسمون هذه الطبقة طوفانية لكنهم لا يرون ان طوفان سنة كونها بل هي نتيجة طغيانات وثورات عديدة جرت بحسب سنن الطبيعة في قرون ولا يبعد ان يكون طوفان نوح من فواعل هذه الانقلابات لكنه ليس الفاعل الوحيد بها بل يلزم اعتزاء كثير منها الى الاعصر الاولى قبل خلق الانسان

قالوا ثانيًا ان مما يثبت الطوفان الصخور الدخيلة اي الصخور الكائنة في غير مواطنها منتقلة من محل اخر ويرى مثل هذه الصخور في انكلترا والمانيا وروسيا ثم في أسيا على جبال حملايا وفي لبنان وطورسينا ومحال اخرى عديدة فحسب هولاء العلماء ان هذه الصخور حملها ماء الطوفان من مواطن اصلها الى مواطنها الحاضرة ولكن تعسّر على علماء هذه الايام ان يصدقوا بنقل ماء الطوفان صخورًا كبيرة تبلغ مساحة بعضها اربعين الف قدم مكعب من محال بعيدة الى مواضعها الحالية ولاحظوا ان سطوحها غير ملساء وزواياها غير مكسرة كما كان يلزم ان تكون لو قلبها الماء في مسافاتٍ من حيث كانت الى حيث استقرت ولذا رأوا الاولى نسبة نقلها الى انقلابات في الاعصر الاولى ولم يروا بها بيّنة قاطعة في اثبات طوفان نوح . ثالثًا اثبت كثير من العلماء الاولين حصول الطوفان النوحي بما يرى في بعض المغاور والكهوف في انحاء كثيرة من بقايا عظام بشرية يخالطها احيانًا بقايا عظام حيوانات ونسبوا ذلك الى الطوفان ولا ننكر انه يحتمل كثيرًا ان يكون بعض هذه البقايا من مفعولاته بل ليس لعالم ان يجزم بخلاف ذلك الا انه لما كان ممكنًا ان تكون لهذه البقايا عللٌ اخرى كطغيانات خاصة وكسكنى الناس الاولين في المغاور فلا يمكن ان

تكون احداها حجة قاطعة تجيء مثبتة الطوفان النوحي وعليه فعلم الجيولوجية يثبت الطوفان ضمنًا ولا يناقضه البتة فانه يظهر منه جليًا انه قد طرأ على سطح الكرة انقلابات وثورات مسببة عن حركة الامواه بعد ان وجدت الحيوانات والانسان ويلزم ان يكون الطوفان النوحي من جملة العلل التي بدلت وجه الارض . وان لم تكن طبقة الارض الطوفانية كلها من مفاعيل الطوفان فلا اقل من ان يكون بعضها وان لم يكن الطوفان ناقلاً كل الصخور الدخيلة فلا اقل من ان يكون ناقلاً بعضها والحاصل ان علم الجيولوجية يؤيد الطوفان وان لم يثبته اثباتًا قاطعًا لوجود علل اخرى تصدر ما كشف هذا العلم عنه وقد اجاد الكاردينال ويزمن الشهير باثبات الطوفان بهذه الاثار في خطبه الشهيرة في العلاقات بين العلم والدين الموحى وترى خلاصة من كلامه في الحواشي المعلقة على معجم اللاهوت لبرجيا في كلمة طوفان الا ان ذلك كان قبل الاعتبارات الاخيرة التي ذكرناها

﴿ عد ٢٨ ﴾

اثار الاقدمين الدالة على الطوفان

ليس كالطوفان امر اجمعت اثار الاقدمين من كل قبيلة على تبيانه . ونبدأ باثار الكلدانيين فهم اقرب القبائل من الاصل الذي رواه موسى عن اجداده الذين عاشوا في بلاد الكلدان . فمن اثار هؤلاء ما هو قديم وما هو اقدم فنجتزئ من الاقدم بما اكتشف عنه في مكتبة اشور بانيبال التي وجدت في نينوى ونقل اكثر صفائحها الى المتحف البريطاني . فمن ذلك اثنتا عشرة صفيحة من الاجر خُطت عليها اشعار عُقد بعضها على تاريخ الطوفان وكان في هذه المكتبة ثلث نسخ من هذه الصفائح لكنها مشوهة مكسرة فارسل العلامة جرج سميت على نفقة الجريدة الانكليزية (دالي تلغراف) الى بلاد الكلدان للبحث عله يجد فقرات اخرى من هذا التاريخ تملء فارغ ما سقط من النسخ التي في المتحف

البريطاني فوفق الى وجدان ما كاد يجمل نسخة هذا المتحف كاملة . والنسخ الثلث خطت بامر ملك نينوى في القرن السابع قبل الميلاد لكنها أُخذت عن اصلٍ متناهٍ في القدم حتى لم يتردد سميت بان يثبت ان هذا الاصل كتب لا لاقل من القرن السابع عشر قبل الميلاد فهو اقدم من موسى مستدلاً سميت على ذلك باستعمال كتاب اشور بانيبال احرفًا قديمة جدًا في كلمات صوروها على الاصل ربما لعدم ادراكهم معناها ثم باختلاف الرواية بين بعض فقرات النسخ الثلث حتى يظهر ان بعضها عن اصل اقصى قدمًا

اما موضوع هذه الاشعار فتاريخ بطل يسمى ايزدوبار كان مشهورًا بالصيد والمحاربة ولم يكن يملك اولاً الأ على بابل وضواحيها الى ان انبسط حكمه فعم كل ما بين دجلة والفرات من جبال ارمينيا شمالاً الى الخليج العجمي جنوبًا . وقد حسب سميت وفريدريك داليتش وفرنسيس لانرمان ان ليس هذا البطل الا نمرود الذي ذكره سفر التكوين (فصل ١٠) مستدلين بانه كان يتولى كنمرود بابل وارك وشورباك ونيبور فالمدينتان الاوليان تطابق الكتاب والآثار في اسميهما ونيبور على قول كاتبي التلمود هي كلنه التي ذكر الكتاب انها من مملكة نمرود وليست شورباك الا آكد مدينة نمرود الثالثة وقد وصفه الكتاب بانه كان جبارًا وصيادًا كما وصف الاثر ايزدوبار ففي الصحيفة الحاوية الكلام في الطوفان يقال ان ايزدوبار سمع برجل نجا من الطوفان والموت اسمه هزيزدرا (ويظن ان اصل الاسم عزيزدورا لقرب هذا الاسم من لفظ سرياني يراد به قديم الايام) فعزم ان يراه فتوصل اليه بعد مشاق لاعتزاله في محل بعيد صعب المسلك وسأله عن اخبار الطوفان فيجيبه عزيزدورا عن سوأله في الصحيفة الحادية عشرة قاصًا عليه اخبار الطوفان كما في الكتاب حتى يمكن في فقرات عديدة وضع الروايتين الواحدة في جانب الاخرى ليظهر الطباق . وهاك

ترجمة هذه الاشعار عن فيكورو في مؤلفه الكتاب والاكتشافات الحديثة وعن لانرمان في تاريخه القديم للمشرق مؤثرين ما كان منهما اظهر . فكلم عزردورا ازدوبار قائلاً ها أنذا انبئك يا ازدوبار بتاريخ نجاتي (من الطوفان) واطلعك على ما قضى به الالهة . ان مدينة شورىباك (المار ذكرها) التي تعرفها والواقعة على الفرات هي مدينة قديمة ولم يكن اهلوها يكرمون الالهة وكنت انا وحدي خادماً متعبداً للالهة العظام فدعا (انوا) الالهة فعقدوا مشورة فعرض عليهم (بعال) انزال طوفان فرأى رأيه (نابو وتركال ونينيب) واثبت امرهم الاله (هيا) رب الحكمة غير المدركة فسمعت انا بالرؤيا (او الحلم) القضاء المبرم وقيل لي يارجل شورىباك . . .

دع بيتك واصنع لك فلكاً وكمله عاجلاً فاني سأبيد كل ما فيه نسمة حياة وادخل كل ما فيه نسمة حياة في الفلك واجعل طول الفلك الذي تصنعه ستماية ذراع وعرضه ستين ذراعاً وكذلك ارتفاعه واطلقه في لجة الامواه وغطه بسقف ولما سمعت هذا قلت (لهيا) يا سيدي اذا صنعت الفلك الذي امرتني بصنيعه سخر مني الشبان والشيوخ ففتح (هيا) فاه وقال لي انا عبده ان سخروا منك فقل لهم من احتقرني حل عليه العقاب فان الالهة تذب عني . . . فاني ادين من علا ومن سفل ولا توصد الباب الى ان يأتي

فقال الله لنوح قد دنا أجل كل بشر . . . فهانذا مهلكهم مع الارض اصنع لك فلكاً من خشب قطراني واجعله مساكن . . . وكذا تصنعه ثلاثماية ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً سمكه وتجعل طاقاً للفلك والى حد ذراع تكمله من فوق (تك ف ٦ عد ١٣ وما يليه)

الزمان الذي سأنبئك به وحينئذٍ ادخل داخلاً واوصد باب الفلك . . . وادخل اليه قمحك واثاثك وذخائرك واموالك وخدام امرأتك وخاداماتك وخاديمك وحيوانات البرية ووحوش البرية وكل ما اجمعه وارسله اليك فليكن محفوظاً داخل باب الفلك . . . وفي اليوم الخامس ارتفع جانباه (اي الفلك) . . . وصنعت سقفه واكمته ودخلت داخله في السادس وقسمته في السابع الى طبقات (لا يعلم اليوم ام الشهر هو المراد باسماء العدد هذه) واقمت المساكن الداخلة في الثامن وفتحت احواضاً لجمع الماء وسددت كل ثقب يدخل الماء منه وصببت ثلثة سارات (اسم مكيال او وزن) من القار على خارجه وثلثة سارات على داخله . . . وثلثة الاف وستماية حمَّال كانوا يحملون على رؤوسهم صناديق الزاد وحفظت ثلاثة الاف وستماية صندوق مؤونة لاسرتي . ثم يصف ما اذخره وما ادخله السفينة من مقتنى وذخائر وحيوانات الى ان يقول . ان الاله شمش (اي الشمس) . قال لي في المساء

وانت فخذ لك من كل طعام يؤكل وضمه اليك فيكون لك ولهم ماكلاً (ف ٦ عد ٢١)

فتدخل الفلك انت وبنوك ونسوة بنيك معك ومن كل حي . . . من الطير باصنافها ومن جميع البهائم باصنافها ومن دبابات الارض باصنافها (عد ١٨ وعد ٢٠)

واجعل الفلك مساكن واطله من داخل ومن خارج بالقار (ف ٦ عد ١٤)

. وبعد سبعة ايام كانت مياه الطوفان على

انزل المطر من السماء مدراراً فادخل السفينة واطبق الباب فقد دنا الحين المعين فكان هذا الطوفان الذي قال انه سيكون في المساء فخفت ذلك اليوم ودخلت السفينة واقفلت الباب وسلمت السفينة الى الربان فكان في افق السماء ظلام حالك وارعد بين (اله العواصف) ومشى نابو وشارو (الالهان) فزلزلا الجبال والبطاح وجرَّ نرغال القدير العصيف وراءه واجرى اذار الاقنية دون انقطاع ... فبلغ طوفان الاله بين السماء وانقلب كل نور ظلاماً فباد عن وجه الارض كل موجود حي . الى ان يقال ، وفي اليوم السابع احتبس المطر وسكن العصيف الشديد الذي كان دمر الارض كزلزال ... فتفرست حزيناً في البحر ... والجثث تخفق كالقصب ... وتولتني الكآبة فجلست وبكيت وفاضت مدامعي على خدي واشرفت على البلاد فلم اجد يابسة بل صارت بحراً وقد حُمل الفلك الى ما فوق بلاد نيزير فاوقف جبل نيزير الفلك فلم يتجاوزه ففي اليوم

الارض ... في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء وكان المطر على الارض اربعين يوماً واربعين ليلة . فعلت المياه خمسة عشر ذراعاً على الارض وتغطت الجبال فهلك كل ذي جسد يدب على الارض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الارض والناس كافة ، (تك ف ٧ عد ١٠ و ١١ و ١٢ و ٢١)

وذكر الله نوحاً . فتناقصت المياه ... واحتبس المطر من السماء وكانت المياه تتراجع عن الارض (ف ٨ عد ١ ومايليه)

واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال اراراط ...

الاول . . . الى السادس استمر جبل نيزير على ما كان عليه وفي اليوم السابع اخرجت حمامة واطلقتها فذهبت الحمامة وعادت فلم تجد محلاً تقر عليه فعادت واخرجت خطافًا واطلقته فعاد اذ لم يجد محلاً يستريح به . فاخرجت غرابًا واطلقته فذهب ورأى الجثث التي على الماء فاكل واستقر عليها ثم لم يعد . واخرجت ايضًا الحيوانات وسرحتها الى الارياح الاربع وقدمت ذبيحة وجعلت نار الذبيحة على قمة الجبل ورتبت الآنية سبعة سبعة فاشتم الالهة رائحة الذبيحة الطيبة واجتمعوا فوق مقدم المحرقة . ويستتبع عزيزدورا كلامه الى ازدوبار قائلاً ان الالهة ارتضوا بمحرقته الأالاله الاكبر الذي ترجم فيكورو اسمه بكلمة ايل او ايلو وترجها لانرمان بكلمة بعل او بعال فهذا اظهر السخط على الالهة لانه بقى بعض الانسان حيًا فخاطبه هيا قائلاً . كيف لا ترضى يا امير الالهة ورجل الحرب وقد انزلت الطوفان فاوقر الاثيم اثمه والشرير شره ولتأخذك الشفقة على

وفتح نوح كوة الفلك التي صنعها واطلق الغراب وجعل يتردد الى ان جفت المياه عن وجه الارض ثم اطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاضت المياه عن وجه الارض فلم تجد الحمامة مستقرًا لرجلها فرجعت اليه . . . ولبث سبعة ايام اخر وعاد فاطلق الحمامة فعادت اليه وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء (ف ٨ عد ٧ وما يليه)

فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه وجميع الوحوش والدبابات والطيور . . . وبنى نوح مذبحًا للرب واخذ من جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فاصعد محرقات على المذبح فتنسم الرب رائحة الرضى (ف ٨ عد ١٨ الى عد ٢١)

الانسان كيلا يبادو كن رحيماً ... وبدلا من ان تنزل الطوفان بعداً مرتأت الاسد فتقص البشر وبدلاً من الطوفان ... مرتأت مجاعة فتدمر بعض البلاد وبدلاً من ان تنزل طوفان اخر مريكن الوباء فينقص الناس ... فخمد غضب امير الالهة وصعد ايلو الى السفينة واخذ بيدي واقامني واقام امرأتي وادناها منه وتحول نحونا وقام في وسطنا وباركنا وعزيزدورا هو رجل عرضة للموت الى الان .

وقال الرب في نفسه لا اعيد لعن الارض ايضاً بسبب الانسان ... ولا اعود اهلك كل حي كما صنعت وابداً ما دامت الارض فالزروع والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل (ف ٨ عد ٢١ وعد ٢٢)

فكل من طالع هذه الرواية دُهش ولا جرم بما يراه من مماثلتها لما جاء في الكتاب من حيث النسق والمبنى والاتفاق في اكثر المعاني واذا استثنيت تعدد الالهة فيها لان كاتبها من المشركين وبعض المباينة في الاعداد كعدة ايام الطوفان واذرع السفينة وذكر ربان لها وخادمين وخادمات لنوح وامرأته وجدت بين سائر اجزاء الرواية وبين كلام الكتاب ما يشبه الطباق التام ولا عبرة للايجاز والاطالة اذ لم ينشأ عنهما خلاف في الخبر واما تسمية الكتاب الجبل الذي استقرت عليه السفينة اراراط وتسمية الرواية له نيزير فيمكن حملها على ان لذلك الجبل اسمين . ومهما يكن فهذه الرواية التي سبق عهدها موسى قد نزلها العلماء حتى الملحدون منهم منزلة بينة قاطعة لاثبات حصول الطوفان اثباتاً علمياً بغير طريقة الوحي ايضاً

ومن الاثار الكلدانية القديمة الدالة على الطوفان نجتزئ بذكر ما رواه باروز

عن النصوص المقدسة في بابل وضمه الى تاريخه الذي كتبه الى اليونان فبعد ان فرغ من كلامه في الملوك التسعة الذين كانوا قبل الطوفان قال انه في زمان العاشر منهم كان الطوفان طبق ما جاء في الكتاب عن الاباء التسعة من آدم الى نوح وفي زمان العاشر منهم وهو نوح كان الطوفان وهاك ترجمة نص بارُوز . ان كيسوثروس (عزيزدورا) ملك ثمانية عشر ساراً (كمامر) وعلى عهده حصل الطوفان العظيم الذي جاء تاريخه في النصوص المقدسة هكذا . ان كرونوس (الاله هيا) ظهر له في الحلم وانذره بانه سيهلك الناس اجمع بالطوفان في الخامس عشر من شهر داشيوس وامره ان يأخذ البدء والوسط والنهاية من كل ما كتب وان يفر الى مدينة الشمس الى شيبارا وان يبني فلكاً يدخل اليها مع اسرته واصدقائه الاعزاء وان يعد في الفلك زاداً ماكولاً ومشروباً وان يدخل اليها ايضاً الحيوانات والطيور والدبابات ويتأهب للسفر . . .فاطاع كيسوثروس وبنى فلكاً طولها خمس غلوات (الغلوة في عرف العبرانيين مائة وخمس وعشرون خطوة) وعرضها غلوتان وجمع كل ما أمر بجمعه وادخل الفلك امرأته واولاده واصدقاءه الاعزاء فنزل الطوفان ولما شرع الماء ينضب اطلق بعض الطيور واذ لم تجد هذه قوتاً ولا محلاً تستقر فيه عادت الى الفلك وبعد ايام اطلقها ثانية فعادت الى الفلك ايضاً والوحول على ارجلها واطلقها ثالثة فلم تعد الطير بعد فعلم ان الارض جفت وفتح كوة في اعلى السفينة فرأى فلكه استقر على جبل فنزل هو وامرأته وبنوه والربان فسجد على الارض ونصب مذبحاً وقدم عليه محرقات للالهة وتوارى مع من صحبه واما من لبثوا في السفينة فلما رأوه لم يعد نزلوا الى الارض ينشدونه فسمعوا صوتاً من السماء يامرهم ان اتقوا الالهة . . . وقد رست فلك كيسوثروس في ارمينيا وجزء منها باقٍ في جبال كورديا (كردستان الان) ومن يحجون اليه يأخذون شيئاً من القار ينتزعونه من بقاياها ويستعملونه وقاية من مفاعيل السحر .

انتهى مترجماً عن التاريخ الشرقي للازمان (مجلد ١ صفحة ٥٨) وعن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو (مجلد ١ صفحة ٢٥٠) ولا حاجة الى ان نقول شيئاً في المماثلة الكائنة بين هذه الرواية وما جاء في الكتاب في هذا الصدد فهي بينة مصرحة . بل نأتي الى الكلام في اثار غير الكلدان

ان مؤلف المقالة في الآلهة السورية انبأنا بما كان عند الاراميين من اخبار الطوفان كما كانت تروى في هيكل ايرابوليس الشهير قال • خبر الكثيرون ان باني هذا الهيكل هو دوكليون سيسيتاس وهو الذي حصل في عهده الطوفان الاكبر وقد سمعت ما يرويه اليونان ايضاً من قصة دوكليون فيحدثون ان ذرية البشر الحالية ليست الاولى بل كانت ذرية قبلها هلك اناسها كلهم ونحن من ذرية ثانية اصلها دوكليون ثم نمت وكثرت بكرور الايام . اما الناس الاولون فيقال انهم كانوا ذوي كبرياء وقحة ارتكبوا المعاصي ولم يكونوا يبرون ايمانهم ولا يعملون بسنن الضيافة ولا يترأفون بالمعوزين فعوقبوا لاثامهم بداهية طامة فقد انفجرت بغتة امواه هائلة من الارض وانهمرت من السماء عليهم امطار غزيرة وخرجت الانهر عن مجاريها وتجاوز البحر حدوده فغطى الماء كل شيء وهلك الناس كافة ونجا دوكليون وحده سالماً ليكون اصلاً لذرية حديثة جزاء لفضيلته وتقواه . وهاك وجه نجاته فقد دخل مع اولاده ونسآئهم في تابوت كبير كان له ولجأت اليه في اثرهم خنازير وخيول واسود وحيات ومن كل حيوانات الارض فقبلها كلها عنده والهمها ذاوس (الاله) كل مدة اقامتها في التابوت ودادًا متبادلاً جنّبها ان يسطو بعضها على بعض واستمرت على ذلك في التابوت ما دامت الامواه في طغيانها . فهذه اخبار اليونان عن دوكليون . على ان اهل ايرابوليس يزيدون على ما يتابعون اليونان فيه قصة اخرى عجيبة هي انه فُتح في بلادهم وهدة فسيحة غامضة ابتلعت مياه الطوفان على اخرها فاقام دوكليون

حينئذٍ مذبحًا ودشن هيكلاً لهارا (الآلهة) حذاء الوهدة وقد رأيت انا هذه الهوّاة الواقعة تحت الهيكل فاذا هي ضيقة حجرة ولا اعلم ان كانت قبلاً وسيعة فضاقت الان وذكرًا للحدث الذي يروون خبره يحتفلون في العام مرتين بجلب ماء البحر الى الهيكل ولا ينقله الكهنة فقط بل يأتي جم غفير من الحجاج من سورية كلها ومن بلاد العرب وعبر الفرات حاملين الماء فيصبونه في الهيكل فيجري الى الهوّاة فتبتلع على صغرها امواهاً غزيرة وينسبون سر ذلك الى سنَّة دينية افترضها دوكليون تخليدًا لذكر الطوفان واحسان الالهة اليه فهذا هو التقليد القديم في هذا الهيكل ٠

وللهنود في الطوفان تقليد يشف عن تاريخ الكتاب له ويحاكي تقليد الكلدان واقدم الروايات عندهم جاءت في اثارهم المسماة « ساثاباتا برهمانا » القديمة العهد واول من ترجمها مكس مولر وهي « جيءَ ذات صباح يوم الى مانو (هو في عرف الهنود اصل البشر) بماء ليغتسل فعلقت بيده بعد الاغتسال سمكة ناجته قائلة نجني فانجيك فقال بمَ تنجيني ٠ قالت سيكون طوفان عرمرم يهلك الخلائق كلها فاقيك منه فقال وكيف انجيكِ انا قالت كلما كنا صغارًا تعرضنا لخطر كبير فالسمك يبتلع السمك فضعني اولاً في اناء فاذا كبرت فاحتفر حوضًا والقني فيه واذا تناهيت في الكبر فاطرحني في البحر المحيط انجُ من الهلكة ولما كبرت السمكة بلغت مانو ان الطوفان سيأتي سنة تبلغ هي معظم الكبر وقالت اصنع لك فلكًا واسجد لي واذا غزرت المياه فادخل الفلك فاقيك ٠ ٠ ٠ فصنع مانو الفلك وسجد للسمكة ولما اتى الطوفان دخل الفلك فوافته السمكة تشق الماء فاوثق فلكه بذنبها فعبر بهذه الوسيلة فوق جبل الشمال فقالت له السمكة قد انجيتك فاوثق السفينة بشجرة كيلا يقلبها الماء فنزل مانو عندما تناقص الماء وهذا ما يسمى نزول مانو على جبل الشمال واباد

الطوفان كل الخلائق الا مانو فبقي حياً ، فمهما يكن من الخرافات التي اشتملت عليها هذه القصة فيتحصل منها صراحة اعتقاد الهنود حصول الطوفان اذ يفسرونها بان احد الالهة اخذ صورة سمكة فانجى مانو وهو نوح عندهم من الطوفان واتخاذ الالهة صورة السمك امر مستفاض عند القدماء وترى كثيراً من صور الالهة القديمة مؤلفة من هيئة بشر وسمك واصل ذلك اعتقاد القبائل العام ان وجود الكائنات ابتدأ بالماء اي بالغمر الذي كان عليه الظلام وكان روح الرب يرف عليه والارض خاوية خالية كما في الكتاب وللهنود اثار اخرى عديدة تدل على اعتقادهم حصول الطوفان ذكرها لانرمان (مجلد ١ فصل ٤ في الطوفان) أضربنا عن اثباتها لنوسع محلاً لغيرها

ومن معتقدات اهل الصين ان (فحاً) الذي يعزون اليه اصل حضارتهم نجا من الطوفان العظيم مع امرأته وبنيه الثلثة وبناته الثلث (رواه فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١) ومن تقليدات الايرانيين القديمة المودعة في كتبهم المقدسة الحاوية تعليم زورواستر (يسميه العرب زاردشت) ان هرمزدا اله الخير انذر (ايما) اول البشر ان طوفاناً سيخرب الارض ويبيد ما عليها وان يشيد ملجأً منه جنة مربعة يحيطها باسوار ويدخل اليها اصول البشر والحيوانات والنبات وقاية لها من الهلكة فنزل الطوفان فلم ينجُ منه الا جنة ايما وكل ما كان في داخلها وارسل هرمزدا طائراً يبشره بالنجاة . فهذه الرواية تخالف غيرها من حيث وسيلة النجاة وتطابق ما سواها في حلول الطوفان والنجاة منه . وقد مر ذكر معتقد اليونان الطوفان ويزاد عليه ان اهل اثينا كانوا يحتفلون لذكر الطوفان ونجاة دوكليون منه بحفلة يسمونها (ايدروفوريا) اي حفلة الماء وهي اشبه بما كان يصنعه اهل ايرابوليس في سورية كما مر اي انه كان تجاه هيكل ذاثوس الاولمبي وهدة في الارض يقولون انها ابتلعت ماء الطوفان وذكراً لذلك يجتمعون

في بعض الايام فيصبون امواهاً في تلك الوهدة مدوفًا بها طحين وعسل ٠ وهذا مشعر بتطرق هذا التقليد من سورية الى بلاد اليونان٠ (عن لانرمان في التاريخ الشرقي مجلد ١ صفحة ٧٣)

ومن اقاصيص الفينيقيين في الهتهم ان (بون) الذي يعبرون به عن البحر قد تغلب على (داموروس) الذي هو الارض في عرفهم ٠ وكان قدماء مدينة ابامیا في اسيا الصغرى يعتقدون ان مدينتهم كانت مهبط سفينة نوح وينازعهم في ذلك سكان قونية وقد ضرب كهنة ابامیا في نحو القرن الثاني للميلاد نقودًا نقشت عليها صورة السفينة مفتوحة وصورة الاب الذي نجا من الطوفان مع امرأته يتناول حمامة آتية اليه بغصن زيتون وعلى وجه الصكة الاخر صورة شخصين خارجين من السفينة ليمتلكا الارض وقد كتب على السفينة اسم نوح بصورته اليونانية تلقوها عن النسخة السبعينية

ومما يدهش وجداننا في امركا نفسها آثارًا دالة على الطوفان اقرب مما سواها لما جاء من اخباره في التوراة وتقليدات الكلدان حتى اقر بعض البرهانيين انفسهم بهذه المقاربة والاظهر ان تقليد الطوفان تطرق الى هنالك مع من هاجروا من اسيا مجتازين بجزر كوريل الى امريكا الشمالية ونجتزئ من هذه الاثار بذكر التقليد الذي وجد عند سكان المكسيك قبل اختلاط الاورباويين بهم فان (كوسكس) الذي يسميه بعض قبائلهم (تزبي) ايضًا يعتقدون انه نجا من الطوفان بسفينة دخل اليها مع امرأته وولده وكثير من الحيوانات والحبوب المستلزمة لحياة الانسان ولما امر الاله الاكبر بان ينضب الماء اطلق طائرًا يقتات بالجيف فلم يعد لكثرة ما غطى الارض منها فاطلق طيورًا اخرى فلم يعد منها الا الحمام حاملاً بمنقاده غصنًا مورقًا فعرف ان الشجر عاد يورق ٠ ووجدت عندهم صور تمثل الطوفان والسفينة ونجاة البعض بها والطير الحاملة الغصن

المورق . وفي المكتبة الواتيكانية درج قديم أوتي به من امركا يشتمل على اربع صور رمزية تشخص اربعة اعصر في العالم سابقة هذا العصر والعصر الرابع منها ينتهي بطوفان هائل عاد به كل الناس سمكًا ما خلا رجلاً وامرأته خلصا بسفينة مصنوعة من خشب السرو ويشار الى ان هذا الطوفان كان اخر داهية خربت الارض . ومن تقليدات سكان جزر فيدجي ان وطنهم بعد ان اهل بولد الرجل الاول والمرأة الاولى حل فيه مطر عرمرم غرق الارض برمتها ولكن قبل ان تغشى الامواه اعلى الاعالي اقبلت سفينتان فانجتا ثمانية اشخاص (فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١)

اما الآثار المصرية فلم تنبئنا انباء صريحًا بالطوفان بل صرحت بابادة الالهة للناس عقابًا لمعاصيهم وعتوهم ولما كان طغيان الماء في بلادهم حياة لها ومنبعًا لثروتهم اضربوا عن ذكر طوفان الماء واكتفوا بذكرى اهلاك الالهة للبشر الا قليلين منهم . ومن هذه الآثار ما كتب على مدفن ساتي الاول في طيبة (تاب) وترجمه ادوار نافيل ونشر سنة ١٨٧٥ ومحصله ان الاله (رع) استدعى سائر الالهة واعلمهم بما يجدف به الناس عليه وعليهم وما يركبون من المعاصي وحضّ على اهلاكهم فاسرعت آلهة فقتلت الناس على الارض فخمد غضب الاله (رع) بعد مقتلهم واخذ يأسف على ما امر به فقدمت له ضحية عظمى فسر بها ورفع يده واقسم انه لا يبيد الناس بعدًا . وما من منكر للمقاربة بين هذه الرواية وخبر الطوفان في غير طوفان الماء والسفينة لاعراض المصريين عن ذكره لما مر . ولولا خشية ملل المطالع لاطلنا الكلام في هذا الباب ومن احب هذا التطويل فليطالع الفصل الرابع من المجلد الاول من التاريخ القديم للمشرق للعلامة لانرمان (من صفحة ٥٥ الى صفحة ٩٢ من الطبعة التاسعة) فانه استقرى هناك آثارًا وتقليدات اخرى عديدة واثبت ان تاريخ الطوفان لا تخلو قبيلة من اثره الا السودان خاصة وهذا

ما جعله يجنح الى التسليم بقول من زعموا ان الطوفان لم يعمهم وانهم من ذرية قاين كما رأيت آنفاً

عد ٢٩

في مستقر السفينة ومهد البشر بعد الطوفان

جاء في الكتاب (تك ف ٨ عد ٤) « استقر التابوت ... على جبال اراراط » وفي رواية باروز المار ذكرها ان سفينة كيسوثروس استقرت في ارمينيا . وقال لانرمان (في كتابه المعنون موجز تفسير باروز صفحة ٢٩٩ (١) ما ملخصه) « ان النص البابلي الاصلي الذي اخذ عنه باروز لا بد من ان حوى كلمة اراراط كما في التكوين لان اسم ارمينيا المتعارف والمستطرق في الاثار المسمارية انما هو اورارطي او ارارطي » وهذا الاسم يعرفه العبرانيون ويجهله الجغرافيون اليونان واللاتينيون والقديس ايرونيموس لخبرته باصطلاحات العبرانيين ترجم اراراط بارمينيا في الاية المار ذكرها وفي سائر الآيات التي حوت هذا الاسم . والكتاب لم يعين جبلاً بل بلاداً اذ لم يقل جبل اراراط بالمفرد بل جبال بالجمع فكان مؤدى كلامه ان السفينة استقرت في ارمينيا . وعلى ذلك مشى تقليد عامة القبائل . على ان بعض اهل العلم في هذا العصر رأوا خلاف ذلك ومنهم لانرمان (مجلد ١ من تاريخه الشرقي صفحة ٩٢ طبعة ٩) فانه قال اذا تحرينا آيات الكتاب لزمنا ان نهجر القول بان اراراط في ارمينيا لان الكتاب قال بعيد ذلك (تك ف ١١ عد ٢) ان بني نوح ارتحلوا من المشرق نحو المغرب فوجدوا بقعة في ارض شنعار فاقاموا فيها وشنعار هي ارض بابل وعليه فيلزم ان يكون الجبل الذي استقرت السفينة عليه سلسلة جبال الهند وكوش حيث محل يسمى ارياورتا (اي الارض المقدسة) او في الجبال التي يخرج منها نهر الهند

(1) Lenorman Essai de Commentaire de Berose

المسمى هندوس واقام على قوله بعض الحجج منها تقليدات الهنود والفرس الذين هم من اقدم الامم وقد حفظوا ذكر الاعصر الاولى على سلامته ومن تقليداتهم ان اصل البشر كان مقره جبل مارو وهناك مهبط الالهة . وقال الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٥٣) لا ننكر على هذا القول درجة ما من احتمال الصحة لان الكتاب لم يصرح الا بذكر اراراط وكثيرًا ما يسمي محل او جبل باسمين ومن عادة المهاجرين ان يسموا اماكن وجبالاً وانهرًا باسماء آلفوها في مهاجرهم الاولى على ان ورود اسم اراراط في اسفار الانبياء المتأخرة كاسفار موسى المتقدمة يؤيد القول بان اراراط في ارمينيا ويزيده ايدًا اجماع تقليدات العبرانيين والارمن وغيرهم على ان السفينة استقرت في ارمينيا وهذه التقليدات صريحة وليست اقل اعتبارًا من تقليدات الهنود والفرس انتهى مقال فيكورو . فان لم يحق لمثلي ان يكشف عن رأيه بين هولاء العلماء الاعلام فيحق له ان يعارض اقوالهم بعضها ببعض فاقول ان لانرمان نفسه مهدَّ لرأيه الذي لخصناه آنفًا بقوله « ان بعض العلماء في صدر النصرانية اثروا الاعتماد على رواية باروز بجعلهم مهبط السفينة في الجهة الجنوبية في جبال اراراط نفسها اي في جبال كورديا وهي كردستان الان في الشمال الشرقي من اشور وجبل نيزير الذي ورد ذكره في اشعار ازدوبار الانفة الذكر هو القسم الجنوبي من هذه السلسلة وقد ذكره اشور نزيربال احد ملوك اشور في احدى كتاباته القديمة متكلمًا في غزوته لهذا الجبل قائلاً انه اجتاز بنهر الزاب السفلي سائرًا ابدًا نحو المشرق » . وعليه فان لم تكن ارمينيا مع ما اتصل بها من جبال كردستان في الشرق الصريح من ارض شنعار فلا اقل من ان تكون في الشمال الشرقي منها وهذا بيّن وصرح به لانرمان نفسه فيصح اذًا ان يقال ان المسافر منها الى شنعار يسير من المشرق الى المغرب

كقول الكتاب « ولما ارتحلوا من المشرق وجدوا بقعة في ارض شنعار » وعليه فما الحاجة « الى التوغل في الاتجاه نحو الشرق للتفتيش عن قمة عالية جدًا كالتي قرَّت عليها السفينة ليتصل المفتش الى سلسلة الهند وكوش او الى الجبال التي فيها منبع الهندوس » كما يقول لانرمان (في المحل المذكور نفسه) فعلى اجلالي المزيد لهذا العلامة المفضال على العلم لا ارى حججه كافية لهجر التقليد الذي حفظته عامة القبائل وايده اباء وعلماء قدماء وحدثاء ويطابق الكتاب على اختلاف الرواية في الاسم فالاقرب اذًا الى الصواب كثيرًا ان مستقر الفلك النوحية ومهد البشر بعد الطوفان كانا في ارمينيا او في الجبال المتصلة بها

عد ٣٠

تتمة اخبار نوح بعد الطوفان

لم ينبئنا الكتاب من اخبار نوح بعد نجاته من الطوفان الاَّ انه عاد « يحرث الارض » كما كان يصنع اباؤه « وغرس كرمًا » ولا يفهم منه ان شجر الكرم لم يكن قبل الطوفان بل ذكره الكتاب تمهيدًا لخبره ان نوحًا شرب من الخمر فسكر غير عالم قوة الخمر والاظهر ان استعمال الخمر لم يكن معروفًا قبل الطوفان واما بعده فهو عند الساميين اقدم منه عند اليافتيين على ما روى العالم بولس كلاتز في مقالته في الكرم والخمر عند الساميين واليافتيين القدماء المثبتة في مجلة اللغات الرومانية الصادرة في تموز سنة ١٨٧٠ (١) واتبع الكتاب الخبر بان نوحًا تكشَّف داخل خبائه فسخر حام من عرية ابيه واخبر اخويه وهما خارجًا فاخذا رداء ومشيا مستديرين وغطيا عرية ابيهما واوجههما الى الوراء ولما علم نوح بعد افاقته ما صنع حام فقال « ملعون كنعان عبدًا يكون لعبيد اخوته وقال تبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبدًا له ليرحب الله ليافت ويسكن في

(1) m. Paul glaize La vigne et le vin chez les Semites

اخبية سام ويكون كنعان عبدًا له ، لا يعلم لِمَ لعن كنعان بن حام بدلاً من ابيه والاظهر ان الابن كان شريرًا واشترك في جرم والده فلعنه جده واللعن للابن يقهر الاب ايضاً . وهذه اول مرة ورد فيها ذكر العبد في الكتاب على ما قال القديس اغسطينوس (في كتابه في مدينة الله ف ١٩) وكلام نوح هذا نبوة جاءت الحوادث مصداقاً لها فان بني حام وان فازوا بنجاح كبير وسريع وادرك بعضهم الحضارة قبل غيرهم كما كان المصريون والفينيقيون والحثيون الا انهم لطخوا شرفهم بوحول معاصيهم وفساد اخلاقهم وافتضحوا بخلاعاتهم وشركهم وكل ما كان عند اليونان والرومانيين من الشرك والمعتقدات السيئة قد تلقوه عن الحاميين او عمن تلقاه عنهم ولذا تغلّب عليهم بعد ذلك الساميون وانتزعوا ماكان لهم من الولاية والسطوة في بلاد الكلدان واشور وسورية ثم في مصر والحبشة ايضاً وقهرهم اليافتيون في الهند وبلاد فارس وفي مستعمرات الفينيقيين في اوربا وغيرها وحتى اليوم لا تجد في القبائل الحامية دولة مستقلة معززة واما بنو سام فنالوا البركة والنماء وتقووا كما مر على ابناء عمهم حام وحفظ العبرانيون منهم وديعة الوحي المقدس والايمان الصحيح ونما اليافتيون وبلغوا اوج الحضارة واقبلوا بواسطة الساميين الى معرفة الاله الحق والدين الصحيح واشتركوا في بركتهم وصح فيهم لذلك القول انهم يسكنون في اخبية سام . وما احسن ما قال فم الذهب في هذا الشان (خطبة ٢٩ في التكوين) ، ارى ان نوحاً بمباركته ساماً ويافث اراد ان يعبر عن دعوة ذريتيهما الى الايمان فاراد بسام اليهود لانه جدّ ابرهيم وامة اليهود واراد ببركة يافت دعوة الامم فانه قال بهذه البركة (ليرحب الله ليافت ويسكن في اخبية سام) وهذا تم بالامم فقوله ليرحب يشير الى الامم كافة وقوله يسكن في اخبية سام يدل على ان الامم تنعم مشتركة بما اعد لليهود ، فيعد نوح بني يافت بالسعة في املاكهم والمنافع المادية ثم بالاشتراك



في منافع بني سام الروحية. وانبأنا الكتاب اخيراً ان نوحاً عاش بعد الطوفان ثلثماية وخمسين سنة وسيأتي انه يكون على ذلك قد بقي حياً في بعض سني ابرهيم

الفصل الثامن

﴿ في ابناء نوح وتفرق ابنائهم في الافاق ﴾

﴿ عد ٣١ ﴾

في اهمية الانساب التي ذكرها موسى

قال الكتاب . وكان بنو نوح الذين خرجوا من التابوت ساماً وحاماً ويافث وحام هو ابو كنعان ومنهم انبث الناس في الارض . (تك ف ٩ عد ١٨ و ١٩) ثم ذكر موسى (في الفصل العاشر من هذا السفر) انساب بني نوح وبني ابنائهم مبيناً ذرياتهم واي البلاد قطنوا في المعمور المعروف حينئذٍ فكان لبيان هذه الانساب اهمية كبرى من وجوه اخصها ان ذلك اقدم بينة على انساب اقدم الشعوب فهو محور تدور عليه مقالات النسابين ومصدر يرجع اليه كل من يتكلمون في اصول الشعوب القدماء ومواطنهم سواء كانوا ممن اعتقد التوراة والتنزيل او ممن كذَّبوا بالكتاب ايضاً ولا مراء بان هذه البينة منذ عهد موسى على اقل نسبانها اي منذ نحو خمسة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي ولا يعرف حتى الان اثر تبين منه انساب القبائل القديمة يشاكل ما رواه موسى بقدمه واتساع اشتماله بل يظهر ان الانساب التي ذكرها موسى تلقاها عن تذكرات او تقليدات سبقت ايامه وقد حفظتها ذرية عابر واتى بها ابرهيم من بلاد الكلدان الى فلسطين وتطرقت باسحق ويعقوب وذريته الى موسى وعلى ذلك ادلة اولها

الاثار التي ذكرت بها اكد كتابة سنحاريب المنقوشة في بافيان حيث ذكر ملكًا لاكد كان في عهد تجلات فلاصر الاول ملك نينوى نحو سنة ١١٣٠ ق م . فقال اخذ جنودنا الالهة التي كانت تسكن هناك وكسروها وغنموا بكنوزهم . . . . والهة الهيكل التي كان اخذها مردوخ نادين اخي ملك اكد من تجلات فلاصر وجلاها الى بابل رددتها انا من بابل من بعد ٤١٨ سنة وركزتها في محلها الاول ، اي في هيكل نينوى . وهذه الكتابة تدلنا على ان اكد كانت ذات سطوة وصولة من اقدم الايام حتى قبل عهد تجلات فلاصر الاول

وبقي كلنه فقد قال اكثر مفسري الكتاب واهل التدقيق بان موقعها على الضفة الشرقية لدجلة في مملكة بابل في الجنوب الشرقي من بغداد حيث اقيمت بعد ذلك قطيسفون وهي المدائن تجاه سلوقية ولا يمكن القطع بذلك لكنه كالموكَّد ويؤيده التقليد الكلداني القديم وقد اعتمده اوسابيوس القيصري والقديس ايرونيموس والقديس افرام وابو الفرج ابن العبري ويزيده ايدًا ان البلاد الواقعة فيها قطيسفون كان يسميها اليونان كلنوتيس اي بلاد كلنة والاثار المسمارية لم تنبئنا حتى الان بما يثبت هذا القول او يخالفه انتهى ملخصًا عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو وعليه فالمدن الاربع في العراق العربي

وجاء في الكتاب بعد ذلك (تك فصل ١٠ عد ١١) . ومن تلك الارض (يريد ارض شنعار) خرج اشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالح وراسن بين نينوى وكالح وهي المدينة العظيمة . قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٣٠٩) ان قول الكتاب ومن تلك الارض خرج اشور فبنى نينوى يتحمل معنيين فقال بعضهم ان الكلام في شخص غير نمرود وهو اشور وان هذا بنى نينوى فاستمسكوا بظاهر اللفظ وقال غيرهم ما هذا الكلام إلّا تتمة تاريخ نمرود فلا يراد باشور رجل بل بلاد ومعنى الاية عندهم خرج

نمرود من تلك الارض الى بلاد اشور فبنى نينوى الخ وقول هولاء اثبت وهو الذي يقتضيه المعنى ومساق الكلام وليس فيه تكلف الأ لتقدير حرف الجر اي خرج الى اشور او تعدية خرج بنفسه وكذا رأي لانرمان (مجلد ٤ من تاريخه القديم صفحة ٦٤) قائلاً ان تقليد الساميين بجملته يثبت ذلك وان ارض نمرود من قول ميخا النبي (ف ٥ عد ٦) ، فيرعون ارض اشور بالسيف وارض نمرود بمداخلها ، يراد بها بلاد الكلدان وبلاد اشور معًا وان النبي يعتبر نمرود باني بابل ونينوى وهذا اطبق لما سترى من الاثار . وترى ابدًا اسم اشور في الكتاب علمًا لاحد ابناء سام وللبلاد لكنه ورد في الاثار علمًا لمدينة مخصوصة وللبلاد ولاله ليس هو الا اشور ثاني ابناء سام المّوه على جاري عادتهم وباسمه سمّيت البلاد التي هي الان الجزيرة فنمرود من ذرية حام ولِي قومه اولاً ثم خرج من الجنوب الى نحو الشمال فولِي بلاد اشور وسكانها الساميين ومما يثبت ذلك وجداننا لغة نينوى سامية كلغة بابل الا في اختلافات طفيفة ثم تصريح تقليدات نينوى بان اصلها كلداني بابلي فانك تجد على شواطي دجلة والفرات الطباق التام في المعتقد والمعبودات ونوع عبادتها وفي اللغة والكتابة وانواع الحضارة والعادات . وقد برهن العالِم فيكتور بلاس (١) (في كتابه في نينوى واشور مجلد ١ صفحة ٢١٤) هذا الامر ببناء المساكن في اشور بالاجرّ مع ان الحجارة في جهات الموصل حيث كانت نينوى يسهل استحضارها بخلاف جهات بابل فلا وجه للبناء بالاجرّ في اشور وعلى هيئة ابنية بابل الا استمساك المرتحلين من بابل الى نينوى بعادات مهاجرهم الاولى وعليه فالحضارة الاشورية بنت الحضارة البابلية الكلدانية

ان اسم نينوى معناه في لغتهم المسكن او المدينة وهي اول مدينة بنيت في

(1) Victor Place. Ninive et l'Assyrie

بلاد اشور بعد الطوفان ولكن تغلبت عليها منذ اقدم الايام مدينة راسن الاتي ذكرها ثم سقطت راسن من ذرى عظمتها فخلفتها نينوى في دورها الثاني والى هذا الدور تعزى الاثار المسمارية الوارد بها ذكر نينوى وقد بينت الاثار الاشورية ان موقع نينوى كان في المحل المسمى الان كوينجيك في الشرق الجنوبي من الموصل

واما مدينة كالح فوقعها في محل نمرود الان في جنوبي الموصل فلم تكن في الشمال من نينوى في جوار خرشباد كما توهم بعضهم بل في الجنوب من نينوى حيث الان خرابات نمرود كما حققت ذلك اكتشافات لايرد فانه وجد هناك كثيراً من الكتابات والاثار الدالة عليها . وكانت هذه المدينة عاصمة الملك في عهد سلمناصر الاول وبنى فيها هو وبعض خلفائه قصوراً شاهقة ووجد في خراباتها تمثال سلمناصر الثالث . روى ذلك الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٣٠٠ و ٣١٢) وقال اوبر (١) (في رحلته في ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٠٩) ان موقع كالح كان في محل خرابات نمرود وهذا امر غنمه العلم من الاثار ولم يحدث فيه بعد خلاف

واما راسن فقد صرح الكتاب بأن موقعها بين نينوى وكالح اي بين نمرود وكوينجيك لا على ضفة النهر بل في داخلية البلاد على مسافة ست ساعات من خرشباد ويرجح ان يكون موقعها حيث الان كَركوش على ما روى اوبر في المحل المذكور وكانت هذه المدينة عاصمة اشور بعد نينوى في دورها الاول كما مر ولذا وصفها الكتاب بانها المدينة العظيمة فالوصف لها لا لنينوى كما توهم بعض المفسرين بل لا يمكن عوده على نينوى الا بتعسف ظاهر وعليه فوصف راسن بالمدينة العظيمة مع انها دمرّت منذ اقدم الاعصر دليل ساطع على قدم

(1) Opport Expédition en MesoPotamie

تاريخ موسى فعظمة راسن اقدم كثيرًا من عهد عظمة نينوى في ايام ملوكها الاشوريين المعاصرين ملوك يهوذا واسرائيل . وكفى بهذا مؤونة لرد مزاعم بعض المنددين الالمانيين الذين وهموا ان انساب موسى كتبت في عهد ملوك اسرائيل

عد ٣٥

مصرائيم بن حام واعقابه

ولنعد الى الانساب التي اشغلنا الكتاب عنها بذكر نمرود وملكه ومدنه . قد سمى الكتاب ابن حام الثاني « مصرائيم » وتجده يسمي ابدًا وادي النيل مصرًا والاثار الاشورية تسميه مُصُر او مِصِر والفارسية مودريا بابدال الصاد بالدال . والاسم في العبرانية بصيغة المثنى او الجمع لقسمة هذه البلاد من اقدم الايام الى مصر العليا ومصر السفلى . ثم ذكر الكتاب ابناء مصرائيم فقال « ومصرائيم ولد لوديم » وذرية لوديم هم المصريون بحصر اللفظ وكانوا الفصيلة المتغلبة ويسمون انفسهم لوت او روت وابدال اللام بالراء مستفاض عندهم واكثر منه ابدال التاء بالدال وعكسه فتكون لوت بدلاً من لود كتسمية الكتاب لهم « وعناميم » وقد كثر في الاثار المصرية ذكر عانو مرادًا بهم شعب مشتت في اكثر انحاء وادي النيل وقد حفظ اسمهم ايضًا في اسماء بعض المدن في مصر فان اليولى ودندره كان اسمهما عان في لغتهم وكان لبطنين من هذه الفصيلة نوع من الاستقلال سكن احدهما في شبه جزيرة سينا والاخر في بلاد النوبة وسمتهما الاثار المصرية عانوكنس ولعلهما المقصودان في كلام موسى . ومن كلام ابن خلدون « ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي الاسكندرية » وابن مصرائيم الثالث « لهابيم » ولا اشكال بان المراد بهذا الاسم سكان ليبيا وهي البلاد الواقعة في غربي مصر وتسمى الان المغرب على ان اسم ليبيا كان

يشمل قديمًا كل الاعمال الواقعة في الغرب من مصر الى بوغاز جبل طارق فسكن هولاء يلزم حصره على المغرب الشرقي وهو من برقة الى تخوم مصر وشعب هذه الاعمال تسميه الاثار المسمارية لابو ولا يخفى القرب بين لهابيم او لابيم بالتخفيف ولابو «ونفتوحيم» ويراد بهم سكان بلاد منف واسمهم في الاثار المصرية الكهنوتية «نا فتاح» اي ملك الاله فتاح احد معبوداتهم . «وفتروسيم» وهم سكان الصعيد واسمهم في لغة مصر القديمة بتورس ومعناه البلاد الجنوبية «وكسلوحيم» وفي عرفان هذه الفصيلة غماضة ناشئة من عدم وجود اسم يقرب من هذا لا في الاثار المصرية ولا في الاثار المسمارية ولذا كان في هولاء لاهل العلم احداس ضعيفة المبنى على ان النسخة السبعينية لا تسميهم كسلوحيم كما في العبرانية بل هسمونيم ومعناه سكان بلاد النطرون (احد الاملاح سلفات الصود معرب) وفي اللغة المصرية هِسمِن ولا يخفى ان في غربي مصر السفلى عملاً يسمى وادي النطرون فيه بعض بحيرات يستخرج منها هذا الملح والاثار المسمارية تسمي هذا العمل مالوحي اي بلاد الملح وعليه فيظهر ان هذه الفصيلة اقامت هناك والاظهر ان موسى لم يعين هذا العمل وحده بل اراد سكان شطوط مصر البحرية من ليبيا الى فلسطين

وقد اتبع الكتاب كلامه في كسلوحيم بقوله «الذين خرج منهم الفلسطينيون وكفتوريم» قلنا وفي النسخة السريانية «وخرج من هناك الفلسطيون والكفتوريون» والخبير يعلم كم عنَّت هذه الاية العلماء والمفسرين في تفسيرها وكم تضاربت الاقوال فيه وفي اصل الفلسطينيين قبل الاكتشافات الحديثة واما الان فنقول سيجيء ما كشفته الاثار المصرية عن اصل الفلسطينيين من انهم قدموا الى مصر من جزيرة اكريت وغيرها من جزر الارخبيل وما جاورها من البلاد نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد فاسرهم المصريون واقاموهم في البلاد التي

سميت فلسطين نسبة اليهم وهم من قبيلة البلاسج اصلاً وبين الاسمين مقاربة ظاهرة فعلى القراة ان الفلسطينيين وكفتوريم خرجوا من الكسلوحيم تكون اشارة الى ان الغزاة الآتين من الشمال اختلطوا بالسكان القدماء الحاميين في مصر فخرج من الكسلوحيم الفلسطينيون لا ولدوا منهم على ان قراة نسختنا السريانية . ومن هناك خرج الفلسطينيون . هي اظهر وانسب لتأدية المعنى وليبان الحقيقة التي كشفت لنا عنها الاثار المصرية اذ يتبين منها ان الفلسطينيين خرجوا من بلاد الكسلوحيم التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط حيث أسر الغزاة وجلوا الى فلسطين . وقد كان من تقليدات عامة العلماء ان البلاسج الاولين ومنهم سكان اكريت وما جاورها من الجزر واليابسة هم من ذرية يافت ومن اعقاب ابنه ياوان ابي اليونان على ان الاب دي كارا ينشر الان فصولاً متتالية (في المجلة المعنونة بالتمدن الكاثوليكي) يبين بها ان البلاسج الاولين من قبيلة الحثيين ولد حث بن كنعان وعليه فيكون الكسلوحيم والفلسطينيون جميعاً من ذرية حام فهم ابناء اعمام الاولون من ولد مصرائيم والثانون من ولد كنعان اخيه. وسترى تفصيل هذه الامور في كلامنا على الحثيين وعلى بني اسرائيل وحروبهم مع الفلسطينيين

واما كفتوريم او الكفتوريون على ما في نسختنا السريانية فنسبتهم الى كفتور وهي جزيرة اكريت وقد ورد اسم هذه الجزيرة ونسبة الفلسطينيين اليها في ايات عديدة من الاسفار المقدسة فكأن الغزاة المار ذكرهم انفاً كان قسم كبير منهم من اكريت فخصه موسى بالذكر

﴿ عد ٣٦ ﴾

في فوط بن حام

واما فوط الثالث من ابناء حام ويسمى بوت وبونت ايضاً فلم يذكر الكتاب

اعقابه ولا جرم ان كان له ذرية فاين اقامت. قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٢٩٠) ذهب كنوبل وكايل وغيرهما ان هذه القبيلة توطنت ليبيا . وذهب ابار (في كتابه مصر واسفار موسى مجلد ١ صفحة ٦٣) انها توطنت بعض بلاد العرب وسومال الواقعة في الجنوب من خليج عدن وفي الشرق من الحبشة على ما ظهر من اكتشافات ماريات الاتي ذكرها واما لانرمان فبعد ان ذكر (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٢٧١) ان مواطن هذه القبيلة لا يبعد ان كانت في ليبيا جنح الى قول ابار بانها كانت في بلاد العرب وسومال وقال ان من تقليدات اهل سومال الان انهم من اقارب اقدم الشعوب الذين توطنوا اليمن وحضرموت وحرر رأيه بان هذه القبيلة انقسمت الى فصيلتين يفصل بينهما السودان فمساكن احداهما في سومال وجوارها على الشاطي الشرقي من افريقيا ومساكن الثانية في ليبيا ممتدة في شمالي قارة افريقيا من تخوم مصر حتى الاتلنتيك وجزائر كاناريس فيه . على ان الذي اطال واجاد في ذكر قبيلة فوط هو الاب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه في الملوك الرعاة) وملخص ما قاله ان المصريين القدماء كانوا يسمون بلاد العرب الجنوبية فوطاً وان اكتشافات ماريات في الكرنك (مصر) عن جريدة الاسماء الجغرافية افادتنا ان ارض فوط التي كان يحصرها اهل العلم بالاثار المصرية في العربية السعيدة واليمن تمتد الى قسم من قارة افريقيا وهو ما يقابل مضيق باب المندب الى ارض الحبشة اعني سومال وذكر ان احد ملوك مصر المسمى سنكسارا من الدولة الحادية عشرة ارسل قائدًا اسمه حانو الى بلاد فوط ليأتيه ببعض حاصلات هذه البلاد وان الملكة ماكارا ابنة توتمس الاول احد فراعنة الدولة الثامنة عشر ارسلت قائدًا اخر الى بلاد فوط ونقش تاريخ سفره على جدران دير البحارى (مصر) وان رعمسيس الثالث احد فراعنة الدولة العشرين ارسل جيوشاً تغزو

بلاد فوط وكتب تاريخ هذه الغزوة في بابير مصري والمتحصل من كل ما ذكر في هذه الاثار ان بلاد فوط ليست في قارة اسيا وحدها ولا في قارة افريقيا فقط بل هي في القارتين معاً قسم في اليمن وما جاوره من العربية وقسم في افريقية لجهة الحبشة اي في سومال المار ذكرها

عد ٣٧

كنعان بن حام وذريته

بقي من ولد حام كنعان والكلام في ذريته اهم منه في غيرها لان ابناء كنعان توطنوا ديارنا هذه . قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات ٢٩٣) لم نجد اسم كنعان حتى الان في الاثار الاشورية مع انها اكثرت من ذكر البلاد التي سكنها ابناؤه وكان الاشوريون يسمون هذه البلاد . مات احارى . وتأويله الارض التي الى الوراء او البلاد الغربية فكان من عاداتهم انهم اذا ارادوا تعيين الجهات الاربع التفتوا الى جهة مشرق الشمس فسموا الشرق الامام والغرب الوراء وقد فصّل في كتابة لنيرار الثالث احد ملوكهم ما تشتمل عليه هذه البلاد فانه ذكر الاعمال التي تؤديه الجزية فقال من جملتها . ارض احارى كلها . اعني ارض صور وارض صيدا وارض عمري (اي مملكة اسرائيل) وارض ادوم وارض بلاسطاف (اي فلسطين) حتى الى بحر مغرب الشمس . (رواه اوبر في كتاب رحلته بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٣٣)

قال الكتاب . وكنعان ولد صيدون بكره . وتوطنت ذريته في صيدا وما جاورها وسمتها باسمه وسنفرد مقالة خاصة بتاريخ الفينيقيين نسهب فيها الكلام في صيدا وصور وما يليهما . . وحثاً . ومواطن الحثيين البلاد التي بين العاصي والفرات وجبل اللكام وفصيلة منهم سكنت حبرون اي الخليل الان وجوارها قبل ان ياتيها ابراهيم وسنفرد لهذه القبيلة الكبرى مقالة مخصوصة ايضاً تريك ما

كان لها من السطوة وامتداد السلطة والحروب مع المصريين والاشوريين ولم يكن في حطام المؤرخين شيء من هذه الامور قبل الكشف عن كنوز الكتابات الهيروكليفية والمسمارية وقبل الاهتداء الى الآثار الحثية منذ بضع سنين فقط • واليابوسيين • اي ولد يابوس وقد سكنوا اولاً المحل الذي سُمّي بعدًا اورشليم • والاموريين • وكانوا يسكنون جبل افرائيم ويهوذا عند استيلاء بني اسرائيل على ارض الموعد وكانوا قد امتدوا حتى غربي البحر الميت وعبروا قبيل عهد موسى الاردن وشيدوا مملكة باسان وحشبون وفي الآثار المصرية ذكر لفصيلة امورية تسكن جهة قادس وعند منبع العاصي في الشمال من بعلبك • والجرجاشيين • وكان مركزهم في عبر الاردن وتمتد بلادهم الى الجليل وجبل الكرمل على الاظهر وجاء ذكرهم في الآثار المصرية ويظن ان بحيرة الجرجسيين (وهي بحيرة طبرية) تنسب اليهم • والحويين • ويظهر من الكتاب عند كلامه في استيلاء بني اسرائيل على فلسطين انهم كانوا يسكنون في جوار جبل حرمون (جبل الشيخ الان) وفي سيخام وجبع والرامة وقرية يعريم (ابو غوش الان) وقد ترجم اسمهم في الترجمة (الترغوم) الاورشليمية بالطرابلسيين كأنهم بعد ان طردهم يشوع بن نون من فلسطين ارتحلوا الى طرابلس او انحائها • والعرقيين • وكانوا يسكنون عرقا وجوارها في عمل عكار في الشمال من اطرابلس الى النهر الكبير • والسينيين • وكانوا يسكنون مدينة سين في الشمال من عرقا . كذا روى لانرمان في المجلد الاول من تاريخه (صفحة ٢٧٤) ولا يبعد ان تكون املاك هذه الفصيلة توصلت الى نهر السين او السن بين جبلة شمالاً والمرقب جنوبًا لكن لانرمان قال في المجلد السادس (صفحة ١٢٠) انهم كانوا يسكنون في جبل لبنان وان استرابون ذكر مدينة اسمها سينا او شينا واقعة في هذا الجبل فوق البترون ولا يعلم محلها الى الان • والاروادين • وهم

سكان جزيرة ارواد وما قابلها في اليابسة خاصة طرسوس وعمريت • والصماريين • قصبتهم سيميرا وذكرها استرابون بين المدن الواقعة بين النهر الكبير في عكار جنوبًا واللاذقية شمالاً فقال • ارتوسيا (طرسوس) وسيميرا • وفي معجم الكتاب لكلمت ان موقعها بين النهر الكبير جنوبًا ونهر مرقية شمالاً وهناك بلدة تدعى صمره وناحية تسمى ناحية زمرين او صمرين • والحماتيين • وهم سكان حماه على العاصي وباسمهم سميت فكان هولاء بين الحثيين في الشمال والاراميين في الجنوب

عد ٣٨

في ابناء سام

فرغ موسى من ذكر انساب بني حام فاخذ في تنسيب بني سام متبعًا فيه نظامًا جغرافيًا مرتبًا فقال • وبنو سام عيلام واشور وارفكشاد ولود وارام • فعيلام سميت باسمه البلاد التي سكنها اعقابه والكلمة في اللغة السامية تأويلها البلاد المرتفعة او الجبلية فيظهر انها سميت كذلك تمييزًا لها عن سهول بلاد الكلدان وكان الاشوريون والعبرانيون يسمون هذه البلاد سوسيانا وموقعها بين دجلة وبلاد فارس وهي خورستان الان ومنها الاهواز • ويظهر من بعض الاثار المسمارية ومن بعض صور تمثل حروب ملوك نينوى في بلاد عيلام ان العيلاميين اختلطوا من اقدم الايام بقبائل اخرى ولكن استمرت السيادة لهم • واما • اشور • ثاني ابناء سام فاليه ينسب الاشوريون وبلاد اشور وهي الجزيرة كما مر اي القسم الشمالي من بين النهرين ومن كلام ابن خلدون عن ابن اسحق • ان بني اشوذ (اشور) هم اهل الموصل وبني غليم (عيلام) اهل خورستان ومنها الاهواز • وقد رأيت انفًا ما بين الكلدان البابليين والاشوريين من وحدة اللغة والمعبودات والحضارة الى غير ذلك مع كون اولئك حاميين وهولاء ساميين وهيئات

القبيلتين الظاهرة من صور قديمة تدل صريح الدلالة على انهما من ذريتين كل ذلك يزيد صحة الكتاب ثبوتاً علمياً ايضاً . وقد توهم يوسيفوس وغيره ان العيلاميين هم الفرس سكان فارس وهو خطاء ظاهر لان الفرس يافتيون والعيلاميين ساميون بلا مراء

والثالث من بني سام « ارفكشاد » ويروى ارفخشاد وارفخشذ ومعنى الكلمة جار الكلداني ومتاخمه على ما روى لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٨٣) فذلك ناطق بان مهد ذرية ارفخشاد التي منها العبرانيون والعرب معاً كان في جوار ابناء عمهم الكلدان الذين هم ذرية كوش بن حام كما مر في الكلام على نمرود . واما « لود » رابع ابناء سام فزعم بعضهم ان ذريته اقامت في ليديا القديمة حيث ولاية ازمير الان مغترين بالمقاربة بين الاسمين لود وليديا . لكن وحدة الاسمين او تقاربهما لا يكفيان وحدهما للدلالة على ان الاصل واحد . فقدماء ليديا يافتيون ومحلهم من حيث موقعه الجغرافي لا يمكن ان يقرب الى محل ابناء لود لانهم ساميون والكتاب جعل مساكن بني سام متناسقة تباعاً فيلزم ان يكون مقر ذرية لود بين بني اشور وارفكشاد من جهة وبني ارام من الجهة الاخرى ومن كلام ابن خلدون في تاريخه « ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (لود) قال ابن اسحق كان للاوذ اربعة من الولد وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس» وفي تاريخ ابي الفدا في ذكر العمالقة « وهم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام » وبقي « ارام » خامس ابناء سام وتأويل الكلمة العالي او المرتفع ولا شك ان ابناءه اقام بعضهم في سورية الجنوبية اي في دمشق وانحائها حتى لبنان وبقي بعضهم بين النهرين كما سيجيء عند ذكر كل منهم . وكثيراً ما ورد اسم ارام في الاثار المسمارية مراداً به طوراً مساكنهم في سورية وطوراً بين النهرين او في الاقليمين معاً

لم يذكر الكتاب ولدًا لعيلام واشور ولود بل اجتزأ بذكر اعقاب ارفكشاد وارام فقط لان العبرانيين من ذرية ارفكشاد وجل غرض موسى ان يكتب لهذا الشعب تاريخه ولان الاراميين اقاربهم الادنون وجيران مواطنهم وكانت بين الشعبين علاقات تاريخية كثيرة كما سترى . ومما يستوجب الالتفات ان اسماء من ذكرهم الكتاب من بني ارفكشاد جميعها تاريخية جغرافية دالة على انتجاع هذه القبيلة من المشرق نحو المغرب فقال « ارفكشاد ولد شالح » وشالح تأويله البعث بالشيء الى الامام وتلك اشارة الى تقدم هذا الفرع من ذرية ارفكشاد من محل اقامته الاول نحو الغرب ثم قال « وشالح ولد عابر » بمعناه بالعربية اي العابر او المجتاز فانه عبر الفرات الى الغرب وعنه اخذ سكان سورية قبل ابرهيم يسمون ذرية عابر عبرانيين او بني عابر يريدون انهم اتوا من عبر الفرات . ثم قال الكتاب « وولد لعابر ابنان اسم احدهما فالج (او فالغ) لانه في ايامه انقسمت الارض واسم اخيه يقطان » ففالج او فالغ معناه القاسم او المقسِّم ففي السريانية ܦܠܓ بمعنى قسم وشق وفي العربية فلج الشيء فلجين شقه نصفين وفلَّج الشيء قسمه وفلغ رأسه شدخه فكان موسى يقول ان بني عابر انقسموا بعد عبورهم الفرات الى فصيلتين اقامت الاولى منهما في اور الكلدانيين (وسيجيء الكلام فيها عند ذكر ابرهيم) وارتحلت الثانية اي بنو يقطان الى بلاد العرب

عد ٣٩

في يقطان وولده جدود العرب

ان يقطان هذا يسميه العرب قحطان وهو ابو العرب العاربة وسموا كذلك على ما قال ابن خلدون « اما بمعنى الرساخة في العروبية كما يقال ليل أليَل وصوم صائم او بمعنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت اول اجيالها »

واما العرب البائدة فاكثرهم من ولد ارام ومنهم عاد وثمود وجرهم الاولى وسموا بائدة لانهم بادوا فلم تبقَ لهم ذرية مستقلة بل اختلطت بغيرها . واما العرب المستعربة فهم على ما قال ابو الفدا (في تاريخه) ولد اسماعيل وقيل لهم العرب المستعربة لان اسماعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية ثم دخل في العربية فلذلك سمي ولده العرب المستعربة . وقد ذكروا ان اسماعيل نزل في جرهم الثانية وزوجوه امرأة منهم ومن هولاء العرب المستعربة آل قريش

اخذ الكتاب في تعداد بني يقطان فقال . ويقطان ولد الموداد . ان ال الداخلة على هذا الاسم هي اداة التعريف العربية بلا مرآء ولكن هل الاسم المأخوذ هنا عن لغة اعجمية هو في العربية كذلك ام هو المرذاذ بن قحطان على ما روى ابن خلدون او هو مضاض او المضاض وقد كثر هذا الاسم في قبيلة جرهم الثانية التي هي من ولد قحطان كل ذلك لا سبيل الى تحقيقه الان . وفي تواريخ العرب ان من نسل قحطان من ملك في اليمن واول ملك منهم يعرِب بن قحطان ثم يشجب ابن يعرب الى غيرهما ومن ملك في الحجاز واول ملك منهم جرهم بن قحطان ثم عبدياليل بن جرهم الى غيرهما ثم ذكر الكتاب من ولد يقطان . شالف . وعن ابن خلدون . سالف وهم اهل السلفات . وفي التاج السلف كصرد بطن من ذي الكلاع من حمير وهو السلف بن يقطن وقال لانرمان ان هذا العمل اي السلفات او سلفية هو في الجنوب الغربي من صنعآء في اليمن ثم . حضرموت . وقد بقي هذا الاسم حتى الان علمًا لاقليم حضرموت على الطرف الشرقي من شبه جزيرة العرب ثم . يارح . وعن لانرمان انما هذا الاسم مترجم الى العبرانية عن كلمة هلال العربية ولذلك وقف المفسرون بين ان يكون المراد به بني هلال وهم شعب قديم في شمالي اليمن او جبال القمر الواقعة في حضرموت نحو الشرق . قال ابن خلدون في يارح هذا ومن تبعه من

ولد يقطان بعد ان ذكر خمسة منهم، هولاء خمسة وثمانية اخرى ننقل اسماءهم وهي عبرانية ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من اي البطون هم. وهم يارح واوزال ودقلا وعوبال وافيمايل واوفير وحويلا ويوباب، والجملة ثلاثة عشر نقلاً عن الكتاب بتغير ما وهوذا ما امكن التوصل الى معرفته في هذه الايام من شان هولاء

ذكر الكتاب بعد يارح «هدورام» قال لانرمان (صفحة ٢٨٥) لا ريب ان هولاء هم الحضارمة Adramites الذين جعل الجغرافيون منازلهم في جوار قبيلة حضرموت وكان في الشام قبيلة الحضارمة بعد الاسلام اتوا اليها من العجم وفي التاج الحضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الاسلام فسكنوا الشام . وفي الصحاح فتفرقوا في بلاد العرب فمن اقام منهم بالبصرة فهم الاساودة ومن اقام منهم بالكوفة فهم الاحامرة ومن اقام منهم بالشام فهم الحضارمة ومن اقام منهم بالجزيرة فهم الجراحمة ومن اقام منهم باليمن فهم الابناء ومن اقام منهم بالموصل فهم الجرامقة . ثم «اوزال» وبهذا الاسم عمل في اليمن كان حيث صنعاء الان واستمر يسمّى ازال او عزال الى ان غزا الاحباش هذه الديار في القرن الخامس للميلاد فسموها صنعاء وفي التاج ازال كسحاب اسم صنعاء اليمن في الجاهلية الجهلاء ... او ازال اسم بانيها وهو ابن يقطن ابن عابر وهو والد صنعاء كانت امرأة ملكت . ثم «دقله» قال لانرمان ما من عمل في بلاد العرب يقرب اسمه من هذا الاسم على ان معنى دقلة في العبرانية النخل فيراد بدقلة عمل كثر فيه النخيل او كان فيها نوع من العبادة لهذا الشجر كما كان عند قدماء نجران في اليمن وموقع نجران هذه يناسب كثيرًا ان يكون موطنًا لفصيلة دقلة من حيث الجوار لمساكن اخوانه على انه جاء في التاج نقلاً عن الصائب قال ابو حنيفة الدقل المجهول من النخل كله الواحدة دقلة وفيه عن

القاموس دقلة محركة موضع في اليمامة . ثم « عوبال » ويقرب هذا الاسم من اسم
بني عبيل الذين كانوا يسكنون في الغرب من صنعاء على شاطي البحر وكانت
عاصمة بلادهم ثمنه مدينة كبرى حوت من الهياكل خمسة وثلاثين هيكلاً .
وفي التاج بنو عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام قبيلة من
العرب العاربة قد انقرضوا وهو اخو عاد بن عوص . وذكر ابن خلدون عبيل
من شعوب العرب العاربة . وذكر الكتاب بعد هولاء « ابيمائيل » وكان
هذا الاسم علماً لعمل في بلاد مهرة من اليمن واخص حاصلاته البخور
وروى ثيفورست اليوناني المشهور بعلم الطبيعة ان احسن البخور كان
يؤتى به في ايامه من عمل مالي الذي لا يبعد ان يكون مائيل او ابي مائيل .
ثم « شبا » او سبا وهذه القبيلة مشهورة وكان منها اكثر سكان اليمن
غير ان بعض المؤرخين العرب لا يجعلون سبا بن قحطان كما في الكتاب بل
يقولون ما قال ابو الفداء « واسم سبا عبد شمس فلما اكثر الغزو والسبي سمّي
سبا وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان ... وكان لسبا عدة اولاد فمنهم
حمير وكهلان وعمرو واشعر وعاملة بنو سبا » الى ان قال ان من بني حمير التبابعة
ملوك اليمن ومن بني كهلان قبائل طي ومن بني عمرو نجم ومن بني اشعر
الاشعريون ومن عاملة بنو عاملة من القبائل اليمانية التي ارتحلت من اليمن ونزلت
بالقرب من دمشق في الجبل المعروف بجبل عاملة . انتهى ملخصاً عن تاريخ ابي
الفدا واصح من ذلك قول ابن خلدون في جدول بني سام سبا بن يقطن بن
عابر كما مر في التوراة وقوله هناك ان من بني يقطن « سبا وهم اهل اليمن من
حمير والتبابعة وكهلان »

اما « اوفير » فلا شك ان في بلاد العرب الجنوبية محلاً يسمى باسمه
سكنه ابناؤه بجانب ابنآء اخوته ولكن توفرت الاقوال وتضاربت في ما اذا

كانت اوفير علماً لمحل واحد او لمحلين اذ ورد ذكر اوفير هنا ثم في سفر الملوك الثالث عند الكلام في ارسال سليمان سفنه الى اوفير لاستحضار الذهب وغيره . والاظهر على ما حقق الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ فصل ٨) ان اوفير هذه غير اوفير محل تجارة سليمان فهذه في بلاد العرب الجنوبية في بلاد عمان على بعد نحو من خمسة عشر كيلومتراً من مدينة سوحار وتلك في بلاد الهند وان سفن سليمان كانت تسير حتى اوفير الهندية ومما قاله لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٨٥) ان اوفير التي في بلاد العرب كانت محطة للتجارة بما يرد من اوفير التي في الهند فكانت السفن الهندية تقل البضائع والحاصلات الهندية الى مرفأ عدن فتنقلها سفن اخرى او قوافل الى مصر وبلاد العرب وسورية

« وحويلة » الثاني عشر من ابناء يقطان استوطنت ذريته في بلاد خولان في شمالي اليمن على تخوم الحجاز حيث امتدت بعد ذلك ذرية اسماعيل كما جاء في التكوين (فصل ٢٥ عد ١٨) « ويوباب » قد رأيت انه يسمى في كلام ابن خلدون يوفاف . قال لانرمان (في المحل المذكور صفحة ٢٨٦) يظهر ان هذا الاسم مكسّر والصواب ان يقال « يوبار » فقد ذكر بتولمايس قبيلة اليوباريين في جنوبي العربية . وجاء في تواريخ العرب ان وَبَر من ولد قحطان وان فصيلة وَبَر كانت تسكن شرقي عدن الى تخوم حضرموت

واختتم موسى كلامه في ولد يقطان بقوله « كل هولاء بنو يقطان وكان مسكنهم من ميشا وانت آتٍ نحو سفار جبل المشرق » فميشا عند مصب الفرات ودجلة في الخليج العجمي مع البلاد التي تسمى الآن مساليك وهي البرية التي يسكنها الآن قبيلة بني لام من العرب وتتصل بالعراق العربي وسفار هي التي كانت عاصمة بني سبا وتسمى الآن زعفر . وجبل الشرق يظهر ان المراد به جبل نجد وعليه

فكان بنو قحطان يسكنون منطقة فسيحة تبتدي من مساليك من طرف العراق العربي وتمتد الى جبل شومر ونجد وجنوبي الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة

﴿ عد ٤٠ ﴾

في ابناء ارام

ذكر الكتاب ابناء ارام قبل بني ارفكشاد فقال ، بنو ارام عوص وحول وجاثر وماش ، فقد مر ان بني ارام اقاموا في دمشق وانحائها وقد حفظ اسم ارام لهذه الاعمال عند كل القبائل القديمة وفي كل اللغات اما ابنه عوص فاقام نسله في الارض التي سماها الكتاب باسمه اذ قال في فاتحة سفر ايوب ، كان رجل في ارض عوص اسمه ايوب ، وروى يوسيفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود فصل ٦) ، ان عوص بكر ارام اقام في عمل تراخونيد (او تراكونيت) الواقعة بين فلسطين وسورية المجوفة ، وقد ورد هذا الاسم في بشارة لوقا (ف ٣ عد ١) حيث قيل ، فيلبس رئيس ربع على ايطورية وبلاد تراكونتس ، فالكلمة يونانية من تراخوس معناها الوعر او الحزن او البلاد الكثيرة الحجارة وقد فهم بعضهم بها بلاد الشقيف وكلام يوسيفوس مؤذن بشيء من ذلك والاظهر ان المراد بها اللجا التي كان القدما يسمونها ارجوب وليس معناها الا الصبرة بمعنى الحجارة الغليظة المجتمعة وايطورية هي مملكة يطور القديمة وهي الناحية المعروفة الان بالجيدور وكل ذلك في الشرق من الاردن والجولان وفي الجنوب الشرقي من دمشق فهناك كانت قبيلة عوص وهناك كان ايوب يؤيده انه وجد في بعض الاثار المسمارية ذكر شعب يسمى عوصو ويظهر من الاثر ان مقره في جهة حوران واللجا . وفي كتب المؤرخين العرب ان عاد احدى قبائل العرب البائدة هي من ولد عوص وان ثمود وجديس من هذه القبائل ايضاً هما من ولد جاثر اخيه الذي يسميه العرب كاثر وان منزل ثمود كان بالحجر

بين الشام والحجاز كذا في تاريخ ابن خلدون وغيره وعن يوسيفوس والقديس ايرونيموس ان عوص بن ارام هو الذي بنى دمشق

اما « حول » فيظهر ان ذريته اقامت في البلاد الواقعة بين باسان والجولان ممتدة الى بحيرة الحولة وان هذا الاسم عن حول بن ارام واما « جاثر » فكان مقام اعقابه في ناحية ايطورية المار ذكرها المعروفة الان بالجيدور في الجنوب الشرقي من دمشق وجعل بعضهم موقع ايطورية في الشمال من الجيدور وفي الجنوب من جبل الشيخ وانها مملكة جشور القديمة حيث الان بانياس وقسم من اقليم البلان ولا تخفى المقاربة بين جاثر والجيدور وجشور . وبقي « ماش » الرابع من ابناء ارام وكان مفسرو الكتاب يترددون بين ان يكون مقام ذريته في ميشا مساليك المار ذكرها او في ماسيوس او ماشيوس في جوار نصيبين فجأت الاثار المسمارية قاضية بتبؤهم مساليك اذ ابانت هذه الاثار انه كان فيها شعب ارامي وربما كان هناك مقام بني ارام كلهم اولاً فنجع بعضهم الى سورية وبلاد العرب واستمر نسل ماش في مقرهم الاول

ان فصائل القبيلة الارامية قد استفحل امرها في وسط سورية وشرقيها وكان قطبها دمشق يليها عدة ممالك او ولايات كما سترى في محال عديدة من هذا التاريخ ويظهر ان ذرية لود اخي ارام التي كانت تسكن بعض شمالي سورية كما اشرنا آنفا اختلطت بالاراميين من اقدم الايام فكان هذا ما حمل بعض المؤرخين العرب على حسبان لود الذي يسمونه لاوذ ابنًا لارام مع انه اخوه ومنهم ابن خلدون عن ابن حزم اذ جاء في تاريخه (في المقدمة الاولى من مجلد ٢) « قال ابن حزم عن قدماء النسابين ان لاوذ هو ابن ارام بن سام اخو عوص » واهم من ذلك ان الاثار المصرية عند ذكرها الشعوب الذين عرفوا بعدئذٍ باسم ارامين تسميهم روتان او روتانو وتقسمهم الى روتان المغرب يُراد بهم

سكان دمشق وبلاد كنعان منهم والى روتان المشرق او الاعلى وتريد بهم سكان شمالي سورية وجزء من غربي ما بين النهرين فمادة كلمة روتان الاصلية روت او لوت لا يبعد ان تكون تحريف لود كما حرف المصريون انفسهم اسم جدهم لوديم بن مصرائيم بن حام بتسمية انفسهم لوت او روت كما مر في عد ٣٥ . وعليه فتكون القبيلتان اللودية والارامية المتميزتان اصلاً اختلطت احداهما بالاخرى وبعد انقراض ملك الحثيين في القرن الثامن قبل الميلاد عم اسم ارام بلاد هولاء ايضاً فاصبح القسم الاكبر من سورية يسمى ارام

عد ٤١

في بني يافت

ذكر الكتاب ابناء يافت (تك ف ١٠ عد ٢) اولاً فقال . بنو يافت جومر وماجوج ومداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس . ولم يذكر من ولد هولاء الابني جومر وبني ياوان فنتكلم اولاً في الاصول ثم في الفروع التي ذكرها فجومر ويسميه العرب كومر هو اصل قبيلة الجيماريين او الكومريين القدماء الذين ذكرهم هيرودت وكانوا يسكنون على شاطي البحر الاسود في جهة اسيا وفي جهة اوربا . وربما أُخذ عنهم اسم بلاد القرم وقد غزوا اسيا الصغرى مرات في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد وتسميهم الاثار المسمارية جيميراي . واما ماجوج . فتأول بعضهم اسمه بمعنى الجبل الكبير مركبًا من كلمتين ما وجوج يريدون بذلك جبل قاف وان قبيلته سكنت هناك . لكن هذا التأويل لا يعتمد عليه واكثر المفسرين وفي مقدمتهم يوسيفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود ف ٦) ان قبيلة هذا يراد بها التتر ولا مرية بكونهم من ذرية يافت . وقد جاء في نبوة حزقيال (ف ٣٨ عد ٢ وما يليه) . وكانت اليَّ كلمة الرب قائلاً يا ابن البشر اجعل وجهك نحو جوج ارض ماجوج رئيس روش وماشك وتوبل وتنبأ عليه وقل ...

هانذا اليك يا جوج فاديرك ... واخرجك انت وجميع جيشك ومعهم فارس وكوش وفوط ... ومعك جومر وجميع جيوشهم وال ترجومة واقاصي الشمال ... فتأتي الى جبال اسرائيل « ذكرنا كلام النبي مطولاً لتضمنه كثيراً من اسماء الشعوب الذين تكلم فيهم وهو نبوة على غزوة التتر لبلاد فلسطين في القرن السابع قبل الميلاد . وجوج رئيس او ملك ارض ماجوج يريد النبي به ملك التتر الاوربيين على ما رأى لانرمان فهولاء التتر كانوا اجتازوا في اواسط القرن السابع قبل الميلاد من شمالي جبل قاف الى جنوبيه واقاموا بين ارمينية الشرقية وبلاد ماداي واستمروا على اسمهم فقد ورد في كتابات اشور بانيبال الذي لم يكن بعيداً عن عهد حزقيال ذكر كوج او جوجي ملك شخا او شتا (اي شيت Scythes الذين اعتاد العرب ان يسموهم تترا) يسكن في الشمال من اراراط اي ارمينية فهذا هو جوح ارض ماجوج الذي ذكره النبي ووصفه برئيس ماشك وتوبل لان جيوش التتر كانت مستحوذة حينئذٍ على هذين الشعبين الاتي ذكرهما (لانرمان مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٩٤)

واما « ماداي » ثالث ابناء يافت فلا اشكال ان ذريته هي قبيلة الماديين المتواتر ذكرها في الكتاب والاثار ومساكنها بلاد مادى وهي الان ادربيجان والعراق العجمي ومادى اصل شعوب ايران . « واما ياوان » فالتقليد العام انه جد اليونان في اسيا واوربا فقد انقسم هولاء الى فرعين اجتاز احدهما بوغاز الدردنيل واقام في تراسة Thrace ومكدونية وامتد في سائر بلاد اليونان وجزرها واستمر الفرع الثاني في اسيا الصغرى فكان منه من كان من اليونان فيها هذا وسترى في كلامنا على الحثيين تفصيل السكان الاولين في هذه البلاد . ثم ذكر الكتاب « توبل وماشك » وكلما ورد ذكرهما فيه ذكرا معاً كانه لاتفاق نسلهما واقامة احدهما في جانب الاخر وذكرتهما الاثار المسمارية مراراً باسم « ماشكى

وتابالي » وعامة العلماء على ان مقر قبيلة توبال في الجنوب من جبل قاف وجعل يوسيفوس مساكنهم بين بحر قزبين (بحر الخزر) والبحر الاسود حيث جورجية الان والاثار المسمارية تؤيد هذا . واما قبيلة ماشك فرأي الاقدمين ان مواطنها كانت في الشمال من اشور بين البحر الاسود وبحر قزبين مع قبيلة توبل وهذا وجه ذكر الكتاب القبيلتين معاً وقد ورد مرات ذكر تابال وموشكى في كتابات سرغون الملك في خرشباد حيث عدَّ من جملة اقاليم ملكه « تابال الى موشكى » وقال في محل اخر انه انتصر على ميلا ملك الموشكيين . وذهب اوسان وغيره ان المسكوبيين هم من ذرية ماشك هذا (فيكورو مجلد ١ صفحة ٢٩٢)

واما « تيراس » الاخير من ولد يافت فاكثر مفسري الكتاب وفي مقدمتهم يوسيفوس (ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٦) على ان ذريته اقامت في تراسة (١) ولكن خالفهم لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٣٠٠) قائلاً بان مساكن ذرية تيراس كانت في جبل توروس وفي كيليكيا البلاد الفسيحة التي لم نرَ لها ذكراً في انساب موسى وبان بعض الفقهاء ارجع الى هذه القبيلة اسم ترسيس مدينة هذه البلاد وقد وجدت فيها بعض قطع مصكوكة كتب عليها اسم ترس وتسميها الكتابات الاشورية تارسي والحاصل ان قبيلة تيراس على قوله اقامت في ترسيس وفي كيليكيا حيث جبل توروس ايضاً . وسترى ان الاظهر نسبة ترسيس الى ترشيش بن ياوان ثم ذكر الكتاب ابناء جومر فقال « وبنو جومر اشكناز وريفات وتوجرمة » اما اشكناز فقد جاء ذكر قبيلته مع غيرها من سكان ارمينية بقول ارميا النبي (فصل ٥ عد ٢٧) متكلماً في خراب بابل « نادوا عليها ممالك اراراط ومِنّي واشكناز » وشبه هذا الاسم لاسم قبيلة

(١) هي حيث الاستانة الى البحر الاسود شرقاً والى جزر الارخبيل جنوباً والى الروملي الشرقية شمالاً ومكدونية غرباً

الاشكينين القدماء ظاهر وهولاء كانوا يسكنون بيتينيا حيث مدينة نيقية المسماة الان ايسنيك وفي جنوبها وشمالها بحيرتان تسمى كل منهما ايسنيك والجزر الواقعة تجاه ترويا تسمى جزر اشكانيا وعليه فيظهر ان قبيلة اشكناز بن جومر سكنت اطراف اسيا الصغرى من جهة الاستانة العلية . واما ريفات فعلى تقليد اليهود الذي حفظه يوسيفوس كان مقام ذريته بفلاغونيا وهي ولاية قسطموني الان وهذا ينطبق مع مركز اشكناز في بيتينيا ومركز ذرية ترجومة في ارمينية الغربية كما سيجيء فيكون مركز ريفات بينهما ويؤيده ان اليونان سموا هذه البلاد ريفاس . وترجومة . ورد ذكر نسله مرات في الكتاب منها قول حزقيال المذكور آنفاً حيث يجعله مجاوراً لنسل جومر وقريباً من اقاصي الشمال ومنها قول هذا النبي ايضاً (فصل ٢٧ عد ١٤) في صور . آل ترجومة بالخيل والفرسان والبغال اقاموا اسواقك . فيتحصل من ذلك ان بلاد هذه القبيلة لايمكن ان تكون بعيدة كثيراً عن فينيقي بحيث يمكن ان يؤتى منها الى صور بالخيل والبغال براً . ومن تقليدات الارمن ان جدهم يسمى ترجوموس او ترجوم وهو ابو هيك الذي ينتسبون اليه . وعليه فمساكن ترجومة كانت في ارمينية الغربية

ثم ذكر الكتاب بني ياوان فقال . وبنو ياوان اليشة وترشيش وكتيم ودودانيم . فاليشة يراد به سكان بلاد اليونان في قارة اوربا وقد كثر ذكره في الكتاب دالاً على هذه البلاد واما . ترشيش . فكان علماً لاسبانيا في ايام الفينيقيين اذ كان تجارهم يأمون ترشيش اي اسبانيا طلباً للكسب على انه لا يظن ان موسى اراد بترشيش اسبانيا في هذه الانساب فترشيش هو ابن ياوان فيلزم ان يكون اقام بين قومه او في جوارهم وقد احله موسى بين اليشة المراد بها بلاد اليونان كما مر وبين كتيم المراد بها قبرس على قول اكثرهم

فيلزم ان تكون ذريته توسطت بينهما اي كان مقامها في جزر الارخبيل او في الشواطي الغربية من الاناضول هذا ملخص ما قاله لانرمان في المحل المذكور وجاء في تاريخ بن خلدون « ان ترشيش اهل ترسوس » اي ترسيس الان وارى هذا اقرب الى الصواب مما سواه لا لوحدة الاسم فقط بل للمجاورة في الاحتلال ايضاً فكيليكيا وقبرس وبلاد اليونان متقاربة احداها من الاخرى « وكتيم » والاكثرون على ان المراد بهم سكان قبرس الاقدمون ويقويه ان اقدم مدن قبرس تسمى كيت او كيتون وكانت محطة للتجارة بين اهلها والفينيقيين وان الاكتشافات الحديثة في هذه الجزيرة تبين منها ان سكانها الاقدمين من اليونان البلاسج وان لغتهم فرع من فروع اللغة اليونانية ولكن احرفها مخصوصة بها هذا ما قاله لانرمان (مجلد ١ صفحة ٢٩٨) ولكنك سترى في كلامنا على الحثيين ان الاب دي كارا يرى ان كتيم يراد به حثيم اي قبيلة الحثيين وان قدماء قبرس حثيون لا يونان ويعقب على لانرمان وغيره في هذا الصدد . وبقي من ولد ياوان « دودانيم » كذا في النص العبراني في سفر التكوين وعنه ما في اللاتينية العامية ولكن في السبعينية والسامرية « رودانيم » وكذا في الاصل العبراني في سفر اخبار الايام حيث تعاد انساب موسى وعليه فيرجح ان صحيح الرواية رودانيم لا دودانيم ويظهر من ثم ان هذه الفصيلة كان موطنها رودس الشهيرة بقدمها والقريبة من قبرس فيتبادر الفهم اليها ولا يبعد ان تكون هذه التسمية تعم العمل المقابل لرودس في اليابسة . ومن اعتمدوا رواية دودانيم جعلوا محلة هذه الفصيلة في دودون في الابير او ان المراد شعب الدردنيين في ترويا

﴿ عد ٤٢ ﴾

مجمل هذه الانساب

ان المتحصل من هذه الانساب على سبيل الاجمال هو ان ولد حام كان

منهم اولاً الكوشيون وامتدت مساكنهم من بابل وعلى شطوط الاوقيانوس الهندي حتى بلاد الحبشة ومصر والآثار المصرية مؤيدة لذلك اذ تسمي شعوب اعلى النيل كوش كما مر وبقي من الكوشيين نمرود وقومه في بابل ومملكته التي ذكرناها . ثانياً ذرية مصرائيم وقد توطنت مصر واسمها في اكثر اللغات الشرقية حتى اليوم مشعر باصلها . ثالثاً ذرية فوط وقد سكنت شطوط افريقية الشمالية على قول بعضهم او بعض اليمن وسومال على قول الآخرين وهو الاظهر . رابعاً الكنعانيون وقد اهلت بهم سهول سورية الشمالية وشطوط البحر المتوسط الى جنوبي فلسطين ومن هولاء الفينيقيون واقاموا في وسط قبيلتهم والحثيون وامتدوا الى الشمال كما سترى

واما ذرية سام فمنهم اولاً العيلاميون سكان بلاد عيلام التي صارت بعد ذلك من اعمال الفرس . ثانياً الاشوريون سكان اشور وهي الجزيرة اي القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين وجواره . ثالثاً العبرانيون من ولد عابر بن شالح ابن ارفخشاد واستمر بعضهم في بلاد الكلدان وهاجر منها ابرهيم الى بلاد الكنعانيين فكان من نسله بنو اسرائيل . رابعاً العرب واصلهم يقطان او قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشاد بن سام وامتدوا في الحجاز واليمن وسائر اعمال بلاد العرب وهم العرب العاربة او العرباء . خامساً الاراميون وهم ولد ارام بن سام وكانت مساكنهم دمشق واعمالها وأُضيف اليهم ولد لود بن سام ومن هذين الاصلين العرب البائدة ايضاً اي عاد وثمود وجديس وجرهم الاولى الخ

اما ذرية يافث فمنهم اولاً الايرانيون وهم الماديون والفرس وغيرهم واصلهم مادى ومساكنهم بلاد فارس وجوارها وبعض الهند . ثانياً الكومريون او الجومريون واصلهم جومر بن يافث ومساكنهم على شطوط البحر الاسود من جهة اوربا وجهة اسيا ويظهر ان منهم السلت Celtes اصل بعض قبائل اوربا

كما سيجي. ثالثًا ذرية ماجوج وهم التتر Scythes وكانت مساكنهم في شمال جبال قاف وانتقل بعضهم الى جنوبيه ومن هولاء ايضًا اصل لبعض قبائل اوربا . رابعًا الترك ونسبهم ابن خلدون الى كومر (او جومر) بقوله . وشعوب الترك كلهم من بني كومر ولم يذكروا من اي الثلاثة هم والظاهر انهم من توغرما (توجرمة) . ولكن في الكامل لابن الاثير . ومن ولد تيرش (تيراس) الترك والخزر . خامسًا اليونان واصلهم ياوان وابناؤه ومساكنهم بعض اسيا الصغرى وبلاد اليونان والجزر القريبة منها وبعض ايطالية ومنهم او هم البلاسج على رأي عامتهم ولكن على رأي الاب دي كارا البلاسج لاسيما الاولين هم حيثيون . سادسًا الايباريون واصلهم توبل وماشك ومواطنهم الاولى بين بحر الخزر والبحر الاسود اي بلاد الجركس وبعض شروان . سابعًا وقد كان تيراس بن يافت اصلاً لبعض قبيلة السلاف اي الصقالبة

ان التقليد العام عند جميع سكان اوربا ان اصلهم من اسيا ارتحلوا اليها من جهة اسيا الصغرى وبوغاز الدردنيل والبصفور ومن جهة البحر الاسود وجبل قاف وبحر الخزر واكثرهم من ذرية يافت واصولهم خمس قبائل كبرى اولاها التتون ولها ثلثة فروع الاول السكندناف ويظن انهم ظعنوا من اسيا في القرن الاول قبل الميلاد ومنهم سكان اسوج ونروج والدانيمرك . والثاني الجرماني ومنهم اكثر سكان جرمانيا . والثالث الانكليزي ومنهم الانكليز بحصر اللفظ وسكان سكوتسيا . والقبيلة الثانيــة السلت انتشرت من اقدم الايام من المشرق الى المغرب في اواسط اوربا والسواد الاعظم منها حل في افرنسة فهم الغال سكان افرنسة القدماء او نزلاؤهم وجالية من هولاء اقاموا في بوهاميا وبافيارا وفي بعض اعمال ايطالية وانكلترة ايضًا حيث بلد غال . والثالثة اللاتين ومنها الافرنسيون من غير الاصل السابق ثم السواد الاعظم من سكان ايطالية واسبانية والبرتوغال

ورومانيا . والرابعة اليونان ومنها سكان بلاد اليونان والالبانيون وبعض سكان ايطالية الجنوبية . والخامسة السلاف اي الصقالبة ومنهم خاصة سكان روسيا والبشناق والسرب والبلغر والبولنيون وغيرهم

الفصل التاسع

(في برج بابل)

عد ٤٣

آيات الكتاب في برج بابل ثم من بناه

بعد ان ذكر موسى انساب بني نوح وتفرّق قبائلهم في الافاق انبأنا بما كان في بابل فقال (تك ف ١١ عد ١ وما يليه) ، وكانت الارض كلها لغة واحدة وكلامًا واحدًا . وكان انهم لما رحلوا من المشرق (نحو المغرب) وجدوا بقعة في ارض شنعار فاقاموا هناك وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لبنًا وننضجه طبخًا فكان لهم اللبن بدل الحجارة والحمَّر كان لهم بدل الطين وقالوا تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجًا رأسه الى السماء ونقيم لنا اسمًا كيلا نتبدد على وجه الارض كلها ، قبل ان نشيد لنا اثرًا نتفاخر به فاستكبروا واغاظوا الرب فقال ، هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة وهذا ما اخذوا يفعلونه والان لايكفّون عما همّوا به حتى يصنعوه هلمَّ نهبط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض فبددهم الرب من هناك على وجه الارض كلها وكفوا عن بناء المدينة ولذلك سمّيت بابل لان الرب هناك بلبل لغة الارض كلها ، فهذا ما جاء في الكتاب وهو شامل امرين الكلام في برج بابل ثم بلبال لغة الارض فنتكلم في هذا الفصل على

برج بابل وفي التالي على اللغة وبلبالها

واما من هم الذين اخذوا يبنون هذا البرج فذهب بعضهم الى انهم جميع الاحياء حينئذٍ من نسل نوح وانهم اجتمعوا في ارض شنعار يتعاضدون ويتنافسون بتشييد مدينة وبرج • وذهب غيرهم ان هولاء كانوا بني سام فقط وبعض ولد حام وايَّد هولاء مذهبهم بحجج عديدة منها ان التعميم المتحصل من قوله « وكانت الارض كلها لغة واحدة » لا يراد به كل الارض المأهولة يومئذٍ بل كل الارض التي اجتمع فيها المرتحلون اي ارض شنعار ولا يستفاد من نص الكتاب البتة ان كل الاحياء حينئذٍ اجتمعوا في هذه الارض • ومنها ان موسى ذكر اخبار تفرق ابناء نوح قبل خبر برج بابل وبلبال الالسن ومن خاتمة الفصل العاشر من سفر التكوين وهي « هولاء عشائر بني نوح ... ومنهم تفرقت الامم في الارض بعد الطوفان » يتلخص ان هذا التفرق كان بُعيد الطوفان وقبل بناء البرج . ومنها ايضاً ان قوله انهم ارتحلوا من المشرق لا يستلزم انه لم يبقَ منهم احد حيث كانوا ولا انه لم يتخلف احد منهم في اثناء الطريق ومن حججهم ايضاً ان الظاهر من النص العبراني ان بلبلة الالسن كانت بعد سنة ١١٧ من الطوفان ولكن يؤخذ عن الترجمة السبعينية ان ذلك كان بعد ٤٠٠ سنة من الطوفان واذا اعتمدنا هذه الرواية الاخيرة كان اجتماع نسل نوح برمته في بابل مستحيلاً . ويظهر من الاثار المصرية ان بني مصرائيم كانوا مقيمين في وادي النيل قبل القرن الرابع بعد الطوفان • والحاصل من ذلك كله ومن قرائن النص المقدس ومجموعه ان الذين هموا بتشييد المدينة والبرج في ارض بابل وبلبلت لغتهم لم يكونوا جميع الناس على اخرهم واذا فهم كلام الكتاب بهذا المعنى سقط كل ما يعترض به على رواية موسى من حيث وحدة اللغة او غيرها كما

ستری

﴿ عد ٤٤ ﴾

في موقع برج بابل

لاجرم ان ارض شنعار التي شُيِّد البرج فيها هي ارض بابل لتصريح الكتاب بان ما بنوه سمي بابل اخذًا عن بلبلة السنتهم ويظهر ان العلامات المسمارية الدالة على شنعار تشير الى معنى ما بين النهرين لانها على ما روى اوبر (في كتاب رحلته ما بين النهرين) « مات مات را » فعلامة مات تدل على اسم البلاد ورا معناه ري الماء او السقي اي النهر فكان المعنى البلاد المسقية بنهرين اي ما بين النهرين. واما اين كان موقع هذا البرج من ارض بابل فاختلاف القدماء في تعيين محل بابل ادى باولى حجة الى الاختلاف في موقع البرج والاظهر الان ان موقع بابل انما هو مدينة الحلة الان موطن الشيخ صفي الدين الحلي صاحب البديعية المشهورة واما موقع البرج فجعله بعضهم في الشمال من بابل في محل الهرم القديم الذي ذكره استرابون وسماه قبر بالوس وجعله غيرهم في بورسيبا القديمة التي هي الان برج نمرود في وسط الطريق بين بغداد وبابل على بعد اثنى عشر كيلومترًا في الجنوب الغربي من الحلة حيث خرابات كبيرة من اجرّ بعضها متزجج بالنار وهناك صرح بقي من ارتفاعه ستة واربعون مترًا ومحيطه سبعماية وعشرة مترات وقد اثبت العالِم اوبر (١) الافرنسي ان هذه الخرابات هي في موقع برج نمرود حتى افضل على العلم بابلاغ هذا المبحث الى درجة من التوكيد فقد جمع (في كتابه الدروس الاشورية وفي كتاب رحلته بين النهرين) شهادات المؤرخين وفقرات الخطوط المسمارية التي جاء فيها ذكر الهرم القديم وبرج نمرود واستخلص مثبتًا ان برج نمرود هو برج بابل الذي بلبلت الالسن عند بنائه

(1) Oppert Etudes Assyriennes P 192 et Expédition en Mesopo. T. 1 P. 213

اننا كافاً بالايجاز نكتفي عن ذلك بايراد بعض فقرات من كتابة مسمارية خطها بختنصر على هرم قديم في محل برج نمرود وكان اول من ترجمها اوبر المشار اليه وشرحها في كتابه الدروس الاشورية فبختنصر بعد ان يستغيث بالالهين مروداخ ونابو يقول ، ان هيكل انوار الارض السبعة المعلق عليه اقدم ذكر لبرسيبا بناه ملك قديم (يحسبون من عهده الى اليوم اثنين واربعين عمراً بشريًا) لكنه لم يكمل قمته فتركه الناس منذ ايام الطوفان متكلمين كلاماً مشوشاً وزلازل الارض والرعود زعزعت اللبن (الاجرّ الغير المشوي) وشققت الاجرّ المشوي الملبس به البناء فتهدم اللبن فتكوَّن منه تلول فالهم مروداخ الاله العظيم قلبي لاجدد بناءه فلم امسس الاساس بل اخترقت في شهر الخلاص واليوم المسعود اللبن والاجرّ بقناطر اقمتها وكتبت اسمي المجيد على وجه القناطر وعنيت بتجديد بناء البرج ورفع قمته كما كان يلزم ان تكون وكذا اعدت تشييده كما كان يلزم ان يكون في الاعصر الخالية القاصية وكذا رفعت اعلاه ، وقد ايقن اوبر وغيره من اهل العلم بالاثار ان خط بختنصر هذا مشعر بلا شك ببرج بابل الذي ذكره الكتاب على ان لانرمان تابع اوبر على هذه الترجمة في موجز تاريخه القديم ثم عاد في مطول هذا التاريخ وفي موجز تفسير فقر باروز يشتبه بصحة الترجمة خاصةً في الفقرة ، تركه الناس منذ ايام الطوفان متكلمين كلاماً مشوشاً ، مترجماً لها بمعنى اخر ولما كانت الخطوط المسمارية عرضة لتأولات عديدة ولقرآءات مختلفة فلم نحصل حتى الان على التوكيد المطلق ان برج نمرود هو برج بابل حقيقـةً وان كان رأي اوبر هو الاقرب الى الصواب والاظهر خاصة لاستمساكه بحجج قوية واسناد قوله الى بينات عديدة ولانه يتبين من اي تفسير كان لخط بختنصر انه جدد بناء برج كان من اقدم الايام ولم يتم صانعوه سقفه او قمته ولا يخفى ما في ذلك من الاشارة الواضحة الى برج بابل

سواء ذكر الطوفان في ذلك الخط ام لم يذكر

عد ٤٥

في الاثار المثبتة تاريخ برج بابل

ان عالمًا اسمه ابيدان يظن انه كان كاهنًا مصريًا في هيكل ازوريس في مصر على عهد خلفاء اسكندر الف كتابًا اعتمد فيه التاريخ البابلي لباروز الشهير وضمنه اخبار الكلدان والاشوريين الا ان غِيَر الزمان لم تبقِ منه الا فقرات رواها اوسابيوس في الاستعداد الانجيلي والقديس كيرلس الاسكندري في كتابه ضد يوليانوس وجرج سينسال في تاريخه ومنها فقرة رواها اوسابيوس وغيره قال ابيدان فيها . رووا ان الرجال الاولين استكبروا بقوتهم وارتفاع قاماتهم فاخذوا يحتقرون الالهة ويظنون نفوسهم اسمى واعظم منهم فحملتهم كبرياؤهم على ان يشيدوا صرحًا عجيبًا في ارتفاعه وهو الان بابل وبينما كاد رأسه يناطح السماء عصفت الارياح بامداد الالهة فحطمت مراقي البناء وكفأتها على البنائين وسمّيت هذه الخرابات بابل . والناس الذين كانت لهم لغة واحدة الى ذلك الحين شرعوا منذ حينئذٍ يتكلمون لغات مختلفة بامر الالهة . وقد حفظ اسكندر بوليستور (اي العلامة وهو كاتب يوناني توفي في القرن الاول قبل الميلاد) رواية اخرى اشبه بهذه اخذها عن باروز

ان التقليدات البابلية التي بلغتها الينا فقرات باروز وغيره في شأن برج بابل وبلبال اللغة فيه تشبه كل الشبه ما رواه موسى في سفر التكوين بهذا الشان حتى لم يجد توش ورنان وغيرهما من كفرة عصرنا مفرًا من قوتها فلجأوا الى الزعم ان باروز لم يتلقَ ما كتبه في برج بابل عن اثار كلدانية بل تلقاه عن كتب اليهود واوهمهم ميلهم السيء انه كان لليهود سكان بلاد الكلدان صولة وسطوة في هذه البلاد ايام كان باروز يكتب تاريخه على عهد اسكندر الكبير

وسلوقوس . مع انه لم يكن لهم شيء من ذلك بل كانت مدارس بلاد الكلدان لم تزل عامرة زاهرة تعلم قرآءة الخطوط المسمارية وتفسيرها حتى كان كل ما بقي من فقر باروز وامكن معارضته بالاثار المكتشفة حديثًا قاضيًا علينا ان نوقن انه تلقاه عن اثار قديمة في وطنه وانه كان على غاية من الدقة في ما ينقله ولا وجه لاستثناء روايته في برج بابل وبلبلة الالسن من هذا الحكم وليس في ذلك ما يشرف قبيلته او يعود عليها بنفع

ويزيد ذلك تحقيقًا ما اكتشفه عن قرب جرج سميت من صفائح نُقش عليها بالخط المسماري تاريخ برج بابل وهي الان في المتحف البريطاني الا انها لسوء الحظ مشوهة ممحو قسم منها والصحيفة الاولى التي يظن انه كان مكتوبًا فيها خبر تكبر من شيدوا البرج لم يهتدِ اليها بعد على ان الباقي من هذه الصفائح يشف ظاهرًا عن الغرض وهوذا ترجمة ما كان منه كذلك . كانت افكار قلبه سيئة ... وكان ترك ابا كل الالهة ... فبلبلهم كبارًا وصغارًا على البرج ... كان يبنى الجدران النهار بطوله وفي الليل عقابًا لهم ... لم يترك بقية ... في غضبه جاهر برأيه الخفي بان يبلبل السنتهم فحول وجهه وامر فتبلبلت اراؤهم ... سر - تولِي - إلِيّ (تأويله اله البرج السامي وهو أنو) اباد (او عاقب) ... فالتقوه مرتعدين فنظرهم ... ولما لم يتوقفوا وعصوا الالهة ... فبكوا بكاءً مرًا على بابل وانتحبوا وقلبهم ... . فالحاصل من هذا الكلام المتقطع ان شعب تلك الايام عصى الالهة واراد بناء برج غير مبالٍ باسخاطهم فبلبل الالهة السنة الشعب وارآءهم ودمروا ليلاً ما كانوا يبنون نهارًا فشق عليهم ذلك وناحوا على بابل وما كانوا بنوه فيها وهذا مؤذن ببناء برج بابل ودكه وبلبلة السن من بنوه بل لا يمكن تخريجه او صرفه الى معنى غير هذا

روى لانرمان (مجلد ١ من التاريخ صفحة ١١٥) ان التقليد الدال على

بناء برج بابل وبلبال الالسن به وجد عند الارمن ولم تخلُ عنه كتب اليونان لانه جاء في قصصهم عن الالياد (اي الجبابرة) انهم شرعوا يبنون برجاً يبلغ رأسه الى السماء فعاقبهم الالهة على قحتهم واهالوهم بالصواعق واهبطوهم الى الجحيم وروى مارونياه آنفاً وقال لم نجد اثراً لذلك في الهند ولا في ايران لانه خُصَّ بسكان بابل او بمن كانوا مجتمعين في شنعار او بمن تفرع منهم بعد ذلك

الفصل العاشر

(في اللغة)

عد ٤٦

في اللغة الاولى

لما كان جميع الناس من ولد ادم وحوا اولا ثم من ولد نوح بعد الطوفان لم يكن اشكال ولا ريب في انه كان للاولين في الدورين لغة واحدة يحسن تسميتها اللغة الاولى وجاء الكتاب ينبئنا انه عند بناء برج بابل « كانت الارض لغة واحدة وكلاماً واحداً » وقد ابنا مفهوم هذه الاية على ان الاختبار في كل اين وآن حقق لنا انه لايمكن ان تكر اعوام عديدة على لغة الا وتدخل عليها تبديلاً في الفاظها وتغييراً في صورها وزيادة عليها وتحريفاً وتصحيفاً في حروفها لاسيما اذا كانت تلك اللغة غير مكتتبة وعليه فليس لنا ان نقضي بان اللغة التي انطق الله ادم بها استمرت محفوظة على سلامتها الى ايام الطوفان واذا سلمنا ببقاء اصلها وجوهرها فلا اقل من تبدل هيئتها الخارجية ودخول بعض التغير فيها الا ان يكون ذلك بمعجزة ولم ينبئنا الكتاب بشيء من هذه المعجزة . ثم اذا كانت

المدة التي تخللت بين الطوفان وبناء برج بابل اربعة قرون على ما في النسخة السبعينية فلا بد ان يكون قد طرأ على اللغة التي كان نوح تكلم بها مثل تلك التبدلات والتغيرات والزيادات الحديثة وعليه فالاظهر ان اللغة التي كان يتكلم بها من بنوا برج بابل هي اللغة الاولية مهذبة ومكملة ومزادًا عليها الفاظ جديدة وصور حديثة . وان بني سام تيسر لهم اكثر من سواهم حفظ اللغة التي نطق بها اباؤهم لانهم استمروا ادنى من غيرهم الى مهد النوع البشري وان طرأ على لغتهم ما طرأ ويطرأ على كل لغة كما انباه

ذهب بعض الآباء منهم اوريجانوس (في مقالة ١١ في سفر العدد) والقديس اغوسطينوس (في كتابه مدينة الله فصل ١٦) وغيرهم وكثير من العلماء حتى ايامنا ان اللغة العبرانية هي اللغة الاولى التي تكلم بها آدم في الفردوس وذهب كثيرون غيرهم ايضًا انها لغة اخرى سامية كالسريانية او الكلدانية او العربية على انه قد تبين من العلم الحديث النشأة وهو علم معارضة بعض اللغات ببعضها ان كل اللغات القديمة تعاقبت عليها ثلثة ادوار ففي دورها الاول كان كل من كلماتها ذا هجاء واحد فتوضع الكلم احداها بعد الاخرى بحسب نظامها المنطقي لتأدية المعنى المقصود وما برحت لغة الصين ولغات بعض القبائل في داخلية افريقية وغيرها من هذا النوع . وفي الدور الثاني أُخذ بالحاق كلمة الى اخرى فيؤدي اللفظان المعنى الاول مضافًا اليه معنى جديد او يحصل من تركيب الهجائيين او اكثر معنى اخر . وفي هذا الدور ايضًا اخذ بزيادة احرف على الاصول في اولها او اخرها او بين حروفها للدلالة على معانٍ ترافق المعنى الاصلي مثال ذلك في لغتنا العربية زيادة الالف في مثل قاتل للدلالة على المشاركة وزيادة الالف والسين والتاء في مثل استغفر للدلالة على طلب الفعل ومن ذلك تشديد اوسط الفعل للدلالة على المبالغة او ادخال الهمزة او التشديد على الافعال للتعدية ومثال

ذلك في غير العربية لايخفى على الخبير بها فمنه زيادة بعض الحروف في اللغات الاوربية للدلالة على تجديد عمل الفعل مثل Commencer ابتدأ Recommencer ابتدأ ثانية او استأنف ومثل honorer كرَّم ووقَّر Déshonorer عاب واحتقر . وفي الدور الثالث اكتسبت كلم اللغات التصريف وهو تغيير الاصل الى هيئات متعددة للدلالة على معانٍ منها تصريف الافعال في الازمنة ومع الضمائر وبناؤها للمجهول والحاق الضمائر بالاسماء والافعال ومثل النسب والتصغير وما اشبه واذا علمت ذلك ظهر لك ان اللغة العبرانية وغيرها من اللغات السامية لايمكن ان تكون في حالتها الحاضرة اللغة الاولى التي تكلم بها آدم فان نحو كل منها ومعجماتها تنبئنا انها في دورها الثالث ولكن يمكن ان تكون احدى هذه اللغات السامية لغة آدم او لغة نوح من حيث جوهرها واصلها وقد قدَّر لانرمان ان اللغات ذات الهجاء الواحد يتكلم فيها نحو ٤٤٩ مليونًا في العالم واللغات المركبة غير المتصرفة يتكلم بها نحو ٢١٦ مليونًا والمتصرفة ينطق بها نحو من ٥٣٧ مليونًا (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٣٣١)

عد ٤٧

بلبلة اللغة

واما كيف كان بلبال اللغة في بابل فللآباء ومفسري الكتاب في ذلك قولان قال بعضهم انشأ هذا البلبال عدم ادراك بناة البرج ما يقوله احدهم للاخر بارادة الله عقوبة لكبريائهم فتفرقوا فنشأ عند كل فريق منهم لغة تقدمت شيئًا فشيئًا وممن استمسكوا بهذا القول القديس غريغوريوس نيصص ومما قاله (في رده مزاعم اونيميوس ك ١٢) . لما كان موسى ولد بعد قرون من بناء برج بابل فاستعمل لغة من اللغات المتأخرة . اي التي نشأت بعد البلبال وجرت في مدارج التقدم وجنح اهل العلم بمعارضة اللغات الى تأييد هذا القول . وقال آخرون

وهم كثير من الاباء والمفسرين ان الله غير بغتـةً لغة بناة البرج حتى استحال على احدهم ان يدرك كلام الاخر وانطق كل فريق بلغة تلك معجزة لا يعجز الله صنعها . قال فم الذهب (مقالة ٣٠ في التكوين) . ان وحدة اللغة دعت الى الاجتماع واختلاف اللغة اوجب التفرق . وقال القديس افرام السرياني (في تفسيره سفر التكوين مجلد ١ من كتبه السريانية صفحة ٥٩) . يظهر ان الله محا من ذاكرتهم اللغة القديمة التي كانت تعمهم جميعًا وبدلها بلغة خاصة بكل فريق منهم ... واستمرت اللغة القديمة عنـد اسرة واحدة فقط . وعلى كلا القولين كان بلبال الالسن معجزة خارقة ناموس الطبيعة لا ينكر امكانها الا من ينكر قدرة الله على تغيير سنن الطبيعة وهو على كل شيء قدير على ان المعجزة في القول الثاني مضاعفة اي انساء اللغة الاولى وانطاق كل فريق بلغة

﴿ عد ٤٨ ﴾

علم معارضة اللغات

هو علم حديث النشأة عنِيَ وما برح يعني به كثير من اعلام اهل العلم في هذا العصر والغرض منه معرفة اصل اللغات واشتقاق بعضها من بعض وما دخل من احداها في الاخرى وردها الى اصولها والبحث في ما اذا كان لها اصل واحد ترد اليه سائر اللغات وقد ردوا حتى الان كل اللغات التصريفيـة المعلومة الى اصلين خاصةً الاول السـامي والاولى على رأي بعضهم ان يسمى السرياني العربي واخص فروعه الكنعانية بفروعها والارامية اي السريانية بفروعها والاشورية والعربية بفروعهما ولغة بعض اهل الحبشة بفروعها ومن هذا الاصل ايضًا اللغة الحامية وهي ذات ثلثة فروع المصري القديم المكتوب بالحروف الهيروكليفية ولغة بعض سكان الحبشة غير المار ذكرها ولغة سكان ليبيا وهي المغرب اي الاقاليم الواقعة في غربي مصر فقد اثبت لانرمان (مجلد ١ من تاريخه

صفحة ٣٧٠) ان اصل هذه اللغات واللغات السامية واحد بدليل ان اصولها النحوية واصول الضمائر فيها وصيغة التأنيث والجموع ونحو نصف اصول الكلمات جميعها واحدة في اللغتين والنصف الثاني من اللغات الحامية حتى ان الفرع المصري نفسه هو من لغاتٍ افريقية يتكلم بها شعوب السودان ويظهر ان انفصال اللغات الحامية عن السامية قديم جدًا وقد سبق تقدم اللغات وتحسينها .

واما الاصل الثاني فهو السنسكريت ويقسمونه الى الهندي الايراني والهندي الاوروباوي ومن فروع الاول الفارسي والارمني ومن فروع الثاني اليونانية بفروعها واللاتينية بفروعها والجرمانية بفروعها والسلافية بفروعها الى غير ذلك من اللغات او الفروع المستعملة في اوربا ومستعمراتها وسنأتي على بيان ذلك كله وقد اسند هولاء العلماء نتائجهم الى مقدمات هي قرب الفروع من الاصل والمشابهة بين الاصول النحوية وازمنة الفعل وتصاريفه ونوع الكتابة واستعانوا بتواريخ القبائل وارتحالاتهم وانسابهم الى غير ذلك من الادلة المقررة عندهم

واما مرجع هذين الاصلين الى لغة واحدة اولية فهو ما يتمنّى اهل هذا العِلم وقد تقدم كثيرًا على حداثة نشأته وان لم يتمكن ذووه حتى اليوم من الاهتداء الى كل حلقات هذه السلسلة المتقطعة وايصال احداها بالاخرى وما ادركوه حتى الان وليس هو باليسير اثباتهم اثباتًا علميًا امكان وجود لغة واحدة اولية هي اصل سائر اللغات واهتداؤهم الى قرائن قوية دالة على ان اللغات مشتركة في الاصل ولها اصل واحد يعم جميعها خاصة اذا رُوعي دورها الاول اذ كان كل اصل ذا هجاء واحد حتى قال بعضهم ان بعض ما كان في اللغات السامية من ثلثة احرف اصله حرفان فقط . هذا واذا تعذر الوصول الى التيقن بوحدة الاصل في جميع اللغات فيبقى قول الكتاب « وكانت الارض كلها لغة واحدة » على سلامته وتنزهه عن كل خلاف اذ ابنّا ان الاظهر من معنى الاية

ان المراد بالارض كلها ارض شنعار كلها لا الارض باطلاق لفظها فسيان في صدق الكتاب ثبت وجود لغة واحدة هي اصل كل اللغات ام لم يثبت والراجح الان ثبوته

عد ٤٩

اللغات السامية

قد مر ان اصل اللغات الذي سمته عامة اهل العلم سامياً رأى بعضهم ومنهم لانرمان ان الاولى تسميته بالسرياني العربي لانه اصل لبعض لغات الحاميين ايضاً فتسميته سامياً لاتشمل هذه اللغات ولان اخص فروعه السريانية والعربية فكانت السريانية والعربية فرعين عامين يسمى الاول منهما شمالياً والثاني جنوبياً ولكل منهما فروع نأتي على ذكرها كافاً بتوفر الفوائد فالفرع العام الشمالي الذي هو السرياني تفرع منه اللغات الارامية والاشورية والكنعانية فالارامية لغة الشعوب الذين سماهم الكتاب ارام فكانت لغتهم في سورية ثم اوصلتها ولاية الاشوريين والفرس الى كل ما بين النهرين حتى خليج العجم وفلسطين وبلاد العرب الشمالية واستمرت الارامية اللغة المتغلبة في هذه الاقاليم الى ان نسختها وخلفتها العربية بعد ظهور الاسلام . ومن فروع الارامية الفرع الذي كتبت فيه بعض اجزاء من اسفار الكتاب المقدس كنبوة دانيال وسفرا عزرا ونحميا وسفر استير وقد بقيت فقرات منها مكتوبةً من القرن الخامس الى القرن التاسع بعد الميلاد يتبين منها حالة هذه اللغة وقتئذٍ

ومن فروع الارامية ايضاً اللغة السريانية التي كان يستعملها سكان الرها ونصيبين وقد كانت زاهرة خاصة من القرن الثاني الى القرن التاسع بعد الميلاد وهي المكتوبة فيها ترجمة الاسفار المقدسة المسماة بسيطة وكتب القديس افرام السريانية وكتب طقوس طائفتنا المارونية وقد داخلها كثير من الالفاظ

اليونانية وكانت موصلاً للعلوم بين اليونان والعرب فاكثر ترجمات الكتب من اليونانية الى العربية عنى بها علماء السريان او اخذت عن ترجمات سريانية واستمرت هذه اللغة في بعض قرى جبل لبنان كحصرون وجوارها الى امد غير بعيد أعني نحواً من قرنين فقط • ومن الفرع الارامي اللغة التي استعملها اليهود وغيرهم في سورية وفلسطين في ايام المخلص وقد كتب الربيون بها التلمود الاورشليمي والتلمود البابلي وتسمى السريانية الكلدانية وسماها بعضهم عبرانية نسبة الى العبرانيين الذين تكلموا بها بعد عودهم من السبي البابلي • ومن هذه الفروع ايضاً الفرع التدمري الذي كان مستعملاً في تدمر ونواحيها وفي شمال سورية في ايام دولة تدمر وبقي منه كتابات عديدة قديمة . ومنها ايضاً الفرع النبطي وكان لغة اهل العربية الحجرية يداخله كثير من الالفاظ العربية وبقيت منه ايضاً كتابات قديمة • ثم الفرع السامري انتشر في السامرة في عهد ولاية الاشوريين والبابليين والفرس عليها وقد حفظ بحالة لغة علمية عند السامريين والنسخة السامرية مكتوبة به

وللغة الكنعانية فرعان خاصة اولهما اللغة العبرانية وهي كقطب يدور عليه درس اللغات السامية وقد كتبت بها اكثر اسفار العهد القديم وقد انبأتنا الاكتشافات الحديثة والاثار القديمة انها كانت لغة الموابيين والعمونيين من نسل لوط ومن المؤكد انها لم تكن لغة ابرهيم ونسله قبل ان زايل بلاد الكلدان بل تلقاها عن الكنعانيين بعد ان توطن بين اظهرهم وسماها اشعيا النبي لغة كنعان • والفرع الثاني هو لغة الفينيقيين على انه وان كان الفينيقيون من ولد كنعان فقد كان لهم لغة مخصوصة قريبة من اللغة العبرانية لكن بين الفرعين فروقاً تجعل كلاً منهما فرعاً ممتازاً عن الاخر فيظهر ان العبرانية كانت لغة الكنعانيين سكان جبال فلسطين والفينيقية لغة السواحل وقد دلتنا اثار هذه

اللغة انها كانت ذات ثلث لهجات او فروع فرع جبيل وهو الاقرب الى العبرانية وفرع صيدا وهو الاهم والاكثر انتشاراً ويمكن اعتباره مثالاً لهذه اللغة . ثم الفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة كما سترى في تاريخهم

واما الفرع الثاني العام من اللغات السامية فهو اللغة العربيـة وهي ذات فرعين احدهما الفرع القحطاني او اليقطاني والثاني الفرع الاسماعيلي نسبة الى اسماعيل بن ابرهيم من هاجر امته فان اسماعيل عاش بين قبيلة جرهم كما قال ابن خلدون في تاريخه . وشب اسمعيل بينهم (اي بين جرهم الثانية) وتعلم اللغة العربية منهم واعجبهم وزوجوه امرأة منهم وماتت امه هاجر فدفنها في الحجر . ومن جرهم قريش والحاصل ان هذا الفرع هو صحيح المستعمل في كتبنا وبلادنا وهو لغة الامصار من العراق والجزيرة الى اطراف مراكش ومن شطوط البحر المتوسط الى الحجاز واليمن وقد انتشرت بالمسلمين العرب وهي الان ذات اربع لهجات خاصة اي لهجة بلاد العرب ثم لهجة سورية ثم لهجة مصر ثم لهجة المغاربة ولا حاجة الى القول ان هذه اللغة من اغنى اللغات في اصولها واذا عورضت قواعدها النحوية بغيرها من قواعد اللغات السامية ظهر انها ركن لكتب الاصول في باقي هذه اللغات وقد اخذت بعض لغات اسيا واوربا الفاظاً كثيرة من العربية فمنها في اللغات الايرانية لاسيما الفارسية الفاظ لا يدركها عادٌّ واللغة التركية نحو النصف من الفاظها عربي ومنها الفاظ عديدة في بعض لغات الهند الان وفي الاسبانية والبرتوغالية كلمات كثيرة اخذت عن العرب مدة اقامتهم في اسبانيا ولا تخلو الافرنسية عن كلمات منها يعرفها من علمَ اللغتين وفي علم الفلك كثير من الفاظها منها السمت والدبران والطير وبنات نعش والمغز الى غيرها .

واما الفرع اليقطاني فيشمل اللغات الميتة التي كانت في بلاد العرب الجنوبيـة وبعض اللغات الحية الان في بلاد الحبشة وحفظت لنا الاثار القديمة بعض فقرات

من تلك اللغات الميتة وقد جمع العالمان ارنو ويوسف الافى (١) صور كتابات قديمة عديدة بهذه اللغة كانت كافية لمعرفة اصولها وظهر ان لهذه اللغة اربعة فروع السباوي او الحميري وكان لغة اليمن خاصة وبها كتبت اكثر الاثار المذكورة فعرفنا اصولها اكثر من غيرها وهي مثال لباقي الفروع . ثم الفرع الحضرموتي وهو لهجة حضرموت القديمة والضمائر فيه اشبه بضمائر لغة اشور والفرع الميناوي وكان لغة سكان الشمال الشرقي من اليمن والفرع العقيلي (نسبة الى عقيل احد بطون العرب القدماء) وهو لغة مهرة من اعمال اليمن

عد ٥٠

في السنسكريت وفروعها

ان الاصل الثاني العام للغات يسمى مع فروعه اللغات اليافتية لان كل من نطقوا بها من نوع الانسان الابيض هم من ذرية يافت والاصل الذي ترد اليه هذه اللغات يسمى السنسكريت ومعنى هذا اللفظ عند الهنود . ما هو كامل بنفسه . فكانهم سموا هذه اللغة كذلك لان تصاريفها كاملة وكان موطنها الهند وكانت اللغة العامة في نحو من عشرين قرناً ثم امست لغة العلم والدين هنالك وهي اس لمجموع اللغات الهندية الكثيرة الفروع والتي لا وجه لنا لتبيانها بل حسبنا ان نبين ان السنسكريت اصل لفرعين شاملين الاول الهندي الايراني والثاني الهندي الاوروباوي وللايراني مثالان قديمان الزند والفارسي فالزند هو اللغة المكتوبة بها الكتب الدينية المنسوبة لزورواستر واضع دين الفرس القدماء او مصلحه . والفارسي نجده في الكتابات المسمارية التي خطها ملوك الفرس القدماء . واللغة الكردية تقرب كثيراً من هذه اللغة الفارسية فهي مكسرة عنها ويداخلها كثير من الالفاظ الاجنبية . ومن فروع الايرانية

(1) D. Arnaud et Joseph Halevy

اللغة الارمنية ولم يتجد من الاثار ما يكشف لنا عن حالتها القديمة والمعلوم ان القديس مسروب هو الذي وضع احرف هجائها في القرن الخامس للميلاد عند تنصر الارمن واللهجات بهذه اللغة عديدة

واما الفرع الثاني الشامل وهو الهندي الاوروباوي فله خمسة فروع وهي اليوناني واللاتيني والسلتي والجرماني والسلافي اي الصقلبي . ولكل منها فروع ايضاً وكان يُظن قبلاً ان اليونانية ام اللاتينية فظهر الان ان الصحيح انهما اختان حتى يمكن تنزيل اللاتينية منزلة البكر وهي ام للايطالية والافرنسية والاسبانية والبرتوغالية والروماناوية وكان لها في اقدم الايام فروع كالسابينية وغيرها من اللهجات التي استغرقتها سطوة المملكة الرومانية . واما الفرع اليوناني فقد طرأ عليه تبديلات وتغيرات لكنها لم تبعد الفروع عن الاصل بعداً كثيراً وهذه الفروع هي الايولياني والدوري والاتيكي والمكدوني . وقد اعتبر كثيرون لغة الالبانيين الان من فروع لغة البلاسج وان داخلها كثير من الكلمات اليونانية والسلافية وبعض صيغها اقرب الى السنسكريت منها الى اليونانية والفرع السلتي امسى الان محصوراً في اعمال قليلة من افرنسة وجزائر بريطانيـة وله فرعان خاصة احدهما يسمى الغالي لغة سكان عمل غال في جزائر بريطانيا والثاني يسمى بروتون وهو لغة بعض سكان شمالي افرنسة ومن هذا الفرع لغة ايرلندا

واما الفرع الجرماني الشامل فله فرعان خاصة الغوتيك اي الغطي (نسبة الى قبيلة جرمانية اصلاً) والالماني فالغوتيك لا نعلم منه الا ما بقي منه على الاثار ومن جملتها فقر من ترجمة للكتاب المقدس عني بها اسقف يسمى ولفيلا Vulfila في القرن الرابع للميلاد . ومنه تفرعت اولاً لغة الدانيمرك واسوج . ثانياً الفرع المعروف بانكلو ساكسون الذي نتجت منه ومن الافرنسية القديمة اللغة الانكليزية . ثالثاً الالماني السافل وفيه عدة لهجات . واما الفرع الالماني العام فله

عدة فروع منها اللغة الالمانية واللغة النمساوية

واما الفرع السلافي او الصقلبي الشامل فله فرعان عامان ايضاً السلاف بالخصوص واللاتيك والسلاف قسمان ايضاً شرقي وغربي فمن السلاف الشرقي اللغة المكتوبة فيها الكتب الطقسية في جميع كنائس الصقالبة ومنذ القرون الوسطى لم تعد اللغة العامة بين الشعب وتقرب منها اللغة البلغارية وهي مشتقة من لغة الصقالبة الجنوبيين اخذها البلغاريون عنهم عند احتلالهم اعمال الدانوب السفلي ومن هذا الفرع ايضاً اللغة الروسية وقد انتشرت كثيراً بامتداد املاك دولة روسيا. ثم اللغة السربية التي يتكلم بها السكان بين بحر الادرياتيك ونهر الدانوب . واما الفرع السلافي الغربي فهو لغة اهل بولونيا وبوهاميا وغيرهما من الفروع غير المشهورة . والمقاربة بين اللغات السلافية اكثر منها بين فروع لغة اخرى فمن عرف احداها فهم الكلام في باقيها الاَّ لغة بولغاريا لانه طرأ عليها تبديلات وتغييرات في اصولها . واما الفرع الثاني المسمى اللاتيك فكان من فروعه لغة قديمة في بروسيا نسختها الالمانية ولغة اخرى كان يتكلم بها شعبٌ قرضه البولونيون. قد اخذنا عن لانرمان (في المجلد الاول من تاريخه) اكثر كلامنا في اللغات ونختمه بما اختتم به كلامه وهو انا خرجنا بعيداً عن غرضنا في كتابة تاريخ سورية او مقدمة له ولكن اذا تبصر المطالع بتوفر الفائدة مما اتينا به احل عذرنا لديه محل القبول والاستحسان

الفصل الحادي عشر

﴿ لمحة في الكتابة ﴾

عد ٥١

﴿ الكتابة بالصور ﴾

مذ اخذ الانسان يكسب المعارف اللازمة لتقدمه في مدارج الحضارة شعر باحتياجه الى ما يعاون ذاكرته على حفظ تلك المعارف والى ما يبلغ افكاره ورغائبه الى غيره اذا تعذرت عليه المشافهة. وكان له في ذلك وسيلتان الاولى ان يرسم صورة لما يتصوره ويرغب فيه والثانية ان يرسم صورة لاصوات كلامه والصورة في الوسيلة الاولى اما ان تكون حقيقية ان كان الشيء المرغوب في بيانه ماديًا يمكن تصويره اما ان تكون مجازية دالة في سبيل الكناية والرمز على المقصود والصورة في الوسيلة الثانية تدل اما على الكلمة برمتها او على بعض حروف هجائها فكان الناس في بدء نشأتهم وحضارتهم يرسمون صورة لما رأوه او فكروا به وارادوا تذكره فينقشونها على حجر او خشب او مادة اخرى صلدة ولما لم يكونوا يحسنون التصوير كانوا يحفرون او يجسمون خطوطًا كما تسمح قريحتهم القاصرة لتذكرهم تلك الخطوط ما ارادوا وقد وجدت اثار دالة على مثل ذلك في محال عديدة فهذا اول طور للكتابة

ثم تدرج الناس الاولون بحسب حضارتهم الى التعبير عن افكارهم برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض بقرينةٍ ما فاذا ارادوا مثلاً التعبير عن حرب رسموا صور رجال متعاركين وادوات حرب او عن حيوان او طائر او شيء اخر مادي صوروه للدلالة عليه او دلوا بصورته على

امر اخر متعارف عندهم فكان من ذلك الغاز لا يحلها الا من عرف اصطلاحهم او اهتدى اليها ببعض القرائن من ذلك رسم المصريين صورة رجل ويده الى فمه كناية عن الاكل . ونجح بعض القبائل بهذا الفن فكان منه ستة انواع هيروكليفية اي تمثل صور اشياء مادية يراد بها مسمى الصورة او شيء يقرب منه او يشير اليه واول هذه الانواع الهيروكليف المصري ثم العلامات الصينية ثم المسمارية في بلاد الكلدان ثم الحثية عند الحثيين في شمالي سورية وفي اسيا الصغرى ثم المكسيكية عند قدماء المكسيك ثم الكانوتية في امركا والاظهر ان كلاً من هذه الاصطلاحات كان مستقلاً لا علاقة له بغيره وبقي الى الان اصطلاحان منها هما الحثي والامركاني لا تعرف حقيقة مدلولهما وقد اهتدى سايس الى كلمتين او ثلث من الاصطلاح الحثي

على ان الاصطلاح على رسم الصور كان قاصرًا لا يمكنه ان يؤدي الا بيان تصورات قليلة العدد ومادية ويتعذر ان ترسم به التصورات المجردة عن المادة كتصور الفضيلة والعدل وما اشبه من التصورات التي يسميها المنطقيون مجردة ولذلك الجأت الحاجة من تقدموا في الحضارة ان يبحثوا عن طريقة اخرى يتيسر بها بيان افكارهم فكانت اولى خطاهم جعلهم ما كانوا ينقشونه من الصور دالاً لا على مسميات الصور بل على الهجاء الاول من اسمها اي على اللفظ المصطلح عليه لها فاصبحت تلك العلامات صوتية بعد ان كانت تصورية ولكي نمثل بما يدركه ابناء العرب نقول ان صورة الشمس التي كانت تدل على الشمس في اصطلاحهم الاول جعلوها في اصطلاحهم الثاني تدل على الهجاء الاول من كلمة الشمس اي الشين مع حركة لها . وصورة الهلال الدالة عليه في اصطلاحهم الاول اصبحت في اصطلاحهم الجديد دالة على حرف الهاء مع حركة له وكان هذا الاصطلاح الجديد في اللغات ذات الهجاء الواحد لكل كلمة اكثر ملائمة منه في اللغات

المؤلفة كلماتها من تهجيات متعددة وتقدم تدريجاً الاصطلاح على تصوير التهجيات الا انه ما برح في ذلك صعوبات وتطويل وحاجة الى مهارة في صناعة التصوير واستمرت الفاظ كثيرة ترسم بصور دالة على تصور ولذلك استمر عدد العلامات يتصل الى الوف فكان هذا الاصطلاح على تقدمه احرى ان يكون نوعاً من التصوير من ان يكون كتابة

عد ٥٢

في الكتابة بالحروف

اجمع القدماء على ان الفينيقيين اول من اوجد الكتابة بالحروف فقد كان منهم جم غفير يقيم في مصر او يكثر التردداد اليها للاتجار فاخذوا العلامات الصوتية من اصطلاح المصريين معتاضين بخطوط عن الصور فوضعوا الاثنين والعشرين حرفاً هجاء لغتهم واخذوا يكتبون بها ما شآوا من الفاظها وعنهم اخذ سائر معاشريهم فلم يجد العلماء حتى الان حروف هجاء قبل حروف الفينيقيين وكل ما وجد مكتوباً بالحروف على الاثار او محفوظاً بالاستعمال يرد عن قرب او بعد الى الحروف الفينيقية وقد عارض كثير من العلماء هذه الحروف بغيرها من حروف جميع اللغات فتبين ان الاصل هو الفينيقي طرأت عليه تدريجاً تحسينات واختصارات في اللغات الاخرى وسنبين عند كلامنا في الفينيقيين كيف اوصلوا حروفهم مع بضائعهم الى الافاق القاصية من العالم المعروف حينئذٍ . على انه لا يعلم في اي عصر بالخصوص اوجد الفينيقيون هذا الاختراع الوفير الاهمية ولا شك بانه كان قبل عصر موسى

الفصل الثاني عشر

﴿ في سكان سورية الاولين ﴾

﴿ عد ٥٣ ﴾

في سكان سورية قبل الطوفان

لامرية بان سورية كانت قبل الطوفان ايضاً مأهولة بولد ادم . ولا نعتمد في هذا على التقليدات العامية التي روى كثيراً منها الاب مرتين اليسوعي في كتابه تاريخ لبنان الذي نشرت جريدة البشير بعض مقالاته حيث روى التقليد ان الفردوس كان في انحاء دمشق او لبنان وان آدم عاش في سورية وان مقتل قاين هابيل كان في صحارى دمشق وان قبر قاين هناك وان مدفن هابيل في الجبل الشرقي وان مدفن نوح في سهول البقاع وان المدينة الاولى التي بناها قاين هي بعلبك وما اشبه من تقليدات العامة التي ركن اليها بعض الجوالة وكذا لا نعتد بما رواه يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ١ فصل ٢) من ان بني شيت نصبوا عمودين من حجر ولبن وكتبوا عليهما ما علموه حتى اذا حصل الطوفان وغرق عمود اللبن يستمر عمود الحجر حافظاً للخلف ذكر ما كتبوا وقال انهم يؤكدون بقاء هذا العمود الى الان في سورية وايضاً لا نعتمد في هذا الحكم على اقوال بعض اهل العلم في هذا العصر كقول دي لامرتين بان بعلبك شيدها الجبابرة قبل الطوفان فان هذه التقليدات والآراء على احتمال صحة بعضها لا تصلح ان تكون بينة علمية على ان سورية كانت مأهولة بولد آدم قبل الطوفان بل الحجة القاطعة في ذلك هي موقع سورية الطبيعي فان اخص الاقوال في مهد النوع البشري واوجهها واقربها الى الصدق ان هذا المهد كان في ما بين النهرين او

في ارمينية كما ابنّا (ارجع الى عد ١٣) ولا جرم ان الناس على طول حياتهم قبل الطوفان تكاثر عديدهم فالحقبة التي هي ١٦٥٦ سنة بحسب النسخة العبرانية او ٢٢٤٢ سنة بحسب الترجمة السبعينية كانت فوق ما يكفي لتفرق ذرية آدم وانتشارهم في اصقاع عديدة ويثبت ذلك تفرق ذرية بني نوح في الآفاق لاقل كثيرًا من هذه الحقبة وما بين النهرين متاخم لسورية ولا يفصل بينهما الا الفرات غربًا وارمينيا ايضًا لا تبعد كثيرًا عن سورية وليس بين سورية وارمينية وما بين النهرين بحورٌ او جبال يستعصى مسلكها بل سهول خصبة طيبة الهواء جيدة المرعى تغري القلوب بالانتجاع اليها والتوغل فيها وعليه فقد كانت سورية بلا مراء مأهولة قبل الطوفان بعددٍ عديد من الناس لا نعلم من اخبارهم ولم نفز من قصص احداثهم الأَ بما ذكرناه في الكلام على آدم والاباء الاولين قبل الطوفان

عد ٥٤

في سكان سورية بعد الطوفان

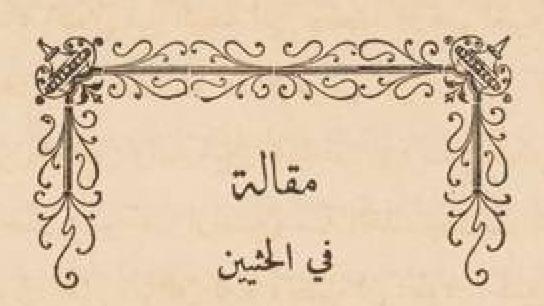
قد مر في كلامنا على انساب موسى ان سورية سكنها اولاً الاراميون ولد ارام بن سام بن نوح وكانت مواطنهم في سورية المجوفة وما يليها في الجنوب وفي دمشق وما يليها وسيجيء في كلامنا على الفينيقيين ان من توطن من الاراميين في سهول بعلبك وحمص اتصلوا الى لبنان الشمالي والى انحاء اطرابلس والبترون وجبيل وبيروت ايضًا على قول بعضهم . ثانيًا بعض قبائل الجبابرة والاظهر انهم ساميون من اقارب الاراميين ومن هولاء الرافائيم اي الرافائيون وقد ورد ذكرهم في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ٥) بين القبائل التي ضربها كدرلاعومر ملك عيلام وكانوا يسكنون ما وراء الاردن في بلاد باسان ثم الزوزيم اي الزوزيون وجاء ذكرهم هناك وفي سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢

عدد ٢٠) وكانوا يسكنون في عبر الاردن ايضاً في الارض التي سكنها بعداً العمونيون اذ جاء في الآية المار ذكرها من التثنية ان هذه الارض . تحسب من ارض الجبابرة لان الجبابرة اقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزميين ، ثم الايميون قد جاء ذكرهم في سفر التكوين والتثنية (في الفصلين المذكورين) وكانوا يسكنون في شرقي البحر الميت في الارض التي سكنها بعدهم الموابيون اذ قال موسى في سفر التثنية في هذه الارض . وكان الايميون قد اقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقيين ... والموابيون يسمونهم ايميين ، ثم بنو عناق ويظهر انهم المسمون نيفيليم اي الجبابرة وكانت مساكنهم في قرية اربع وهي حبرون في ايام ابرهيم والخليل في ايامنا ثم اليفيم وكانوا يسكنون السهول الواقعة في الجنوب الغربي من فلسطين الى غزة ويظهر انهم العويون الذين قال فيهم موسى (تثنية ف ٢ عد ٢٣) . العويون المقيمون بالقرى الى غزة ابادهم الكفتوريون الخارجون من كفتور واقاموا مكانهم ، ويظهر ان هذه القبائل توطنت في سورية قبل ان يصلها الكنعانيون

ثالثاً الكنعانيون وقد سكنوا شمالي سورية الى حماه ثم بعض الشطوط البحرية والبلاد التي سمّيت بعد ذلك فلسطين وقد مر بك ذكر المواضع التي اقامت فيها كل فصيلة منهم (ارجع الى عد ٣٨) . رابعاً العبرانيون واولهم في جنوبي سورية ابرهيم الخليل وابن اخيه لوط . خامساً شعبان اصلهما لوط من بنتيه وهما الموابيون وكانت بلادهم في الشرق من البحر الميت والعمونيون وكانت مساكنهم في عبر الاردن كما مر آنفاً . سادساً ذرية اسماعيل بن ابرهيم ولكن اكثر هولاء من سكان بلاد العرب . سابعاً المدنيون ذرية مدين بن ابرهيم من قيطورا ويحسبون من سكان بلاد العرب . ثامناً الادوميون ذرية ادوم وهو عيسو بن اسحق وكانت مساكنهم في جبل سعير في جنوب سورية

وشمال بلاد العرب وكان الحوريون يسكنون قبلهم هذا الجبل فطردهم منه الادوميون كما في سفر التثنية (فصل ٢ عد ١٢) تاسعاً الفلسطينيون وكانت مساكنهم البلاد التي سمّيت باسمهم وقد اتوا اليها من اكريت وغيرها من الجزر ومن اسيا الصغرى بعد ان اسرهم المصريون واحلوهم في فلسطين واصلهم يافتي او حامي على احد القولين وسوف ترى تفصيل اخبارهم في الكلام على بني اسرائيل . عاشراً السامريون وقد جلاهم ملوك اشور من بلاد الكلدان الى السامرة وانحائها بعد جلائهم الاسرائيليين الى بابل

فهذه اخص القبائل التي سكنت سورية الى عهد اسكندر الكبير . وان نتكلم في كل منها على حدة امر طويل المجال رابك موجب لاعادات يمكن تنكبها . وان نتكلم في سورية كانها مملكة واحدة ينافيه انقسامها في تلك الاعصر الى ممالك عديدة ولذلك اثرنا ان نقصر كلامنا على اشهر قبائلها فنضع مقالة في الحثيين سكان شمالي سورية ومقالة اخرى في الفينيقيين سكان وسطها واخرى في العبرانيين سكان جنوبيها الذين انتشروا بعدًا في اكثر ارجائها ونضمن تاريخ باقي القبائل في المقالات الثلث ونضع فهرستاً هجائيًا في اخر هذا الكتاب يتبين منه تاريخ كل قبيلة في سورية وكل مملكة ومدينة فيها الى ايام اسكندر الكبير المكدوني فيكون ذلك وافيًا بالمقصود ومصيبًا الغرض على ما رأينا . وعلى الله الاتكال في كل حال



مقالة
في الحثيين

الفصل الاول

(في اصل الحثيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم في الكتاب المقدس)

عد ٥٥

في الحثيين الجنوبيين

قد رأيت في المقالة السابقة ان كنعان هو الرابع من ابناء حام وانه ولد له احد عشر ابنًا اولهم صيدون وثانيهم حث الى سائر اباء الفصائل الكنعانية وعليه فأصل الحثيين حث بن كنعان بن حام بن نوح وبعد ان هاجر الكنعانيون الى سورية وجدنا لولد حث بطنين او فصيلتين سكنت احداهما وادي ممرا وحبرون (الخليل الان) في جنوبي سورية والاخرى بين الفرات والعاصي في شماليها. وكان الحثيون في حبرون قبل ان يأتيها ابرهيم بشاهد انه عند وفاة سارة امرأته «كلم بني حث قائلاً انا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر عندكم فادفن ميتي» (تكوين فصل ٢٣ عد ٤) فابتاع من عفرون الحثي مغارة المكفيلة اي المغارة المضاعفة وما بجانبها من الحقل فكانت مدفنًا لسارة وله ولاسحق ابنه ويعقوب حفيده . ويظهر ان هؤلاء الحثيين كانوا يؤثرون حينئذٍ التجارة وامتلاك الحقول على الحرب والغزو لاننا نرى الكتاب ذكر

انهم وزنوا اربعماية المثقال من الفضة التي دفعها ابرهيم لعفرون ولم يذكر ان ابرهيم استنجدهم عند محاربته كدرلاعومر بل استجار بالاموريين وقد وفرت العلائق بين الحثيين والعبرانيين فاننا نقرأ في سفر التكوين (فصل ٢٦ عد ٣٤) « ولما صار عيسو ابن اربعين سنة اتخذ يهوديت بنت بئري الحثي وبسمة بنت ايلون الحثي امرأتين له » ويظهر ان اطوار الحثيين وادابهم كانت تخالف اداب العبرانيين لاننا نرى رفقة تقول لاسحق « قد سئمت حياتي من اجل ابنتي حث (اللتين تزوج بهما عيسو) فان تزوج يعقوب (ابني) بامرأة من بنات حث مثل هاتين او بنات سائر هذه الارض فما لي والحياة » (تكوين فصل ٢٧ عد ٤٦)

ويظهر ان فصيلة الحثيين هذه كانت أمست قليلة العدد واهية القوة يسطو عليها جيرانها فتلجأ الى الفرار وتبديل منازلها لاننا لا نرى لهم أثرًا ولا عينًا في حبرون وما جاورها من البلاد عند عود بني اسرائيل من مصر وغزو يشوع بن نون فلسطين بل نرى مكانهم في حبرون بني عناق فالظاهر ان الحثيين كانوا استحوذوا على حبرون في زمان غير معلوم قبل ابرهيم طاردين منها سكانها القدماء بني اربع اذ كانت تسمى قرية اربع (١) باسم اول من بناها وهو اربع ابو عناق اصل العناقيين فاسترد هولاء مدينتهم واستمرت في حوزتهم الى ان افتتحها يشوع بن نون وخص بها كالب بن يوفنا من سبط يهوذا . فقد جاء في سفر يشوع (فصل ١١ عد ٢١) انه « جاء في ذلك الوقت وقرض العناقيين من الجبل من حبرون » ثم قال (فصل ١٤ عد ١٣) « واعطى حبرون لكالب بن يوفنا ميراثًا » وقد اقام الحثيون بعد طردهم من حبرون في الجبل والمراد به جبل افرائيم على الاظهر فقد ورد ذكر الحثيين في اسفار

(١) تكوين فصل ٢٣ عد ٢ يشوع ١٤ عد ١٥ قضاة ١ عد ١٠

الخروج والعدد وتثنية الاشتراع مع الجرجاشيين والاموريين واليابوسيين وسائر فصائل الكنعانيين وفي سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٩) اكثر تفصيل حيث قيل ان جواسيس موسى قالوا عند عودهم اليه «رأينا ثم ايضاً بني عناق العمالقة مقيمون بارض الجنوب والحثيون واليبوسيون والاموريون مقيمون بالجبل والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عدوة الاردن»

وكان الحثيون من جملة الكنعانيين الذين تألبوا على يشوع بن نون فبدد شمل المتألبين في جبعون في جنوب فلسطين ثم في شمالها عند بحيرة الحولة كما سترى في تاريخ العبرانيين • ويستدل من قول حزقيال (فصل ١٦ عد ٣) في اورشليم «ابوك اموري وامك حثية» ان الحثيين شاركوا الاموريين واليابوسيين في بناء اورشليم . والظاهر من الكتاب ان الحثيين لم يقرضهم بنو اسرائيل بل بقيت في فلسطين منهم بقايا اذ جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١١) ان اوريا احد قواد عساكر داود كان حثياً وقتل بامر داود فتزوج الملك بامرأته بتشبع فولدت له سليمان فكانت جدة بعيدة للمخلص . قال سايس ان نسبة اوريا هذا الى حثيي حبرون حيث ملك داود سبع سنين اولى منها الى الحثيين الشماليين. وانبأنا سفر الملوك الثالث (فصل ١١) انه كان بين نساء سليمان العديدات نساء حثيات ولا يمكن القطع بانهنّ من الحثيين الجنوبيين او الشماليين والراجح انهنّ من الفصيلة الشمالية اذ كان لها ملوك وكان بينهم وبين سليمان علاقات وداد وتجارة منها استجلابه لهم الخيل من مصر كما في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٨) هذا في الحثيين الجنوبيين

عد ٥٦

في الحثيين الشماليين

اما الحثيون الشماليون فالارجح انهم والجنوبيون من اصل واحد هو حث

بن كنعان وكانت منازلهم اولاً في جبل امانوس المعروف الان باللكام ثم انتشروا بكرور الايام من الفرات الى حماه وحمص ومن دمشق وبرية تدمر الى الكبادوك وقد جاء في سفر يشوع بن نون (فصل ١ عد ٣) ان الرب قال له . قم فاعبر هذا الاردن انت وجميع هولاء الشعب الى الارض التي انا معطيها لبني اسرائيل ... من البرية ولبنان هذا الى النهر الكبير نهر الفرات جميع ارض الحثيين والى البحر الكبير الذي في جهات مغارب الشمس تكون تخومكم . وكانت هذه الاية من معضلات الكتاب على مفسريه لاطلاقها اسم ارض الحثيين على ارض الموعد كلها ومن المستغرب ان يكون الحثيون سكان حبرون القدماء تغلبوا على كل هذه البلاد حتى نسبها الكتاب اليهم ولذلك قال بعض المفسرين ان اسم الحثيين هنا بدل من اسم الكنعانيين وقال اخرون ان هذا الا غلط ركبه النساخ وقد اغفلت بعض نسخ الترجمة السبعينية ذكر الحثيين في هذه الاية على ان الاكتشافات الحديثة جلت لنا مدلول هذا النص اذ اعلمتنا الاثار المصرية ما كان حينئذٍ للحثيين الشماليين من الصولة والسؤدد في سورية كلها لانهم كانوا قبل عهد يشوع قد حاربوا رعمسيس الثاني فرعون مصر مترأسين على الكنعانيين وسائر شعوب سورية كما سترى وعليه فحق لكاتب سفر يشوع ان يسمي وقتئذٍ ارض الموعد ارض الحثيين

وقد جاء في سفر القضاة (فصل ١ عد ٢٣ وما يليه) ان آل يوسف ارسلوا جواسيس الى بيت ايل وكان اسمها قبلاً لوز فدلهم رجل منها على مدخل المدينة فضربوا اهلها بحد السيف واطلقوا الرجل وعشيرته فانطلق الى ارض الحثيين وبنى مدينة وسماها لوز وهو اسمها الى اليوم . وقد اعتاصت هذه الاية ايضاً على المفسرين خاصة لعدم علمهم باعمال تعرف في تلك الايام بارض الحثيين فذكر اوسابيوس مدينة باسم لوز على بعد تسعة اميال عن نابلس

وظن بعضهم ان لوز الجديدة كانت في قبرس لتسميتها كيتيم او حيتيم كأن المراد بلاد الحثيين وغيرهم انها كانت في بلاد العرب حيث مدينة تسمى ليزا او لوزا واما بعد ان دلتنا الاكتشافات الحديثة على بلاد الحثيين في سورية الشمالية فيرجح ان لوز الجديدة كانت هناك

وفي سفر الملوك الثاني (فصل ٢٤ عد ٥ وما يليه) ان داود اراد ان يحصي الشعب فارسل يواب قائد جيشه وغيره من الروساء يجولون في البلاد ويحصون الشعب فعبروا الاردن ونزلوا بعروعير (عراعير الان في شرقي البحر الميت) واتوا الى جلعاد (السلط) ، الى الارض السفلى في حدشي ، ثم اتوا الى دان (بانياس) ثم الى صيدون (صيدا) والى حصن صور ثم خرجوا الى جنوبي يهوذا الى بئر سبع (في الطرف الجنوبي من ارض الموعد) انتهى كلام الكتاب . فطريق هولاء معلوم وتخطيطه سهل فانهم اجتازوا الاردن وتجولوا في شرقيه حتى انتهوا الى بانياس في الشمال قرب منبع الاردن ثم انحدروا غرباً الى صيدا وصور وعادوا جنوباً الى اخر فلسطين ولا غموض الا في قوله الارض السفلى في حدشي وفي العبرانية ، ارز تحتيم حدسي ، او حدشي وقد كاد مفسرو الكتاب ييأسون من تفسير هذه الكلمات وتعيين المحل المحكى عنه فيها حتى قال العالم كايل سنة ١٨٦٤ (في كلامه في سفري صمويل) ان بيان المراد بها ضرب من المستحيل . على ان ما كان كايل يحسبه من امد قريب مستحيلاً لم يبق الان كذلك لان ارض تحتيم هي ارض حتيم اي ارض الحثيين والفضل بهذا ايضاً للاكتشافات الحديثة فان قرائن كلام الكتاب تدل على ان هذا المحل يلزم ان يكون في شمالي فلسطين وقد حققت الاكتشافات ان شمالي فلسطين ارض الحثيين الشماليين وقد انبانا الكتاب (ملوك ٢ فصل ٨ عد ٩) ان توعي ملك حماه خضع لداود ويظن انه كان حثياً والحثيون المقيمون في

قادس كانوا في جنوبي حماه وشمالي فلسطين فاذًا تحرير معنى الاية ان وفد داود اتوا ارض الحثيين في قادس او ارض حثيي قادس وما هذا مجرد تقدير وحدس بل حقيقة مثبتة بما يأتي فقد روت بعض نُسخ السبعينية الاية هكذا « واتوا الى جلعاد وارض حثيي قادس » وطبعت الاية كذلك في جامعة نسخ الكتاب التي نشرها الكردينال سيمانس المعروفة بالكمبلوتية وفي جامعة لجاي البريسية وفي جامعة انفر . ثم ليس بين كلمتي تحتيم وهحتيم في العبرانية الأ ابدال الهاء بالتاء وصورة الحرف الواحد تقرب كثيرًا من صورة الاخر في هذه اللغة ولم تكن فيها حينئذٍ حركات ولم يكن النساخ يعرفون الا حثيي الجنوب فتصحفت عليهم الهاء بالتاء للمقاربة بين صورتيهما فكتبوا ارز تحتيم التي ترجمت الارض السفلى بدلاً من ارز هحتيم ارض الحثيين ومثل ذلك قل في كلمة حدشى فهي قدسى او قدشي اي قادس مدينة الحثيين الشهيرة وسيأتي الكلام فيها

قد جاء ذكر الحثيين الشماليين على عهد سليمان ايضًا ففي سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٩) ان تجار هذا الملك كانوا يشترون له الخيل من مصر « ويجلبون على يدهم لجميع ملوك الحثيين وملوك ارام » ولا جرم ان ملوك الحثيين هولاء لم يكونوا في فلسطين التي استقل سليمان في ملكها وكان « يسخر الشعب الذين بقوا من الاموريين والحثيين » الجنوبيين وغيرهم من فصائل الكنعانيين في ما يبنيه من المدن والحصون (ملوك ٣ فصل ٩ عد ٢٠) بل كانوا ملوك الحثيين الشماليين الذين كانوا بسطوا ولاياتهم في سورية الشمالية واعمال اسيا الصغرى . ويظهر من الاثار المصرية انه لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك فجاء ذلك مصداقًا لقول الكتاب « جميع ملوك الحثيين » وكان من رأي بعض المفسرين قبل الاكتشافات الحديثة ان اسم الحثيين في الاية بدل من اسم الكنعانيين فظهر الان بطلان ما وهموا

وجاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٧ عد ٦) ان الاراميين بينما هم يشدون الحصار على السامرة في ايام يورام بن احاب اسمعهم الرب اصوات مراكب وخيول وعسكر عظيم . فقال كلٌ منهم لصاحبه هوذا ملك اسرائيل قد استجار علينا ملوك الحثيين وملوك المصريين ليأتوا علينا فقاموا وهربوا . وكانت هذه الاية ايضاً قبل بضع سنين لغزاً يستعصي حله حتى زعم بعض اهل العلم انه لا يمكن التصديق بها على ظاهر حروفها اذ لا يتصور ان ملك الحثيين الضعيف يروّع ملك ارام القدير او يتهيأ له ان يحالف فرعون مصر . قال سايس (في كتابه في الحثيين) تعقب احد علماء هذا العصر كاتب السفر المقدس قائلاً انما الحليف الطبيعي لملك اسرائيل هو ملك يهوذا فلم يأتِ الكاتب بذكره بل بدله بالحثيين الخاملي الذكر وهذا مشعر بجهله تاريخ عصره فلا صدق لروايته وردّ سايس على المندّد سهام قدحه مبيناً انه الاولى بالانتساب الى الجهل وان الاكتشافات الحديثة أثبتت ان الحثيين الشماليين كانوا حينئذٍ دولة اقوى من ملك يهوذا وكانوا حلفاء مصر ويعادلونها قوة وبأساً . انتهى ملخصاً عن كتاب الاب فيكورو المسمى مباحث منثورة كتابية Melanges Bibliques مع زيادات عليه

عد ٥٧

في اصل الحثيين بالخصوص

بقي علينا ان ننظر في اصل الحثيين أمن اصلٍ واحد هم ام من اصلين رأى جمهور العلماء ان للفصيلتين اصلاً واحداً هو حث بن كنعان كما مر لكن لانرمان بعد ان تابع رأي الجمهور هذا في المجلد الاول من تاريخه (صفحة ٢٧٣ طبعة ٩) عاد في المجلد الثاني (صفحة ٢٢٠) يقول ان الحثيين الشماليين ليسوا من ولد سام ولا من ولد حام بل هم من ولد يافث وعليه فلا قربى بين الجنوبيين والشماليين بل بين الشعبين مشابهة الاسم ليس الا . واسند ذلك الى اختلاف

بينهما من قبيل اللغة والهيئة الطبيعية على ان لغة الحثيين الشماليين موضوع البحث حتى الان بين العلماء فلا تصلح ان تكون حجة حتى لو ثبت انها تخالف لغة الشماليين لم يكن ذلك حجة ايضاً فعلاقة اللغة بالمسكن اكثر منها بالاصل فلغات قدماء سورية كلهم سامية مع انهم من اصلين سام وحام وكذا قل في الهيئة الطبيعية فلم يثبت حتى الان اختلاف فصيلتي الحثيين هيئة وهب ثبت فلا يثبت شيئاً كما سترى في كلامنا في الملوك الرعاة وخاصة لان الفريقين من نوع واحد هو الابيض . قال الاب فيكورو (في كتابه مباحث منثورة صفحة ٣٣٠ طبعة ٢) انه يسلم بان اصل فصيلتي الحثيين واحد وانهم من ذرية واحدة لان الكتاب لم يفرق بينهما ولكن بما ان الكتاب لم يصرح بانهما اولاد اب واحد فتبقى القربى بينهما موضوعاً لبحث العلماء

قد صرح الاب قيصر دي كارا اليسوعي (في كتابه الملوك الرعاة Hyksos Gli فصل ١٠) بان الحثيين حاميون لا ساميون وبان فصيلتيهم الجنوبية والشمالية استوت فيهما الهيئة الطبيعية وكانت صناعة الحرب وانواع الاسلحة والملابس واحدة عندهما وروى ما كان من الخلاف بين سايس Sayce وهلافي Halévy في اصل الحثيين فقال سايس ان الحثيين غير ساميين مسنداً قوله الى اسماء كثيرة جمعها وهي اعلام رجال وشعوب ومدن حثية وليس فيها ما يشعر بانها سامية . وقال هلافي ان الحثيون ساميون لان اكثر الاسماء نفسها التي جمعها سايس سامي وباقيها لا يختص بالحثيين بل بغيرهم من الشعوب فقال دي كارا خلط العالمان مسئلة الاصل بمسئلة اللغة وعندي انه لم يصب احد منهما ولم يخطىء احد منهما فقد يكون احد الشعوب حامياً ولغته سامية اكتسبها من محل سكناه فلا تدل اللغة على الاصل الا ان يصحبها ادلة اخرى فالحثيون حاميون اصلاً لا ساميون سواء كانت لغتهم سامية ام حامية . كل هذا من كلام

دي كارا وقد رجح ان لغة الحثيين حامية اكسبتها المجاورة للساميين والتجارة معهم الفاظاً وجملاً واصولاً نحوية سامية وقد تكون اللغة المكتوبة بها الاثار غير لغة الشعب العامة . كما اعتاد سكان ايطالية مثلاً ان يكتبوا اثارهم باللاتينية لا بلغة عامة الشعب الايطالية

زعم شباس (في كتابه سفر مصري الخ) (١) سنداً الى مثل هذا البرهان اللغوي ان الكاتاس او الحاتاس الوارد ذكرهم في الاثار المصرية غير الحثيين الذين ذكرهم الكتاب مدعياً ان اعلام الحثيين الواردة في الكتاب من اسماء رجال ونساء ومدن انما هي سامية اي عبرانية والاسماء الواردة في الاثار المصرية ليست من هذه اللغة في شيء ولا تقرب منها فردَّ العالم ليابلان Lieblein اعتراضات شباس في خطبة القاها في مجتمع العلماء بامور المشرق في بطرسبورج سنة ١٨٧٦ وقال الاب فيكورو (في كتاب المباحث المذكور صفحة ٣٣٢) « لو سلمنا بصحة برهان شباس لما نتج عنه ان الحاتاس الذين ذكرتهم الاثار المصرية غير الحثيين الشماليين الذين ذكرهم الكتاب بل جل ما ينتج من ذلك ان الحثيين الشماليين والحثيين الجنوبيين لم تكن لهم لغة واحدة » وقال هناك ايضاً اجمع العلماء بالاثار المصرية ان الحاتاس في هذه الاثار هم الحثيون الوارد ذكرهم في الكتاب ولا اقل من ان يكونوا الشماليين . وما احسن وما اقوى برهان الاب دي كارا حيث قال (في المحل المار ذكره) ان الاثار المصرية على عهد ساتي الاول ورعمسيس الثاني اعلمتنا بقبيلة سمتها كاتاس او حاتاس ووصفتها بانها كانت محبة للحرب ممتدة في شمالي سورية وفي ارض الحثيين التي ذكرها يشوع بن نون وقد حاربها هذان الملكان وغيرهما من فراعنة مصر فكيف يمكن ان يكون في بلاد واحدة وفي وقتٍ واحد قبيلتان مختلفتان مع

(1) Chabas Voyage d'un Egyptien en Syrie p. 329

ان اسم الواحدة لا يزيد على اسم الاخرى الا حرفًا واحدًا فحثيو الكتاب اذًا هم الخاتاس او الكاتاس الوارد ذكرهم في الاثار المصرية وهم الحتى او الختا الوارد ذكرهم في الاثار المسمارية

الفصل الثاني

﴿ في تاريخ الحثيين مأخوذًا عن الاثار القديمة ﴾

﴿ عد ٥٨ ﴾

في مصادر تاريخ الحثيين

قد رأيت ان ما جاء في الكتاب المقدس من تاريخ الحثيين قليل غير وافٍ لان غرض كتبة الاسفار المقدسة ديني وروحي لم يتخطأ تاريخ شعب الله الا في ما كان له علاقة بهذا التاريخ المقدس وقد قلّت علائق اليهود مع الحثيين ولم يذكر المؤرخون القدماء من تاريخهم الا نزرًا يسيرًا ولم تكن الاثار المصرية والمسمارية الا طلاسم خفيت رموزها واستعصت معمياتها على الحل الى اواسط هذا القرن ولذلك كان تاريخ الحثيين ميتًا مدفونًا قد انبعث من امد قريب فهو حديث النشأة وقد اخذ يشب وينمو ويتقدم سنة فسنة بل شهرًا فشهرًا وما برح الامل معقودًا ببلوغه الكمال خاصةً متى فتح الله باب الكشف عن اصطلاح علاماتهم الكتابية الذي ما زال مغلقًا الى اليوم ولكن يرجى فتحه من شهر الى اخر وما عُرف الى الان من تاريخهم كان له ثلثة مصادر الاول الاثار المصرية الهيروكليفية فمنها علمنا ما كان للحثيين مع دول مصر من حرب وصلح

واين كانت مساكنهم وما كانت قوتهم وسطوتهم واي المعبودات عبدوا الى غير ذلك من تاريخهم . والثاني الاثار الكلدانية المسمارية ومنها تبين لنا ما كان لهم مع ملوك نينوى واشور من الحروب والمغالبات وما افضت اليه هذه الحروب واين كانت مدنهم وحصونهم الى غير ذلك . والثالث اثار الحثيين انفسهم فقد دلتنا (وهي بكماء لا نستوضح الى اليوم ما كتب فوقها) على مستعمراتهم وجالياتهم وصنائعهم وكشفت لنا عن نوع بناياتهم واسلحتهم وملابسهم الى غير ذلك مما ستراه في كلامنا الاتي

قد انبأنا فرنسيس لانرمان (مجلد ١ من تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٣٠ طبعة ٩) كيف اهتدى الى الاثار الحثية ومتى كان ذلك فقال ما ملخصه ان جوَّالة انكليزيًا اسمه بوركرد Burckhardet مرَّ في حماه سنة ١٨١٢ فابصر على جدار ازقتها خطوطًا قديمة هيروكليفية تختلف عما يشاهد في الاثار المصرية فعلق ذلك بين اخبار رحلته فلم يكن لصوته صدى يوقظ اهل العلم بالاثار القديمة او يحمل المجتهدين والجوالين على التنقيب في هذا الاثر الى ان زار حماه جوَّالان امريكانيان وهما جونسون Johnson وجاسوب Jessup فعنيا بنسخ تلك الخطوط التي كان بوكرد اشار اليها واكتشفا خطوطًا اخرى فنسخاها ايضًا فتنبه العلماء الى اهمية هذه الخطوط وكلفت لجنة الاكتشاف في فلسطين العالم شرال دراك Charles Drak بالتنقيب عن هذه الاثار في حماه واعتقبه العالم وريكت wright احد اعضاء جمعية الرسالات الانكليزية فتهيأ له بمساعدة صبحي باشا والي سورية حينئذٍ ان يأخذ من حماه خمس كتابات ذات اهمية وهي محفوظة الان في متحف الاستانة العلية ثم اخذ العلماء في التنقيب عن امثال هذه الاثار فعثروا على كثير منها في حماه وحمص وحلب ومرعش وكركميش (ايرابوليس الان) وفي الكبادوك ومحال اخرى عديدة في اسيا

الصغرى سنأتي على بيان كثير منها وقد برع بالعلم بهذه الاثار سايس ودريكت وباروت Perrot وغيرهم سشمر بك اسماؤهم وتغتم بمطالعة بعض اقوالهم في كلامنا الاتي حيث نفرد لكل من مصادر تاريخ الحثيين الثلثة فصلاً مخصوصاً

الفصل الثالث

(في تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الاثار المصرية)

عد ٥٩

في هيئة الحثيين ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم

نرى في الاثار المصرية صور عديدة تمثل كثيرين من الحثيين الشماليين وهيئة وجوههم الطبيعية اقرب الى الروتانو (كذا تسمي الاثار المصرية شعباً كان يسكن سورية الشمالية قبل الحثيين او في جانبهم) منها الى سكان فلسطين ولون وجوههم ابيض ضارب الى الحمرة فيمتازون عن العمو (يراد بهم في هذه الاثار الساميون) الذين لون وجوههم مائل الى الصفرة . ولا يطلق الحثيون لحاهم خلافاً للساميين بل يحلقون لحاهم وشواربهم وشعور رؤسهم ويتركون في اعلاها ناصية وشعورهم سوداء ولباسهم قميص مستطيل يتصل الى العقب وصورتهم الاثار المصرية حفاة كأنه للدلالة على اسرهم وذلهم لكن اثارهم في اوطانهم تصوّر احذيتهم معكفة او معطفة الى ما فوق كما كانت الاحذية في القرون الوسطى وبقي شيء منها في بلادنا الى عهد قريب ويرى في صورة احد الحثيين في مدينة ابو حلقة مدورة في اذنيه فكأن رجالهم كانوا

يتحلون بمثل هذه الحلى

وكانت حكومة الحثيين ملكية يتخلف فيهم الملك للاخر بحق الارث وكان الملك يلقب بلغتهم بكلمة سار او سيرا على ما يظهر من اسماء ملوكهم وكان لهذا الملك ولاية على ملوك اخرين او اقيال منهم يعدون العساكر تحت امرته ابان الحرب وكانت اهم اشغالهم الحرب والتجارة وكانوا يكثرون من الخيول كسائر سكان السهول وقد مرَّ نقلاً عن سفر الملوك الثالث ان تجار سليمان كانوا يجلبون لهم الخيل فجأت الاثار المصرية مصداقاً لآية الكتاب وكان معظم قوَّتهم الحربية في الخيل والمركبات وكانت جيوشهم ذوي بسالة في الحرب محنكين في القتال يتوفر فيهم الانقياد لقوادهم منقسمين الى فرسان ورجالة وكان الفرسان يحاربون في المركبات ايضاً ومركباتهم خفيفة صغيرة تدور على دولابين فقط ويجرها فرسان وتقل ثلثة رجال سائقاً ومقاتلين ففي اثار مصر صور عديدة لمركباتهم هذه

واول محل احتلوه اودية جبل امانوس (الاكام) ثم اخذوا يبسطون ولايتهم شيئاً فشيئاً نحو الشرق والجنوب حتى اتصلوا شرقاً الى الفرات فاستحوذوا على كركميش وغرباً الى وادي العاصي فاستولوا على حماه ثم على قادس في جانب حمص ثم غالبوا الاراميين على دمشق نفسها فحكموا فيها مدة ومدوا استيلاءهم في وقت غير معلوم الى الشمال والشمال الغربي حتى ضبطوا اسيا الصغرى كلها كما تبين اثارهم الباقية هناك وسنأتي على ذكرها وقد شهدت لهم الاثار المصرية بذلك باحصائها شعوب هذه البلاد ابداً بين محالفي الحثيين ومنجديهم ويحتمل ان يكونوا الكيتيوا الذين ذكرهم اوميروس الشاعر اليوناني في اشعاره وامنع حصونهم في الجنوب مدينة قادس التي طارت شهرتها بحروبهم مع المصريين ولما كان ذكرها كثير الورود في هذه المقالة رأينا ان نبسط الكلام فيها

﴿ عد ٦٠ ﴾

في قادس مدينة الحثيين

ان اسم قادس هذه نفسه كان مجهولاً قبل الكشف عن الكنوز الهيروكليفية عما قريب . واما الان فكل من له المام بالاثار المصرية يعلم انها كانت في برية حمص فقد كثر ذكرها في هذه الاثار بل حفظت لنا صورتها ومناظرها في اطلال هياكل مصر ومن جملتها صورة ناتئة على جدار هيكل الاقصر مثّل فيها حصار رعمسيس الثاني لهذه المدينة (انظر الصورة السادسة) ترَ حصن قادس في جزيرة تحيطها امواه العاصي وحامية الحثيين على اسوار المحصن وترى يمنةً فريقًا من الحرس خارجًا من الحصن يهاجم العدو ويسرة رجالاً يعنون بانقاذ قائد غرق في النهر وفي اسفل الصورة فرسان الحثيين يمنة وفرسان المصريين يسرة . وفي مصر ايضًا في الكرنك صورة اخرى ناتئة من عهد الفرعون ساتي الاول تمثل حصار عساكر مصر لقادس ولا شك بان البحيرة التي صورها مصورو رعمسيس الثاني هي التي زارها روبينسون عام ١٨٥٦ واطال الكلام فيها وهاك ما كتب هذا الجوّالة الاميركاني الشهير . يتكون من نهر العاصي على بعد من نحو ثلث ساعات من ربله نحو الشمال بحيرة تسمى بحيرة قادس وبحيرة حمص طولها مسافة ساعتين وعرضها مسافة ساعة واحدة وطرفها الشمالي يبعد عن حمص مسافة ساعتين واكثر اجزاء البحيرة (حتى لا نقول كلها) صناعية فهي مؤلفة من سد قديم يعترض جريان ماء النهر وطول هذا السد من اربعماية الى خمسماية يرد وعلوه لا يتجاوز الاربع عشرة قدمًا وعلى طرفه الشمالي الغربي برج صغير وفي جهة الشمالية جزيرة صغيرة وتل . . . وذكر ابو الفدا هذه البحيرة وسماها بحيرة قادس واعتبرها صناعية لانه لو هُدم السد لجرى الماء ولم تبقَ ثم بحيرة بل نهر وكانت العامة على عهد ابي الفدا تنسب هذه البحيرة

الصناعية الى اسكندر الكبير ، والصحيح انها قبله قرونًا ولا بد ان كانت مدينة قادس على جانب هذه البحيرة كما حقق كثير من اهل العلم ومنهم اخيرًا الاب جوليان اليسوعي في تذكرة تطوافه في سورية المجوفة سنة ١٨٩٠ التي طبعت في المجلة المعنونة الدروس الدينية الفلسفية التاريخية في شهر حزيران من السنة المذكورة فموقع قادس في المحل المذكور كان يجعلها حصنًا منيعًا يوقف العدو عن مسيره في الشمال في سهول حمص وحماه ولذلك كثر عدد الوقائع هنالك كما سترى في هذه المقالة وما يليها

اما الكتاب فذكر عدة مدن باسم قادس فمنها قادس برنع في العربية احدى محطات بني اسرائيل في طريقهم من مصر الى الاردن وقادس يهوذا في نصيب سبط يهوذا وقادس نفتالي في نصيب سبط نفتالي بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية (المعروفة الان بقادس محولة) وسنتكلم في موقع هذه المدن في المقالة في العبرانيين ولم يذكر الكتاب قادس مدينة الحثيين الأ مرة واحدة في سفر الملوك الثاني (ف ٢٤) على ما ذكرنا في عدد ٥٦ بحسب رواية بعض نسخ الترجمة السبعينية في طريق الوفد الذي سيره داود لاحصاء الشعب على ان النص العبراني يسميها هناك حدشي او حدسي او حدثى . قال الاب فيكورو (في كتابه المباحث المنثورة صفحة ٣٥٢ طبعة ٢) ، ان كان كاتب النص العبراني لم يحرّف سهوًا (كما قدمنا) اسم مدينة الحثيين هذه فينتج من ذلك انها كانت تسمى اسمًا يختلف عن اسماء باقي المدن التي سماها الكتاب قادس فيبتدي اسم هذه بحرف الحت (الحاء) واسم تلك بالقاف وعليه فيكون تأويل قدسي بالقاف المقدسة اي المدينة المقدسة وتأويل حدثى بالحاء الجديد (فكلمة ܚܕܬܐ في السريانية معناها الجديد) وكانوا يعبرون بذلك عن اول الشهور القمرية فيسمونه المستجد اي المستهل او ظهور الهلال فتسمية المدينة بهذا الاسم يشير الى جعل المدينة معبدًا

لعستروت الآلهة وهي القمر عندهم • فتكون حدشى بهذا المعنى ايضاً اي المقدسة لجعلها معبدًا للالهة المذكورة

عد ٦١

في الروتانو والحثيين في سورية الشمالية

نجد في الاثار المصرية ذكر قادس قبل ذكر الحثيين فيظهر من ثم ان هذه المدينة كانت قبل الحثيين من املاك الشعب الذي تسميه هذه الاثار روتانو ويراد بهم سكان سورية الشمالية وتسمى بلادهم روتان ويرجح على ما مرّ انه مكسر لودان اي بلاد ذرية لود بل ان بعض اهل العلم بالاثار المصرية يقرأون العلامة الدالة على هذا الاسم لودانو لا روتانو فيظهر ان اللوديين والاراميين سكان دمشق وما يليها نحو الشرق والشمال اختلط بعضهم ببعض فسمتهم اثار مصر روتانو اي لوديين ومن بعد انقراض الحثيين وتغلب الاراميين في القرن الثامن قبل الميلاد عادوا يسمون اراميين هذا ما رواه لانرمان في المجلد الاول من تاريخه (صفحة ٢٩٠) على انه قال في المجلد الثاني من تاريخه المذكور (صفحة ١٧٦) ان اسم الروتانو كان احيانًا شائعًا يراد به سكان سورية على اختلاف الاصول ومن رأي الاب دي كارا (في كتابه في الملوك الرعاة فصل ٩) ان اطلاق هذا الاسم على سكان سورية في اثار غزوة توتمس لها كما ترى بعيده لم يكن الا لان قيادة عساكر السوريين حينئذٍ كانت لقبيلة الروتانو فهولاء الروتانو كانت سلطتهم منبسطة في سورية الشمالية على عهد ابرهيم الخليل وفي اكثر المدة التي اقام فيها بنو اسرائيل في مصر واستمرت سيادتهم عليها الى عصر الدولة الثامنة عشرة في مصر قبل خروج بني اسرائيل منها وكان الحثيون ينتزعون املاكهم مدينة مدينة مضمرين ان يظفروا يومًا ما باسيادهم الاراميين الروتانو الذين كانوا يأدونهم الجزية الى ان ادركوا ما كانوا يبتغون

فاذلّوا الروتانو واستأثروا بملكهم فهذا ما انبأتنا به الآثار الهيروكليفية لانا نرى الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك والمسماة « تواريخ توتمس الثالث » لم تأتِ بذكر الحثيين البتة في اخبار حملة هذا الملك الاولى على سورية بل ذكرت الروتانو وحدهم لكنها في اخبارها عن حملته الاخيرة ذكرت تقادم الحثيين له كما سترى بعيده وتوتمس هذا كان قبل مولد موسى وبعكس ذلك نرى الخطوط التي أُرخت بها حملات رعمسيس الثاني على سورية تذكر الحثيين ولا تتعرض لذكر الروتانو الا من حيث الجغرافية لانها تسمى البلاد التي كان فيها الحثيون بلاد الروتانو ورعمسيس الثاني هذا هو الذي فرَّ موسى من وجهه بعد قتله الرجل المصري آخذًا بثار الاسرائيلي

عد ٦٢

غزوات توتمس الثالث ملك مصر للروتانو والحثيين

قد كان لفراعنة الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الملوك الرعاة من مصر غزوات في سورية فان امون هوتبو اول خلفاء احمس اصل هذه الدولة غزا بلاد الكنعانيين واخضع ملوكها المتعددين وتوتمس الاول خليفته اتم اخضاع الكنعانيين في فلسطين واتصل الى انحاء دمشق وانتصر على الروتانو وتوغل في شمالي سورية الى الفرات واقام عليه بمقربة من كركميش نصبًا يذكر الخلف بغزوته وتوتمس الثاني ابنه لم يملك الأ زمنًا قصيرًا وخلفه اخوه توتمس الثالث فكان له في سورية غزوات اكثر اهمية نقشت تواريخها على جدار هيكل الكرنك كما مر فجادت علينا بكثير من الفوائد في تاريخ بلادنا فآثرنا ان نلخص منها ما كان مهمًا . ارتقى توتمس منصة الملك طفلاً فكانت اخته المسماة هاتشبو تدبر الملك فسول صغر سنه لسكان سورية الذين كانوا يؤدون الى ملك مصر الجزية ان يأبوا اداءها وعمت الثورة فلسطين ولم يبقَ على طاعة ملك مصر الا سكان

غزة ولما شب توتمس واستتب له الامر خرج في فصل الربيع للسنة الثالثة والعشرين من ملكه الى غزة وولي بنفسه قيادة جيوشه وكان ملوك سورية والكنعانيين المتحالفين عليه القوا قيادة عساكرهم الى ملك قادس واقاموا معظم جحافلهم في مجدو وهي المعروفة الان باللجون في جانب جبل الكرمل فزحف بجحافله اليهم فانتشبت الحرب بين الفريقين في ظاهر المدينة فانهزمت عساكر المتحالفين وسعت جنود توتمس في اثرهم الى اسوار المدينة وكان حرسها وصد الابواب خيفة فالجئ ان يُدلى حبالا يسحب بها المنهزمين من اعلى السور وحاصر توتمس المدينة مضيقًا عليها فاستُسلمت اليه ودان له الامراء المتحالفون الذين لجأوا اليها فاجتاز توتمس بعساكره مرج ابن عامر وما يليه الى لبنان واعمال سورية حتى الفرات ولم يكُ ثمة من يقاومه فان من لم يشهدوا حرب مجدو تسابقوا في الخضوع واظهار الامانة والانقياد له وفتحت الحصون ابوابها ومن جسر على النزال أكره على الاستسلام وقد عدت على جدران الكرنك المدن التي سلمت الى توتمس فكان عديدها مئة وتسع عشرة مدينة منها باروتا (بيروت) وتماسكو (دمشق) فانهما سلمتا الى توتمس قبل وصوله اليهما ثم اكثر المدن الواقعة في فلسطين وعبر الاردن من بلاد الموابين الى دمشق واتصل بجملته هذه الى سورية الشمالية حتى ما بين النهرين وعاد الى مصر ظافرًا تحف به الوف من الاسرى وممن رغبوا في ان يتطوعوا في جنديته ومن اخذهم رهنية الانقياد له وذكرت تواريخ توتمس غنائم حربه هذه فتبين منها انها كانت تسعماية واثنتين واربعين مركبة وعديدًا من الصفائح الذهبية والفين وواحدًا واربعين فرسًا وظهر منه ان معظم قوة العساكر الكنعانية كانت منذ وقتئذٍ بالمركبات الحربية كما كانت في عهد يشوع والقضاة (طالع سفر يشوع فصل ١١ عد ٤ وفي سفر القضاة فصل ٤ عد ٧ و١٥)

ثم في ربيع السنة التالية زحف توتمس بعساكره الى سورية فاتم اخضاعها لسلطانه واجتاز الفرات ثانية وشيد حصناً على نهر الخابور بقيت اثاره الى الان وقد وجدت ثمة صفائح صغيرة كتب عليها اسمه فدان له الروتانو في عبر الفرات وارسل اليه ملك اشور وملك بابل جزيتهما قبل ان يدخل بلادهما. وعبرت اربع سنين لم تتخللها حرب فجد فيها ملك الروتانو في قادس بلم شعث قومه واصلاح شؤون بلاده واعداد معدات الحرب واستمال اليه سكان شمالي سورية ولا بد ان كان الحثيون بينهم فهب توتمس للتنكيل بهم لسنة التاسعة والعشرين من ملكه ويظهر انه سير جنود حملته هذه في طريق سواحل البحر ففتح اراتو (ارواد) وحيلبون (حلب) وغيرها ودخل بلاد زاهي التي يراد بها على ما روى لانرمان (في صفحة ١٩٥ من المجلد الثاني من تاريخه) قسم من لبنان بين مدن فينيقي وسورية المجوفة وحاصر في السنة التالية قادس فافتتحها عنوة وغنمت جنوده بما كان فيها ودك بعض حصونها فاسرع ملوك الروتان السفلي (يراد به ما بين النهرين) فادوه الخضوع وثارت ارواد عليه فاذلها ثانيةً وعاد الى مصر ظافراً ومعه ابناء الملوك واخوانهم ليكونوا رهينة الامانة له ، وحتى اذا مات احد الملوك او الولاة ارسلت جلالته من لدنها من يتخلف له ، (ترجمة الاصل) فكان من دأب الفراعنة حينئذٍ ان يستبقوا في كل مملكة ملكاً من سكانها يقر لهم بالسؤدد ويفيهم الجزية وينجدهم برجاله ابان الحرب

ثم عاد توتمس لسنة الثالثة والثلاثين من ملكه فحمل على بلاد الاشوريين وبلغ نينوى فعظمت سطوته واشتد بأسه وعم الروع كل من ناواه ولذا التقاه عند عوده وفود من قبل شعب زاهي ولمنون (لبنان) واسّو (وهي على رأي لانرمان عمل في شمالي لبنان كانت مشهورة بمعادن الحديد فيها (ولعلها جبة بشري والضنية) وغيرها فقدموا للملك الظافر جزيتهم وقد عدت على جدران

الكرنك تقادم الملوك وجزيات البلاد ومن جملتها جزية بلاد الحثيين حيث قيل « جزية سكان بلاد الحاتاس الوسيعة كانت هذه السنة ثماني حلقات من فضة وزنها ٣٠١ ليبرا Livre وحجرًا ثمينًا كبيرًا ابيض ومركبات واخشابًا » الى غير ذلك فهنا نجد اسم الحثيين لاول مرة في الآثار المصرية . ولما كان اللبنانيون لم يخلصوا الطاعة لتوتمس اضطر ان يبعث في السنين التابعة الى بلادهم والى بعض المدن الشمالية عسكرًا يتكفل باستتباب الراحة والسكينة وقد حمل حملة اخرى على بلاد الروتانو اي سورية لسنة ٣٩ من ملكه فانتصر ايضًا وادَّى اليه الحثيون الجزية اذ قيل في تواريخه المذكورة « من ملك بلاد الحاتاس الفسيحة اربعون ليبرا ذهب وواحد وعشرون عبدًا وامة وثيران وبقرٌ »

وعاد ملك قادس فحصَّن مدينته وحمل غيره من ملوك سورية على الخروج عن طاعة توتمس فاضطر في سنة ٤٢ لملكه ان يجيش الجيوش مرة اخرى للتنكيل بالروتانو والسوريين حلفائهم فافتتح قادس عنوةً وبدَّد شمل المتألبين وقطع دابر ثوراتهم عليه فعاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة ناعم البال طيِّب القلب من قِبَل ملوك سورية فتكون مدة ملكه اربعًا وخمسين سنة كل ذلك كشفت لنا عنه الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك وكان اول من ترجمها اغوسطوس ماريات ومن انباء هذه الخطوط ايضًا ان توتمس في ٣٣ و ٣٤ و ٣٨ من سني ملكه اخذ الجزية من سكان جزيرة اسابي وهي قبرس بلا ريب وقد وجدت ايضًا في الكرنك صفيحة كتبت عليها اشعار فصيحة منبئة بغزوات توتمس هذه فترجمها الفيكنت دي روجه de Rougé وهي منبئة باخضاعه سكان زاهي المار ذكرها والروتانو وشعب فينيقي وقبرس وسكان مدين وغيرهم . ومن بعد توتمس الثالث لم نجد اثرًا ينبئ بان احد الفراعنة الستة او السبعة الذين تخلفوا له حارب الحثيين او الروتانو سوى توتمس الرابع فانه حمل على الحثيين

حملة لا نعلم من امرها الا ما وجد مكتوبًا على صفيحة من حجر وجدت في هيكل امون في تاب (طيبة) جل ما كتب فيها غزوة الملك (تونمس الرابع) في بلاد الحثيين . وقد ظهر بأس الحثيين وسطوتهم في عهد دولة الرعمسيسيين وهي الدولة التاسعة عشرة

عد ٦٣

في الحثيين ورعمسيس الاول

ابتدأت دولة مصر التاسعة عشرة برعمسيس الاول فان هوردا مِهب الملك الاخير من الدولة الثامنة عشرة توفي ولم يعقب فرقي منصة الملك رعمسيس الذي كان قائدًا للجنود واشتهر بخدماته لوطنه ولم يكن من نسل الملوك بل لم يكن مصريًا اصلاً فان سمات وجهه ووجه ابنه ساتي الاول وحفيده رعمسيس تظهر في تماثيلهم جميلة لا شبه فيها لوجوه ذرية مصرائيم فدل ذلك على انهم من شعب غير مصري وايد هذا ان العلامة ماريات اكتشف صفيحة قديمة في تانيس كتب فيها ما يثبت ان رعمسيس الثاني جدَّد عبادة الاله سوتك او سوتخ وهذا هو معبود الملوك الرعاة في تانيس عاصمتهم ويسمى رعمسيس هناك ستعابتى احد الملوك الرعاة ابًا او جدًا له ويجعل ارتقاء هذا الملك سدة مصر مبدأ تاريخ يؤرخ به اعمال الملك فكان ذلك دليلاً على انه وملوك دولته من سلالة الملوك الرعاة السوديين اصلاً وبقي بعض نسلهم في مصر بعد طردهم منها

وكان حصل في اخر سني الدولة الثامنة عشرة شغب سياسي وديني اضعف قوة مصر عن ضبط املاكها الخارجية فنبذت سورية وفلسطين طاعتها وكان الحثيون في هذه الاثناء تغلبوا على الروتانو في شمالي سورية وازاحوهم من مراكزهم وانضموا في مملكة واحدة فسيحة الارجاء تنبسط من شاطي الفرات الى جبل طوروس والى البحر المتوسط وتمتد جنوبًا الى قادس بل الى دمشق

ايضاً ولما كان هولاء من قبيلة الملوك الرعاة على الارجح هاموا ان يستحوذوا على سورية كلها ليثأروا باجدادهم الرعاة من المصريين الذين طردوهم من مصر بانتزاعهم منهم املاكهم في سورية (ملخص عن لانرمان في مجلد ٢ صفحة ٢١٩ من تاريخه) وكان ملك الحثيين حينئذٍ يسمى سابالات وهو اول من نعرفه من ملوكهم فعني رعمسيس اولاً باصلاح شؤون مملكته في مصر وهمَّ باعادة سكان سورية الى طاعته ولكن لم يكن خصماؤه في سورية هذه الدفعة كما كان خصوم اسلافه الروتانو الذين كانوا ضعفاء لانقسامهم الى عدة قبائل مختلفة الاغراض والنزعات لا تجتمع كلمتها بل كان الحثيون حينئذٍ ذوي دولة قديرة فسيحة الارجاء تهيم بالحروب وتعادل مصر قوةً فدخل رعمسيس الاول فلسطين فلم يصادف شديد مقاومة فقد اعتاد اهلها ان يستسلموا الى كل غازٍ اقبل على بلادهم لكنه لم يبلغ نهر العاصي الا وقابلته جيوش لم تكن له في الحسبان ولم نطلع على تفاصيل هذه الحرب فربما اضرب المصريون عن ذكرها لانها لم تكن مشرفة لهم لان الظاهر من قرائن الحال ان رعمسيس لم يقوَ على اخضاع الحثيين بل أُلجئ ان يعقد مع ملكهم عهدة صلح تشترك بموجبها كلتا الدولتين بالدفاع والمهاجمة على من يناوي احداهما ليتقي رعمسيس غائلة الحرب التي اوقد نارها وقد لاحظ مسبرو (في تاريخ المشرق) . ان الفراعنة لم يكونوا الى تلك الايام يعتبرون ملوك سورية بمنزلة ملوك مساوين لهم او يتنازلون لعقد صلح معهم بل كانوا يحسبونهم اعداء ينكلون بهم او عصاة يجرون عقابهم وكانت نهاية الحروب معهم خضوعهم صاغرين دون شرط او تدميرهم التام . ولم يملك رعمسيس هذا الا ست سنين او سبعاً

﴿ عد ٦٤ ﴾

﴿ في الحثيين وساقي الاول ﴾

خلف رعمسيس ابنه ساقي الاول ويسميه اليونان ساتوس وهو الذي بدأ يضطهد العبرانيين في مصر كما في سفر الخروج وقد بنى هذا الملك اثارًا مدهشة اغربها واجملها الردهة الشهيرة المعروفة بردهة الاعمدة في هيكل امون في الكرنك التي ما برحت على كرور القرون آية تحمل الجوّالين والمتفرجين بها على العجب العجاب وقد نقشت على جُدُره صور غزواته وتاريخها مطولاً فمن هذه الصور ما يمثله محاربًا الشاسو وهم العرب الرحَّل في جانب خليج السويس ومنها ما يمثّل اهل لامنون اي سكان اعالي لبنان يقطعون اخشاب الارز والسرو لابنية الملك الذي ظفر بهم ومنها ما يمثّل مدينة قادس وحصنها يحاصرها المصريون ويفتحونها على الحثيين ومنها ما يمثّل مركبات الحثيين وعلى كل منها ثلاثة رجال ويجرّها فرسان ومنها ما يمثّل هذا الملك عائدًا من الحرب ظافرًا محفوفًا بكثير من الاسرى يلتقيه عظماء مملكته عند تخوم مصر فيقدم الاسرى للاله امون في (طيبة) وفي جوانب هذه الصور خطوط كثيرة نأخذ عنها ما نذكره هنا بتصرف

حارب ساقي في السنة الاولى لملكه العرب الذين كانوا اكثروا من السطو والاعتداء في تخومه الشرقية فشتت شملهم في البرية وزحف في السنة التالية بعساكر جرارة الى سورية فقتلَ من قاومه في فلسطين لان ملوك الكنعانيين ولاسيما الفينيقيين لم يكن لهم همٌّ الاَّ بأرباح تجارتهم فاستسلموا اليه وادّوا اليه جزيتهم وقدموا الذخائر لجنوده . ثم دان له الاراميون دون شديد نزاع . وانقاد اليه من كانوا لبثوا قبلاً على استقلالهم في بلاد دمشق وفي السهول التي بين الفرات ولبنان الشرقي لجهة تدمر وفي اعالي جبل لبنان حتى ارتاع منه ملوك

ما بين النهرين والعراق العربي وارسلوا اليه هدايا يسترضونه بها فحسبها جزية لكن الطامة الكبرى ادركته عند بلوغه تخوم مملكة الحثيين في قرب العاصي فقد استعرت نار الوغى على قلعة قادس وطال اجيجها وتعددت المواقع الى ان افتتحها المصريون فلم يكن فتحها ختام الدفاع بل كان الحثيون يذّبون عن مواطنهم قدماً قدماً وكلما كثر عديد المواقع اشتدت حميتهم وبسالتهم حتى اعيوا فرعون فاضطُرَّ ان يوقع على عهدة صلح مع موتنار ملكهم ضمنت لهم سلامة املاكهم حتى ردت عليهم قادس مدينتهم ولم يلزموا انفسهم الا الانكفاف عن الاعتداء على الاعمال المصرية وان لا يثيروا ثورة على سلطة ملك مصر بل يكون بين المملكتين عهدة دفاع وهجوم . ان خطوط الكرنك لا تصرح بانخذال ساتي بل تحاول اخفاء ما تبديه قرائن الحال وتقرّ ببسالة الحثيين بتعظيمها نفسه مشاق الانتصار عليهم وتشبه ساتي بالالهة وتدعوه تارة جقلا يطوف البلاد سحرًا وتارةً اسدًا ضرغامًا يعرف الطرق الخفية في كل بلاد وتارةً ثورًا شديد الاقتدار قويّ القرون . وقد كتب على الصورة الممثلة هذه الحرب . ها هي تي ذريَّة الحثيين وقد صنعت جلالته فيها ملحمة .

ان نجاح الحثيين بهذه الحروب زادهم جسارة فقطعوا على المصريين طريق حلب والفرات الذي كانت عساكر توتمس الاول وتوتمس الثالث تمرّ به ظافرة او لا تجد فيه من مقاوم واصبحت املاك مصر في سورية مقصورة على فلسطين وما جاورها من بلاد ارام الجنوبية وعلى فينيقي التي كان تجارها يؤثرون اعطاء ملك مصر الجزية على فوات ارباح تجارتهم البحرية وضياع كسبهم في مصر . واجتزأ ساتي بان يحسن سياسة ما بقي من املاكه في مصر وسورية موثرًا ثبوت هذه الاملاك والانتفاع بها على انبساط سلطته ونفقات الحرب لضبطها . وبدل الحكام الوطنيين بعمّال مصريين واقام حرسًا مستمرًا في اخص

الحصون كغزة وعسقلان وماكتا وهي مجـدو المعروفة الان باللجون وتوفي
ساتي بعد ان ملك نحواً من ثلاثين سنة على الاظهر وخلفه ابنه رعمسيس الثاني

عد ٦٥

في الحثيين ورعمسيس الثاني

سمى اليونان رعمسيس الثاني سيسوستريس وعزوا اليه حروباً وانتصارات
على الحثيين وغيرهم اكثر مما كشفت عنه الخطوط المصرية بعد استطلاع سرها
وقد فضل غيره في ما اتت به آثاره من اخبار الحثيين وعنها اخذنا ما نرويه هنا
فقد رقي رعمسيس منصة الملك في اواخر القرن السادس عشر واوائل الخامس
عشر . فلم يتجشم حروباً مهمة في السنين الثلث الاولى لملكه . بل بدت آثار
ثورات في بعض اعمال فلسطين يترجح ان يدًا حثية اثارتها فحملت رعمسيس
ان يغشي هذه البلاد مرتين بلغ في احداها الى بيروت وترك صورته منقوشة
على صخر عند مصب نهر الكلب (اثبت لانرمان مثالاً لها في مجلد ٢ من
تاريخه الشرقي صفحة ٢٥١) على ان العدو الذي كان يروّعه انما هو الحثيون
فكان موجساً منهم خيفةً لانهم حافظوا على عهدة الصلح مع ابيه ما حيي
واخذوا بعد موته يتأهبون لثورة هائلة وكانوا حينئذٍ في اوج سؤددهم
وصولتهم وكانت املاكهم منبسطة من قادس الى اطراف اسيا الصغرى ومن
لبنان الى الفرات وقد ابقت لنا اثار رعمسيس على اسماء الشعوب الذين تألبوا
مع الحثيين لمناوأة ملك مصر فنهم سكان حلب وكركميش والجرجاشيون احدى
فصائل الكنعانيين والاراميون سكان سورية المجوفة والارواديون من الفينيقيين
واما اهل صيدا وجبيل فكانوا يمالئون رعمسيس ولا يعلم كم كان عدد جيوش
المتحدين ويظهر انه كان كثيراً يشذ عن الحصر فان ملك حلب وحده كان اتى
بثمانية عشر الف جندي وبيّنت الآثار ان عدد المركبات الحربيـة لم ينقص عن

الفين وخمسماية مركبة ودرى رعمسيس ما يدبره عليه اعداؤه فزحف في فصل الربيع للسنة الخامسة من ملكه بجيش جرار وسورة الشباب وحميته وصلفه تأخذ برأسه فاجتاز فلسطين حيث كان الحرس المصري الذي اقامه ابوه كما مرَّ وبلغ الى محل يسمى شبطون . قال لانرمان ان موقعه عند ينبوع النهر السبتي في جهة الحصن الى الغرب من حمص فوقف جيوشه ثمة ليستجس مراكز عداته ويدبر حركات جنوده بما تقتضيه الحال وكان موتنار ملك الحثيين رجلاً مدرباً في امور الجندية والحرب يؤثر الحيلة على استعمال القوة فاعلمه جواسيسه موقف رعمسيس فعزم ان يأخذه بوهق احتياله فارسل اليه اعرابيين متنكرين يقولان له « ارسلنا اخواننا روساء القبائل المتحدة مع ملك الحثيين الخسيس لنسرَّ الى جلالة الملك اننا تايقون ان نخدم فرعون ونغادر رئيس الحثيين الخسيس وهو الان في حلب في شمال المدينة حيث انزوى بغتةً خائفاً بطش الملك » فاغترَّ رعمسيس بالخدعة واقبل على قادس بعدد قليل من جنوده مطمئناً . وصفَّ ملك قادس جنوده في شمالي المدينة وغربيها ليثب على فرعون في حين غفلة فيهلكه وجيشه على ان رعمسيس قبض حينئذٍ على جاسوسين فاستنطقهما معذباً لهما فباحا اليه بسر المكيدة فعظمت دهشته وحيرته وعلم الخطر العظيم الملمَّ بنفسه وجيشه وبينما هو على عدوة العاصي يفكر بما يتسوَّل به لنجاته اذ وثب ملك الحثيين بغتةً على قلب جيشه فشتته وشطر جنود رعمسيس شطرين فعظم الخطر على رعمسيس في موقفه ولم تنجهِ الا شدة شجاعته وقد كتب في خطوط آثاره انه اخترق صفوف العدو المحدقة به ثماني مرات الى ان اقدرته العناية على ضم صفوف جيشه واصلاء نار الحرب على العدو النهار كله

ان شاعراً مصرياً اسمه بنتأور نظم تاريخ هذه الموقعة باشعار نقشت على جدران هيكلي الكرنك والاقصر ووجدت مكتوبة في بابير محفوظة الان في

المتحف البريطاني فنثبت هنا شيئًا من ترجمتها لما بها من الفائدة والفكاهة ، كنت وحدي لا يصحبني رئيس ولا قائد ولا آمر ولا ضابط انهزمت الجنود والفرسان ولبثت احارب العدوّ منفردًا فصرخت حينئذٍ اين انت يا ابتاه امون هل ينكر ابٌ ابنه او يغادره في ضيقه هل اقدمت على عمل دون رضاك او مشيت او وقفت ولم اشخص ابصاري اليك هل خالفت اوامر فمك او نبذت مشوراتك هل تحتمل ان يُذل ملك مصر وسيدها امام شعوب يعاندونك فمن هولاء العمو (يريد بهم الاسياويين المتحالفين عليه) بعيشك يا امون بدّد من لم يقرّوا بألوهيتك . اما شيدت لوجهك اثارًا لا عداد لها . اما افعمت هيكلك بالغنائم التي احرزتها من الاعداء . اما بنيت لك معابد تدوم الوفًا من السنين . فبكَ استجير واياك ادعو يا ابتاه امون فقد احدقت بي جماعات لا اعرفها وتألبت عليَّ قبائل وانا وَحدٌ لا احد معي فادعو وليس من يجيب على انني موقن بان امون خيرٌ لي من الوف جنود تجتمع معًا . . . ، وقد أُستجيب دعاء رعمسيس وتداركه العون فان الشاعر يقول بلسانه ، قد استجابني رع (وهو امون ايضًا ويراد به الشمس) لما دعوته ومدَّ اليَّ يده فطفح قلبي سرورًا وناجاني من ورائي قائلاً لا تخف رعمسيس ميامون (لقبٌ له تأويله محب امون) انا معك انا ابوك رع يدي تعضدك انا خيرٌ لك من الوف الجنود انا ربُّ النصر وعاشق الشجاعة فاذا رأيت شجاعًا مثلك همت بحبه وامتلأ فؤادي سرورًا وكل ما اردته كان فارمي سهامي بيميني مثل مُونت (اله الحرب) وتقبض شمالي على الاعداء مثل بار (يريد به بعلاً باعتبار كونه الهًا للحرب) في ثورة غضبه فأرى الان الفين وخمسماية مركبة وانا في وسطها وقد قلبتها خيولي وليس من ركابها من يمد يدًا الى القتال قد تولى الرعب والذعر قلوبهم وشلّت ايديهم فلم يعلموا كيف يرمون السهام فارقهم قلبهم فلم تضبط ايديهم الحراب فاغرقتهم بالماء كما يغرق

التمساح فيتهافت بعضهم على بعض قتلى ، ثم يطرئ الشاعر بسالة بطله هذا واختراقه صفوف العداة دفعات ولمّه شعث جيشه وانتصاره . على انه لا بدَّ في ذلك من مبالغة على عادة الشعراء فالصحيح ان رعمسيس عرَّض نفسه للهلكة لانفراده مخفوراً بعدد قليل من الجند فوثب عليه العدو فدافع عن نفسه مدافعة الكمي بجنده القليل الى ان ادركه عسكره فكان ذلك دليلاً على عظم بسالته وقلة دربته معاً لانخداعه بكلام اعرابيين مجهولين

وبعد نجاة الملك تسعرت نار الحرب النهار كله فاضطر موتنار ملك الحثيين ان يلوي غير يائس من الظفر فخمدت جذوة الحرب مساء وجدَّ شبوبها صباحاً فكانت موقعة هائلة دارت فيها الدوائر على الحثيين فتفرقت صفوفهم في نقط عديدة وقتل حامل سلاح الملك وقائد الرجّالة ورئيس الخصيان وكاتب الوقائع الرسمي وغيرهم كثيرون وحاول بعض المنهزمين ان يعبروا النهر سابحين فراراً من لحاق المصريين فغرق كثيرون ونجا اخو ملك الحثيين المسمى ميسرائيم وغرق ملك نينا واستُخرج ملك حلب من الماء وفيه رمق ويرى في الصورة الممثلة لهذه الموقعة ملك حلب معلقاً برجليه يندفق من فيه الماء الذي كان يظن انه ابتلعه ولولا خروج حرس المدينة للذّب عن المنهزمين لم يبقَ منهم باقٍ

فعوَّل ملك الحثيين على طلب الاستئمان فسيَّر وفداً الى رعمسيس يقول له على ما في الآثار المصرية ، ان شعب الحثيين مشترك مع المصريين مقدماً خداماته امام اقدامك فان رع (الشمس) اباك السعيد ولاك امرهم فاكفف عنا سخطك فانك شديد البأس فتكت بسالتك بامة الحثيين فهل يحسن بك ان تقتل عبيدًا انت سيدهم فارى محيَّاك مغضباً مكفهراً ولا تشاء اخماد غضبك . وصلت امس فقتلت مئات الوف فان عاودت القتال اليوم فلا يبقى من يخضع لك فلا

تتمَّ ما اعتزمته ايها الملك المظفر فيا روح تسر بالقتال تكرم بان تمنحنا نسمة الحياة ، فاستشار رعمسيس اركان حربه فعقد صلحاً مع ملك الحثيين وعاد الى مصر ظافراً وكان ذلك للسنة الخامسة من ملكه

على ان ذلك الصلح لم يكن الا هدنة على دَخنٍ فان ملك الحثيين لم يلبث ان همَّ بتجديد الحرب آخذاً بثاره على انه لم يقتحم باديء بدء مواقع كبيرة بل اجتزأ اولاً ان ينفخ نار الثورة على مصر مهيجاً القبائل الخاضعة لها للخروج عليها ففي السنة الثامنة لرعمسيس هيج الشر بينه وبين الكنعانيين في الجليل فترى عساكره تحارب عند بحيرة ميروم اي في الحولة وفي جبل طابور لترد العصاة الى طاعة مصر وفي السنة الحادية عشرة لملكه تقوى الاسياويون على المصريين حتى خيِّل انهم حصروهم في وادي النيل وقد خرجت اكثر اعمال فلسطين عن طاعة رعمسيس الى ان تمكن من استرداد عسقلان بعد حصار عنيف وحسب ذلك فوزاً كبيراً ثم استرد شلاما (اورشليم) والكرمل واسعدهم الحظ في اخضاع مدن اخرى بل وفق ايضاً في طرد عساكر المتحدين من فلسطين وفينيقي وسورية المجوفة (سهول البقاع وبعلبك) ثم وصل بعد ذلك الى قادس وافتتحها مرةً اخرى وتوغل في وادي العاصي الى وسط بلاد الحثيين واتحفتنا آثاره بجريدة اسماء مدن افتتحها عليهم وتمثله احدى الصور المنقوشة في تاب (طيبة) جالساً بعد حرب مع الحثيين وحلفائهم وقواد جيشه يكردسون امام قدميه ما قطعوه من ايدي الاعداء ودامت هذه الحروب اربع عشرة سنة او خمس عشرة سنة ولم تخمد جذوتها الا بعد ان قتل موتنار ملك الحثيين غيلة في احدى معامع الحرب

وخلفه اخوه كيتاسار وقد تأول كثيرون هذا الاسم بمعنى ملك الحثيين اي ان سار معناه ملك وكيتا او حيتا الحثيون ولكن لاحظ العالم بليكس ان هذا

التأويل غير صحيح اذا اعتبر اصل هذا الاسم سامياً لان اللغات السامية لايتقدم فيها المضاف اليه على المضاف وعليه فيكون معنى الاسم خوف الملك او الخائف من الملك اي الله وتحرير المعنى خائف الله او مجل الله . وكانت الدولتان المحاربتان قد كانتا من القتال وسئمت نفوسهما الحرب فعولتا على عقد صلح نهائي مستمر ووقعتا على عهدته وروى مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق) ان نص العهدة كتب اولاً في اللغة الحثية ونقش على صفيحة من فضة وقدم لفرعون وهو في المدينة التي شيدها ودعاها رعمسيس باسمه وهذه اول عهدة ظفرنا بنصها

﴿ عد ٦٦ ﴾

عهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكيتاسار ملك الحثيين

قد نقش نص هذه العهدة على ظاهر جدار هيكل الكرنك حيث يشاهد حتى الان لكن اخره مشوه وهاك ملخصه

« في السنة الحادية والعشرين واليوم الحادي والعشرين من شهر طيبي (هو الشهر الخامس من السنة عندهم) الملك رعمسيس ميامون (محب امون) بينما كان جلالة الملك رعمسيس في مدينة بيت رعمسيس (هي المدينة التي شيدها وسماها باسمه) مقدماً التقادم استرضاء لابيه امون رع (ويعدد اسماء باقي معبوداته ويتوسل الى هولاء الالهة ليقيضوا له سنين عديدة يقضيها ناعم البال ويخضعوا له القبائل والبلاد ابداً) وافاه مفوضان من قبل كيتاسار ملك الحثيين المعظم مصحوبين بصفيحة من فضة كتبت عليها شروط الصلح والاخاء الموبدين بين ملك مصر العظيم وكيتاسار ملك الحثيين العظيم وهذا هو الاتفاق الذي وقع عليه بينهما بصورة عهدة ابعد الله معاودة كل عداوة بينهما قد كانت في ايام اخي موتنار ملك الحثيين المعظم حروب مع ملك مصر المعظم على انه

مذ هذا النهار فصاعدًا يكون سلام واخآء مؤبدان بين بلاد مصر وبلاد الحثيين فلا تنشأ عداوة بينهما البتة بل يكون ملك مصر العظيم اخًا لي مستمرًا على السلم معي واكون اخًا له مقيمًا على السلم معه منضمًا اليه كأن اكلينا قلبًا واحدًا وابناء ابناء ملك الحثيين العظيم يكونون بالاتفاق والاخاء مع ابناء ابناء رعمسيس ملك مصر العظيم وهكذا يكون خلفآء رعمسيس العظيم مع خلفآء كيتاسار العظيم ويكون سكان مصر وسكان بلاد الحثيين على وفاق واخاء مؤبدين لا تنشأ عداوة بينهم الى الابد . ولا يسطو ملك الحثيين على ارض مصر البتة ليأخذ منها شيئًا ايًا كان ولا يسطو ملك مصر على ارض الحثيين ليأخذ منها شيئًا ايًا كان . وارعى العهدة التي عقدت في ايام سبالالات ملك الحثيين والعهدة التي وقع عليها اخي موتنار واسلك بمقتضاهما دون خلل ويرعى ملك مصر العهدتين ويسلك بموجبهما دون خلاف فاذا غشا عدو ارض رعمسيس ملك مصر واوفد يقول لملك الحثيين تعالى فانجدني عليه لزم ملك الحثيين ان يأتي ويضرب العدو واذا تعذر عليه الحضور بنفسه لزمه ان يرسل رجاله وخيله للايقاع بالعدو . وكذا اذا غشا ارض الحثيين عدو واستنجد ملكهم ملك مصر لزمه ان ينجده بنفسه او برجاله وخيله . وكل جانٍ حاول النجاة من الجزاء الذي تفترضه الشرائع ففرّ الى احدى المملكتين لزم تسليمه الى ضابطة قبيلتــه . وكل عبد أبقَ من احدى المملكتين الى الاخرى واضر بمولاه لزم رده على طالبه . وكل منتقل لغير داعي جناية من احدى المملكتــين الى الأخرى وكل مأخوذ جبرًا الى احداهما وكل صاحب صناعة او عمل اراد ان ينقل سكناه من احد القطرين الى الآخر هولاء جميعًا يردون على شعبهم لدى طلبه اياهم . ولكن لايسوغ احتساب انتقالهم من وطنهم جناية فمن ردّ على شعبه في هذه الصورة لا يمسه ضرّ في بيته ولا تزعج امراته ولا اولاده ولا تضرب امه ولا يضرب هو على عينيــه

ولا على فمه ولا على قدميه وفي الجملة فلا تقبل عليه لذلك شكوى جزائيـة . ويلزم ان تكون المساواة التامة والاشتراك الكامل بين الشعبين المصري والحثي . وتبرم عهدة الدفاع والهجوم هذه بين المملكتـين . واخيراً يستدعي الملكان المتعاهدان آلهة كل قبيلة منهما ذكوراً واناثاً للشهادة عليهما وللانتقام ممن يخالف شيئاً مما أبرم الاتفاق والعهد عليه ويسالان الالهة ان يجزوا من يرعى بنود هذه المعاهدة بمنحه التوفيق والعافية له ولعياله ولمن يلوذ به .

وقد حافظ المصريون والحثيون على العمل بمقتضى هذه العهدة وجعلوها دستوراً للتعامل بينهما مدة قرنٍ كامل فلم نعثر على اثر ينبئ حصول حرب او نزاع بين الامتين في تلك الحقبة ويظهر ان كل ماكان من جبيل نحو الغرب والجنوب خص المصريين بموجب هذه العهدة وكل ما كان منها الى الشمـال والشرق خص الحثيين . فقد وجد بابير هو الان في المتحف البريطاني وترجمه العالِم شباس معلقاً عليه بعض الشروح ينطوي على اخبـار رحلة عامل مصري أوفد في ذلك العصر الى فينيقي فيذكر المدن الخاضعة لصولجان مولاه والتي تجوَّل فيها فمنها كابونا (جبيل) مدينة الاسرار وبادوتا (بيروت) وصيدونا (صيدا) وسربوتا (صارفة صرفند) وتسار (صور وكانت حينئذٍ مأوى للصيـادين) ومستتبع محطات سفره نحو الجنوب في فلسطين الى ان عاد الى مصر (ملخص عن رواية فيكورو لهذه العهدة في كتابه المسائل المنثورة وعن لانرمان في المجلد الثاني من تاريخه الشرقي في فراعنة مصر)

﴿ عد ٦٧ ﴾

﴿ زواج رعمسيس بابنة ملك الحثيين ﴾

قد وطد رعمسيس وثاق الوفاق بتزوجه بابنة ملك الحثيـين ودعا حماه كيتاسار الى زيارته في بلاده وقد جاء في البابير المعروف بانستازي المحفوظ

الان في المتحف البريطاني ان كيتاسار استدعى احد محالفيه اميركاني في اسيا الصغرى ليصحبه في سفره الى مصر فقال له « هلمَّ نذهب الى مصر فقد صرح الملك بدعوته فلنطع رعمسيس فطاعته حياة لمن يحبه فتجله الارض كلها وهو والحثيون الان واحد » ومضى كيتاسار الى مصر فالتقاه رعمسيس الى مدينته التي شيدها في ارض جاسان حيث كان بنو اسرائيل واتيا معًا الى تاب واقيم هناك نصبٌ وعليه صورة رعمسيس وحميه وامرأته حيث يرى رعمسيس على اريكته وحموه وزوجته يبديان التجلة له وقد توطد السلم بين المصريين والحثيين بعد تلك الحروب الدموية المديدة حتى اصبح الاعداء اخدانًا والمحاربون اخوانًا

قد لاحظ مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق) ان المصريين اخذوا يدخلون حينئذٍ في لغتهم كلمات من فروع اللغة السريانية وان يعلموا ابناءهم بل عبيدهم ايضًا هذه اللغة واستحسن علماؤهم ان يرصعوا كلامهم بالفاظ وجمل من لغة اجنبية مثلاً بدلاً من ان يسموا الباب « رو » كما في لغتهم المصرية سموه ترعو ܬܪܥܐ كما في السريانية وبدلاً من ان يقولوا في التحية « آو » كما في لغتهم اخذوا يقولون شلم ܫܠܡ السلام بالسريانية فكأنه كان عندهم يومئذٍ ما هو كائن عندنا الان من ادخال الفاظ وعبارات اجنبية في لغتنا العربية . وروى لانرمان (في مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ٢٦٥) ان التحاب بين دولتي مصر وسورية حينئذٍ كان وسيلة لدخول عبادة كثير من المعبودات السورية الفينيقية عند سكان وادي النيل فانتشرت عندهم وقتئذٍ عبادة بعل وعستروت وغيرهما من الالهة والالهات على ان الظاهر ان هذه العبادة استمرت فردية فلم نجد حتى الان هيكلاً على اسم هذه المعبودات السورية الا سوتخ اله الحثيين الذي ادخل عبادته الملوك الرعاة وجدد له رعمسيس الهيكل العظيم في تانيس بعد ان لبث متهدمًا في عصر الدولة الثامنة عشرة

﴿ عد ٦٨ ﴾

في تيسير حرب المصريين والحثيين دخول بني اسرائيل ارض الموعد

كانت هذه الاحداث بين المصريين والحثيين عندما كان موسى منهزماً من غضب رعمسيس في برية سينا بعد قتله الرجل المصري آخذاً بثار عبراني اهانه فكان الله يعد موسى لانقاذ شعبه من عبودية مصر ويهيئ بهذه الحروب ما ييسر تملك شعبه ارض الموعد بعد سنين فلو تيسر لملك الحثيين ان يقهر ملك مصر ويذله لاستحوذ على ارض الكنعانيين برمتها وتعذر على يشوع بن نون افتتاحها على ملك الحثيين القدير الرهيب ولو تيسر للمصريين ان يبيدوا الحثيين لاستمروا متمكنين في ارض الموعد وعجز بنو اسرائيل عن امتلاكها والنجاة من غضب فرعون فيسرت العناية الصمدانية طريق العبرانيين الى ارض الموعد بان اضعف كلا العدوين قوة الاخر واعاقت بني اسرائيل في البرية اربعين سنة الى ان فقدت كلتا المملكتين ما كان لهما من الصولة والاقتدار فتهيأ لشعب الله ان يرث بسهولة الارض التي وعد بها ابرهيم واسحق ويعقوب

﴿ عد ٦٩ ﴾

بقية ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثيين

مات رعمسيس الثاني بعد ان ملك ٦٧ سنة منذ وفاة ابيه وخلفه ثالث ابنائه المسمى منفتاح وهو فرعون الذي خرج في ايامه بنو اسرائيل من مصر ولم تهدِنا الآثار علاقة لمنفتاح مع الحثيين الا بانه ارسل اليهم مؤونات عند حصول مجاعة في بلادهم فقد كتب هذا الملك على هيكل امون «شحنت السفن مؤونات يعيش بها شعب الحثيين لانني الملك الذي اختاره الالهة» ولما استفتح بنو اسرائيل فلسطين قاومهم الحثيون الجنوبيون منضمين الى سائر الفصائل

الكنعانية ولكن لا يظهر ان الحثيين الشماليين أنجدوا هذه القصائل في حربها مع يشوع بن نون الذي قصر غزوته على سفح لبنان كما يظهر من سفر القضاة (ف ٣ عد ٣) فلم يمسس الحثيين الشماليين بضرّ . ولم نجد في الآثار المصرية ذكرًا للحثيين بعد ما مرّ الا في عهد رعمسيس الثالث احد فراعنة الدولة العشرين. فقد نبأتنا آثاره انه لزمه في السنة الثامنة من ملكه ان يحارب الشعوب الذين حملوا على مصر من اسيا الصغرى وجُزر اليونان برًّا وبحرًا والظاهر ان سلطة الحثيين حينئذٍ على اسيا الصغرى لم تكن على ما كانت عليه فيها في ايام رعمسيس الثاني لان رعمسيس الثالث يقول في ما كتبه على هيكل النصر في مصر «ارتعدت فرائص الشعوب فان المتحالفين خرجوا من انحائهم وجزرهم وانتشروا بغتةً في اعمال عديدة فلم يناصبهم شعب فنهبوا واذلوا شعوب الحثيين وسكان كاتي (عمل في كيليكيا) وكركميش وارواد» فاضطر الحثيون ان يصحبوا المتغلبين عليهم لقتال المصريين ولما انكسر هولاء العداة انكسر ملك الحثيين معهم . وقد نقشت جريدة اسماء الملوك الذين اذلهم رعمسيس الثالث على جدر مدينة ابو فكان بينهم «ملك الحثيين المنكود الحظ الذي أسر حيًا في الحرب» فهذا آخر ما ذكرته اثار مصر في الحثيين ونراها بكمت عن ذكر قادس وذلك اما لانها هُدمت واما لانها هُجرت واصبحت كركميش مركزًا لدولة الحثيين التي تقلصت شيئًا فشيئًا نحو الشمال وقامت مكانها دولة الاراميين التي سترى اخبارها

حاتي

الفصل الرابع

(في تاريخ الحثيين مأخوذاً عن اثار الاشوريين)

عد ٧٠

في الحثيين وتجلت فلاصر الاول

ان تجلت فلاصر الاول هو اول ملك من ملوك نينوى انبأنا شيئاً من اخبار الحثيين فهذا الملك كان نحو سنة ١١٣٠ (او سنة ١١٢٠ على رواية لانرمان) قبل الميلاد في ايام قضاة اسرائيل ويتلخص من آثار تجلت فلاصر انه كان للحثيين حينئذٍ صولة كبرى في شمالي سورية خاصة حتى كانت البلاد تسمى باسمهم اي بلاد الحثيين وكانت ولايتهم تمتد من لبنان الى الفرات وكانت بلاد الاراميين خاضعة لسلطتهم وتنبسط ولايتهم شمالاً الى مدخل البحر الاسود فتؤديهم الجزية قبائل الكبادوك (في اسيا الصغرى) وكانت عاصمة الحثيين كركميش (سيأتي تعريف موقعها) وهوذا ملخص ما كتبه تجلت فلاصر في احدى صفائحه « انا تجلت فلاصر المحارب الشريف ذللت بلاد سوبير الفسيحة ... قد استحوذ اربعة الاف رجل من فصائل الحثيين العصاة على مدن سوبرتا المتعبدة لاشور سيدي فروعتهم مخافة سلاحي فاذعنوا دون حرب وذلت رقابهم لنيري فغنمت اموالهم واخذت مئة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي... وبعد السجود لاشور الهي جمعت مركباتي وجيشت جنودي المظفرة ومشيت على بلاد ارام التي لم يجلّ اهلوها اشور ربي وسرت حتى مدينة كركميش في بلاد الحثيين (سورية) فعبرت الفرات وصنعت ملحمة كبرى وغنمت من عبيدهم واموالهم ما لا يدركه عدّ وبعد ان عبرت الفرات افتتحت

شيئاً من مدنهم ونهبها واحرقها ودمرتها ، ويظهر من كلامه انه لم يفتتح كركميش وقال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٣) ٠ لم يجسر تجلت فلاصر ان يحاصر كركميش لتيقنه بان هذا المحصن المنيع لا تقوى عليه جنوده ولو كثر عديدها وعظمت بسالتها . فاجتزأ ان يضرب الجيوش التي كانت تنتظره في معبر الفرات ويفتتح المدن الست المشار اليها وتابع تجلت فلاصر غزوته في بلاد الحثيين حتى بلغ جبل امانوس (اللكام) فنكل باهله ونهب اموالهم فدانوا للغازي صاغرين فحسب نفسه كريماً اذ عفا عن حياتهم وابتزَّ اموالهم لكنه لم يبلغ نينوى الا واحتشد عشرون الف مقاتل من اهل هذا الجبل الحثيين مؤثرين الموت على ذل اوطانهم ولكن لم تغنِ ثورة هولاء شيئاً لانهم كانوا افراداً غير مدربين في الحرب فان جيوش تجلت فلاصر عادت على اعقابها اليهم فبسلتهم وشتت شملهم ودمرت هانوسا مدينتهم ودكّت كل بناء فيها الا بيتاً صغيراً تركته ذكراً واقام تجلت فلاصر منصباً هناك كتب عليه خبر حملته وانتصاره ودكّه المدينة وان لا يجترئ احدٌ على تجديد بنائها

عد ٧١

كركميش مدينة الحثيين

كانت كركميش في محاربة الاشوريين للحثيين ما كانت قادس في محاربة المصريين لهم فكانت قادس حصناً منيعاً يخفر طريق اسيا في وادي العاصي وكانت كركميش مثلها على الفرات وتفضلها بانها كانت محطة تجارة ايضاً بين مغرب اسيا ومشرقها وقد ورد ذكر كركميش في نبوة اشعيا (فصل ١٠ عد ٩) وفي نبوة ارميا (فصل ٤٦ عد ٢) وفي سفر اخبار الايام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠) حيث قيل ، صعد نكو ملك مصر لقتال كركميش عند الفرات فخرج عليه يوشيا ، وفي السريانية لقتال مبوغ وفي العربية لقتال منبج عند الفرات وكان موقع

كركميش نكرة لم تعرف الا في سنة ١٨٧٥ فكان بعض اهل العلم يقول انه بين نهري الخابور والفرات وجعله راولينسون من علماء الانكليز ومسبرو من علماء افرنسة في محل منبج في قرب حلب سندًا الى رواية الترجمتين السريانية والعربية الآنفة الذكر الى ان اكتشف سِكّان قنصل انكلترا في حلب موقعها الحقيقي سنة ١٨٧٤ و ١٨٧٥ وصدقه في ذلك العلامة جرج سميت الشهير بعلم الامور الاشورية فقد اتفق ان مرّ هذا العلامة بحلب ماضيًا الى نينوى فاخبره سِكّان انه وجد على ضفة الفرات الغربية خرابات مدينة كبيرة واسوار منيعة مؤذنة بانه كان هناك مدينة قديمة وان العرب تسمي هذا المحل جرابولس ويسميه الاتراك جرابيس وانه يرى ان ليس هذا الاسم الا مكسر هيرابولس اي المدينة المقدسة التي ذكرها علماء اليونان وان كثيرًا من الجوالين ذكروا هذه الخرابات البعيدة مسافة ست ساعات عن بيرهجك وانه يرى ان هناك كركميش الشهيرة فشخص سميت الى جرابولس وتفحص خراباتها ونسخ كل ما وجد من الكتابات واستوضح النقوش وسائر الآثار التي عثر عليها فتابع سِكّان في رأيه وكتب الى انكلترا ان قد اكتشف كركميش عاصمة الحثيين ثم توفي سميت بعد اسبوعين على مقربة من تلك الخرابات ضحية في سبيل العلم واخذ بعده بعض علماء الانكليز ينقبون في هذا الامر ويحفرون في تلك الخرائب فادّى جهدهم الى ما رآه سِكّان وسميت . وايده انه تبين من آثار اشور نسيربال ملك اشور الذي كان سنة ٨٨٥ ق م وآثار ابنه سلمناصر الذي ملك سنة ٨٦٠ او سنة ٨٥٨ ق م ان كركميش موقعها على الفرات في الشمال من نهر الساغور المعروف الان بالساجور وفي الشرق من حلمان او حلفان وهي حلب ومن خرزاز المعروفة الان باعزاز في قضاء كلس وفي الجنوب من بلاد كمكوما المعروفة الان بلقيس وكل هذه القرائن تدل دلالة صريحة على ان هيرابولس هي كركميش فهي نحو

الشرق من حلب واعزاز وعلى ضفة الفرات الغربية وعلى بعد ثلث ساعات تحت الساجور وست ساعات من بيرهجك . ثم وجدت في هيرابولس قطعة من اجرّ من اثار سرغون ملك اشور الذي كان سنة ٧٢١ ق م يتبين منها ان هذا الملك بنى هناك قصرًا وتبين من اثار اخرى له انه افتتح كركميش واضافها الى مملكته وبنى فيها صرحاً لسكنى الحاكم الاشوري الذي اقامه هناك. وايضاً وجد في هيكل بلاوات في شمالي نمرود باب كبير من نحاس اصفر نقشت عليه صور حروب سلمناصر الثالث والمدن التي افتتحها ومنها كركميش واذا عورضت خرائب هيرابولس وهيئة موقعها بصورتها على ذلك الباب قضى بلا مشاحنة ان جرابولس او هيرابولس هي كركميش وهذا الباب محفوظ الان في المتحف البريطاني . وروى سانس (في كتابه في الحثيين) ان اسم هيرابولس نقل وقتاً ما الى مبوغ او منبج ونقل اليها ايضاً هيكل عستروت الالهة (من هذا اسم هيرابولس اي المدينة المقدسة) وبعد خراب منبج رد اسم هيرابولس لكركميش وهذا وجه التوفيق بين تسمية المدينتين باسم هيرابولس

وقد كان افتتاح كركميش مخفرة الفرات مقدمة لا بد منها لكل غزوة في سورية من جهة المشرق كما كان افتتاح فلسطين ضربة لازب لكلٍ من الفراعنة عند حملاتهم على سائر ارجاء سورية والجزيرة . ومنذ زمان احاب ملك اسرائيل لم تكن مملكة السامرة لتأمن سطو الاشوريين الا اذا كانت كركميش مستقلة عنهم غير خاضعة لهم ولما دمر سرغون ملك اشور مملكة السامرة وقرضها قرض هو نفسه دولة الحثيين في كركميش واخضع بلادها لنير سلطانه

عد ٧٢

في الحثيين واشور نسيربال

ملك اشور نسيربال من سنة ٨٨٣ الى سنة ٨٥٨ ق م وقد اكتشف لايرد

تمثاله في اسوار حصن نمرود وهو الان في المتحف البريطاني وتجد مكتوبا على صدره . اشور نسيربال الملك العظيم الملك القدير ملك البلاد من ضفة دجلة الى بلاد لبنانا (لبنان) اخضع لسطوته البحار الكبيرة وكل البلاد من مشرق الشمس الى مغربها . وقد نقش تاريخ غزوته لسورية على صفيحة من صخر فهاك ماآله . في اليوم الثامن من شهر ايرو (نيسان) غادرت كالح وعبرت دجلة قاصدًا مدينة كركميش في بلاد الحثيين (سورية) واجتزت نهر بورات (الفرات) على قطع من اديم واقتربت من كركميش وفرضت على سنغار ملك بلاد الحثيين عشرين وزنة من الفضة وحلى عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتين وخمسين وزنة من الحديد والقصدير والات من حديد ونحاس (ذكر اسماءها ولا تعرف مسمياتها) وغنائم بلاطه واثاثه شيئًا كثيرًا لا مثيل لظرافته واثاثًا من ابنوس واعراشًا من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وانسجة من صوف وبرفير ومركبات مرصعة بالعاج وتماثيل من ذهب والمركبات والادوات الحربية التي كانت لقائد جيش كركميش حفظتها في مخازني . فمن هذه الغنائم الثمينة العديدة الاصناف تتبين عظمة غنى سنغار ملك الحثيين واتساع نطاق التجارة في بلاده وتسميته ملك الحثيين لا ملك كركميش دليل على انبساط ملكه في سورية كلها ولا اقل من اشتماله على القسم الاكبر منها ولذا لا عجب من كون انخذاله افضى الى استسلام الاقيال الخاضعين له الى الغازي في كركميش فان اشور نسيربال كتب ايضًا . ان ملوك هذه الاعمال ذأّت اعناقهم لنير سطوتي بعد ان تهيأوا لمناوأتي فقبلت رهائنهم ودانوا لسلطتي وتركت كركميش وصرت قاصدًا بلاد لبنانا . (لبنان) على ان اميرًا حثيًا كان يلي السهول المجاورة نهر عبرا (هو المعروف الان بنهر عفرين) وبعض المدن الشهيرة منها هزاز (المعروفة الان باعزاز) نوى ان يعترض مرور الغازي لكنه

عند دنوه من املاكه ذلّ له وقدم له اثمن ما كان يملكه . ودوّخ هذا الملك بلاد امانوس (جبل اللكام) وجد المسير نحو العاصي فعبره وسار بجيشه على جانبه اياماً كانت له فيها حروب ليست بذات بال الى ان بلغ لبنان وملك سفحيه من جهة البحر وجهة سهل بعلبك والبقاع العزيز وقدم محرقة للالهة على صخر تتلاطم عليه امواج البحر شكراً لهم على احسانهم اليه وقد عدَّد ملوك شاطئ البحر الذين اخذ الجزية منهم فكان منهم ملوك صور وصيدا وجبيل وارواد التي في وسط البحر وكانت جزيتهم فضة وذهباً ونحاساً وحديداً وادوات من حديد ونسائج من صوف وكتان واخشاباً من الصندل والابنوس وجلود حيوانات بحرية . ولم يأتِ بذكر قادس مع انه سار في وادي العاصي كافة لانها كانت قد خربت او تقهقرت كثيراً وقال انه ركب السفن التي اخذها من ارواد متنزهاً في البحر فقتل دلفيناً وانه أكبَّ على الصيد في لبنان فاصطاد خنازير برية وبقراً وحشية وانه اخذ بعضها حياً وارسله الى اشور وانه قتل نموراً وضباعاً وثعالب واصطاد ايالاً وغزلاناً ونسوراً الى غير ذلك من الوحش والطير

عد ٧٣

في الحثيين وسلمناصر الثالث

خلف اشور نسيربال ابنه سلمناصر الثالث فاستوى على سرير الملك سنة ٨٥٨ ودام فيه الى سنة ٨٢٣ ق م وكانت له حروب عديدة مع الحثيين الذين كانوا منقسمين على ممالك عديدة تضمها عهدة واحدة وكانت لهم مراكز مهمة وحصون منيعة منها كركميش وحلب وحماه الا ان عرى الوفاق لم تكن بينهم متوثقة بل كان يغاير بعضهم بعضاً ولذا نراهم احسنوا الدفاع ولم يتيسر لهم الانتصار على عدو شديد البأس ودولة جبارية كالاشوريين وقد جدد سلمناصر حملات ابيه عليهم بل قضى اكثر مدة ملكه يحارب الحثيين ومن جاورهم

ويظهر ان سنغار كان استمر ملكاً عليهم وعصا سلمناصر فجهز عليه الحملة الثالثة من حملاته فانتصر عليه سنة ٨٥٤ فانه كتب على صفيحة في كورخ ما ملخصه • ان سنغار ملك كركميش وغيره من الملوك وثقوا بقوتهم وهبوا لمحاربتي فتوكلت على قدرة نركال السامية وعلى الجيوش المظفرة التي حشدها لي اشور سيدي فحاربتهم وشتتُ شملهم وبسلت جنودهم بالنبال كالاله بالي (اله العواصف والصواعق) وامطرت عليهم طوفان نبال وافعمت البرية من قتلاهم وذريّت جثثهم كالتبن في الصحراء واخذت كثيراً من مركباتهم وخيولهم المروضة لجر المركبات واقمت راية من رؤوس قتلاهم على مدخل المدينة ودمرت مدنهم ودفعتها للهيب • (فيكورو في مسائل منثورة صفحة ٣٩٦) وروى لانرمان (مجلد ٤ من تاريخه الشرقي صفحة ١٩٢) ان سلمناصر بلغ بغزوته هذه الى جبل امانوس (اللكام) واقام هناك نصباً ذكراً لانتصاره وسار حتى وادي العاصي فضرب جيش المتحالفين الذين تجمعوا هناك فلعبت بهم ايدي سبا وتجندل منهم في ساحة الحرب الفان وستمائة قتيل وقبض سلمناصر على اربعة الاف وستمائة اسير استاقهم الى نينوى

ولكن لم يزايل ملك اشور بلاد الحثيين ليضع غنائمه واسراه في مأمن الا وجيش لروساء الحثيين عسكراً اخر وتعقبوا اثار الغازي مستردين المواضع التي كان يغادرها حتى بلغوا الفرات فعاد سلمناصر على اثره منكلاً بالملوك الذين جسروا على معاودة العصاوة وكان سنغار ملك الحثيين قد حصن مدينة من املاكه تسمى سازابي لم نعلم حتى الان موقعها في بلاده فحاصرها سلمناصر وافتتحها عنوةً فانه كتب على مسلته • دنوت من مدينة سازابي احد حصون سنغار ملك كركميش فحصرتها وافتتحتها وقتلت كثيراً من الرجال وغنمت غنيمة ثمينة وخرّبت مدن ولايته واحرقتها وافترضت جزيةً على سنغار ثلث وزنة ذهب ووزنة من فضة وثلاثين

وزنة من النحاس ومئة من الحديد وعشرين وزنة من النسيج الابيض والبرفير وخمسة اعراش وابنته مع حلاها ومئة بنت من الاشراف وخمسمائة ثور وخمسة الاف خروف . ثم يقول انه تقدم الى سفح جبل امانوس (اللكام) وفرض على كايانا ملكه وزنة من فضة ووزنة من نحاس ووزنة من حديد وثلاثمائة ثوب من صوف وكتان وثلاثمائة ثور وثلاثة الاف خروف ومئتي جائز (يراد به ما تسميه العامة عندنا المدّ والرومية فالجائز الخشبة المعترضة بين الحائطين والتي توضع عليها اطراف الخشب) من الارز وبناته مع حلاهنَّ . وجاء في الخطوط المنقوشة على الثيران التي اقامها في قصره في نينوى انه افتتح في احدى حملاته سنة ٨٤٦ ق م سبعًا وثمانين مدينة من بلاد سنغار ملك الحثيين

وبعد ان تشاغل سلمناصر مدة في الحرب في بلاد ارمينيا سوَّلت له نفسه المغرمة بالفتح ان يُخضع لملكه سورية الوسطى ايضاً فعبر الفرات مرة اخرى واستوفى الجزية من ملك كركميش وباقي الولاة الخاضعين له في سورية الشمالية وسار الى وادي العاصي فتألَّب عليه ايركولينا ملك حماه وابن هدر الاول ملك دمشق وعصابة كبيرة من فصائل الحثيين فكان المتحالفون على سلمناصر اثني عشر ملكاً من جملتهم احاب ملك اسرائيل فاستعرت نار الحرب في كركر (لم يتعين حتى الان موقعها) وكان النصر لسلمناصر وقد كتب في اثاره انه قتل من الاعداء حينئذٍ اربعة عشر الف قتيل ومع هذا جمع ابن هدر بقايا عساكره واضرم نار الحرب ثانيةً فلم يصادف نجاحاً ايضاً بل ترك في ساحة القتال عشرين الف قتيل وخمسمائة قتيل وانهزم نحو البحر فاخذ سفناً فنزلها مع بعض قادته فاتبعه سلمناصر وقد تفاخر بانه لحقه مع جنوده في وسط ثيَّار البحر لكنه لم يدركه وسنجيء على ذكر بعض غزواته عند الكلام في تاريخ فينيقي والعبرانيين فان سلمناصر هذا هو الذي كسر احاب ملك اسرائيل واكره ياهو ملك السامرة

على اداء الجزية . ومن بعد موته استراحت كركميش والحثيون مدةً لشغبٍ وقع في بلاد اشور عقبه وهن ملوكها فاغتنم جيرانها هذه الفرصة فخلعوا نيرها

﴿ عد ٧٤ ﴾

في الحثيين وخلفاء سلمناصر حتى تجلت فلاصر الثاني

لم نرَ الى الان اثرًا لخلفاء سلمناصر واسلاف تجلت فلاصر الثاني ينبئنا بشيء من اخبار الحثيين الا ما رواه لانرمان (مجلد ٤ صفحة ٢١١ من تاريخه الشرقي) من ان رمان نيرار الثالث حفيد سلمناصر حمل بسلاحه على بلاد الحثيين ثم فينيقي حتى صيدا وصور وبلاد عمرى اي مملكة اسرائيل وبلاد ادوم وبلاد فلسطين وانه دخل دمشق واسر ملكها المسمى مَرياه او مرياح فقد كتب في اثره « قد راعه خوف سيدي اشور فوقع على ركبتيَّ صاغرًا خاضعًا ففرضت عليه جزية الفين وثلاثمائة وزنة من الفضة وعشرين وزنة من ذهب وثلاثمائة وزنة من نحاس وخمسة الاف وزنة من حديد ونسائج صوف وكتان واخذت سريرًا من عاج وعرشًا من عاج واثاثه وخزينته وكل ما كان في دمشق قاعدة ملكه وفي قصره » على ان خضوع هذه البلاد كلها للاشوريين لم يكن الا موقوتاً فاذا عاد الغازي الى عاصمة ملكه عاد الحثيون وغيرهم الى استقلالهم واستفحل امرهم في بلادهم لا سيما في هذه الحقبة التي استحوذ الوهن فيها على ملوك اشور فاستمر الحثيون ينعمون بالاً باستقلالهم الى ان رقى منصة الملك تجلت فلاصر الثاني في ١٣ ايار (نيسان في عرفهم) سنة ٧٤٥ ق م وبعد ان ذلل صعاب الامور في بلاد الكلدان وغيرها غزا سورية سنة ٧٤٣ ويتلخص من فقرة وجدت من اثاره انه عبر في سورية ظافرًا فاكره ملك الحثيين الذي كان يسمى حينئذٍ بيزيريس على الخضوع له واقام بعسكره على جبل يقرب من مدينة ارباد المعروفة الان بتل ارفاد على بعد نحو ساعتين نحو الغرب الشمالي من حلب وكان سكانها

حينئذٍ حثيين ومن هناك ارسل يستدعي جميع ملوك سورية ليأتوه بالتقادم دلالة على انقيادهم اليه وان ابوا عُدَّ اباؤهم مصارحة بالمداوة فوافوه وقطار مركباتهم وخيولهم وجمالهم تقلّ هداياهم وتقادمهم فانصرف مظهرًا الرضى عنهم حينئذٍ على ان تلك التقادم الثمينة هيجت مطامعه وحملته ان يعاود غزواته في السنة التالية فلم يكن هولاء الملوك هذه المدة اوغادًا بل اخذتهم الحمية وضمّتهم العصبية فقاوموا الغازي شديد المقاومة . فارباد وحدها تحملت الحصار سنتين لكن افتتاحها يسَّر للغازي ان يقهر مدن سورية باسرها ففتحت حماه ابوابها للظافر فجلا من اهلها جمًا غفيرًا ومن سائر مدن سورية الوفًا مؤلفة الى بلاده واداه الجزية ملوك سورية وقد عدَّد هولاء الملوك متفاخرًا في احد اثاره فكان منهم بيزيريس ملك كركميش وانيال ملك حماه وراسن ملك دمشق ومخيم ملك السامرة وحيرام ملك صور وسيبيتي بعل ملك جبيل على ان تجلت فلاصر ترك الملوك الحثيين وغيرهم من ملوك سورية على منصات ملكهم وعاد الى اشور واما هم فبدلاً من ان يعنوا بلم شعث شعوبهم واصلاح احوال بلادهم وتجديد قواهم بالاتحاد انقلبوا الى المغائرة والانقسام ومعاداة بعضهم بعضًا فعاد تجلت فلاصر يغشي بلادهم بجحفل جرار سنة ٧٣٤ ق م فاستحوذ على مدنهم ونكل في اهلها وجلا كثيرين منهم وبسط غزوته وسطوته الى اطراف فلسطين الجنوبية ولما همَّ بالعود الى بلاده استدعى هولاء الملوك لمقابلته فكانوا خمسة وعشرين ملكًا منهم بيزيريس ملك كركميش وغيره من ملوك الحثيين وسنأتي على ذكر هذه الحروب في تاريخ العبرانيين باكثر تفصيل ومات تجلت فلاصر سنة ٧٢٦ ق م وخلفه سلمناصر الخامس وعاد الشغب والقلق في بلاد اشور فانتهز بيزيريس ملك كركميش الفرصة فثار بغية ان يتملص من ولاية اشور ويعود الى استقلاله الذي انتزعه منه سرغون خلف سلمناصر الخامس كما سيجيء (ملخص عن المجلد

الرابع من تاريخ لانرمان)

﴿ عد ٧٥ ﴾

﴿ في الحثيين وسرغون ملك اشور ﴾

لم يوجد حتى الان أثر مسماري ينبئ بما كان من اعمال سلمناصر الخامس فكأنه لانه لم يملك الا خمس سنين من سنة ٧٢٦ الى سنة ٧٢١ لكن يوسيفوس (في ك ٩ ف ٤ من تاريخ اليهود) حفظ لنا فقرات من تاريخ ميناندر يتكلم فيها على اعمال هذا الملك لا سيما حصاره صور والكتاب المقدس اشبع الكلام في محاربته مملكة اسرائيل وحصاره السامرة وسنأتي على ذلك في كلامنا على الفينيقيين والعبرانيين واما الحثيون فلا نعلم من احداثهم في ايامه الا محاولتهم التملص من استيلائه على ان خطوط سرقين او سرغون الذي تخلف له بعد موته حتف انفه او قتله افاضت بذكر الحثيين فنلخص منها ما يأتي

ان بيزيريس ملك الحثيين كان ولي امرهم في كركميش نيفاً وثلاثين سنة وكان يقاتل الاشوريين كلما تيسر له قتالهم فاذا انتصروا عليه اداهم جزية وان ثقيلة واستمر في منصة ملكه وافتتح سرغون السامرة وصور ودمشق واغضى على بيزيريس لقربه من بلاده ورآه بيزيريس متشاغلاً في الحرب في ارمينيا وبلاد مادي فحسب الفرصة تلائمه للتشبث بملكه وتقويته تجاه الاشوريين ولم يكن له ان يتطلب حلفاء في دمشق والسامرة تعرض سرغون ملكهما فعن له ان يحالف ملوك الشمال لاسيما ميتا ملك الموشكيين (وهم من ذرية ماشك ابن يافث ومقامهم في بلاد الجركس) وامريس ملك توبال (وهو ابن يافث ايضاً ومقام قبيلته في جانب بني ماشك المذكورين ارجع الى عد ٤١) واودسا ملك ارمينيا فعقد عهدة معهم ودرى بذلك سرغون فدهمه على حين غفلة وهاك ما كتبه سرغون (نقلاً عن مينان في تاريخ ملوك اشور صفحة ١٦٢)

(١) « وفي حملتي الخامسة (سنة ٧١٧ وسنة ٧١٦ ق م) كان بيزيريس ملك كركميش عصى كبار الالهة واوفد سعاة الى ميتا ملك بلاد موشكي (ماشك) لاشهار العداوة للاشوريين وعقد على ذلك عهودًا ومواثيق فرفعت يدي الى اشور سيدي خاشعًا فقيض لي ان اخرجته من مدينته واخذت خزائنه وكبلته بقيود الحديد وغنمت ما كان من الفضة والذهب في قصره وجلوته مع سكان كركميش الى بلاد اشور لانهم شاركوه في ثورته واخذت اموالهم وغنمت منهم خمسين مركبة واسرت مئتي فارس وثلاثة آلاف راجل ووسعت املاكي واسكنت قومًا من بلاد اشور في مدينة كركميش بعد ان نقلت اهليها الى بلاد اشور » واقام سرغون حاكمًا اشوريًا في كركميش فانه استطرق سياسة حديثة وهي ان لا يجتزئ بضرب جزية على من يقهره من الملوك بل ان يعزل هولاء الملوك عن منصات ملكهم ويرفع اليها حكامًا اشوريين ويجعل بلادهم اقليمًا من مملكته

وعليه فقد لحق الحثيون سكان كركميش ببني اسرائيل المسبيين الى اشور وبابل وكانت هذه الضربة قاضية وانقرضت بها مملكة الحثيين وكان بيزيريس آخر ملوكهم . وامست كركميش ولاية اشورية يليها حاكم من نينوى وتبدلت بسقوطها حالة المشرق كله وكان اشعيا النبي يهتف في احدى نبواته على اشور « اليست كلنة (مدينة في الجزيرة يظن انه كان موقعها حيث بنيت قطيسفون بعدًا) مثل كركميش وحماه مثل ارفد (تل ارفاد في انحاء حلب كما مر) والسامرة مثل دمشق » (فصل ١ عد ٩) على ان استحواذ الاشوريين على كركميش اضرَّ بالحثيين لكنه جدًا بكبير النفع على المدينة فان انبساط سلطة الاشوريين في سورية زاد في حركة تجارتها فاصبحت مركز تجارة متوسطة بين مغرب اسيا

(1) Menent Annales des rois d'Assyrie

ومشرقها يتقاطر التجار اليها من كل افق وانبأتنا الاثار المسمارية ان «منه كركميش»
اي وزنها كانت معيارًا لموازين اسيا كلها وما برح موقعها مفتاحًا لكل ما وراء
الفرات غربًا فجعلها ذلك مطمحًا لعيون الملوك اليها. فقد جاء في سفر اخبار الايام
الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠) «ان نكو ملك مصر صعد لقتال كركميش عند الفرات»
كما مر. وجاء في نبوة ارميا (فصل ٤٦ عد ١) «كلمة الرب التي كانت الى
ارميا النبي على الامم على مصر على جيش فرعون نكو ملك مصر الذي كان
عند الفرات في كركميش الذي ضربه نبوكدنصر ملك بابل» ولم تتقهقر الا
عند سقوط نينوى في القرن السابع قبل الميلاد على انه بقي لها شيء من الاهمية
في مدة ولاية اليونان وسموها هيرابولس اي المدينة المقدسة كما رأيت

الفصل الخامس

(في تاريخ الحثيين مأخوذًا عن اثارهم)

(عد ٧٦)

في آثار الحثيين وخطوطهم وتعسر فهم رموزها الى اليوم

ان كل ما رويناه حتى الان من تاريخ الحثيين اخذناه عن اثار غيرهم اعني الاثار المصرية والاشورية وتبين منها انه كان للحثيين دولة كبرى حاربت مصر واشور حروبًا عُونًا واكرهت مصر على عقد عهدة صلح مشرف لها ولم يقوَ الاشوريون عليها الا بعد قرونٍ من السنين. على ان اخبار هذه الاحداث كتبها اعداء يهوون طبعًا تخليد حسن الذكرى لهم ويأنفون من تخليد ذكرى

انخذالهم ورواها كتبة ملأقون لملوكهم فلا اقل من ان سكتوا فيها عن كل ما يشعر بحطة شأنهم ورفعة شأن اعدائهم فلا تحسب اخبارهم على صدقها منزهة عن المبالغة والتعظيم ولا يأتينا بصحيح اخبار الحثيين الا اثارهم ولا يحق لنا ان نأتي بالحكم الفاصل الا بعد التروي ببينات الفريقين . وقد أهتدي في هذه الايام الى اثار عديدة للحثيين كان بعضها يظن مصريًا فتحقق الان انه حثي فدلتنا هذه الاثار على انبساط دولتهم وشدة صولتهم وكثرة مستعمراتهم وتوغُّل منازيحهم في اقصى البلاد وما برحنا نحتاج الى الكشف عن رموز خطوطهم وفتح الله علينا باب كنوزها فلم يهتدِ العلماء بعد الى مفتاح لها ونعلل النفس بأمل الفوز بذلك عن امدٍ قريب فنغنم منها ما غنمناه من الكنوز الهيروكليفية والمسمارية

قال العالم سانس عن نفسه (في كتابه في الحثيين) انه عثر على مثال قطعة مستديرة من فضة وجدت في ازمير نقشت عليها صورة بطل وبيمناه رمح وشماله على صدره ولباسه قميص تعلوه منطقة مطرزة وعلى رأسه قبعة منطبقة على اعلاه وفي رجليه حذاء يشمل الساق (جزمة) معكف الطرف وفي نطاقه خنجر وعلى دائرة القطعة احرف مسمارية سهلت عليه قرأتها وحول الصورة خطوط حثية يسر له ان يقرأ فيها « تركوديمة ملك بلاد إرمه » وقد كان ملك في كيليكيا لهذا الاسم وتكثر التسمية به في سكان اسيا الصغرى واما بلاده فيترجح انها اريما في بلغارداغ في اسيا الصغرى فاذا وجدت اثار اخرى حثية وقد كتب عليها بلغة اخرى مع لغتهم تيسرت قرأة لغتهم وتُوسل بها لادراك معانيها كما حصل في حل رموز الخطوط الهيروكليفية والمسمارية

ان الخطوط الحثية تختلف عن الخطوط الهيروكليفية المصرية وقد رأى سانس (في كتابه المذكور) والاب فيكورو (في كتابه المسائل المنثورة صفحة

٤١٦) ان الحثيين اوجدوها ولم يأخذوها عن غيرهم وتختلف عن الخطوط المصرية وان قُدّر ان مشاهدتهم للخطوط الهيروكليفية نبهت افكارهم لاختراع خطوطهم ويحمل على القول بذلك ان في اقدم الكتابات علامات تمثل بعض المتاع المختص بالحثيين دون غيرهم كالحذاء المتمكف الطرف والاكليل الحائطي واذا تتبعنا هذه الخطوط وجدنا هيئتها تحسن بمرور الزمان فالخطوط المنقوشة على الآثار في اسيا الصغرى اشبه بخطوط كركميش لكن الخطوط التي تُرى على الآثار في حماه ابسط واقل تلبكًا فهي احدث لان استيلاء الحثيين على حماه كان متاخرًا . وقدَّر سانس انه لا يبعد ان تكون الابجدية التي بقي استعمالها في جزيرة قبرس الى عهد اسكندر الكبير هي الحروف الحثية لعدم مطابقتها للحروف اليونانية الفينيقية الاصل ولاحتمال ان تكون فرعًا عن الحروف المستعملة في انحاء اسيا الصغرى القريبة من قبرس والتي سنبين ان السواد الاعظم من سكانها القدماء كان من الحثيين ويؤيده ان الآنية التي وجدت في ترويا كتب عليها بتلك الاحرف القبرسية فيظهر من ذلك ان هذه الحروف القبرسية كانت تستعمل في اسيا الصغرى قبل ان تخلفها الحروف الفينيقية . وكان من عادة الحثيين ان يرسموا خطوطهم ناتئة لا محفورة فتطرق من الوراء على صفائح معدنية لتنتأ الحروف في جهتها الاخرى فكذا كانت عهدتهم مع مصر مكتوبة على صفيحة من فضة وتقرأ هذه الحروف تارةً من اليمين الى الشمال وتارةً بالعكس فان كانت رؤوس الحيوانات المصورة بها متجهة الى اليمين فتقرأ منها وان الى الشمال فمنها ايضًا وتقرأ احيانًا من اعلى الى اسفل ومن اسفل الى اعلى

في لغة الحثيين وصناعتهم

واما اللغة المكتوبة فيها هذه الخطوط فيرجح انها ليست من اللغات السامية

فالاعلام المذكورة في الاثار المصرية والاشورية قلَّ فيها ما يمكن رده الى اصل سامي على ان الحثيين الذين توطنوا جنوب فلسطين فلا جرم انهم تركوا لغة اصلهم الحثي وتكلموا بلغة مواطنيهم من الساميين هذا رأي سانس وقد رأيت مخالفة هالافي له ودعواه ان في لغتهم اسماء كثيرة سامية والاصوب ما رآه فيكورو اي انه لا يلزم التعجيل بالحكم على لغتهم قبل الوقوف الكافي عليها وحل رموزها اما الصنائع فقد اشتهروا منها بالنحت وتشهد لهم بذلك اثارهم الباقية لا سيما اطلال بوغاز كوي وايوق في اسيا الصغرى . وقد اتقنوا هندسة التحصين كما يرى في محاصن بوغاز كوي وخنادقها والحصن المنيع الذي في وسطها وقد مهروا في استخراج المعادن كما يظهر من مناجم بلغارداغ في اسيا الصغرى وتنسب اليهم صناعة تحويل الحديد فولاذًا وقد وُجدت لهم اختام من حجار كريمة بديعة الصناعة تمتاز عن مصنوعات سائر الامم برسم ثلاث دوائر تتخللها رموز وصور مدهشة

قال الاب فيكورو (صفحة ٤٣٠ من كتابه المذكور) شرع عامة العلماء الان يقرّون ان قسمًا كبيرًا من الصناعة عند اليونان انتحلوه عن الاشوريين منتقلاً اليهم من اسيا الصغرى بواسطة الحثيين فان الصناعتين المصرية والاشورية اجتمعتا في كركميش مدينة الحثيين من اقدم الايام فقد رأينا الحثيين يحاربون المصريين والاشوريين من اقدم الاعصر ورأينا كيتاسار ملك قادس يزور صهره رعمسيس الثاني في مصر فالحروب والتجارة ادنت القبائل بعضها من بعض فاخذ كل فريق منها ما راق له من صناعة الاخر . ويظهر ان صناع الحثيين ألفوا من صناعة مصر ونينوى وبابل اسلوبًا خاصًا بهم واخترعوا اشياء منها النسر ذا الرأسين الذي صار بعد ذلك شعارًا للسلاطين السلجوقيين ولبعض ملوك اوربا وتطرقت صناعة الحثيين مرحلةً مرحلةً الى بلاد اليونان فاخذ هولاء

اشياء كثيرة عن الفينيقيين لكنهم لم يأخذوا عنهم كل شيء فين مصنوعاتهم اشياء كثيرة اشبه بصناعة الحثيين في اسيا الصغرى وليس فيها ما يدل على انها فينيقية هذا ما رواه الاب فيكورو

على ان الاب قيصر دي كارا برهن في الفصول التي ينشرها في المجلة العلمية المعروفة بالتمدن الكاثوليكي وخاصةً في عددها الصادر في ١٦ نيسان سنة ١٨٩٢ هذه ان صناعة الحثيين خاصة بهم لم يأخذوها عن غيرهم بل اخذ غيرهم عنهم وان دعوى اخذهم الصناعة عن المصريين او البابليين او الاشوريين لم تثبت حتى الان وان قال بها بعض المشاهير واطال البرهان على ذلك ومن اقوى حججه ان اثار الحثيين في بوغاز كوي وغيرها من اسيا الصغرى هي اقدم كثيرًا من اثار الملوك الاشوريين بل روى ان تجلت فلاصر الثاني نفسه تفاخر في ما كتبه على بعض اثاره بانه بنى في كالح مدينته صرحًا اشبه بقصور بلاد الحثيين وان سرغون تفاخر بانه شيد ايوانًا اشبه بقصرٍ حثي وقال دي كارا ايضًا ان الاثار الحثية في اسيا الصغرى هي اقدم ايضاً من حروب المصريين مع الحثيين فلم يأخذوا صناعة التحصين وغيرها عن المصريين بل ربما اكسبوهم امورًا مهمة في صناعتهم على عهد الملوك الرعاة الحثيين اصلاً على مذهب دي كارا وغيره كما سترى . وعلى كلا القولين فاليونان اخذوا اشياء كثيرة في صناعتهم عن الحثيين . وقال سانس (في كتابه في الحثيين فصل ٦) ان مصدر فلاح اليونان هو الحثيون الذين افتتحوا اسيا الصغرى من اقدم الاعصر

﴿ عد ٧٨ ﴾

في ديانة الحثيين

اما ديانة الحثيين فيظهر انهم اخذوها عن بابل وبثُّوها في سورية واسيا الصغرى وتطرَّقت من ثم الى بلاد اليونان فان معبودات قبائل البلاد المذكورة

واحدة وان اختلفت اسماً فمشتروت البابلية هي من معبودات الحثيين والكنعانيين ايضاً وابن عشتروت البابلية وعروسها هو تموز او ادونيس عند الفينيقيين ويسميه الاراميون في سورية هداد وهو في اسيا الصغرى انيس راعي النجوم الساطعة وهو بلا شك الاله الشاب المنقوشة صورته على صخر في يازيلي كايا عند بوغاز كوي وراء تمثال الالهة الام مستويًا نظيرها على ظهر فهد او اسد . وجميع هذه القبائل تبكيه كل سنة لانه قتل يافعاً ثم تحتفل بالمسرة لقيامته من الموت . وفي لبنان صورته قتيلاً في قرية الغينة في الفتوح على صخرة وصورة الزهرة معشوقته على صخرة اخرى تبكيه واجمةً وصورته قائماً من الموت على صخرة في محل قبالة الغينة يسمى المشنقة من عمل جبيل وقد وجد هندرسون قنصل انكلترا في حلب (الذي كلفته ادارة المتحف البريطاني ان ينقب في اطلال كركميش) صفيحة من صخر في حائط صرح اكتشف هناك مصوّرًا عليها صورة الزهرة السورية تسجد لها امرأة احد الكهنة والالهة عريانة مجنحة بجناحين وهذا اقدم مثال لصورة هذه الالهة التي عمّت عبادتها اسيا وبلاد اليونان . فانات او نانا البابلية وايستار الاشورية وعشتروت الكنعانية وفانوس الزهرة القبرسية ليست الا اسماء متعددة لِالهة واحدة هي المعبودة والمصورة في كركميش (فيكورو صفحة ٤٠٩ من كتابه المذكور) وعثر بعضهم على قطع نقود في ترسيس تمثل الهاً يسمى في لغتهم سنداس او سندن وهو الاله الشمس في كيليكيا على ما برهن ادوار ميار . وقد تبين من نص العهدة التي عقدت بين رعمسيس الثاني ملك مصر وكيتاسار ملك الحثيين ان اخص معبودات الحثيين كان ستخ او شتخ وعشتروت ويظهر ان الملوك الرعاة (الذين يرجح كونهم حثيين كما سترى) اوصلوا الى مصر عبادة ستخ وسموه سات وكان اعظم الالهة عندهم وكانوا يقيمون له المعابد في المدن فيقولون ستخ تاب وستخ ممف مثلاً والمعبود واحد

الى ان تغلبت على عبادته عبادة الالهة الام التي كانوا يسمونها عشتروت او اتاراتا وليست الا سميراميس الهة اسيا الشهيرة . وقد كان الهيكل الذي ترى اطلاله في منبج في انحاء حلب مفردًا لعبادة هذه الالهة الام العظيمة وقد بُني على مثال هيكلها في كركميش بعد انقاضه . وقد وصفه لوقيانوس على ما كان عليه في القرن الثاني بعد الميلاد فقال انه كان اشبه بهيكل سليمان فكان مؤلفًا من دار خارجة وهيكل داخلي يحوى قدس اقداس ويفصله عن باقي الهيكل حجاب كبير ثمين وعلى جانبيه عامودان مخروطيان (اي يبتديان من سطح ويرتفعان مستدقين حتى ينتهيا الى نقطة) رمز الى آلهة الخصب وفي الدار الخارجة مذبح كبير من النحاس وعلى شماله صورة آلهة هي سميراميس ومن ورائها حوض ماء فسيح فيه السمك المقدس وفي داخل الهيكل عرش للشمس وتماثيل آلهة شتى ومن جملتها تمثال آلهة أشبه بصورة الالهة التي في بوغاز كوي الاتي ذكرها منتصبة على أُسد والاله بعلها واقف على اظهر ثيران وهو ايضاً اشبه بما تمثله صورة الاله في المحل المذكور وتحت الهيكل الجب المار ذكره (في الكلام على الطوفان) الذي يزعمون انه ابتلع ماء الطوفان وتقليد الطوفان عند الحثيين مطابق لما في التوراة اخذه اجدادهم من بابل (ملخص عن الفصل السادس من كتاب سائس في الحثيين)

عد ٧٩

في ملابس الحثيين واسلحتهم

عدا الحذاء المتعكف الطرف الذي اصبح دليلاً على الحثيين لانه يشاهد في آثارهم كلها كان لهم نوع من القفاز (الكفوف) يدفىء الراحة ولا يشمل الاصابع ليطلق لها العمل ولهم نوعان من القبعة احداها تنطبق على الراس كالعراقية والثانية كبيرة بشكل تاج مستطيل اعلاه مخروطي على القالب

ويشاهد احيانًا مدورًا ومزدان بعصائب على شبه من القرون . ويرى على رأس احد تماثيل الالهة في بوغاز كوي تاج حائطي اي اشبه بحائط او سور . وتشاهد ملابس النساء طويلة تشمل الرجلين فصورة امرأة الكاهن الساجدة للزهرة في الصورة التي وجدت في كركميش (كما مر) متشحة بثوب طويل يستر جسمها الا الذراعين وبعض الصدر محتزمة بنطاق من حبل مشدود الى الوراء فهذا ولا ريب هو النطاق المقدس الذي اشار اليه ارميا (في رسالته التي رواها باروك في فصل ٦ من نبوته عد ٤٢) بقوله ، والنساء يقعدنَ على الطرق متحزمات بالحبال ، وترى مثل هذا المحزم في التماثيل الصغيرة التي وجدت في هيكل أنات في بابل وفي هيكل افروديت في قبرس . وكانت ملابس كهنتهم مستطيلة ايضًا متسعة الاكمام . واما ملبس رجالهم فقميص تتصل الى الركبة فقط مشدودة على الوسط بنطاق يعلق به خنجر وكانت هذه الملابس من الصوف والكتان مصبوغين بالوان واعتادوا تزيين اثوابهم بنقوش وطراز على اطرافها وسلاحهم الرمح والقوس يُشدّ على الظهر والفاس ذو الحدين وهو من مختصاتهم وقد صار في ما بعد رمزًا الى الاله زفس وهو المشتري ووجدت لهم آنية واسلحة من حجر كانوا يستعملونها في بدء نشأتهم وقد عثر بعضهم على فأسين حجريين في ارفاد (تل ارفاد في انحاء حلب) وافسس يختلف شكلهما عن غيرهما فكانهما كانا مختصين بخدمة الالهة (سائس في كتابه في الحثيين فصل ٨ ملخصًا) هذا ما ادتنا آثارهم الى معرفته ولننظر ما تؤدينا اليه من معرفة مستعمراتهم وانبساط ولاياتهم

الفصل السادس

(في اثار الحثيين الدالة على توطنهم اسيا الصغرى وولايتهم فيها)

عد ٨٠

تمثال نمفيو

ان اثار الحثيين التي كُشف عنها في محال عديدة من اسيا الصغرى دلتنا على ان مستعمراتهم لم تتبسط جنوبًا وغربًا فقط حتى دمشق ولبنان بل امتدت شمالاً ايضًا في اعمال اسيا الصغرى الى مدخل البحر الاسود وقد استفحل امرهم في هذه البلاد على هيئة معاهدة ضمت جميع ولاتهم . واثارهم المؤذنة بذلك كثيرة واول اثرٍ اكتُشف هو تمثال ملك حثي في قرية اسمها نمفيو على الطريق المؤدية من ازمير الى سرد (المعروفة الان بسرت وهي سرديس القديمة) في وادٍ يسمى الان قَرَبال . فقد مرَّ في ذلك الطريق جوَّالان انكليزيان سنة ١٨٣٩ فشاهدا صورةً على صخر وظهر لهما انها سابقة عهد اليونان وكان حينئذٍ في ازمير العالم تكسيا الافرنسي فذهب مع بعض الافرنسيين فاخذ رسم الصورة وارسله الى بعض اهل العلم في اوربا ولما كان هيرودت قد ذكر هذه الصورة (في كتابه ٢ صفحة ١٠٦) وقال انها صورة رعمسيس الثاني ملك مصر فاجمع رأي مجتمع العلماء (اكادمي) في بريس وبرلين على ان هذه الصورة ليست الا ما ذكره ابو التاريخ هيرودت لعدم العلم وقتئذٍ بتاريخ الحثيين الى ان اخذ بعض علماء الاثار الريب في صحة مقال هيرودت بناءً على ان الثوب المتقمص به التمثال قصير والحذاء الذي في رجله معطَّف الطرف الى غير ذلك من العلامات المخالفة لعوائد المصريين ومع هذا لبث اكثر العلماء يقولون بمقال مجتمعي

العلماء في بريس وبرلين مغترين بالاحرف الهيروكايفية المنقوشة في جانب التمثال الى ان وجد العالم روزليني فرقاً بين الخطوط المصرية والخطوط المنقوشة على التمثال لكنه قال ان الكاتب لا يعرف الكتابة المصرية واراد ان يقلدها ففاتته امور كثيرة وبقي امر هذه الصورة بين الشك واليقين الى ان كُشف عن الاثار الحثية فتحقق الان ان تلك الصورة لا تمثل رعمسيس الثاني بل ملكاً حثياً كان يلي تلك البلاد

وجاء في المجلة العلمية المعروفة بالتمدن الكاثوليكي في عددها المؤرخ في غرة تشرين الثاني سنة ١٨٩٠ انه عدا هذه الصورة قد كشف العالم هومان هناك سنة ١٨٧٦ عن صورة ملك آخر اصغر من الاولى لكنها تطابقها هيئة وقد انقطع الصخر المنقوشة عليه من الجبل ووجد سائس بعد ذلك في جانب هذه الصورة قطعاً كتبت عليها خطوط تطابق خطوط الحثيين التي وجدت في سورية وسمات هذه الصورة الثوب القصير والحذاء المتعطف الطرف والقوس والسيف والتصوير الناتىء لا المحفور فتعين انها حثية

عد ٨١

آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيلي كايا

ان المجلة العلمية التمدن الكاثوليكي المار ذكرها شرعت منذ اوائل سنة ١٨٩٠ تنشر فصولاً متتالية موضوعها الحثيون وارتحالاتهم ومؤلف تلك الفصول هو الاب قيصر دي كارا اليسوعي صاحب الكتاب في الملوك الرعاة في مصر وقد اطال واجاد بذكر كثير من اثار الحثيين في اعمال اسيا الصغرى متعمداً غرضين احدهما ان يثبت توطنهم وولايتهم في هذا الاقليم منذ اقدم الاعصر والثاني ان يعارض اثارهم هذه بامثالها في بلاد اليونان وبعض ايطاليا وجزر بحر الروم ليتنج من ذلك ان سكان هذه البلاد الاولين حثيون اصلاً ارتحلوا اليها

من اسيا الصغرى ففي هذه الفصول نلخص ما نرويه في هذه الاثار

فهذه المجلة ذكرت في عددها المؤرخ في ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٩١ اطلال بوغاز كوي من عمل الكبادوك حيث الان ولاية سيواس وقرمان فقالت ان هذه القرية الحقيرة الان دلتنا اثارها انها كانت مدينة كبيرة لا ينقص مدار اسوارها عن خمسة او ستة كيلومترات وقد بقيت منها اطلال حثية مدهشة اخذ رسومها العالم بِرُو واطال الكلام فيها في كتاب نشره سنة ١٨٦٢ موسوماً « بالكشف عن الاثار القديمة في غلاطية وبيثينيا » (١) ثم في كتاب اخر نشره سنة ١٨٨٧ سماه « تاريخ الصناعة في القدم » (٢) ومن هذه الاطلال ما حسبه بعضهم هيكلاً والاظهر انه قصر ملكي طوله ٥٧ متراً وعرضه ٤٢ متراً وبعض احجاره لا ينقص عن خمسة او ستة امتار طولاً ومترين عرضاً وهناك اطلال ردهة لا ينقص طولها عن خمسة وعشرين متراً وعرضها عن واحد وعشرين متراً وعرش قائم على اسدين من صخر وللردهة اربعة ابواب امام كل منها رواق فسيح وفي جانبيها مخادع للخفر وفي داخل القصر غرف لسكنى الملك وآله وحمامات وكل ذلك على غاية من الاتقان والزخرف. واسوار المدينة غاية في المناعة والمتانة وقد بني هناك على صخرين حصنان يسميهما السكان الان ساري قلعة (اي القلعة الصفراء) وينجي قلعة (اي القلعة الجديدة) وفي كلا المحصنين ابار للماء منقورة في الصخر وثخانة السور المتوسطة اربعة امتار ونصف واحجاره الخارجة ضخمة والداخلة اصغر منها والحشو بينهما حصى صغيرة . وعلى مدار الاسوار من الخارج خليج فسيح يمنع الدنو منها وتحتها سراديب وسيعة ذات مخارج خفية حتى اذا رأى الاعداء الابواب موصدة وهاجوا

(1) Perrot Exploration Archéologique de la Galatie et de Bithynie

(2) Histoire de l'Art dans l'Antiquité

المدينة خرج المحاصرون من ورائهم وجعلوهم في الوسط

ثم ذكرت المجلة المذكورة في عدديها المؤرخين في ٢١ شباط وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩١ اطلالاً اخرى في القرب من بوغاز كوي على بعد كيلومتر منها نحو الشرق في محل يسمونه هناك يازيلي كايا (اي الصخرة المكتوب عليها) فترى هناك عرصة تحيطها صخور من جهة وبناء من اخرى طولها نحو خمسة وعشرين متراً وعرضها نحو احد عشر متراً وعلى جدرانها سبعٌ وستون صورة ناتئة عجيبة الصناعة وفيها كل السِمات الدالَّة على كونها من صنع الحثيين ولا مراء بذلك لان على بعضها خطوطاً حثية. على ان غير الايام غيرت تلك الصور حتى تعسر الان التمييز بين ما كان منها رجلاً وما كان منها امرأة فرأى بِرُو ان اكثرها صور رجال ورمساي ان اكثرها صور اناث واتفقا في ان المشهد يمثل حفلة دينية واثبت رمساي انه كان للنساء في اسيا الصغرى المقام الاول في امر الدين كأنه بسبب عبادة الالِهة الام كما مر وقدَّر مكاتب المجلة ان نقش هذه الصور لم يكن قبل القرن الخامس عشر ولا بعد الرابع عشر قبل الميلاد وفصَّل هيئات اكثر تلك الصور ومن جملتها صورة الاله الام وهو عستروت ومن ورائها صورة ابنها او عروسها وهو انيس او تموز يستوي كل منهما على ظهر فهد او اسد واجمل هذه الزخارف صورةٌ على رأسها التاج المخروطيّ المطرز وفي رجلها الحذاء المتعكف الطرف ويدها اليمنى ممتدة الى صورة طفل او رجل ويسراها تحتضن صورة رجل آخر مارة على عنقه وقابضة على معصم يده ومن رأي مكاتب المجلة ان هذه التماثيل يشار بها الى تملك الحثين بلاد الكبادوك آتين من سورية الشمالية بعون الهتهم المنقوشة صورها في هذا المحل وعليه فالصورة المذكورة آنفاً تشير الى ستخ يحتضن ملك الحثين وخاصةً لانه كتب في صورة المعاهدة مع ملك مصر ما نصه . وما في وسط الصفيحة الفضية هو صورة ستخ

محتضناً ملك الحثيين ، فاي العجب ان تكون صورة الكبادوك كذلك

﴿ عد ٨٢ ﴾

في اثار اخرى للحثيين في اسيا الصغرى

روت المجلة العلمية التمدن الكاثوليكي في عددها المؤرخ في ٢٠ حزيران سنة ١٨٩١ انه يوجد في قرية حقيرة تسمى ايوك او ايوق تبعد مسافة خمس ساعات عن بوغاز كوي نحو الشمال الشرقي اطلال بناء قديم وجد فيها صور عديدة ناتئة تمثل آلهة وآلهات وكهنة ونساءهم ورجالاً ونساءً ومسوخاً واسوداً وثيراناً معدة للتضحية بها ونسراً ذا رأسين وغيرها ولا مرية انها حثية لمطابقتها باقي اثارهم من حيث الهيئة والملابس والصناعة والصور الرمزية ويظهر انها اقدم قليلاً من اثار بوغاز كوي ويازيلي كايا . ومن رأي بِرُو ان تلك رسوم قصر ملك او امير ومستنده ان النقوش في هذه الاطلال اشبه بالنقوش التي على ابواب قصور الملوك الاشوريين لكن بناء ايوك كان نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد وقصور الاشوريين شيدت في القرن الثامن قبله فالاولى ان تكون هذه القصور على مثال ابنية الحثيين كما قدمنا والاوجه ان اطلال ايوك كانت معبداً للحثيين بدليل وجود صور الالهة والآلهات والمذبح واشخاص في حالة السجود والتعبد وثيران وغيرها مما تستلزمه الضحايا وقد وجد بِرُو اطلال حصن في الجنوب الغربي من انكورا على مسافة تسع ساعات ويسمى هذا الحصن بلغة اهل البلاد كاور قلعة سى (اي قلعة الكافر) ويظهر ان هذا الحصن كان فسيحاً منيعاً وقد نُقش على صخر في قرب مدخله صورتان ارتفاع كل منهما ثلاثة امتار وهيئة ملبسهما واحدة وعلى رأسيهما التاج المخروطيّ واحداهما ذات لحية والثانية لا لحية لها وملبسها الثوب القصير المتصل الى الركبة وهو مشدود على الوسط وفي النطاق سيف قصير والرجل مشدودة عليها بالحذاء المعطف

فتعين بهذه العلامات انهما من صنع الحثيين ولعلهما صورتا ملك وابنه افتتحا هذا العمل

وقد ذكرت المجلة المذكورة في عددها المؤرخ في ١٨ تموز سنة ١٨٩١ اثارًا وجدت في مرعش منها تمثال اسد هو الان في متحف الاستانة العلية نقله اليها حمدي بك الشهير وهو من صخر اسود صلد طوله نحو متر وعلى صدره وبطنه وذراعيه خطوط حثية (وترى صورته عد ٧) ووجد ايضًا في مرعش تماثيل واثار اخرى عديدة ضربنا عن ذكرها خشية الملل هذا فضلاً عما وجد في اسيا الصغرى وسورية الشمالية من الاختام المحفور عليها خطوط حثية حتى أُلف منها مجموعات عديدة من جملتها المجموع الكائن الان في متحف اللوفر في بريس فكلما مرَّ وما ضربنا عن ذكره حبًا بالايجاز لايدع محلاً للريب في ان الحثيين ارتحلوا منذ اقدم الايام من شمالي سورية وانتشروا في اعمال اسيا الصغرى وتولوا امرها

الفصل السابع

﴿ في جاليات الحثيين الى بلاد اليونان وايطاليا وقبرس ﴾

﴿ عد ٨٣ ﴾

مذهب الاب قيصر دي كارا في اصل السكان القدماء في هذه البلاد

روى الاب دي كارا في فصله المثبت في عدد المجلة التمدن الكاثوليكي المؤرخ في ١٧ ك ٢ سنة ١٨٩١ ان العالم بِرُو الآنف الذكر بعد ابداء اندهاشه من صناعة الحثيين وحذقهم في تحصين مدنهم ومناعة اسوارهم تمنى ان يتجد

من يتجشم معارضة صناعة الحثيين بصناعة اليونان ويبين ما بينهما من المشابهة او الفرق فلعل هذه المعارضة تكشف عن مشابهات كثيرة ومهمة بين الحصون الكبادوكية واقدم الاسوار والحصون في بلاد اليونان خاصة في مدينة تيرينت (Tiryntes في القرب من خليج ارغوس وينسب بناؤها الى تيرنس بن ارغوس) واطلال مدينة ميشان (Mycenes وهي ايضاً في عمل ارغوس) وينجلي التقليد الذي يجعل مشيدي هذه المدن ابطالاً اتوها من اسيا ولعل التنقيب والتروي بهذه الاثار يأتينا باثباتٍ لشهادة الاقاصيص القديمة التي قلما حفل بها المؤرخون ولا اعاروها جانب التصديق فالاب دي كارا يصرح في الفصل المذكور ان جل عنايته مصروف في ما تمناه بِرُو من المعارضة بين الاثار الحثية واليونانية وان المشابهة بين اثار الفريقين تامة وليست مقصورة على اثار المدن التي ذكرها في بلاد اليونان بل تمتد الى اثار في ايطالية خاصة في جنوبيها وفي جزر البحر المتوسط . وان الاقاصيص القديمة يتبين منها ان الابطال الذين اتوا من اسيا لم يشيدوا المدن التي ذكرها بِرُو في عمل ارغوس فقط بل بنوا كثيراً غيرها ايضاً في اركاديا والمورة والابيروتساليا وايليريا وفي جزر البحر المتوسط وايطاليا وانه اذا كان المؤرخون لم يحفلوا بتلك الاقاصيص فلم يكن ذلك الا لجهل العلماء قبل الخمسين سنة الاخيرة بحالة الممالك القديمة واثار الشعوب الشرقية خاصةً في بلاد الكلدان واشور وسورية الشمالية ومصر فان الخطوط الهيروكليفية والمسمارية التي فتحت لنا كنوز المعارف كانت علامات بكماء لا تنطق بشيء ولا يُستدل بها على شيء فاصبحت الان لسناً فصيحة تنبئنا بحقائق مهمة . واقاصيص الالهة وان داخلها خرافات ومبالغات فغالبها مسندٌ الى اصل تاريخي شوهته الخرافات ولم يكن يُهتدى الى اصلها للجهل بحقيقة تواريخ الشعوب فما جاء فيها عن الابطال الذين اتوا من اسيا فشيدوا المدن في بلاد اليونان وجنوب

ايطاليا وجزائر بحر الروم انما هو عبارة عن ان جاليات من هولاء الحثيين اجتازت من اسيا الصغرى فبنَت ثم المدن المذكورة واستقرى الاب دي كارا غرضه هذا مقيمًا الحجج عليه لا من المشابهة فقط في البنايات والتحصينات بل من ان المعبودات ونوع العبادة والاسلحة وصناعة الآنية وغيرها كل هذه واحدة عند الحثيين والسكان القدماء في البلاد المذكورة وسيريك كلامنا الآتي بيان ذلك مفصلاً

عد ٨٤

في اقوال العلماء في سكان بلاد اليونان وجزائر بحر الروم القدماء

ذهب عامة العلماء القدماء وكثيرٌ من علماء هذا العصر ايضًا الى ان سكان بلاد اليونان وجزائر بحر الروم انما هم من نسل ياوان الرابع من ابناء يافت بن نوح وخاصةً من ذرية كتيم احد ابنائه فقد جاء في سفر التكوين (فصل ١٠) « بنو يافت جومر وماجوج وماداي وياوان ... وبنو ياوان أليشه وترشيش وكتيم ودودانيم من هولاء تفرق اهل جزائر الامم في بلدانهم كلٌّ بحسب لغته وعشائره باممهم » وقال فرنسيس لانرمان (في كتابه اصل التواريخ تبعًا للتوراة مجلد ٢ قسم ١ من طبعة باريس سنة ١٨٨٢) « وكلٌّ يرى بناءً على البينات التي عنينا بجمعها ان لاسم كتيم في اسفار العهد القديم معنىً واحدًا متفقًا عليه اعني جزيرة قبرس وبهذا المعنى يلزم فهم هذه الكلمة في الفصل العاشر من سفر التكوين وقد انبأنا التقليد القديم ان كتيم بن ياوان يُعبر به عن سكان جزيرة قبرس وهذا التقليد حفظه لنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٦) والقديس ايرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين فصل ١٠) والقديس ابيفانيوس (في كتابه ضد البدع) وتاودوريطوس (في تفسير نبوة ارميا) وزوناراس (في ك ٥ من تاريخه) » وزاد لانرمان على ذلك

ان الانساب التي ذكرها موسى في الكتاب ايدتها الان اكتشافات العلم الحديثة لاسيما الخطوط القديمة التي وجدت في قبرس وامكن حل رموزها في هذه السنين الاخيرة فالاحرف الهجائية التي كتبت هذه الخطوط بها استعملها القبرسيون من اقدم الايام وقبل ان تبلغ احرف الهجاء الفينيقية الى اليونان ولا يعلم اصلها ولعلها أُخذت عن الحثيين الشماليين وقد كتب بها فرع من اللغة اليونانية القديمة يقرب من لغة اركاديا التي كانت اللغة الطائفية في الجزيرة وكلما مرَّ يثبت ان شعب قبرس كان يونانياً ولغتهم يونانية منذ الاعصر العريقة في القدم وان كتيم هو ابن ياوان لا غيره

ثم ان العالم هالافي ذهب في المباحث الكتابية التي نشرها في المجلة المعروفة بالمجلة اليهودية الى ان المراد باسم كتيم ابن ياوان وقبرس واحد فانه قال « واما نظراً الى ياوان فيمكننا ان نسلِّم بان كتيم ودودانيم يراد بهما قبرس ورودس ونعتقد ذلك امراً مؤكداً » وقال بعد ذلك « ان اسم كتيم في التكوين يراد به جزيرة قبرس لا غير » وفي محلٍ اخر « ان جزيرة قبرس كتيم الكتاب وهو ابن ياوان » وقال في مقالة نشرت بين مقالات مجتمع (اكادمي) الخطوط القديمة سنة ١٨٨١ متكلماً في اسم الحثيين ما ملخصه ان هذا الاسم يراد به سورية باسرها يعني كل البلاد الواقعة في عبر الفرات الغربي ممتدة من جبل امانوس (اللكام) الى تخوم مصر اي سورية وفينيقي وفلسطين واسم الحثيين في اثار تجلت فلاصر الاول (في اواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد) يشمل سورية التي بين الفرات والعاصي واما فينيقي فتسمى هناك عارو اي المغرب والمصريون كانوا في الدولة الثامنة عشرة يعنون بالحثيين شعوب سورية الشمالية واسم حثيين في الكتاب المقدس يراد به سكان سورية الشمالية ويُطلق ايضاً على بعض سكانها الجنوبيين اذا لا ريب في القربى بين الحثيين سكان فلسطين والحثيين الشماليين فالفصيلتان من ولد حث بن كنعان

ولاحظ هذا العالم في كلامه على الاثار الاشورية التي جاء فيها ذكر جزيرة قبرس ان هذه الجزيرة دُعيت فيها باسمين (بلاد يمنا او امنا وبلاد يتانا) اما الاسم الاول فان لفظ يونا او اونا ظهر قربه من ياوان الذي يسمي به العبرانيون احد ابناء يافت ويسميه اليونان ياون او يون ويطلقون هذا الاسم على البحر المتوسط . وكتيم في الترجمة العبرانية يراد به ابن ياوان وتسمى به جزيرة قبرس وهذا لا يشذ عن التاريخ بشيء اذ لا مرية بان السواد الاعظم من قدماء القبرسيين يوناني اصلاً . واما يتانا الاسم الثاني فلم يرد الا في اثار الاشوريين وخاصة في اثر لسرغون اكتُشف في اخربة شيشيوم او كيتيون في قبرس فهذا مقال هذين العالمين الحديثين وهو مطابق لقول جهور العلماء القدماء

عد ٨٥

رأي الاب دي كارا في اصل سكان قبرس الاولين

افاض الاب دي كارا في فصله المثبت في مجلة التمدن الكاثوليكي (في عددها المؤرخ في ١٧ ايار سنة ١٨٩٠) في الكلام في هذا الشان فروى قولَي العالمين المذكورين كما رويناهما وبالغ في ردهما وفي اثبات قوله الآتي بيانه . فانكر ان الكتاب يعني قبرس باسم كتيم بن ياوان لان كلمات الاية الرابعة من الفصل العاشر في سفر التكوين هي « وبنو ياوان اليشة وترشيش وكتيم ودودانيم » ولا شيء فيها يعني او يعين قبرس . وموسى عقب كلامه في كل من انساب بني نوح الثلاثة باية مترادفة فقال في بني يافت (عد ٥) « من هولاء تفرق اهل جزائر الامم في بلدانهم كل بحسب لغته وعشائره بامهم » وقال في بني حام (عد ٢٠) « هولاء بنو حام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بامهم » وفي بني سام (عد ٣١) « هولاء بنو سام بعشائرهم ولغاتهم في بلدانهم بامهم » فهذا الكلام لا برهان فيه على مواطن ابناء نوح بل لا بد من تيميم مصادر اخرى للاستدلال

على اوطانهم وعشائرهم ولغاتهم . فالكتاب ذكر كتيم كما ذكر اليشه وترشيش ودودانيم وسائر بني سام وحام فكما لا تدل اسماؤهم على بلاد كل منهم كذلك لا يدل اسم كتيم على بلاده . وما من جاهل بتضارب اقوال العلماء ومفسري الكتاب في تعيين البلاد والشعوب المقصودة بالاسماء التي ذكرها موسى في انسابه . فجزيرة قبرس اذاً ليست معنية بنفسها باسم كتيم بن ياوان الذي ذكره الكتاب بل لا مناص من اقامة غير هذا الذكر دليلاً على ان كتيم يراد به سكان قبرس الاولون

وقد ردَّ دي كارا برهان لانرمان بالتقليد القديم فقال ما هذا التقليد الا مقصور على شهادة يوسيفوس لان سائر من ذكرهم اخذوه عنه واعتمدوا فيه قوله بل ان القديس ايرونيموس لم ينسب القول بان المراد بكتيم وقبرس واحد الى التقليد بل عزاه الى تفسير بعض المفسرين وعليه فيوسيفوس هو الشاهد الفرد لهذا التقليد القديم وهو من ذلك يجهل حقيقته اذ خلط بين الحثيين وكثيم وهذه عبارة يوسيفوس (نزيدها نحن على ما في المجلة مأخوذة عن ك ١ فصل ٦ في تاريخ اليهود) . كتيم (بن ياوان) الذي اقام في الجزيرة المسماة الان قبرس وسماها باسمه ولذا يسمي العبرانيون كل الجزر والسواحل البحرية كتيم وحتى الان تسمى احدى مدن قبرس كيتيوم سماها كذلك من يضعون لكل شيء اسماً يونانياً وهذا يختلف قليلاً عن اسم كتيم . وقال دي كارا ان اسم كتيما او حتيما التي سميت الجزيرة به منذ القدم هو من حثيم لا من كثيم بمقتضى رواية يوسيفوس . واما على برهان لانرمان المأخوذ عن حروف الهجاء التي وجدت في قبرس وعن ان المكتوب فيها فرع من اللغة اليونانية يقرب من لغة اركاديا وان تلك الحروف لم تكن يونانية بل ربما كانت خطوط الحثيين فيجيب دي كارا ان صح قول لانرمان ان لغة القبرسيين كانت اركادية او فرعاً يقرب

منها وان الحروف التي كانوا يكتبون بها لم تكن يونانية بل ربما كانت حروف الحثيين فيلزم من ذلك ان القبرسيين الاولين لم تكن لهم حروف كتابة خاصة بهم بل تعين عليهم ان يستعملوا خطوط امة اخرى ربما كانت الحثية وعليه فلا يخلو الامر باحد وجهين اما ان تلك الخطوط كانت في الجزيرة عند ما اخذ القبرسيون يستعملونها اما انهم اتوا بها من الخارج عندما غشوا الجزيرة فان كانت في الجزيرة فيلزم منه ان الحثيين اتوا قبرس قبل القبرسيين الذين ذكرهم لانرمان لان الخطوط حروف الحثيين . وان كانوا اتوا بها من الخارج فيلزم ان يكونوا اخذوها من اركاديا لان المكتوب بها اركادي بحسب زعم لانرمان والحال ان لانرمان نفسه ايضًا لا يسلم بحروف هجاء في بلاد اليونان قبل حروف الفينيقيين وسوف نقيم الادلة على ان الاركاديويين ايضًا كانوا حثيين وكان بين سكان قبرس فريق يتكلم باللغة الاركاديوية فاذًا الخطوط التي كان القبرسيون يستعملونها كانت حثية اصلاً في كل افتراض وسكان قبرس الاولون كانوا حثيين لا من ولد كتيم بن ياوان اي يونان . ثم يثني دي كارا باقامة البرهان على غرضه قائلاً كان للجزيرة في اقدم الايام اسمان كثيما او حثيما وحماتوسيا والاسمان مشعران بنسبتها الى الحثيين اما الاول فامره بيّن واما الثاني فيؤذن ان هذا الاسم اخذ عن حماه اخص مدن بني حث . الى ان يقول ان صح زعم من يقولون ان القبرسيين يونانيون اصلاً فلا يلزم منه ان اليونان تقدموا الحثيين بتوطنهم جزيرة قبرس بل غشوها بعدهم ولذا سلم بمقال هالافي في تسمية قبرس يمنا او امنا مكسر يونا او يون ولكن انكر عليه ان هذا من اول اسماء الجزيرة وحسب هذا الاسم متأخر الوضع وانكر ايضًا ان السواد الاعظم من القبرسيين يوناني اصلاً بدليل ان هيرودت ذكر (في ك ٧ راس ٨٩) الشعوب الذين توطنوا قبرس فقال انهم « اثينيون واركاديون وشيتنيون وفينيقيون واحباش »

وليس من هولاء يونان الا مهاجري اثينا ولا يمكن ان يكون هولاء السواد الاعظم

﴿ عد ٨٦ ﴾

رأي الاب دي كارا ان سكان جزائر بحر الروم رودس وكريت وساموس وغيرها وبلاد اليونان وبعض ايطاليا الى توسكانا هم حثيون اصلاً

نبه دي كارا في اخر الفصل الآنف الذكر الى التمييز بين حثيم وهم الحثيون وبين كثيم وهم عشيرة يافتية من ذرية كثيم بن ياوان بن يافث بن نوح مثبتاً انه على هذا التمييز يتعلق حل المسألة اي الفريقين سبق الاخر في الارتحال من اسيا الصغرى الى بلاد اليونان وجزرها والى ايطاليا ايضاً وان مصدر الاشكال في معرفة اصل اليونان والايطاليين انما هو عدم التفرقة بين اسماء القبائل القديمة ثم الاغضاء على مراعاة الوقت الذي كانت الارتحالات فيه وان من هذا الباب لزوم التمييز بين البلاسج الاولين اقدم سكان بلاد اليونان وبعض ايطاليا وبين البلاسج المتأخرين وهم اقوام من قبائل يافتية اتت بعد ذلك من اسيا ايضاً فحلت في بلاد اليونان وايطاليا وانتصرت على البلاسج الاولين وقاسمتهم السكنى في اوطانهم ويأخذ في تأييد قوله ان السكان الاولين في بلاد اليونان وجزر بحر الروم وايطاليا الجنوبية الذين يسمون البلاسج الاولين انما هم حثيون ارتحلوا من اسيا الصغرى ومن شمالي سورية فحلوا في قبرس ورودس وكريت وساموس وغيرها من الجزائر وفي بلاد اليونان وجنوبي ايطاليا الى وسطها وفي قسم من توسكانا فهم من ولد حث بن كنعان بن حام لا من ولد ياوان بن يافث مستدلاً على ذلك بان اثار الصناعة واسلوب تشييد المدائن والحصون القديمة التي ترى في بلاد اليونان وايطاليا هي اشبه باثار الحثيين التي ترى

في سورية واسيا الصغرى كما مر ذكرها. ومما يحتج به لرأيه ان التقليدات الدينية عند البلاسج الاولين كانت مخالفة لتقليدات اليافتيين وان لغتهم كانت حامية لا يافتية

وقد استأنف دي كارا اقامة البراهين لتأييد قوله في فصل اخر اثبته مجلة التمدن الكاثوليكي في عددها المؤرخ في ١٩ تموز سنة ١٨٩٠ وخلاصة ما قال فيه ان من التقليد العام المعقود عليه اجماع المؤرخين ان السكان الاولين في قبرس ورودس وكريت وساموس وسائر جزائر بحر الروم وفي بلاد اليونان وبعض ايطاليا هم البلاسج الاولون والحال ان البلاسج الاولين هم حثيون فاذاً السكان الاولون في هذه البلاد والجزائر هم حثيون فكبرى هذا القياس ليس من يشدّد عليها نكيراً لثبوتها بالتقليد المجمع عليه ولا مخالف وباثار عديدة في هذه البلاد يرى عليها اسم البلاسج ورموز معتقدهم واما صغراه فيثبتها ان البلاد التي سكنها الحثيون والبلاسج اولاً هي واحدة اي سورية الشمالية واسيا الصغرى. والصناعة عند الفريقين واحدة كما شهدت اثارهم والعوائد والمعتقدات المذهبية واحدة الى غير ذلك من الادلة التي تراها مبسوطة في خطبة الاب دي كارا الآتي ذكرها

واما في تعيين وقت ارتحال البلاسج الاولين من اسيا الى الجزائر وبلاد اليونان فقدر دي كارا ان الارتحالات ابتدئ بها في قرب الزمان الذي شخص ابرهيم فيه من بلاد ما بين النهرين الى فلسطين وربما كان في الوقت الذي كانت فيه غارة الملوك الرعاة على مصر اي في القرن العشرين او الحادي والعشرين قبل الميلاد ومن مستنداته اثار قديمة تعزى الى سرغون الاول ذكر فيها تواريخ حروبه في سبعين صحيفة وقد استنسخها اشور بانيبال لمكتبة نينوى ففي احداها يقول سرغون انه غزا بلاد مغرب الشمس وبحر المغرب ثلث غزوات بلغ في الثالثة الى بحر المغرب ونصب ثمة تمثاله فيحسب دي كارا بلاد مغرب الشمس

بلاد الحثيين وان سرغون انتصر عليهم فاجتازوا حينئذٍ الى جزائر بحر الروم وبلاد اليونان والصحيح عنده ان سرغون الاول كان في القرن الثاني والعشرين او الحادي والعشرين قبل الميلاد

﴿ عد ٨٧ ﴾

رأي الاب دي كارا في قدموس وزمان ارتحاله الى بلاد اليونان

خطّأ دي كارا لانرمان في قوله (في كتابه في التقليدات الاولية) ان قدموس اول المرتحلين من فينيقي الى بلاد اليونان كان ارتحاله في اواخر القرن الرابع عشر او في النصف الاول من القرن الثالث عشر قبل الميلاد قائلاً ان لانرمان لم يفرق بين ارتحالين سبق الاول منهما الثاني في مدة ثمانية قرون او تسعة وان قدموس لم يشخص الى بلاد اليونان بمهاجرين فينيقيين بل حثيين ولم تكن مهاجرتهم في القرن الرابع عشر بل في نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد وان العالم بِرُو (في كتابه في تاريخ الصناعة في القدم المار ذكره) تابع لانرمان في رأيه فتسكع في غلطه وان مصدر هذا الغلط اغفال بعض العلماء ان يراعوا ان اسم فينيقي متأخر عهداً وان بعض الرجال والاحداث التي تنسب الى فينيقي في اقدم الايام لم تكن في فينيقي بل في البلاد المتاخمة لها اي في سورية وان اسم سورية يشمل فينيقي ايضاً وان ادخال الحروف الهجائية في بلاد اليونان الذي ينسبه الجمهور الى قدموس حتى تسمى تلك الحروف فينيقية وقدموسية وارامية ايضاً لا يخالف رأيه لان قدموس يمكن ان يكون فينيقياً وسورياً وان سورية كانت في ايام تلك الارتحالات الاولى موطن الحثيين وسائر القبائل المتحدة معهم ويستحصل من ذلك ان قدموس الذي يدعى فينيقياً هو حثي وان المستعمرة التي جعلها في بوائسيا في بلاد اليونان وفي جزيرة كريت وغيرها إن هي الا مستعمرة حثية حتى قال ان اسم قدموس نفسه ليس الا

مكسر حتموس اي الحثي بابدال الحاء بالقاف كما جاءت امثال لذلك في ترجمة اليونان الاعلام الى لغتهم وبابدال الدال بالتاء للمقاربة بينهما

فان حق لنا ان نقول شيئاً بين هولاء العلماء الاعلام قلنا اننا لانرى براهين الاب دي كارا كافية للعدول عن رأي جمهور العلماء القدماء وبعض علماء هذا العصر ايضاً وتقليدهم ان قدموس كان فينيقياً وارتحل الى بلاد اليونان في زمان غزوة يشوع بن نون لفلسطين وان الحروف التي ادخلها في بلاد اليونان هي الحروف الفينيقية لا الحثية وقد روى دي كارا نفسه انها تسمى فينيقية وقدموسية وارامية والمعلوم ان صور الحروف اليونانية القديمة واسمائها اشبه واقرب الى صور الحروف الفينيقية واسمائها من الخطوط الحثية ولو كانت الخطوط الحثية اصلاً للحروف اليونانية ليسرت قرآتها ولم يعتص حتى الان حلّ رموزها ولا يخفى التعسف في قوله ان قدموس مكسر حتموس ومهما يكن من هذا الامر فتلك احداس يعرضها الاب دي كارا على اهل العلم في هذا العصر مصرحاً انه لا يقطع بصحتها. على ان ما اورده من الحجج ليثبت به ان البلاسج الاولين والحثيين قبيلة واحدة اصلاً لا يبعد ان يكون صحيحاً واشبه بالصواب • وقد اشار الاب فيكورو الى شيء من ذلك حيث قال (في كتابه المسائل المنثورة صفحة ٤٣١) • ان حاصلات الحثيين وتصوراتهم تطرقت مرحلة مرحلة الى بلاد اليونان فقد اخذ اليونان اشياء كثيرة عن الفينيقيين لكنهم لم يأخذوا عنهم كل شيء فالمصنوعات اليونانية الاولية لاسيما ما اكتُشف منها في ميشان (في بلاد اليونان) لا يرى فيها أثر لاصل فينقي بل هي اشبه خاصة بالمصنوعات الحثية في اسيا الصغرى وهذا مغزى الحكاية اليونانية الناطقة بان بيلوب استمد غناه من نهر بكتول الذي يروي سرد وليديا • (في اسيا الصغرى حيث ولاية ازمير الان) وقد جمع الاب دي كارا في خطبته الآتي ذكرها خلاصة كلما تضمنته

فصوله العديدة من البرهان على ان البلاسج الاولين والحثيين قبيلة واحدة

﴿ عد ٨٨ ﴾

في خطبة الاب دي كارا في الحثيين والبلاسج الاولين

بعد ان ذكر الاب دي كارا في فصول عديدة هيئات الابنية والاسلحة والآنية الخزفية التي اكتُشفت في بلاد اليونان وبعض اعمال ايطاليا وبيَّن قربها ومشابهتها للمصنوعات الحثية التي تُشاهد في سورية واسيا الصغرى تلا خطبةً في المجتمع التاسع العام المنعقد في لونده في شهر ايلول سنة ١٨٩١ بحضرة جم غفير من العلماء الباحثين في تواريخ المشرق وآثاره اثبت فيها ان تلك الابنية والمصنوعات انما هي من اعمال الحثيين وان قبيلة الحثيين والبلاسج الاولين واحدة . وقد اثبتت مجلة التمدن الكاثوليكي هذه الخطبة في عددها المؤرخ في ٢٠ شباط سنة ١٨٩٢ وذيلتها بما روته في شأنها جرائد انكلترة المهمة من حيث يظهر ان هذه الخطبة كان لها احسن وقع في ذلك المجتمع الحافل وانه اعتبرها ذات اهمية كبرى وقضى بايلاء مؤلفها علامة الشرف وطلب منها مئات من النسخ ليوزعها على اعضائه . وهاك خلاصة ما انطوت عليه

اورد دي كارا اقوال العلماء في الآنية الخزفية التي توجد في امصارٍ عديدة متباعدٌ بعضها عن بعض وكلها متقاربة الشكل عريقة في القدم وابان تضارب هذه الاقوال حتى لا يمكن تصويب احدها لضعف مستنداتها وايهانها بمستندات اخرى . ثم طفق يبثُّ رأيه فقال تراعى في هذا المبحث الحقيقة وعلتها فالحقيقة اننا نرى في اسيا وبلاد اليونان وجزرها وفي وادي النيل وايطاليا آنية خزفية ذات شكلٍ واحد او متقارب ومثله شكل الاسلحة وهذه حقيقة لا يقيم احدٌ عليها من نكير وقد سلم كل عالم منصف ان الرسوم والنقوش التي تُرى على هذه الآنية لا مثيل لها الا في المصنوعات البابلية القديمة جدًا لا في مصنوعات اشور

او نينوى. ومما لا يمترى فيه ان البابليين لم يهاجروا الى بلاد اليونان ولا الى جزائرها ولا الى ايطاليا باولى حجةٍ فاذاً قد كان مستحيلاً نقل الصناعة البابلية الى هذه الامصار بغير واسطة قبيلة تتاخم بلادها بابل وتتوفر العلاقات بينهما ويلزم ان تكون تلك القبيلة ذات اقتدار على بث هذه الصناعة في تلك الامصار بوسيلة انبساط قوتها وامتداد حكومتها وكثرة مستعمراتها وتجارتها . فهذه هي الحقيقة وهذه هي الشرائط المستلزمة للكشف عن علتها فلا يبقى الا البحث عن ايَّة قبيلةٍ تستجمع هذه الشرائط للتوصل الى ادراك علة تلك الحقيقة فعلى رأيه ان هذه القبيلة لا يمكن ان تكون الا قبيلة البلاسج الاولين الذين هم الحثيون انفسهم فان هاتين القبيلتين لا يمكن ان تكونا في الاعصر القديمة الا واحدة . او يرد علينا ان نسلم بامر مستحيل وهو ان قبيلتين قديرتين اقامتا في بلادٍ واحدة في حين واحد حاكمتين في هذه البلاد نفسها وكل منهما ليست الاخرى وقال انه بيَّن في فصوله العديدة ان الآثار القديمة الكائنة في محال عديدة من اسيا الصغرى ليست الا حثية والحال ان اكثر هذه الاعمال هي بلاد البلاسج الاسياويين باجماع رأي القدماء فاذاً البلاسج والحثيون قبيلة واحدة واضاف دي كارا الى ما مر براهين اخرى اثباتاً لغرضه منها ان صناعة استخراج مواد المعادن والعمل بها واحدة عند البلاسج والحثيين . ومنها ان لتشييد المدن والحصون طريقة واحدة عند الفريقين فان اطلال بوغاز كوي وايوق وكاور قلعة سي وازمير المعروف انها من بقايا آثار الحثيين تشبه كل الشبه اطلال المدن والحصون البلاسجية الباقية في بلاد اليونان وايطاليا . ثم ان هذه الابنية في اسيا الصغرى متقادمة العهد وسابقة عصر اليونان فيستلزم انتسابها الى قبيلة توطنت هذه الامصار قبلهم وهذه القبيلة لا يمكن ان تكون الا البلاسج الاولين لان الابنية تعزى اليهم ويلزم ان تكون من صنع الحثيين لان العلامات المميزة

لهم وخطوطهم منقوشة على صخورها ولا مرية بان سكان البلاد الكائنة بها في ذلك العصر انما هم الحثيون فكل ذلك يجهر بالنتيجة المقصودة اعني ان البلاسج والحثيين قبيلة واحدة

وقال انا نرى شيم القبيلتين واخلاقهما واحدة فقد ذكر استرابون ان من شيم البلاسج الحل والترحال وتبين مما مر ان الحثيين ارتحلوا من سورية وانتشروا في اسيا الصغرى وجزيرة قبرس ثم في جزر بلاد اليونان فان كانت الشيم واحدة والصناعة واحدة والبلاد التي سكنها الفريقان واحدة فلِمَ لا تكون القبيلة المسماة باسمين واحدة . وايضاً ان اسماء كثير من المدن والجبال والانهر والاعمال في اسيا الصغرى واسماء امثالها في بلاد اليونان وجزائرهم وفي ايطاليا هي واحدة اصلاً ولم يطرأ عليها تغير في بعض الاسماء الا من قبيل تيسير اللفظ وجعل اواخر الكلمات كصيغة نهاية الاسماء في اليونانية او الايطالية . وايضاً ان المشابهة بين العقائد الدينية والرموز المذهبية عند القبيلتين يحصل لنا منها برهان آخر على انهما قبيلة واحدة فالالهة الكبرى القديرة التي كان يعبدها البلاسج ان هي الا الالهة المحاربة التي نراها ممثلةً على صخور يازيلي كايا في اسيا الصغرى مجنبةً السيف معتقلة الرمح متنكبة القسي شبيهة بالالهة المحاربة الوارد ذكرها في عهدة الصلح بين ملك الحثيين ورعمسيس الثاني ملك مصر كما مرّ . والرمز بصور الاسد وغيرها نراه عاماً في اثار الحثيين في اسيا الصغرى واثار البلاسج في بلاد اليونان وايطاليا

ومن الحجج التي اقامها دي كارا اثباتاً لغرضه التقليدات واقاصيص الالهة التي يرى ويستشهد غيره من مشاهير علماء هذا العصر ان لها اصلاً تاريخياً على الغالب وان داخلتها احاديث خرافة ومن هذه الاقاصيص ان آباء شعوب سورية وفينيقي وكيليكيا وغيرها من اعمال اسيا الصغرى هم من اقرباء بلاسكو

ابي البلاسج وهو ابو اجينور او اخوه وهذه الاقاصيص نفسها تجعل كيليك وفينيق وقدموس ابناء اجينور وعليه فهم احفاد بلاسكو او بنوه وتجعل نيوب امًا لاجينور وبلاسكو وهولاء الاباء كانوا يسكنون ويلون الامصار نفسها التي كان الحثيون يسكنون فيها ويلون امورها كما يظهر من الاثار الحثية في اسيا الصغرى كل هذا بيّنٌ في البلاسج الاسياويين واما البلاسج سكان بلاد اليونان وايطاليا فقال فيهم ديونسيوس الاليكارناسي انهم كانوا يُسمون آزيين والمقاربة بين آزي وحثي بيّنة فابدال الحآء بالهمزة لسهولة اللفظ مستفيض وابدال الثآء بالزآء لا تحصى امثاله فهذا معما تقدَّم يثبت لنا ان البلاسج في بلاد اليونان وايطاليا هم ذوو قرابة البلاسج الاسياويين وان الفصيلتين مع الحثيين قبيلة واحدة

وقد اختتم دي كارا كلامه بهذا القياس ذي الحدين لا يخلو ما اتينا به من الادلة العديدة على الوحدة بين الحثيين والبلاسج من ان يكون اما مصادفةً واتفاقًا اما واقعيًا وتاريخيًا فان كان واقعيًا فيلزم اعتبار الوحدة بين الفريقين حقيقة تاريخية ثابتة ذات اهمية كبرى. وان كان كل ما جئنا به اتفاقيًا ومنسوبًا الى المصادفة فيكون امرًا لم يسبق له مثال ولا يبقى محلٌّ لتصديق برهان كهذا مهما كثرت ووضحت ادلته وهذا محال فالمعتمد اذًا على الاول وهو ان الحثيين والبلاسج قبيلة واحدة سُميت باسمين. ان الاب دي كارا يهتم في فصوله التي نشرها في هذه الايام ليبين ان اسماء المدن القديمة والانهر والجبال في بلاد اليونان وايطاليا اصلها حثي ومن جملتها اسم اسيا فعلى رأيه اصله حاثيا بدات الحاء بالهمزة للخفة والثاء بالسين للمقاربة وان اسم البلاسج انفسهم مركب من كلمة بل معناها في لغتهم الغريب او الدخيل ومن كلمة اسى او اسكى او اسجى ومعناها الاسياوي فتحرير معنى البلاسج عنده الغرباء الاسياويون او الآتون من اسيا

الفصل الثامن

(في غارة الحثيين على مصر اي في الملوك الرعاة)

عد ٨٩

في اصل الملوك الرعاة ومهاجرهم

ان مانيتون (وهو كاهن مصري كان في القرن الثالث قبل الميلاد) الف كتابًا جمع فيه شتات تواريخ مصر فاغتالت يد غير الزمان هذا الكتاب ولم نظفر منه الا بفقرات حفظت في كتب يوسيفوس واوسابيوس ويوليوس الافريقي وغيرهم من القدماء فمن هذه الفقرات ما رواه يوسيفوس في كتاب رده اقوال ابيون (ك ١ فصل ٤) حيث قال « كان ملك يسمى تيماوس دهمنا في ايامه غضب الله ففاجانا من جهة المشرق على غير انتظار جيش اقوام اوغاد جسروا ان يغشوا بلادنا فاستحوذوا عليها دون حرب واثخنوا في ارضنا واذلوا اصحاب الامر فيها واحرقوا المدن بقساوة ودكوا هياكل الالهة وانزلوا بالاهلين ما استطاعوا من السوء فذبحوا بعضًا واسروا نساء البعض واطفالهم » الى ان يقول « وكل هذه القبيلة دُعيت هيكسوس اي الملوك الرعاة لان معنى هيك في اللغة المقدسة ملك ومعنى سوس بلغة العامة رعاة »

فمن هم هولاء الملوك الرعاة ومن اين اتوا الى مصر ومن اية قبيلة هم اجتزأ مانيتون بان يقول فيهم انهم اتوا من جهة المشرق وهذا كلام شائع متسع اتساع المشرق لا يعلم منه من اية جهة من المشرق اتوا ولا من اي شعب تفرعوا ولذلك توفرت اقوال العلماء القدماء والحدثاء في اصلهم وفي مهاجرهم اي البلاد التي هاجروا منها فذهبوا في الامرين مذاهب عديدة متضاربة . وكتب

علماء عصرنا هذا في ذلك مقالات مسهبة وألف الاب دي كارا كتاباً برمته سماه الملوك الرعاة نشره اولاً فصولاً في مجلة التمدن الكاثوليكي ثم ضم تلك الفصول في كتاب طبع في رومة سنة ١٨٨٩ حيث لم يألُ جداً ليثبت ان الملوك الرعاة حثيون اصلاً ومهاجرهم سورية الشمالية غاروا على مصر منضماً اليهم غيرهم من القبائل السورية وعليه عنونا هذا الفصل بغارة الحثيين على مصر واودعناه الكلام في اقوال العلماء في اصل الملوك الرعاة ومهاجرهم ثم في زمان غارتهم هذه واية دولة مصرية كانت منهم وما كانت اعمالهم وكم سنة ملكوا في مصر ومتى طردهم المصريون من بلادهم بما يمكن من الايجاز ملخصاً خاصةً عن كتاب الاب دي كارا السالف الذكر

عد ٩٠

اقوال العلماء في اصل الملوك الرعاة ومنشأهم

قال مانيتون في اثر كلامه الذي ذكرناه نقلاً عن يوسيفوس • قال بعضهم انهم عرب • لكنه قال في محل اخر على ما روى يوليوس الافريقي • انهم رعاة اخوة فينيقيون ملوك اجانب • فظهر انه لم يكن على يقين في اصلهم ومنشأهم بل يروى ما كان يقال عليهم في ايامه فينَّ الخلاف في الاقوال ولم يصحح احدها . واما علماؤنا العرب فقالوا انهم عمالقة من نسل عمليق او عماليق وهو عندهم ابن لود (يسمونه لاوذ) بن سام بن نوح قال ابن الاثير في الكامل • فمن ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق وهو ابو العماليق ومنهم كانت الجبابرة في الشام الذين يقال لهم الكنعانيون والفراعنة بمصر • وتعقبه ابو الفداء من قبل انه جعل الكنعانيين من ولد سام وتابعه في الباقي اذ قال • نقل ابن الاثير ان بني كنعان من ولد سام والله اعلم وولد لسام عدة اولاد منهم لاوذ ابن سام وولد للاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق الذي هو ابو العماليق ومنهم

كانت الجبابرة بالشام والفراعنة بمصر • وقال ابن خلدون • ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (وهو الواقع) وقال ابن اسحق وكان للاوذ اربعة من الولد وهم طسم وعمليق وجرجان وفارس • وقال ياقوت ان العمالقة امتدوا من بلاد العرب الى سورية فكانوا ملوكاً في سورية وفراعنة في مصر . وذكر بعضهم اسماء هولاء الفراعنة وقالوا ان اولهم في مصر يسمى الوليد . وتعقب بعضهم قول هولاء المؤرخين بان عماليق هو ابن اليفاز بن عيسو على ما في سفر التكوين (فصل ٣٦ عد ١٢ و ١٦) فكيف يمكن ان يكون فرعون ابرهيم كما قالوا من بني عماليق لكن هذا التنديد مردود بان سفر التكوين نفسه صرح بوجود العمالقة قبل عيسو اذ قال (فصل ١٤ عد ٧) ان كدرلاعومر ملك عيلام واحلافه) ضربوا كل ارض العمالقة وايضاً الاموريين • ومن المعلوم ان هولاء الملوك هم الذين حاربهم ابرهيم وانقذ لوطاً ابن اخيه من ايديهم فلا يعاب على المؤرخين العرب قولهم ولكن هل كان الملوك الرعاة من هولاء العمالقة فهذا موضع الخلاف الذي نبسط الاقوال فيه

واما علماء عصرنا اهل البحث في الآثار المصرية والشرقية فلهم في هولاء الملوك الرعاة اقوال متباينة متضاربة فقال لبسيوس هم حاميون من بني كوش اتوا من بلاد العرب المجاورة البحر الاحمر المسماة فوط او بونط والاظهر ان المراد بها عدوتا البحر الاحمر من جهة العربية وجهة الحبشة . وتابعه مسبرو في هذا القول • وقال بروغش لا بل هم ساميون من سورية صحبهم اقوام من اقاليم عديدة . وذهب دي روجه وإبر الى انهم ممن تسميهم الآثار المصرية ساتي وعامو ويراد بهم رعاة اسياويون • وذهب لايلين انهم من فلسطين ومريات وسائس ولانرمان انهم حثيون واموريون وعيلاميون • ورأى القانوني را انهم ادوميون وعمالقة وحثيون وقال كوندر وهامي ولانرمان (بعد هجره رأيه

الاول) انهم مغول من التتر . فصور التباين في هذه الاقوال ندور البينات والاثار الدالة على اصل الملوك الرعاة ومهاجرهم وغموض ما وجد منها وشيوعه فقد سمّتهم الاثار المصرية مان ومانتي وساتي وعامو وكلها اسماء شائعة لا تعين القبيلة التي تفرعوا منها ولا البلاد التي نشأوا فيها ولهذا التباين مصدر آخر هو انه قد وجدت تماثيل في تانيس (سمنه وصيان في شرقي مصر السفلى) وحُسب انها تمثل الهيئة الحقيقية لهؤلاء الملوك ولدى تفحص العلماء عنها قالوا انها اشبه بهيئة الصيادين الذين يسكنون الان في جانب بحيرة المنزلة في مصر السفلى وقدَّروا ان هؤلاء الصيادين من سلالة اولئك الملوك واخذوا ينسبون الرعاة الى القبائل التي خيل لهم ان هيئة فروعها تشبه هيئات التماثيل والصيادين المذكورين. وعليه فترد الاقوال المتباينة في هذا الشان الى مصدرين اعني اقوالاً مسندها الاختلاف في تفسير الاسماء التي عبرت بها الاثار عن هؤلاء الملوك واقوالاً مسندها المشابهة بين هيئة هؤلاء الملوك في تماثيلهم وبين هيئات غيرهم من القبائل المعروفة فنسب اصحاب الاقوال الاولى هؤلاء الملوك الى سورية او العربية او فلسطين او الجزيرة او عدوتي البحر الاحمر . ومعظم الخلاف بينهم في ما اذا كان هؤلاء الملوك ساميين او غير ساميين . ومضى اصحاب الاقوال الثانية يفتشون على اصل الملوك الرعاة في شرقي اسيا او شماليها فجعلوهم من المغول والتتر ولا مستمسك لزعمهم الا المشابهة في الهيئة الطبيعية وسمات الوجوه بين هؤلاء الشعوب وبين تماثيل الملوك وسكان القرى التي حول بحيرة المنزلة

واما العلامة الاب دي كارا فردَّ اولاً الاقوال المسندة الى المشابهة في الهيئة والتكون الطبيعي مبيناً خاصةً انه لا يمكن ان يتاكد كون التماثيل المذكورة تمثل كل السمات الحقيقية في هيئة هؤلاء الملوك ولا كون الملوك الرعاة كلهم كانوا بهذه الهيئة لان التماثيل التي وجدت انما هي لأربعة منهم فقط وزاد على هذا انه لا اثر

في التواريخ لغارة من التتر في تلك الايام على مصر فضلاً عما بين البلدين من البعد الشاسع وتوسط قبائل كثيرة بينهما . وايضاً ان الهيئات الطبيعية لا يمكن الاعتماد عليها وحدها في معرفة اصول الشعوب ونسبهم بل لا بدَّ من قرائن اخرى ومن اساس تاريخي يُستمسك بها . وقال دي كارا ان مسبرو كتب اليه رسالة في ٩ ك ١ سنة ١٨٨٨ جوابًا على الفصل الذي اثبت به ان منشأ الملوك الرعاة سورية الشمالية يقول له فيها ان رأيه هذا يحوذ احسن قبول وان المشابهة في الهيئات كثيرة الوجود على اختلاف النسب والوطن وانه رأى منذ بضع سنوات في نابولي امرأةً اشبه هيئة بصورة امرأة ماديوم الكائنة في متحف بولاق وتيسر له اخذ صورتها الفوتغرافية بالزي الذي يرى التمثال به وان الصورة باقية عنده ويختم مسبرو رسالته بقوله « هاك ايطالية يمكنها ان تدَّعي بانها مصرية وتثبت دعواها بتكونها وهيئتها الطبيعية فدونك ما يوقعنا به من السخريات الاعتماد في النسب على الهيئة »

وعاد العلامة دي كارا الى تفصيل الاقوال المسندة الى الاختلاف في تفسير الاسماء المعبر بها عن هولاء الملوك في الآثار المصرية كما رويناها بالايجاز ومما يستوجب التفاتة مخصوصة ويتحفنا بفوائد اخرى قول سائس الذي اكثر الكلام هذه السنين الاخيرة في هولاء الملوك فقال اعتبرهم بعض العلماء غزاة حثيين وفي خطبة القاها في ٢٣ تشرين اول سنة ١٨٨٦ في مجتمع العلماء في لوندره اظهر جنوحه الى التيقن بان قادة الرعاة كانوا حثيين محالفي الاموريين وانه يُستلمح من الكتاب المقدس ان هذه العهدة كانت في جنوب فلسطين لان سكان حبرون (الخليل) كانوا حثيين واموريين وصرَّح بذلك حزقيال بقوله (فصل ١٦ عد ٤٥) لاورشليم ان امك حثية وابوك اموري . ولما كان مانيتون روي في الفِقَر التي حفظها يوسيفوس ان الملوك الرعاة بنوا اورشليم بعد طردهم

من مصر اعتقد سائس سندًا الى ما قيل في سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٣) وهو ان حبرون بُنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس الرعاة المعروفة الان بسان) بسبع سنين . ان مانيتون اعتمد في رأيه هذا في بناء اورشليم على شهادة التقليد ونتج سائس اخيرًا ان قول مريات وغيره بان قادة الرعاة كانوا حثيين هو قريب من الصحة والصواب واما ميل سائس الى تصديق رواية مانيتون بان الرعاة بنوا اورشليم فيقال فيه ان صدقت هذه الرواية لم يكن المفهوم منها ان الرعاة اول من اسَّس اورشليم اذ جاء في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ١٨) ان ملكيصادق ملك شليم خرج للقاء ابرهيم وعامة المفسرين على ان شليم اورشليم وطرد الرعاة من مصر كان بعد نزول بني اسرائيل اليها

﴿ عد ٩١ ﴾

﴿ تحرير رأي الاب دي كارا في الملوك الرعاة وحججه عليه ﴾

حرر الاب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه الملوك الرعاة) رأيه فقال ان الرعاة الذين غاروا على مصر لم يكونوا من بلدٍ واحد ولا من امةٍ واحدة بل كانوا من بلاد عديدة تضمهم عهدة واحدة وغرضٌ واحد ويقودهم ملك واحد او اكثر للامة التي هي مركز العهدة وتنسب الغزوة اليها ويرى ان الامة الحثية هي مركز هذه العهدة وهي الفاعلة في الحملة على مصر بجنودها الخاصة وجنود المعاهدين لها ومن براهينه على رأيه ان من ذللوا دولة قوية رهيبة كما كانت مصر اذ ذاك وضبطوا زمام احكامها قرونًا لا بدَّ ان كانت لهم قوة تفوق قوة مصر عددًا وعُددًا ومالاً ولا يتصور لاحدى قبائل اسيا الغربية او الشرقية قوةٌ وسطوةٌ مثل هذه الأَ باتحادها مع قبائل اخرى فيتفق ان تشنَّ قبيلة الغارة على قبيلة اخرى اقوى منها وتنتصر مرةً ولكن ان تستحوذ عليها وتضبط اعنَّة حكمها رغمَ انوف اهلها قرونًا كما فعلوا الرعاة في مصر هذا يخالف الطبع

ولا نجد له في التاريخ مثالاً فمن افتتحوا مصرًا في ذلك العهد لم يكونوا اذًا امة واحدة بل الفافًا من قبائل شتى يرأسه ويقوده ملوك الحثيين ثم يثبت هذا اي انه كان للحثيين المحل الاول في هذه الغزوة ولملوكهم وامرائهم السيادة فيها بالحجج الآتية اولاها ان الصفيحة التي وجدها مريات سنة ١٨٦٤ في هيكل سمنه (وهي تانيس القديمة) تثبت ذلك اذ نُقش في اعلاها ثلاث صور احداها صورة سات او شات وما هذا الا شتخ معبود الحثيين وبيده الصولجان وعلى رأسه التاج والثانية مثال رعمسيس الثاني قائمًا امام سات باسطًا يديه نحوه وفي كلٍ منها كاس خمر والثالثة صورة من اقام هذه الصفيحة ساجدًا وبين سات ورعمسيس عمود خطوط هيروكليفية وبين رعمسيس والصورة الاخرى عمودان من هذه الخطوط وفي اسفل الصفيحة اثنا عشر سطرًا منها وهذا ملخص ما كتب هناك. في سنة ٤٠٠ في الرابع من شهر ميسوري لملك مصر العليا والسفلى أمر رعمسيس الثاني ملك مصر ان تقام هذه الصفيحة تكرمة للاله شات اجلالاً لاسم ابي ابائه (كثيرًا ما سمى ملوك مصر الهتهم اباءهم وكثير منهم دعا نفسه ابن الشمس معبودهم) ويحيي شات تحيات اله سامٍ ويستمد منه التوفيق والاقبال في ايامه والثبات في ملكه. وما من منكر ان الرعمسيين امتازوا باجلال الاله شات وباقامة الهياكل تعبدًا له وبتسمية بعضهم انفسهم باسمه تبركًا منهم شاتي او ساتي الاول. وعليه يحقق دي كارا ان تاريخ الاربعمائة سنة المثبت في الصفيحة يراد به تاريخ اتخاذ شات الهًا ساميًا في مصر سويًا لرع وامنون وان الاربعمائة سنة في عهد رعمسيس الثاني توافق ايام ابابي احد الملوك الرعاة الذي عني بجعل شات او شتخ معبود الحثيين الهًا ساميًا في مصر

وثانية الحجج التي اقامها دي كارا على عناية ابابي بادخال عبادة شات معبوده في مصر ما ورد في البابير المنسوب الى سليار الاول والمحفوظ الان في المتحف

البريطاني وخلاصته • ان الملك ابابي اتخذ شات او شتخ ربًا له ولم يعد يعبد الهًا في ارض مصر الا شات واقام له هيكلاً بديعاً على مقربة من قصره وكان ينهض كل يوم فيقدم له الذبائح اليومية مصحوبًا باعوانه • وجاء في هذا البابير ايضًا ان ابابي كان اوفد الى ملك تاب (في مصر العليا) ليتابعه في هذه العبادة وقال • اذا اجاب امير الجنوب (يريد ملك تاب الذي كان اوفد اليه) انه يعمل بما اقول فلا آخذ منه شيئًا ولا اعود اسجد لاله اخر في ارض مصر الا لامون رع ملك الالهة ولكن اذا لم يجب سؤلي بان لا يعبد الا شات فما العمل • وفي البابير ايضًا ان ملك الجنوب اطلع مستشاريه على رسالة ابابي فدهشوا ولم يأتوا ولاً ببنت شفة • ويظهر انه منذ يومئذٍ بدأ القلق والشغب على الملوك الرعاة والمحاقة على طردهم • ويستخلص دي كارا قائلاً ان الواضح من اثار عديدة لا سيما عهدة الصلح بين ملك مصر وملك الحثيين ان شات او شتخ انما هو اله الحثيين فيحصل مما مرَّ ان الملوك الرعاة حثيون وان الاربعمائة سنة التي ذكرها رعمسيس في هذه الصفيحة يراد بها تعميم عبادة شات وتفضيله في مصر بامر ابابي احد الملوك الرعاة. هذا على اختلاف الترجمة والتفسير لهذا الاثر ونرى رأي دي كارا فيه راجحًا وبرهانه واضحًا واطبق للظاهر • ومن رأيه ايضًا ان تاريخ الاربعمائة سنة يوافق القرن الثامن عشر قبل الميلاد وعليه فصفيحة رعمسيس نقشت نحو سنة ١٤٠٠ الى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد اي نحو اربعمائة سنة بعد ابابي فيكون اتيان يوسف بن يعقوب مصر في ايام ابابي فان اضفنا اليها سني عبودية بني اسرائيل في مصر وهي اربعمائة وثلاثون سنة كان خروجهم منها في عهد دولة الرعمسيين فان القول الاعم والاظهر عند علماء الآثار المصرية ان خروج بني اسرائيل من مصر كان بعد وفاة رعمسيس الثاني في عهد ابنه منفتاح الاول وسترى معارضة اقوال الكتاب في شان سني العبودية بما يظهر من الآثار المصرية والتوفيق بينهما

انتهى ملخصاً عن كتاب دي كارا في الملوك الرعاة (فصل ٣ من صفحة ٣٩ الى صفحة ٦١)

﴿ عد ٩٢ ﴾

اثبات ان الملوك الرعاة حثيون بما سمتهم به الآثار المصرية

الحق دي كارا حججه الآنفة الذكر بحجج اخرى منها ان الاسماء التي عبرت بها الآثار المصرية عن الملوك الرعاة تثبت كونهم حثيين فان هذه الآثار تسميهم ساتي ومانتي وعمو فساتي يراد بهم على الاظهر الشعوب المتوطنون في غربي اسيا ولاسيما سكان شمالي سورية بدليل انه جاء في الاثر وهو الدرج المعروف «بمرسوم كانوبوس» ان الملك تولماوس افرجات الاول غشا بلاد الساتي واسترد تماثيل الالهة التي كان الفرس انتزعوها من هياكل مصر ولا جرم أن المضي من مصر الى بلاد فارس يستلزم العبور بسورية فهي اذاً بلاد الساتي والملوك الرعاة يسمون ساتي فهم اذاً سوريون واشهر سكان سورية يومئذٍ الحثيون فاذاً الملوك الرعاة حثيون. وقد سمتهم هذه الآثار «مان ومانتي» مرات والحال ان هولاء المانتي يراد بهم سكان سورية ايضاً . فقد جاء في جريدة اسماء القبائل التسع التي نقشت على جدار هيكل ارفو في مصر «المانتي في بلاد اسور» وفي الصفيحة التي وجدت في سان (تانيس القديمة) مكتوباً عليها بثلاث لغات عُبر فيها عن هولاء المانتي في الهيروكليفية بانهم سكان بلاد الروتان الشرقية وفي الترجمة اليونانية سكان سورية وفي لغة الشعب المصرية بلاد اسور فاذاً المانتي الذين طردهم ملوك الدولة الثامنة عشرة من مصر هم من سكان سورية التي سميت في الهيروكليفية برّوتان في اثار عديدة وسميت بلغة الشعب اسور وهو اسم سورية عندهم (طالع العدد الـ٦) وفي الاثر القديم المنسوب لاحمس ابن ابانا يقال ان احمس الاول الذي طرد الملوك الرعاة من مصر أثخن في المانتي

ساتي مقصياً لهم عن مدينة آفاري فاذا لفظا مانتي وساتي استعملهما المصريون علماً للملوك الرعاة الذين غشوا بلادهم من جهة مشرقها وسموا بهما سكان سورية ايضاً ولاسيما شماليها

وقد سمتهم الآثار ايضاً عمو في محلات عديدة ومن جملتها الأثر الذي اكتُشف حديثاً على مقربةٍ من قرية بني حسن حيث يقول احد الفراعنة الذي يُظن انه توتمس الثالث « انا جددت ما كان آل الى الدمار انا اكملت ما بُدئ به مذ كان العمو في مصر السفلى في جهة آفاري فان الغزاة نقضوا ما كان مشيداً وحكموا ولم يعترفوا بالاله رع » ونرى اسم العمو بين عداد الشعوب الذين قهرهم توتمس الثالث في سورية مع الساتي والروتانو اصحاب المعاهدة في مدن سورية الشمالية والجنوبية وفي فينيقي . ونجد ايضاً اسم عمو في صفيحة كتبت عليها ترجمة امنهاب واكتشفها العالم ابار في قرية قرنة من اعمال مصر واذاع ترجمتها سنة ١٨٧٣ ومما كتب في اعمال هذا القائد في حروب توتمس الثالث في سورية انه قبض على اسرى من العمو واحضرهم احياء وذكر محال المواقع فكان منها وان في غربي كالب (حلب) وكركميش وقادس ولا يختلف اثنان ان هذه المدن في شمالي سورية وسمّت الآثار سكانها عمو كما سمّت الملوك الرعاة بهذا الاسم نفسه . وليس اصحاب عهدة الرعاة الا المتحالفين الذين حاربهم ملوك الدولة التاسعة عشرة ولاسيما ساتي الاول ورعمسيس الثاني في سورية الشمالية كما مر وبانتور شاعر رعمسيس الذي كتب اخبار واقعته مع قادس (طالع العدد الـ ٦٥) يسمي الحثيين عمو كما رأيت فاذاً اسماء ساتي ومانتي وعمو التي نراها في الآثار المصرية معبراً بها عن الملوك الرعاة نراها نفسها مراداً بها شعوب سورية الشمالية ومن جاورهم من العشائر المتحدة معهم بل قال دي كارا ان الحثيين الذين حاربهم رعمسيس كما مرّ من نسل هولاء الملوك الرعاة وانهم بعد

طردهم من مصر عادوا الى مواطنهم الاولى في سورية ومن الادلة التي اقامها على ذلك وجود عبادة الالهسات بينهم في سورية الشمالية كما كانت لهم في مصر ثم وجود بعض العوائد وآثار التمدن المصري في انحاء سورية التي عادوا اليها ثم تعاظم القوة والسطوة في سورية الشمالية في زمن وجيز حتى حارب سكانها ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر واكرهوهم على صلح مشرف لهم كما رأيت في تاريخ الحثيين عن الآثار المصرية

عد ٩٣

في عصر غارة الرعاة على مصر ومدة ملكهم فيها

توفرت الاقوال وتضاربت في تعيين زمان غارة الملوك الرعاة على مصر ولا نرى كبير فائدة في استقراء هذه الاقوال وحجج كلٍ من القائلين بها فنقتصر على ذكر الاظهر والاعم من اقوالهم وهو ان هـذه الغزوة كانت بين القرن لعشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد وكان من الملوك الرعاة ثلث دول في مصر هي الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة وذكر مانيتون هذه الدول واسماء ملوكها ومدة ملكهم ولكن لما كانت غِير الايام لم توصل الينا كتاب مانيتون بل وصلت الينا فقر اقواله يرويها يوسيفوس في كتاب رده على ابيون ويوليوس الافريقي واوسابيوس وغيرهم فكان بين هذه الروايات بون كبير من قبيل الاسماء وعدد السنين للملوك وللدول الثلث وقد وفق العلامة ادولف ارمان (Erman) مدير المتحف المصري في برلـين بين روايتي يوسيفوس والافريقي بما ملخصه • ان يوسيفوس حسب مدة ولاية الملوك الرعاة في مصر ٥١١ سنة وقال انه عقب ذلك سنون عديدة دام بهـا الحرب والنزاع وروى الافريقي ان الدولة الخامسة عشرة من هولاء الملوك ملكت ٢٨٤ سنة ثم ذكر ملوك الدولة السادسة عشرة وضم سني ملك الدولتين فكان مجموعهما ٥١٨

سنة ولا تخفى المقاربة بين الروايتين على ذلك اذ لا يبقى من فرق الا سبع سنين ثم ذكر الدولة السابعة عشرة وعين لملكها مدة ١٥١ سنة فكان ذلك كناية عن السنين العديدة التي ذكر يوسيفوس انها انقضت في الحرب مع الوطنيين وكان لهولاء ملوك يلون مصر العليا وبعض اعمال مصر السفلى على التدريج . فكان بهذا التوفيق بين الروايتين

وسترى ان ابابي آخر ملوك الدولة الاولى من الرعاة ملك في اواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد اي من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٥٠ فان اضفنا الى ذلك ٢٥٩ سنة وعشرة اشهر مدة ملك الدولة الاولى من الرعاة بحسب رواية يوسيفوس ظهر ان بدء ملك الرعاة كان في القرن العشرين قبل الميلاد او اضفنا الى ذلك ٢٨٤ سنة بحسب رواية الافريقي كان بدء ملكهم في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ويحصل من ذلك ان فرعون الذي كان يلي مصر وقت انحدار ابرهيم اليها قبل نحو مايتي سنة من انحدار يعقوب كان من الملوك الرعاة كما كان فرعون الذي استوزر يوسف

عد ٩٤

بيان سني عبودية الاسرائليين في مصر بسني الملوك الرعاة

جاء في سفر التكوين (فصل ١٥ عد ١٣) ان الله ناجى ابرهيم قائلاً « ان نسلك سيكونون غرباء في ارض ليست لهم ويستعبدون لهم ويعذبونهم اربع مئة سنة » ثم جاء في سفر الخروج (فصل ١٢ عد ٤٠) « وكان مقام بني اسرائيل الذي اقاموه بمصر اربع مئة وثلاثين سنة » كذا ورد في النص العبراني وفي نسختنا السريانية وفي اللاتينية العامية وغيرها من النسخ على انه يظهر من الترجمتين السبعينية والسامرية ان مدة الاربع مئة وثلاثين سنة يراد بها مدة اقامة ابرهيم ونسله في فلسطين ومصر اي من خروجه من اور الكلدانيين الى

خروجهم من مصر . ولذلك قال يوسيفوس (ك ٢ من تاريخ اليهود فصل ٦) . ان العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ ابينا ابرهيم الى ارض كنعان ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب الى مصر . وقد حذا حذوه في هذا القول كثير من القدماء والحدثاء على ان الاكثرين اعتمدوا نص الاصل العبراني الصريح في الآيتين الانف ذكرهما وقد ايدته سائر الترجمات القديمة غير السبعينية والسامرية . فاثبتوا ان مقام بني اسرائيل في مصر من انحدار يعقوب بولده اليها الى حين خروجهم منها انما هو اربعمائة وثلاثون سنة لا مئتان وخمس عشرة سنة فقط . وقد اقاموا على ذلك ادلة وحججاً عديدة لا محل الان لاستقرائها ومنها ان مئتين وخمس عشرة سنة لا تكفي لتكاثر عدد بني اسرائيل بالمقدار الذي ذكره الكتاب اي ليكون منهم ست مئة الف مقاتل

على ان الاكتشافات الحديثة زادت في بيان هذا المبحث فان العلامة ارمان السالف ذكره اهتدى الى طريقة للتوفيق بين ما عينه الكتاب من سني العبودية وبين الاثار المصرية وخلاصة ما قال . اجمع من ذكروا فقرات مانيتون علي ان يوسف كان في عهد ابابي اخر ملوك دولة الرعاة الاولى وصرح شنسلّوس انه استوزره للسنة ١٧ من ملكه آخذاً ذلك بلا بد عن رواية الافريقي ومن المجمع عليه في ذلك العصر ان خروج بني اسرائيل من مصر كان في عهد اموسيس المسمى منفتاح بن رعمسيس الثاني فيلزم ان تكون سنو العبودية من عهد ابابي الى عهد منفتاح . على ان الدولتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة حكمتا مصر على رواية الافريقي ٥١٨ سنة اي الدولة الخامسة عشرة ٢٨٤ سنة والسادسة عشرة ٢٣٤ سنة واعقبتها الدولة السابعة عشرة واستمرت ١٥١ سنة في الحرب مع الدولة الثامنة عشرة الوطنية فكان في مصر دولتان معاً وعليه فيمكن حساب سني العبودية على هذه الصورة

سنة

٤٥ بقي من مدة ابابي بعد ان استوزر يوسف لانه ملك ٦١ سنة وبعض اشهر واستوزره في ١٧ لملكه

٢٣٤ مدة الدولة السادسة عشرة

١٥١ مدة الدولة السابعة عشرة مع الثامنة عشرة الوطنية والى عهد منفتاح

٤٣٠ فالمجموع اربع مئة وثلاثون سنة طبق ما في الكتاب عن سني العبودية

هذا ملخص ما رواه دي كارا (في صفحة ١١٢ وما يليها من كتابه في الملوك الرعاة) عن ارمان ويتراآى الى ان فيه نظراً من قبيل ان الدولة الثامنة عشرة كان منها عدة ملوك بعد طرد الرعاة وكذا كان بعض فراعنة الدولة التاسعة عشرة قبل منفتاح ولم يخرج بنو اسرائيل من مصر على اثر طرد الرعاة منها بل بعد مدة وارى اننا لو اعتمدنا رواية يوسيفوس لفقر مانيتون في ان مدة ملك الرعاة كانت ٥١١ سنة ولبثوا سنين عديدة محاربين لكان البرهان اقوى واسلم من النقد اذ تكون ١٥١ سنة او القسم الاكبر منها عبارة عن مدة ملوك الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الرعاة وبعض ملوك الدولة التاسعة عشرة الى منفتاح فرعون الخروج

على اننا لا نستند الى هذا البرهان وحده في بيان سني العبودية بآثار مصر بل لنا غيره . فقد مر انه يتبين من صفيحة رعمسيس الثاني ان بين ملك ابابي ورعمسيس هذا اربعمائة سنة وقد انقضت عبودية بني اسرائيل في عهد ابنه منفتاح وعليه فتكون مدة الثلاثين سنة انقضت بين حين كتابة الصفيحة وحين خروج بني اسرائيل من مصر

قد اجاد بروغش العلامة في الآثار المصرية بملاحظات مهمة في هذا الغرض فنلخصها هنا . قال (في كتابه تاريخ مصر صفحة ١٧٤ طبعة ٢) اذا جعلنا ملك

رعمسيس الثاني سنة ١٣٥٠ ق م اعتمادًا على اصح الاقوال في هذه المباحث كان ملك ابابي سنة ١٧٥٠ (لجعل صفيحة رعمسيس بينهما اربعمائة سنة) ويزيد هذا الامر بيانًا واهمية مطابقته لنص الاسفار المقدسة في عداد السنين التي اقام فيها بنو اسرائيل في مصر (وذكر الآيات التي ذكرناها آنفًا) ولما كان خروج بني اسرائيل من مصر بعد وفاة رعمسيس الثاني الذي جلس على منصة الملك نحوًا من خمسين سنة فيكون منفتاح الاول فرعون الخروج ارتقى الى عرش الملك سنة ١٣٠٠ فاذا اضفنا اليها ٤٣٠ سنة مدة اقامة بني اسرائيل في مصر كان المجموع ١٧٣٠ سنة وانطبق ذلك ضرورة على عهد وزارة يوسف في مصر اذ اتى اليه ابوه واخوته من فلسطين وابتدأت سنو العبودية . وانطبق ايضًا على عهد ولاية الملوك الرعاة في مصر وخاصة على عهد احدهم ابابي المسمى نوب ايضًا وسماه اليونان ابوفيس . واختتم بروغش كلامه قائلاً ان هذا الطباق بين نص الكتاب والاثار المصرية لهو ذو اهمية كبرى واعتبار مزيد ويؤيده التقليد المسيحي القديم الذي حفظه لنا سينشلوس ولم يعبه احد وهو ان يوسف دبر شؤون مصر في ايام الملك ابابي الذي تسميه الاثار ابوبي وزادت ذلك بيانًا وثبوتًا صفيحة اكتُشفت في مصر من امد قريب اتضح منها حصول مجاعة في مصر دامت سنين عديدة ودلّت قرائن الحال على ان وقوعها كان في مدة تدبير يوسف شؤون مصر (وسنأتي على ذكر هذه الصفيحة فى الكلام على يوسف فى تاريخ العبرانيين) فنسدي الله حمدًا وشكرًا لكشفه عن مثل هذه الاثار القديمة فى هذا العصر الطامي بالغواية والعثو

﴿ عد ٩٥ ﴾

في اعمال الملوك الرعاة في مصر

شكى مانيتون هولاء الملوك ثلث جنايات فظيعة حرق المدن ونقض هياكل

الالهة والقسوة على الابرياء من المصريين اذ ابسلوا بعضاً وسبوا النساء والاطفال وتابع كثير من القدماء والحدثاء مانيتون في بث هذه الشكايات وامثالها . على ان الاب دي كارا عني بتبرئة ساحتهم من هذه التهم مستمسكاً بان لا دليل في الاثار المصرية على ارتكابهم مثل هذه الامور القطيعة الا شكاية مانيتون التي يلزم حملها على الشحناء والتعصب لقومه كما يظهر من وصفه الملوك الرعاة بالخسة والوغادة ومن تذنبه عليهم باستيلائهم على مصر دون شديد مقاومة والمصريون اولى بنسبة هذا الذنب اليهم ثم من تسميته لهم وباء ونقمة وما اشبه من الاوصاف الذميمة واقام دي كارا برهاناً وضعياً على غرضه فقال انه اكتُشف في اخص مدن الرعاة كتانيس (سان على مقربة من دمياط) وبوبست (تل البسطة الان في جنوب الزقازيق) عن تماثيل وصور تمثل ملوكاً تقدموا عصر الرعاة وبعض هذه التماثيل يشاهد الان في متاحف اوربا نقل اليها من المدن المذكورة ولم ينقض الرعاة هيكل تانيس الذي كان قبلهم وبعض التماثيل التي كانت فيه حفظت في ايام الرعاة وكشف عن بعضها ولم يزل بعضها على ما يُظن مطموراً بالانقاض . وقد اهتدى نافيل Naville في سنة ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ الاخيرة في بوبست الى اثار عديدة للدول السابقة الرعاة لم ينقضوها في ايامهم ووجد بينها تماثيل للملوك الرعاة منها تمثال ابابي اشهرهم وحسبك الاثار المكدسة في متحف بولاق ومتاحف اوربا منقولة اليها من مصر السفلى وهي لملوك والهة قبل عصر الرعاة . واذا كانت تهمتا مانيتون الاوليان غير صحيحتين فيحق لنا ان نمتري في الثالثة وهي القسوة على الابرياء واضطهادهم وان صح شيء منها فيلزم حمله على عادة الايام السالفة وعلى حاجة الرعاة اليه لتأييد ملكهم ذاك دأب كل الغزاة . ولهذا قد اضرب بعض علماء هذا العصر بعد الاكتشافات الحديثة عما كانوا قد عابوا الرعاة به استناداً الى ما رواه مانيتون

﴿ عد ٩٦ ﴾

﴿ في ندرة اثار الرعاة ﴾

واما الذي تركه الملوك الرعاة من الآثار المخلدة لذكرهم او المشرفة لبلاد تولوا امرها وما الذي اتوا به من المنافع العامة او التجارة بترويج سوقها او بسط نطاقها بين مصر وفينيقي وسورية وبلاد العرب وغيرها فكل ذلك ندرت آثاره والثابت الدليل عليه فترى استيلاءهم على مصر مدة خمسة قرون ابكم لم يفصح عما اتوه او تأتى عليهم • وقد اشتغل اهل البحث في الاثار المصرية في بيان علة هذا الندور في اثار الرعاة فنسبه احدهم العالم فيادمان الالماني (في كتابه تاريخ مصر) الى عدم الاهتداء حتى الان الى اثارهم قائلاً ان كشف مريات في تانيس عن بعض تماثيل الملوك الرعاة يبعثنا على الظن ان لهم اثاراً اخرى في محال اخرى وانكر ما اوجبه بعضهم من ان الدول التابعة قد محت آثارهم بغضاً بهم وحاول ان يثبت ان هذه البغضاء لم تكن . على ان العلامة دي كارا ردَّ زعمه هذا مثبتاً وجود البغضاء والضغينة بين الفريقين وهو امر طبيعي لكنه انكر ان تكون هذه الضغائن حملت المصريين على ازالة آثار الرعاة ورأى ان هذه الاثار قليلة بنفسها لكنها غير معدومة وعلة ندرتها ما كان عليه حالهم فان الملوك الاولين منهم اشغلهم عن اقامة الاثار جدهم في بناء مدينة وجعلها قلعة حصينة تقيهم وثبات اعدائهم المصريين وغيرهم عليهم وهي مدينة آفارى (يرجح ان موقعها في قرب المحل المعروف الان بتل الهر او فرما في شرقي خليج السويس) ولم تكن لهم حاجة الى بناء هياكل وقصور ملكية استغناء بما بناه قبلهم ملوك الدول السابقة ولاسيما الدولة الثامنة عشرة • واذا راعينا ان ملوك الدولة السادسة عشرة من الرعاة اصبحوا مصريين يستخدمون عملة ومهندسين مصريين في الابنية والتصوير والحفر والنقوش مقتفين آثار المدارس

المصرية ظهر لنا انه لا يمكن تمييز آثار الرعاة عن آثار الملوك السابقين او التابعين لهم بل يلتبس بعض هذه الآثار ببعضها . واما ملوك الدولة السابعة عشرة فانقضت مدتهم في الحروب مع ملوك تاب الوطنيين فلم ينفسح لهم المجال للعناية بآثار مخلدة او منافع عامة

عد ٩٧

في حروب الملوك الرعاة

يظهر ان قبائل سورية وبلاد العرب لم تقلق خواطر الملوك الرعاة ولا سطت على املاكهم في كل مدة ولايتهم على مصر لما كان لهذه القبائل من جر النفع والمغنم من قِبَل هولاء الملوك فان اشتراك الفريقين في اللغة والدم والوطن القديم كان ميسرًا لمن جاأوا من سورية وبلاد العرب الى مصر كسب المال ورواج سوق التجارة واسباب العمل والراحة وحسن المعاملة حتى هاجر جم غفير من سورية والعربية الى مصر خاصة في ايام المحن والمجاعات كما وقع لبني اسرائيل على ان الذين كانوا ينكدون عيش الرعاة ويسلبون راحتهم انما هم الملوك الوطنيون الذين استمروا في تاب يلون مصر العليا والصعيد . ومن اغلاط الملوك الرعاة جعلهم عاصمة ملكهم في مصر السفلى في الطرف الشرقي من القطر اي في تانيس (مر انها سان في ناحية دمياط) وفي بوبست (في جانب الزقازيق) فكانوا بذلك نائين ومنفصلين عن مركز الشعب المصري فلو اقاموا في مصر العليا لاكرهوا الملوك الوطنيين ان يتوغلوا في البرية بعيدين عن الاتصال بشعبهم يتعسر عليهم اجهاز العساكر واعداد الازودة والعلوفات لها فابقاؤهم في تاب (طيبة) كان كانه ابقاء مفاتيح البلاد في يدهم

واشهر الحروب بين الملوك الرعاة وملوك تاب الحرب الاخيرة التي استمر لظاها متسعرًا قرنًا ونيفًا وكانت اسبابها القريبة على راي جمهور المؤرخين مسائل

دينية ولا غرو فان هذه المسائل كثيرًا ما كانت سببًا لحروب عديده بين كثير من الامم كما انبأتنا التواريخ فقد كان الملوك الوطنيون يتأوهون ابدًا من استيلاء الاجانب على بلادهم ويفترصون كل وسيلة لاسترداد شرف وطنهم وكان يمالئهم على ذلك كثير من الولاة الوطنيين في مصر العليا والسفلى ايضًا . وكان في بدء هذه الحرب ان ابابي احد الملوك الرعاة الآنف الذكر اوفد الى ملك تاب (طيبة) يطلب اليه ان يقر بشات او شتخ معبود الرعاة مقدمًا اياه على الهة مصر فابى الاذعان لطلبه وجعل ذلك وسيلة لتهييج قومه . وقد اجمع الباحثون في الآثار المصرية الا مسبرو على ان البابير المنسوب الى سالیار الاول السالف ذكره ينطوي على ذكر صحيح الاسباب التي دعت الى هذه الحرب وقال مسبرو ان ما في هذا البابير حكاية لا تاريخ وقول جمهورهم اظهر واصح

قد انبأنا كاتب هذا البابير ان ملك تاب الذي ارسل ابابي الوفد اليه كان اسمه ساكن انده وتأويله الشمس المحاربة او الظافرة وانه قد سمّي بهذا الاسم ثلثة من ملوك تاب حاربوا جميعًا الملوك الرعاة لكن الحرب القاضية كانت في عهد الثالث منهم المسمى ساكن انده الاكبر وفي عهد احمس الاول من سلالة هولاء الملوك وهو الذي اذلّ الرعاة وطردهم من مصر وكان اول ملوك الدولة الثامنة عشرة التي انبسطت ولايتها على مصر كلها . وهاك ما كتب في بابير سالیار (صفحة اولى) . كان هذا لما كانت النقم حالّة على بلاد مصر وعند هذه الاحداث لم يكن سيد ولا حيوة ولا صحة ولا ملك . ولما كان الملك ساكن انده هيكًا اي ملكًا في انحاء الجنوب كانت النقم حالّة في مدينة العَمُو (يراد بهم السوريون اي الرعاة) وكان الاور (اي السيد او الرئيس) ابابي في مدينة آفارى وكان سكان البلاد كلها يحملون اليه حاصلاتها وكان اهل الشمال (يريد مصر السفلى) يأتونه باحسن ما عندهم . وجعل ابابي الملك شت او

شتخ الهه وربه ولم يعبد احدًا من الهة البلاد كلها واقام له هيكلاً بديع الصناعة يدوم قرونًا وجعل اعيادًا وعين اياما لتقدمة الضحايا كل يوم لشتخ . (صفحة ثانية) . واراد ابابي ان يرسل وفدًا الى الملك ساكن انده في بلاد الجنوب ودعا بعد ايام كتبته العلماء يستشيرهم في الوفادة الى ساكن انده الملك (وهنا عبارات ممحوة في البابير الى ان يُقرأ) لا اريد ان اعبد احدًا من الهة البلاد كلها الا امون رع ملك الالهة . وبعد ايام طوال ارسل ابابي الى رئيس الجنوب في بلاد الجنوب اعلانًا لقنه اياه كتابه العلماء فسار وفد ابابي الى رئيس الجنوب ومثل بحضرته فسال الوفد من بعثكم الى بلاد الجنوب ولِمَ اتيتم أ لتجسوا البلاد فاجابه الوفد اوفدنا اليك الملك ابابي لنقول لك ... لعمري لم استطع ان اذوق طعم الوسن ليلاً ولا نهارًا ... ولبث رئيس الجنوب برهة مرتعدًا لا يدري ما يجيب به وفد ابابي الملك ... (صفحة ثالثة) . ودعا رئيس الجنوب كبار قواده وعماله والخبرآء في بلاده يكاشفهم بما بثه اليه وفد الملك ابابي فلم يفه احدهم ببنت شفة واخذ الرعب والدهش منهم كل مأخذ ولم يدروا ما يجيبون به ايجابًا او سلبًا الملك ابابي ارسل ... » وهنا يقطع الكاتب الكلام ويأخذ في كلام آخر

وعلى اختلاف الترجمة لهذا البابير لغموض بعض عباراته وتشويه بعضها يتبين منه ما لا يمكن الامترآء بصحته وهو اولاً وجود ملك من الرعاة يسمى ابابي كما يقرأ اسمه على تمثاله الذي اكتشفه مريات في تانيس . ثانيًا وجود ملك من ملوك تاب يسمى ساكن انده يقرأ اسمه في بابير اخر يعرف ببابير ابوت ثالثًا اسم عَمُو مع اسم آفارى مدينة العمو اي الملوك الرعاة وهذا يدل دلالة واضحة على ان هولاء الملوك من سورية الشمالية اصلاً لان خطوط الدولة الثامنة عشرة سمت به سكان سورية الشمالية . رابعًا ان عبادة الاله شت او شتخ خاصة بالرعاة وقد كانت قبلاً عند الحثيين في شمالي سورية واستمرت بعدًا

عندهم هنالك. خامساً انه كان عند الملوك الرعاة صنائع وعلوم دلَّ عليها اقامتهم هيكلاً بديع الصناعة يدوم قروناً للاله شت ووجود كتّاب علماء في دولتهم. سادساً ان الحروب بين الفريقين ابتدأت في ايام ابابي ملك الرعاة وساكن انده ملك الجنوب والظاهر من آثار اخرى ان هذه الحروب استمرت اعواماً متطاولة وان لم نفز حتى الان بما يدل على تفصيل مواقعها وظروف مكانها وزمانها وقد ظفرنا بآثار تدل على نهايتها كما سترى

﴿ عد ٩٨ ﴾

حصار آفارى محصن الرعاة

قد كُشف عن خطوط قديمة نقشت على جدار احد المدافن القديمة الكائنة حذاء قرية الكاب في مصر تنبئ تلك الخطوط بمواقع الحرب الاخيرة على الملوك الرعاة وحصار قلعة افارى وتشتمل على ترجمة رجل يسمى احمس بن ابانا امير البحارة الذي شهد هذه الحرب وتوغل في معامعها وهاك ترجمة ما كتب على مدفنه « احمس الربان ابن ابانا المغفور له اليكم ايها الناس اجمع اسوق كلامي لاقص عليكم ما عرض لي . فقد نلت قلائد الذهب سبع دفعات على مشهد سكان البلاد قاطبة وكسبت عبيداً واماء عدداً عديداً وما حزته بالسلاح من الشرف والفخر يدوم مخلداً في هذه البلاد فقد جئت الى الوجود (ولدت) في مدينة سوبان (الكاب) وكان ابي عاملاً عند الملك ساكن انرة وكان اسمه بابا بن رونت ودونك ما فعلته انا اذ كنت ربّاناً مكانه في السفينة المسماة باماس (الثور) في زمان الملك نباهتبرا (احمس الاول) المغفور له وكنت بعد شاباً في سن لا اعرف النساء به والبس ملابس الشبان ... اقمنا الحصار على مدينة آفارى وكنت احارب مترجلاً بحضرة جلالة الملك فأعلى رتبتي وبينما نحن نحارب في جانب قناة بتكو في افارى قتلت عدواً وعلم بذلك مخبر الملك

فرفعه اليه فتفضل عليَّ بقلادة ذهب وجاهدت مرةً اخرى في هذا المحل واخذت يدًا (اي قتل عدوًّا واخذ يده) فنلت مرةً اخرى قلادة الذهب ويوم كان الوغى في نوكامي جنوب هذه المدينة اخذت اسيرًا حيًا والقيت نفسي في الماء بعيدًا كي لا امرّ في طريق المدينة فعبرت الماء به وودرى ذلك مخبر الملك فتحليت بالذهب مرة اخرى وقد افتتحنا آفارى واخذت حينئذٍ رجلاً وثلاث نساء اربعة رؤس أسرى فوهبتهم جلالتـه لي عبيدًا . وحاصرنا شاروحانا (في فلسطين لا يعلم محلها الى الان) في السنة الخامسة فافتتحتها عظمته واسرت منها امرأتين وقتلت رجلاً فأعطيت ثم ايضًا ذهبًا ثمينـًا ووهب لي الاسرى عبيدًا وبعد ان فتكت عظمته بالماناساتي (اي الملوك الرعاة) عادت حالاً تستأصل الاعداء في بلاد النوبة فعمل بهم مذبحةً . ويتبع كلامـه في غارة احمس الاول على جنوب مصر الى الحبشة وهو يصحب الملك ويعدد انتصارات اخرى له وفوزه بقلائد ذهب اخرى ويقول ان الملك وهبه دفعتين في كل منهـا خمسة استا من الارضين (وهو مقياس للارض متعارف عندهم) وهذا مشعرٌ بشيء مما جاء في سفر التكوين من ان يوسف جعل ارض مصر ملكًا لفرعون يتصرف به كيف شاء الى ان يقول صاحب المدفن انه نال الحظ بان يصحب الملك امنوفي الاول الى الحبشة لايساع تخوم مصر وان الملك اعلى مقامه وسمـاه محارب الملك ثم امير البحارين وانه صحب توتمس الاول الى بلاد النوبة الى ان يقول . وبعد هذا تحولت عظمته نحو الروتانو (سكان سورية) انتقاماً منهم (لعل اهلها انجدوا الرعاة او قبلوهم بالترحاب بعد طردهم من مصر) فبلغ نهرينا (لعل المراد البلاد التي بين العاصي والفرات كما وردا كثر من مرة) حيث التقى بذلك الوغد الخسيس (لم يذكر اسمه) واعدَّ نفسه للقتال فأثخنت جلالته في ارضهم واستاقت عددًا عديدًا من الاسرى احياء وكنت انا اذ ذاك على قيادة

جيوشنا وشاهد الملك اعمالي المشرفة واخذت مركبة مع خيلها ومن كانوا فوقها اسرى احياء وأتيت بهم الى عظمته فتكرم عليَّ بالذهب دفعة اخرى وقد طعنت في السن وبلغت الشيخوخة ... فهذا ذكر اعمالي الخطيرة وساستريح في المدفن الذي اعددته لنفسي »

وقد وجدت خطوط اخرى نقشت في عصر الخطوط السالف ذكرها على صفيحة هي الان في متحف اللوفر في باريس اخذت اليه عن مدفن رجل اخر اسمه احمس ايضاً فان هذا الاسم كان يسمى به كثيرون في عهد الدولة الثامنة عشرة التي ابتدأت بانتصارات احمس الاول على الرعاة ويعرف صاحب الصفيحة باحمس بنسوب وخلاصة ماكتب فيها «انه خدم احمس الاول وامانوفي الاول وتوتمس الاول وتوتمس الثاني وانه جاهـد في حروبهم مع الرعاة وفي النوبة والحبشة وبلاد العرب وسورية وقتل واسر من الاعداء ونال قلائد الذهب » فهذه الخطوط وغيرها تثبت الحروب الاخيرة مع الرعاة وحصار قلعتهم آفارى وشدة دفاعهم امداً مديداً ولكن ليس فيها بينة قاطعة على افتتاحه عنوةً وقول احمس امير البحارة انهم افتتحوا آفارى لايفهم على اطلاقه كما سترى

﴿ عد ٩٩ ﴾

استسلام آفارى وخروج الرعاة منها

قال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٧) قال مانيتون في فقرة حفظها لنا يوسيفوس « وغلب الرعاة اخيرًا وطردوا من اعمال مصر فتألبوا في بقعة اتساعها عشرة الاف ارور (مقياس للارض) تسمى آفارى واحاط الرعاة هذه البقعة بسور رفيع منيع احتفاظًا على اموالهم ومقتناهم فحاول ابن الملك اخذ المدينة عنوة فحاصرها محدقًا بها باربعمائة وثمانين الف رجل ولما يأس من افتتاحها صالحهم على شرط ان يترك الاعـداء ارض مصر ويذهبوا

آمنين حيث شاؤوا فخرجوا باموالهم ومقتناهم وكان عديدهم يبلغ الى مئتين واربعين الفًا واخذوا طريق البرية الى سورية ولخوفهم من دولة الاشوريين المستحوذة يومئذٍ على اسيا لبثوا في البلاد المسماة الآن اليهودية ، وصوَّب لانرمان شهادة مانيتون هذه لمطابقة الاثار لجوهر الخبر الذي رواه وذكر من هذه الاثار ما رويناه انفاً مما كتب على مدفن احمس امير البحارين . وقد لاحظ الاب دي كارا (صفحة ٣٥٠ من كتابه الملوك الرعاة) ان استسلام الرعاة آفارى لم يكن الا لمضايقتهم بقطع طريق الذخائر عنهم اذ لم يبقَ لهم الا مدينة آفارى وقلعتها وان قول احمس امير البحارين انهم افتتحوا آفارى وان الملك فتك بالرعاة فيه المبالغة المعتادة في بعض اثار الفراعنة فلو كان فتك بهم او قرضهم كما يمكن ترجمة كلمته لما اضطر بعد خمس سنوات ان يجيش الجيوش لاذلالهم في شروحانا وطردهم منها ولولا خشيته من معاودة سطوتهم على بلاده مع استفحال امره في مصر العليا والسفلى لما اضطر الى هذه الغزوة الحديثة فقد خرجوا اذًا من آفارى مكرهين ولكن غير مذللين ويؤيده شهادة مانيتون وهو من خصومهم كما مرَّ على ان كثيرين من هذه العشيرة التي اقامت قروناً في مصر اثروا العبودية في مصر الخصبة على الارتحال والاغتراب فاستمروا في ناحية مصر الشرقية مع غيرهم من العشائر السورية وبني اسرائيل وسمح لهم احمس كلفًا بالانتفاع بهم ان يمكثوا لحراثة الارضين المسلمة اليهم ولم يخرجوا بعدًا كما خرج بنو اسرائيل ولذا ذهب بعضهم ولاسيما لانرمان في تاريخه الشرقي ان من بقايا عشيرة الرعاة سكان القرى التي حول بحيرة المنزلة مستدلين على ذلك بهيئتهم الطبيعية ايضاً الممتازة عن هيئة سائر المصريين بقوة شهرتهم وطول وجوههم الى غير ذلك من السمات المميزة لهم والتي يقولون انها اشبه بهيئة بعض الملوك الرعاة في تماثيلهم التي وجدت في تانيس كما مرَّ

﴿ عد ١٠٠ ﴾

في موقع مدينة آفارى متحصَّن الرعاة

اطال الاب دي كارا (في فصل ١٧ من كتابه الملوك الرعاة) الكلام في اسم آفارى وموقعها فقال ان اسمها ورد في فقر مانيتون وفي ترجمة احمس امير البحارين الانفة الذكر وعلى تماثيل الملوك الرعاة التي وجدت في تانيس واورد اقوال العلماء في اصل هذا الاسم وموقع المحل المسمى به فقال ظن شمبوليون ان تأويل آفارى في اللغة المصرية اللعن والتجديف اي المدينة الملعونة اشارة الى مقتهم الرعاة وان اليونان سموها ايرابوليس فكانت عنده آفارى وايرابوليس واحدة وهذا خطأ ظاهر ولا عجب فقد قال شمبوليون به قبل حله الرموز الهيروكليفية . وقال لبسيوس ان بالوس وآفارى مدينة واحدة موقعها في شرقي ترعة بوبست (تل البسطة) في جانب الزقازيق وان اسمها القديم آفارى ثم سميت بالوس وان كلمة بالوس ليست اللفظ اليوناني الذي معناه الطين او الوحل كما وهم علماء اليونان وتابعهم العرب بتسميتها طينة بل أخذ هذا الاسم عن بالستين احد الابطال الذي ورد في الاقاصيص انه اتى من سورية فاقام بقومه هناك . ورأى لبسيوس ان اخربة المحل المسمى تل الهر الممتدة الى بالوس هي اطلال آفارى وعليه فتل الهر وآفارى مدينة واحدة في القدم ووافقه على قوله شباس وبروغش الذي قال ايضاً ان بالوس كانت في محل القرية المسماة الان فرما عن كلمة قبطية فرومى اي مدينة الوحل وفي اليونانية بالوس بمعنى الوحل . اما الاب دي كارا فبعد ايراده هذه الاقوال وغيرها وتنديده باكثرها ذهب على سبيل الحدس والتخمين الى ان آفارى وبالوس مدينة واحدة واسمهما واحد وان فرما قريبة منهما وليست احداهما وان كلمة وار او فار معناها في لغة مصر الهارب او المرتحل وعليه فمعنى آفارى بلد المرتحلين او الهاربين اشارة الى من

ارتحلوا من سورية الى هناك وان اسمها اليوناني بال مكسر فار ببدل القاء
بباء والراء بلام للقرب بين مخارج هذه الحروف وان موقع هذه
المدينة ذات الاسمين في شرقي خليج السويس وفي الجنوب
الشرقي من بورت سعيد وان موقع تانيس وهو سان
الان في الجنوب الغربي من بحيرة المنزلة
وفي شرقي المنصورة





مقالة
في الفونيقيين

لما كان الفونيقيون فصيلة من قبيلة الكنعانيين استلزم مساق هذا التاريخ وبيانه ان نأتي اولاً على كلام مجمل موجز في الكنعانيين نجعله تمهيداً لكلامنا المخصوص بالفونيقيين

الفصل الاول

(في الكنعانيين)

عد ١٠١

في اصل الكنعانيين ومهاجرهم الاولى وداعي ارتحالهم الى سورية

مرَّ في عد ٥٤ ذكر العشائر التي توطنت سورية قبل ان يغشاها الكنعانيون واما هولاء فلا مرية انهم ولد كنعان بن حام بن نوح وعليه صريح نص الكتاب (تك فصل ١٠) ولكن اين كانوا قبل ان هاجروا الى سورية واقاموا فيها رحالاً في بادئ امرهم فما رواه هيرودوت نقلاً عن تقليد الفينيقيين الذي تلقاه في صور نفسها وما ذكره استرابون من تقليد سكان بلاد العرب الجنوبية وما جاء في بعض الآثار القديمة كل ذلك مجمع على ان الكنعانيين قطنوا اولاً بجانب الكوشيين ولد عمهم كوش على شاطئ خليج العجم من جهة بلاد العرب . وذكر بلين انه كان هناك في ايامه عمل يسمى بلاد كنعان . وروى استرابون ان هناك جزيرتين تسميان صور وارواد وهما من الجزائر المعروفة الان بجزائر

البحرين وقال . ان فيهما هياكل اشبه بهياكل الفينيقيين واذا صدقنا قول السكان هنالك كان سكان صور وارواد في فينيقي من منازيحهم « ويظهر منه انهم سموا صورًا وارواد باسم محال مهاجرهم الاولى ذاك شان كثير من المهاجرين الى الان

واما ماكان الداعي الى مهاجرة وطنهم وانتجاع سورية فقال هيرودت ان زلازل توالت عليهم في بلادهم اكرهتهم على الاغتراب وجاء في الكتاب السرياني الكلداني الذي الّف في بابل في صدر النصرانيـة موسومًا بالحراثة النبطية (ذكره لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ١٠٦ طبعة ٩) ان الكنعانيين طردوا من اوطانهم لنزاع وقع لهم مع الملوك الكوشيـين حكام بابل من ذرية نمرود . وتؤيده اقوال كثير من المؤرخين العرب الذين ذكروا مهاجرة الكنعانيين الى سورية وسموهم العمالقة من نسل حام تمييزًا لهم عن العمالقة من نسل سام وجعلوا سبب انتزاحهم حربًا تلظت بينهم وبين سلالة نمرود رواه العالم برسفال في كتابه تاريخ العرب قبل الاسلام (١) وقال لانرمان (في المحل المذكور) اما مهاجرة الكنعانيين اوطانهم لداعي خصومة ونزاع فامر قريب من الصواب ويرجح الظن صحته فان اكثر ارتحالات الامم كان لها مثـل هذا الداعي واما ان هذا النزاع كان مع ابناء عمهم الكوشيين فامر يحق الامتراء فيه وصوب ان تكون علة هذه المهاجرة غارة الملوك العيلاميين على بابل نحو سنة ٢٢٥٠ ق م وقرضهم دولة الكوشيين القديمة فهذا من الاحداث التاريخية المهمة التي يرجح ان كان من نتائجها اكراه العشائر الكنعانية الحامية على الرحيل من جانب الخليج العجمي الى سورية وسترى ان هذه المهاجرة كانت معاصرة لتاريخ الغارة السالفة الذكر

(1) Caussin de Perceval. Histoire des Arabes Avant L'islamisme to. 1 pa. 18

عد ١٠٢

في زمان ارتحال الكنعانيين الى سورية

روى هيرودت في تاريخه ان هيكل ملكرت الشهير في جزيرة صور مضى عليه الى ايامه ٢٣٠٠ سنة بحسب اخبار الفينيقيين له . لكن هيرودت ولد سنة ٤٨٤ ق م ونشر تاريخه سنة ٤٥٦ ق م وعليه فيكون ذلك الهيكل بني نحو سنة ٢٧٥٠ ق م وقد بناه الكنعانيون وهذا غير صحيح بل هو محمول على تعظيم الفينيقيين قدم هيكلهم او على حساب هيرودت السنين بحسب المواليد فلا يستقيم حسابها ففي ذلك زيادة قرون . واصح منه ما يظهر من البابير المحفوظ الان في متحف برلين وقد ترجم اكثره العالم شباس الافرنسي فهذا البابير ينطوي على تقرير رفعه عامل مصري ارسل في ايام الملك امون امهات الاول من ملوك الدولة الثانية عشرة في مصر الى بلاد ادوم وجرار وغيرهما من الاعمال في جنوبي فلسطين ليتجسس اخبار هذه البلاد ويسبر حالة سكانها ففي هذا التقرير لا تجد اثرًا لوجود عشائر الكنعانيين في فلسطين بل يظهر منه ان سكان هذه البلاد كلهم من الساقي الذين كان يراد بهم في ايام الدولة الثانية عشرة قوم ساميون يسكنون هذه البلاد مع الرافائيم اي الجبابرة وان اطلق هذا الاسم في عهد الدول المتأخرة على سكان سورية على اختلاف اصولهم . وقد وجدت اثار اخرى منذ ايام الدولة الثانية عشرة ايضًا تصرح انه لا مجاور للمصريين من جهة سورية في ذلك العهد الا العشائر التي من ذرية العمو فكان بنو مصرائيم يسمون ولد عمهم سام عَمُو وهي كلمة سامية معناها الشعب وفي السريانية ܥܡܐ

على ان الكتاب المقدس انبأنا بان انتجاع الكنعانيين سورية كان قبل ان يحتلها ابرهيم آتيًا من اور الكلدانيين فانه قال (تك فصل ١٢ عد ٦) • واجتاز ابرام في الارض الى موضع شكيم والى بلوطة ممرة والكنعانيون حينئذ في

اي الحثيون والعموريون

الارض . وسترى ان مهاجرة ابرهيم الى سورية كانت في القرن العشرين او الحادي والعشرين قبل الميلاد ولم تبن آية الكتاب أمن زمان مديد ام وجيز كان الكنعانيون في الارض التي بلغها ابرهيم والذي حدس فيه لانرمان وغيره ان حلول الكنعانيين في سورية كان بين سنة ٢٢٥٠ وسنة ٢٣٠٠ قبل المسيح وقالوا ان هذا يطابق عصر ثورة العيلاميين على الملوك الكوشيين في بابل وانحائها اذ جعلوا مهاجرة الكنعانيين من مسببات تلك الحوادث

﴿ عد ١٠٣ ﴾

﴿ في المحال التي توطنها الكنعانيون في سورية ﴾

قد سلف في عد ٣٧ ذكر المحال التي احتلتها عشائر الكنعانيين الاحدى عشرة في سورية ونزيد على ذلك هنا ان الكنعانيين لم يكونوا اول السكان في سورية بل سبقهم اليها الاراميون وغيرهم من العشائر السامية وعند احتلال الكنعانيين هذه البلاد ازاحوا بعض السكان الاولين عن مواطنهم واستمر بعضهم في محالهم الاولى . وذهب بعض العلماء منهم الاب مرتين اليسوعي في كتابه تاريخ لبنان الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه من امد قريب ان السكان الاقدمين في مملكتي جبيل وبيروت لم يكونوا من الكنعانيين بل من الاراميين ولد ارام بن سام بن نوح وان بناء مدينة جبيل كان قبل حلول الكنعانيين في سورية . وقد اقاموا على ذلك حججاً وادلة نكتفي بذكر بعضها فمنها اولاً ان موسى جعل تخوم الكنعانيين صيدا شمالاً وجرار وغزة جنوباً (تك فصل ١٠ عد ١٩) وسنأتي على بيان ما يرد على هذا من قبيل اقامة عشائر كنعانية في الشمال ايضاً كالعرقيين والاروادين وغيرهم . ثانياً ان اسم معبود الجبيليين والبيروتيين يختلف عن اسم معبود الكنعانيين فهولاء كانوا يسمون معبودهم بعلاً واولئك يسمون معبودهم ايل فقد وجدت آثار للاراميين نقش عليها اسم ايل وآثار اخرى للكنعانيين

نقش عليها اسم بعل . ثالثاً انه قد انبأت التواريخ والاثار بمحالفة او عهدة بين الكنعانيين وبين الجبيليين والبيروتيين فيتبادر الى الفهم من ذلك انهم لم يكونوا من قبيلة واحدة اصلاً وليس لقدماء هذه الانحاء الا اصلان ارام وكنعان فان لم يكن البيروتيون والجبيليون الاقدمون كنعانيين فلا يعدون ان يكونوا اراميين. رابعاً انه قد ثبت بالتواريخ وشهادة الاثار والاقاصيص التي لا تخلو غالباً من اصل تاريخي ان جبيل عريقة في القدم جدًا وان بيروت من مستعمراتها ولا يحتمل الصحة ان هذه السواحل البحرية لبثت خالية خاوية من السكان الى ان غشيها الكنعانيون بعد قرون من الطوفان وتفرق القبائل ولا نرى الكتاب ولا غيره ذكر مقاماً لاحدى عشائر الكنعانيين بين صيدا وعرقا ولما كان الاراميون اشهر سكان سورية وقد انتشروا في هذه الانحاء الى دمشق فيظهر من ذلك كله ان السكان الاقدمين في هذه السواحل وما جاورها من لبنان هم اراميون اصلاً يحملنا على هذا القول بيان ما نراه من الصواب لا غرض في النفس للفرار من وصمة لعنة كنعان ومن يعلم الان احامي هو ام سامي ام يافتي بعد كرور الدهور وتتالي الغزوات في سورية وتركها فيها بقايا من الفارين واما جعل الكتاب صيدا تخماً لبلاد الكنعانيين من ناحية الشمال مع ان العرقيين والسينيين والاروادبين والصماديين والحماتيين كنعانيون ايضاً وكانت مساكن جميعهم بعيدة عن صيدا نحو الشمال ففيه اقوال وتفاسير متباينة نرى اظهرها واقربها الى الصواب ان موسى قسم الكنعانيين الى جنوبيين وشماليين وجعل صيدا تخماً شمالياً للجنوبيين منهم خاصة لان ارضهم انما هي الارض التي ملكها بنو اسرائيل عند افتتاحهم فلسطين ولم يتجاوزوا تخومها قبل ان تملك داود عليهم ومهما يكن من تفسير الاية فيظهر منها ان سكان البلاد من تخوم صيدا جنوباً الى تخوم عرقا شمالاً لم يكونوا كنعانيين لاسيما ان الممالك في تلك الايام لم

تكن الا عبارة عن اعمال او كُوَر واصقاع ولم يكن للكنعانيين مملكة واحدة بل لكل عشيرة او صقع مملكة تستقل بتدبير شؤونها وليس ما يمنع من تخلل عشيرة ارامية بين بلاد الكنعانيين الجنوبيين والشماليين . واما قول لانرمان (في المجلد الـ ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠) ان مسكن السينيين كان في لبنان فهو منقوض بقول نفسه (في المجلد ١ صفحة ٢٧٤) انهم كانوا يسكنون في شمالي عرقا وهذا يستامح من نظام ذكر الكتاب العرقيين ثم السينيين ثم الاروادبين ثم الصماريين ومساكن كل عشيرة من هذه في شمالي مساكن الاخرى طالع ما ذكرناه في عد ٣٧ . ولا يُعلم الى الان متى اختلط هولاء الاراميون بالكنعانيين ولا كيف كان ذلك ويظن انه جرى عند استفحال امر الفينيقيين وانبساط سطوتهم واتساع نطاق تجارتهم

عد ١٠٤

في حال الممالك الكنعانية

قد مرَّ ان كل عشيرة من الكنعانيين كانت تستقل بتدبير شؤونها فيلي امرها امير يسمونه ملكاً بل كان احياناً لكل عمل او مدينة ايضاً ملك ولا علاقة سيادة او خضوع بين هولاء الملوك ولم تكن تتحد كلمتهم الا اذا فاجأتهم غارة او حلت بهم نكبة عامة ولم يكونوا مع هذا ليتألبوا دائماً عند حلول النوائب بل كثيراً ما تركوا العدو ينكل ويفتك بهم تباعاً ولم يكن عندهم عصبية ولا تناصر بل توفرت بينهم العداوات والحروب الاهلية حتى بعد ان انضم بعض العشائر الى بعضها بعهدة كما صنع الفينيقيون فلم يكن للعشيرة الواحدة على الاخرى سيادة تامة او مطلقة بل كانوا احلافاً يتناصرون ولملك العاصمة المقام الاول والكلمة الاولى بينهم ويستثنى من هذه العشائر الحثيون فانه كان لهم دولة كبرى واهمية سياسية وعصبية شديدة وجندية منظمة لم تكن لسواهم من

عشائر الكنعانيين كما رأيت وامتاز الفينيقيون بذكاء العقل والكب على التجارة والكد في الصناعة وتحمل مشاق الاغتراب وركوب مخاطر الاسفار البحرية وايثار السلم وارباح التجارة على معاندة الغزاة في مواطنهم فكانوا يستسلمون غالبًا لكل غازٍ قدير . وامتاز الحويون بانه لم يكن في مدنهم ملوك يلون امرها بل كان فيها نوع من الجمهورية البلدية تسوس الاهلين بمقتضى سنن اشبه بسنة بني اسرائيل في ايام القضاة

وهم بعض المؤرخين انه كان في فلسطين ايضاً عشيرة تعرف بالفرزيين وانها الثانية عشرة من عشائر الكنعانيين وهذا خطأ ظاهر لان موسى لم يذكر لولد كنعان في سفر التكوين الا احدى عشرة عشيرة واما اسم الفرزيين الوارد في آيات اخرى من الكتاب فيراد به سكان القرى تمييزًا لهم عن سكان المدن لا فرع آخر من بني كنعان وعليه فالفرزيون بمعنى القرويين كذا قال لانرمان في المجلد السادس من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠ وعن كامت في معجم الكتاب (في كلمة الفرزيين) ان الفرزيين شعب قديم كان يقطن بفلسطين مختلطاً مع الكنعانيين ويظهر من ادلة كافية انهم من نسل كنعان لكنهم لم يكن لهم مستقر بل كانوا رحالاً يقيمون تارة في هذا الصقع واخرى في غيره وتأويل اسمهم المشتتون والمفروزون او سكان المزارع والقرى وكانت محالهم في عبري الاردن ينتخبون الحزون والسهول وقد جاء ذكرهم دفعات في الكتاب مع الكنعانيين منها في التكوين (فصل ١٣ عد ٧) حيث قيل « وكانت خصومة بين رعاة ماشية ابرام ورعاة ماشية لوط والكنعانيون والفرزيون حينئذٍ مقيمون في الارض » ومنها في سفر يشوع بن نون (فصل ١٧ عد ١٥) حيث جاء ان بني يوسف شكوا الى يشوع ان ارضهم ضاقت عليهم « فقال لهم يشوع اذا كنتم شعباً كثيرًا فاصعدوا الى الغاب ومهدوا لانفسكم هناك في ارض الفرزيين والجبابرة

(رافائيم) . ويظهر انهم استمروا في فلسطين بعد ان عاد بنو اسرائيل من سبي بابل فقد جاء في سفر عزرا (فصل ٩ عد ١) ان الرؤساء اتوا يشكون الى عزرا . ان شعب اسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفرزوا عن شعوب الارض ورجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين .

وبعد ان طرد المصريون الملوك الرعاة من ارضهم كما مر في اخر المقالة في الحثيين اخذ ملوك الدولة الثامنة عشرة في مصر يشنون الغارة على سورية والكنعانيين فينكاون بهم ويثخنون في ارضهم ويفترضون عليهم الجزية لكنهم كانوا يتركونهم وما يدينون ولا يعترضونهم في شرائعهم ولا في ولاية شؤونهم ولا يزعونهم عن المحاربات الاهلية ولا عن محاربة ملك منهم لاخر ولا يصدونهم عن عقد عهدات بينهم بل كانت الدولة المصرية تكتفي بان يعطيها هولاء الجزية ويفتحوا ابواب بلادهم لجنودها وينجدوها في حروبها مع اعدائها اذا دعتهم الى ذلك فلم يصنع المصريون ما صنعه بعد ذلك الرومانيون من انهم اذا اخضعوا بلاداً جعلوها اقليماً رومانياً واقاموا عليها والياً رومانياً ولذلك لم تكن عرى العلاقة بين المصريين والكنعانيين وثيقة بل كان ان كلما مات ملك في مصر او كسرت جنوده او شاع خبر انكسارها او سمع خبر اضطراب في مصر تمرد الكنعانيون وابوا دفع الجزية او ثاروا فعاد ذلك الملك او خلفه الى الاقتصاص منهم وكبتهم للعود الى الطاعة ويستثنى من هذا صيدا فانها قلما دخلت في ثورة بل كانت تؤثر الراحة والسكينة على العصاوة والخسارة . انتهى ملخصاً عما رواه مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق في كلامه على الدولة الثامنة عشرة في مصر

﴿ عد ١٠٥ ﴾

﴿ تشتت الكنعانيين وجالياتهم ﴾

ان ما اوهن الكنعانيين ولاسيما الجنوبيين وشتت شمل السواد الاعظم

منهم انما هو افتتاح يشوع بن نون بلادهم وقهره ملوكهم وتمليكه ارضهم لبني اسرائيل كما سترى في تاريخ العبرانيين فقد ضرب واحد وثلاثين ملكاً (يشوع فصل ١٢) ودمر مدنهم ومع هذا بقيت منهم بقايا في السواحل البحرية خاصة ولم يتخطأ يشوع حدود صيدا في لحاقه ملوك الكنعانيين ولذلك تزاحمت اقدام الغارة من الكنعانيين في صيدا وضاقت بهم الارض فارتحلوا الى آفاق عديدة فكان منهم جالتان خاصة احداهما ارتحلت الى ثاب في بلاد اليونان وهي المعروفة بجالة قدموس لانه كان في مقدمة هولاء المرتحلين وهو على رأي جمهور العلماء واضع الحروف اليونانية وحكم في تلك الاصقاع لكنه لم يستمر آمنًا في ولايته وخلفه احد السبرتيين وكان ذا قرابة لاسرة قدموس ثم استرد الكنعانيون الولاية لعشيرتهم فولي امرهم بوليدورس وقال بعضهم انه ابن قدموس واستمرت ولاية ثاب تتنازعها سلالتان احداهما كنعانية والاخرى سبرتية او وطنية نحواً من ثلثة قرون هذا ملخص ما رواه لانرمان في مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ٤٩٧ وهو قول جمهورهم وقد مرَّ بك في المقالة في الحثيين عد ٨٧ قول دي كارا ان قدموس كان حثياً وانه ارتحل بقومه الى بلاد اليونان قبل افتتاح يشوع بن نون بلاد فلسطين بقرون

واما جالة الكنعانيين الثانية فتوطنت في افريقية في المغرب حيث تونس الان وقرطاجنة القديمة وكان لهم هناك من قبل مستعمرة تجارية وتبعهم غيرهم من الفينيقيين كما سترى واختلطوا مع عشائر اللبيين اليافتيين فكان منهم تلك الامة التي طارت شهرتها في حروبها واتقان اهلها الحراثة وقد تسمت بالامة اللبية الفينيقية وكسبت قرطاجنة تلك الشهرة العظمى خاصة في حروبها مع الرومانيين وكانت تتكلم اللغة الفينيقية او فرعاً منها يسمى البوني اي الفينيقي الى ايام القديس اغوسطينوس اسقف هيبونا التي وضع الكنعانيون اسمها ثم ان

احتلال الفلسطينيين جنوبي البلاد المنسوبة اليهم ازاح من كان بقي ثمه من الكنعانيين عن مواطنهم وانضم من بقي منهم في سواحل فلسطين وفي شماليها حتى ارواد وفي بعض لبنان الى عهدة واحدة مؤلفة من عدة عشائر كنعانية وسميت ارجاؤهم فينيقي وسموا هم فينيقيين وعليهم مدار كلامنا في بعض الفصول التابعة وقد بقي بقايا من الكنعانيين في فلسطين الى ايام المخلص فقد ذكر متى (فصل ١٥ عد ٢٢) خبر المرأة الكنعانية التي وافت المخلص في تخوم صور وصيدا تبتهل اليه ليبرئ ابنتها ولما قال لها المخلص لا يجب ان يؤخذ خبز البنين ويعطاه الكلاب اجابته بذكائها والكلاب ايضاً تلتقط خبز البنين المتساقط عن الموائد

الفصل الثاني

(في اسم فونيقي وتخومها واشهر مدنها)

عد ١٠٦

في اسم فينيقي

تسمى هذه البلاد فونيقي وفينيقي وتوفرت الاقوال وتضاربت في اصل هذا الاسم وتأويله وقد اكثر الاب مرتين اليسوعي في كتابه تاريخ لبنان (الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه) من ذكر هذه الاقوال ومن المعلوم ان اسم فينيقي وضعه لها اليونان حتى لا تجد هذا الاسم في الاسفار المقدسة التي كتبت بالعبرانية بل تسمى هذه البلاد كنعان وبلاد الكنعانيين ولكن تجده في سفري المكابيين واسفار العهد الجديد التي كتبت في اليونانية وترى متى يسمي المرأة الآنفة الذكر كنعانية لان انجيله كتب بالعبرانية السريانية (لغة اليهود من عهد

المخلص) ولكن ترى مرقس (فصل ٧ عد ٢٦) يقول انها من فينيقي سورية) لان انجيله كتب باليونانية . واسمها في الآثار المصرية كفتا وزاهي وفي الآثار الاشورية احارى اي بلاد المغرب . ومن الاقوال العديدة في سبب تسمية اليونان هذه البلاد فونيقي لا نرى الا قولين يقربان من الصواب اولهما لمسبرو اوجب به ان اسم فونيقي وفونيقيين أخذ عن كلمة فون او بون التي عبرت بها اقدم الآثار المصرية عن بلاد العرب الشرقي وشاطي خليج العجم من حيث اتى الكنعانيون كما مر والحق العرب بالاسم حرفي النسب كما هما في اللغات الاعجمية فصار فونيقي او بونيقي ويسمون ايضاً بوني وبونيين كما سمي اهل مستعمراتهم في افريقية وعليه فاسم فوني او بوني صحب الكنعانيين من شاطىء خليج العجم الى سورية وفينيقيو سورية اوصلوه الى افريقيا وبونيو افريقيا اوصلوه الى مستعمراتهم الشاسعة (مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٢ طبعة ٤) وتابع لانرمان (في مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ٤٧٣) مسبرو في قوله هذا وقال بِرُو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم صفحة ١٢) ان اشهر العلماء الآن يصححون هذا القول . واما القول الثاني فهو لكثير من العلماء القدماء والحدثاء ومقتضاه ان اسم فونيقي يوناني تأويله النخل سميت به هذه البلاد لكثرة هذا الشجر قديماً فيها ويؤيده وجود صورة هذا النخل على بعض المسكوكات القديمة في فونيقي وبعض مستعمراتها ايضاً رمزاً الى بلادهم .

فهذان القولان ادنى الى الصواب من سائر الاقوال مثل قول بوشار Bochart ان فونيقي سميت كذلك نسبة الى بني عناق وقول بعضهم ان الكلمة في اليونانية معناها الاحمر وان الفونيقيين سموا بذلك لانهم هاجروا من جانب البحر الاحمر او نسبة الى البرفير الاحمر الذي كان من مصنوعاتهم وسلع تجارتهم

عد ١٠٧

في تخوم فونيقي

لم تكن تخوم فونيقي في كل عصر واحدة فقد كانت قبل افتتاح يشوع بن نون فلسطين تمتد من تخوم انطاكية الى غزة كما يتلخص من كلام هيرودت (كتاب ٤ فصل ٣٩) وكانوا يقسمونها الى فونيقي البحرية وتشتمل على مدن سورية الساحلية وفونيقي لبنان ويشمل اسمها بعلبك ودمشق وغيرهما حتى تدمر على انه بعد طرد يشوع الكنعانيين من جبال فلسطين وانحصار السواد الاعظم منهم في السواحل البحرية اصبح اسم فونيقي لا يشمل الا الاصقاع الساحلية من عكاء او جبل الكرمل جنوبًا والى ارواد شمالاً مع ما يجاور هذه السواحل من جبل لبنان

عد ١٠٨

في مدن فونيقي

قد مر في عد ٥ ذكر اسماء بعض مدن فونيقي بين اسماء مدن سورية فنذكر هنا مدن فونيقي خاصة باكثر تفصيل مبتدئين بها من الشمال الى الجنوب واولاً ارواد وكانت عاصمة الاروادبين من بني كنعان وكان موقعها في الجزيرة المعروفة حتى الان بارواد نحو الشمال من اطرابلس وروى مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق (صفحة ١٨٢) ان اهليها كانوا ابدًا يكلفون بالقلق والثوران على مجاوريهم وحكامهم الاجانب من المصريين والاشوريين والفرس وقد بسطوا ولايتهم على سكان السواحل وداخلية البلاد فتولوا جبلة شمالاً وخضعت لهم حماه مدة ما هذا عدا املاكهم في اليابسة تجاه جزيرتهم منها طرسوس المسماة قديمًا انتيرواد اي قبالة ارواد وعمريت الاتي ذكرها

وتلي ارواد جنوبًا ماراتوس المعروفة اليوم بعمريت وقد بقي فيها حتى الان

اخربة واطلال ناطقة بعظمتها في الاعصار الخالية وقال فيها لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦) انها اهم ما بقي من اثار ابنية الفينيقيين وجعل بعضهم موقع ماراتوس في شمالي ارواد حيث مصب نهر مرقية الان وذكر لانرمان (في المحل السالف ذكره) بعد عمريت سيميرا وقال انها في الجنوب من عمريت قريبة من مصب النهر الكبير وانها عاصمة الصماريين وانها لم تدخل في عهدة الفونيقيين ويتبين لي ان الاظهر ما قلناه في عد ٣٧ اعتمادًا على ان استرابون ذكر سيميرا بين المدن الواقعة بين النهر الكبير جنوبًا واللاذقية شمالاً وذكر ارتوسيا (طرسوس) قبلها من جهة الجنوب ثم استئناساً بما في معجم الكتاب لكلمت من ان موقع سيميرا بين النهر الكبير جنوباً ونهر مرقية (في شمالي ارواد) شمالاً ويؤيد ذلك ان هناك اي في الشمال من ارواد لجهة المرقب وبلدة زمرين او صمرين ووادي صفرة او سمرة والكلمتان تقربان من سميرا او صميرا وربما اشعر بشيء من ذلك قول لانرمان نفسه بان سميرا لم تدخل في عهدة الفونيقيين اذ يكون وجهه كونها خارجة عن تخومهم التي لم تمتد شمالاً الا الى ارواد

ويلي النهر الكبير الى الجنوب عرقا المعروفة حتى اليوم بهذا الاسم وكانت عاصمة العرقيين وجعل لانرمان موقع اوتسيا هناك على شاطىء البحر وقال ان الاثار الاشورية تسميها شمرون وانها كانت من مدن فونيقي الكبيرة ويحتمل ان صارت عاصمة العرقيين من اقدم الايام لبعد عرقا عن البحر لكن المعلوم ان ارتوسيا يراد بها طرسوس او بلدة اخرى قديمة تقرب منها ويلي عرقا من جهة الجنوب اطرابلس ولا يعرف ماكان اسمها قبل ان يسميها اليونان تريبوليس اي المدن الثلث بل المعروف ان الارواديين والصيداويين والسوريين بنوا هناك ثلثة احياء لكل فريق حياً منفصلاً عما سواه فسميت باليونانية تريبوليس

جبل بمعنى حصن

اي المدن الثلث فجعلها العرب طرابلس وزادوا الهمزة في اولها تمييزاً لها عن طرابلس المغرب ويميزها بعضهم عن تلك بطرابلس الشام

ويلي اطرابلس نحو الجنوب ايضاً قلموس ويرجح انها كانت في محل القلمون الان ثم جيغارتوس ويحتمل ان كان موقعها في القرية المعروفة اليوم بانفة وذكر بوليب وبلين واسترابون مدينة اخرى صغيرة بين جبيل واطرابلس وسموها ترياديس ولا يعلم موقعها حتى الان ويلي هذه المدن المحل الذي سماه اليونان ثأوبروسبون اي وجه الله ويظهر انهم ترجموا الاسم الفونيقي وهو « فاني بعال » اي وجه بعل كانه كان هناك هيكل او معبد ويسمى هذا المحل اليوم وجه الحجر . وفي جانب وجه الحجر من جهة الغرب الجنوبي البترون وليست عريقة في القدم اذ روى يوسيفوس عن بعض القدماء ان ايتو بعل ملك صور بناها

ويلي البترون من جهة الجنوب جبيل وهي اقدم المدن حتى كان من تقليداتهم ان الاله ايل بناها وفي اسمها اقوال فمن قائل انه مركب من جب بمعنى قبر او مدفن ومن ايل بمعنى الاله اي مدفن الاله يريدون به ادونيس او تموز لاشتهار اهلها بعبادته ومن قائل انه مركب كذلك ولكن جب بمعنى حصن وتأويله حصن الاله ومن قائل انه بمعنى الجبل لان موقعها كان على الاكام القريبة منها او لان سكانها الاولين اتوها من الجبل وسماها اليونان بيبلوس وروى مسبرو عن رنان انه كان على الاكمة التي تملو اخربتها الان هيكل كبير بديع الصناعة كانت تزدحم به اقدام الحجاج من كل صوب اذ كانت المدينة المقدسة عندهم حتى سماها رنان اورشليم لبنان . وكان في جنوبي جبيل مدينة اخرى او ضاحية سماها اليونان بالي بيبلوس اي جبيل القديمة وفي موقعها اقوال بين ان كانت على مقربة من جبيل في جنوبها او حذاء نهر ابرهيم وهو نهر

ادونيس عندهم او في طبرجة او في صربا بجانب جونية

وفي جنوبي جونية نهر الكلب وهو المعروف بليكوس عند القدماء وهناك الممر الشهير حيث ترك لنا اكثر غزاة فونيقي حتى بعض الملوك الرومانيين تماثيلهم ذكرى لهم وفي جنوبيه بيروت قال لازمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦) « قد اسسها الجبيليون وكانت مدينة ملكية في كل عصر وكانت لها اهمية كبرى في مراكبها البحرية وتجارتها المتسعة النطاق وتأويل اسمها ابار وارضها تتاخم بلاد عشيرة صيدون بكر كنعان كما سماه الكتاب » وعن مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٤) ان بيروت كانت تتفاخر كجبيل بان الاله ايل بناها وكان للمدينتين اهمية كبرى في السياسة بعد بلوغ الكنعانيين الى سورية فلم تمكنا من المحافظة عليها ولكن لم ينحط لذلك شأنهما واستمرتا الى منتهى ايام الوثنية اشد استمساكاً بعرى احد المذاهب الدينية السورية . قلنا لكن اهليهما آمنوا بالانجيل عند بزوغ انواره واقام القديس بطرس الرسول نفسه اسقفين فيهما كما حققه كثير من اصحاب التواريخ البيعية

ويلي بيروت جنوباً خلدوا ويظهر ان قد كان موقعها في محل خلده الان على بعد نحو من ساعتين عن بيروت ثم يورفيريون ويظن ان قد كان موقعها في محل الجية اليوم والاسمان لليونان ولا يعلم ما كان الفونيقيون يسمون هاتين البلدتين به

ويلي ما مرّ جنوباً صيدا صيدون القديمة اقدم مدن الفونيقيين وكانت تسمى ام المدائن ما عدا جبيل المقدسة ولذلك سماها الكتاب صيدون الكبيرة (يشوع فصل ١١ عد ٨) وكانت منقسمة الى محلتين صيدون الكبرى على شاطىء البحر وصيدون الصغرى على مسافة منه نحو الجبل . وانكر بعضهم ان يكون اصل لذلك الا قول الكتاب الانف الذكر « صيدون الكبيرة » فتوهم

بعضهم انه سماها الكبيرة تمييزًا لها عن صيدون اخرى صغيرة فقالوا ما قالوا ولم يحقق احد الجغرافيين وجو دصيدونين) عن كلمت في معجم الكتاب في كلمة صيدا) وسترى كلامًا مطولاً في صيدا وسؤددها . ويلي صيدا جنوبًا سربتا المعروفة الان بصرفند ويظهر انها كانت في الاعصر القديمة ذات غنىً واهمية كبرى لكنها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد خضعت لصور وكان بين صرفند وصور عدة مدن صغيرة منها نازانا التي سميت بعد ذلك قيصرية وافاتا حيث الان اخربة عدلون بل كان هذا الشاطئ معممًا بمحطات التجارة ومستودعاتها . ويلي ذلك جنوبًا صور ومعنى اسمها في الفونيقية صخر او حجر وجعلها الجغرافيون القدماء مدينتين احداهما موقعها في جزيرة صغيرة غير بعيدة عن الشاطىء وكانت محصنة كاروادوالاخرى في اليابسة وجعل لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٧) موقعها في محل راس العين الان وانها كانت تسمى بالي تير اي صور القديمة وانها لم تكن في اول امرها الا اكواخًا من قصب يتخذها الصيادون وسنجيء بكلام مسهب في صور وملوكها وعظمتها وتجارها وحروبها . ويلي صور جنوبًا سرعة وكانت من نواحي صور ولا يعلم من امر موقعها الا انه كان قريبًا من صور ثم اوس وسماها اليونان اسكندرونة وهو اسمها الان ايضًا وذكرت في الاثار المصرية باسم اوس ثم كيكنا وهي المسماة في ايام السلوقين اللاذقية والان تسمى ام العواميد ثم اكديبا وهي المعروفة اليوم بالزيب ويلي هذه جنوبًا عكا وهي التخم الجنوبي لبلاد الفونيقيين وسماها اليونان بتولمايس ثم عادت الى اسمها القديم وهو اكو او عكو فهذه اخص مدن الفونيقيين وسترى ذكر كلٍ منها مرددًا بذكر ماكان من الاحداث فيها

الفصل الثالث

(في الصيدونيين واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسية)

عد ١٠٩

في اختراع الصيدونيين الملاحة وانكبابهم عليها

كان السؤدد في الفونيقيين بل في اكثر العشائر الكنعانية في بادئ امرها للصيدونيين فهم الذين رقوا الامة اولاً في مدارج الحضارة واخترعوا فيها الملاحة وذللوا تيار البحور ساعين فوق الامواج بسلع مصنوعاتهم وافتتحوا الجزر والبلاد الشاسعة واقاموا فيها المستعمرات العديدة فبينما كان ابناء عمهم الحثيون يشنون الغارة على مصر فيستحوذون على ارضها الخصبة ويجلسون قادتهم على منصات الفراعنة كان الصيدونيون يغالبون البحر لينتصروا عليه ويمتطوه ويذللوا امواجه كلفاً بالتجارة واعتياضاً بها وبالصناعة عن حراثة الارضين التي لم يكن لهم منها ما يكفيهم ويكفي سائر العشائر المرتحلة معهم والمحتلة البلاد قبلهم . فلم يكن لهم في كل غربهم يبس بل ماء وكان السواد الاعظم من ساكني شطوط البحر المتوسط على حالة الهمجية المعروفة بالعصر الحجري فلم يكن لهم خبر بعمل زورق تقله الامواج والبلاد المتقدمة بالحضارة كمصر نفسها لم يكن من اهليها من يجسر ان يركب خشباً يطفو به فوق الماء ولو مرمى حجر فكان الصيدونيون اول من اجاد على المعمور بهذا الاختراع الخطير الذي تشذ منافعه عن كل عد فركبوا البحر معاندين الرياح والعواصف يتطلبون في شاسع الارض المعادن والاخشاب والحجارة الثمينة ويستجلبون المواد الاولى اللازمة للصناعة وينقلون الى الآفاق مصنوعاتهم وينشرون معارفهم وقد احتكروا هذه الصناعة

فلم يكن لهم فيها مبارٍ قرونًا

وهاك ما كتب فيهم العالم بوجولا الافرنسي (في كتابه المعروف بمراسلات المشرق رسالة ١٣٧) ، ان ما يدهش في اعصر صيدا القديمة انما هو ذكاء اهليها القدير على الاختراع وعلمهم بالصناعة وقد اطرأ هوميروس الصيدونيين بانهم اهل لكل شيء فاقدم التواريخ تقلد ابناء صيدون فخرًا ومجدًا فكانت ارضهم اول مهد للعلوم البشرية واول مهد للصناعة فهيأت بذلك اسباب الحضارة في المعمور فقد يمكن ان يكون الفونيقيون اخذوا عن الهنود والفرس والبابليين بعض المعارف الاولى وبعض التقليدات النافعة لكن ما لم يخترعوه قد كملوه فقد اخذوا شرارة فصيروا منها شمسًا والحق يقال ان هذا الشعب جاد علينا باكثر المنافع . فمصر القديمة جعلت حكمتها وعلومها اسرارًا فكانت تحجب مصباحها لئلا ينبعث نوره لارض سواها واما فونيقي فلم تكن لتألوا جهدًا في تسطيع انوار معارفها في كل صوب فتترأى لي مصر في اعصرها الخالية بهيئة كاهن لا ينطق بشيء بل يخبي نوره المقدس في اعمق خفايا هيكله واما فونيقي فاراها بهيئة اولئك الالهة القدماء الذين كانوا يقلون على رؤوسهم منارة في وسط البحور واخص ما يحق لفونيقي الفخار به اختراعان اعني اختراع الملاحة واختراع الكتابة ، انتهى

قال لانرمان (في مجلد ٦ صفحة ١٨١) ما ملخصه ان تنقيب العلماء في مصنوعات الاولين اكسبنا العلم ثلاثة امور لا مرية فيها اولها ان المصنوعات المعدنية في اسيا هي قديمة قدمًا مستغربة . ثانيها ان المصنوعات النحاسية اقدم كثيرًا من المصنوعات الحديدية . ثالثها انه منذ اهتدى الناس ان يذيبوا النحاس ويصنعوا منه ادوات شعروا بالاحتياج الى ما يجعله اكثر صلابة ومتانة بان يدوفوا به شيئًا اخر وعلموا ان مزج القصدير بالنحاس يصلح هذا الخلل اذ يتركب منهما

البرونز وهو الصفر (اي النحاس الاصفر) التي وجدت تلك الادوات مصنوعة منه فالمصريون والبابليون كانوا يجدون النحاس في ارضهم او ما جاورها واما القصدير اللازم لتركيب الصفر فلم يكن الا في بلاد شاسعة اذ لم يكن منه الا في جبل قاف وفي الهند واسبانيا وقد وجدوا في منف ادوات وآنية من الصفر مدفونة هناك منذ عهد بناء الاهرام فنتجوا ان لا بد من تجارة في تلك الاعصر المتناهية في القدم كانت تجلب القصدير من تلك الامصار القاصية الى فراعنة مصر لخلو ارضهم وجوارها منه . وقد جنح بعض العلماء الى القول بان القصدير الذي كانت تستعمله الامم المتمدنة في الشرق اي المصريون والكلدان والاشوريون والفونيقيون كانوا يستجلبونه من جنوب سيباريا ومن بلاد الصين الغربية ومن شبه جزيرة ملاكا حيث توفرت معادن القصدير ولا يخفى ما كان من المخاطر على القوافل في اسفارها بين قبائل رحل دأبهم السطو على ابناء السبيل وقد كانت الحروب والعداوات تقطع احيانًا الطرق قطعًا على السالكين فحملت الضرورة الفونيقيين الذين لا معاش لهم الا بالتجارة والصناعة ان يستنبطوا وسائل لاستجلاب القصدير وحاصلات المشرق لانفسهم ولغيرهم كالمصريين وان يستطرقوا طرقًا آمنة لا معتدٍ ولا منازع لهم فيها فاهتدوا الى الملاحة واخذوا اولاً يسيرون سفائنهم الى جزر البحر المتوسط احداها بعد الاخرى الى ان بلغت اسفارهم الى البحر الاسود واقاموا لهم في تلك الجزر وفي اليابسة محطات لم تلبث ان اصبحت مستعمرات لهم كما ترى في العدد التالي

﴿ عد ١١٠ ﴾

مستعمرات الفونيقيين في مدة سؤدد صيدا

كانت قبرس اول محاط الفونيقيين في البحر لقربها من شطوطهم وعن مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ٢٣٧) عن اسطفان البيزنطي

ان الجبيليين سبقوا الصيدونيين اليها لكن جبيل كانت مدينة هياكل ومعابد يهمها الدين اكثر من التجارة فلم يكن لها املاك مهمة في الجزيرة بل اقامت هيكلاً فسيحاً في بافوس (الباف) في غربي الجزيرة وكان عمال بعض اصقاعها المسمون ملوكاً يخضعون اولاً لجبيل الى ان ذل جميعهم لسلطة صيدا وكثر منازيج الصيدونيين بين اظهرهم حتى اصبحت الجزيرة بلداً فونيقياً وكانت غنية في المعادن خاصة الحديد والنحاس وكانت اكمات تامازوس مفعمة بالنحاس حتى اعتاد الرومانيون ان يصفوا هذا المعدن بالقبرسي Cyprium وشاع هذا الوصف في سائر لغات اوربا انتهى ملخصاً . وعن فرديند هوفر Ferd. Hocfer في تاريخ فونيقي ان هذه الجزيرة افتتحها اولاً الحثيون Chittiens والحماتيون من عشائر الكنعانيين وبنوا اخص مدنها وهي شيتيوم وحماتونة (او حماسيا) ثم استحوذ عليها الصيدونيون على عهد ملكهم بالوس وتجد صورتها على بعض الآثار القديمة ناطقة بانها من مستعمرات صيدا القديمة ، وهذا يطابق ما ذكرناه في مقالة الحثيين من قول دي كارا ان قبرس كانت مستعمرة حثية لا يونانية (طالع عد ٨٥) وارى القول بان الحثيين بنوا شيتيوم التي سميت الجزيرة كلها باسمها اظهر من قول لانرمان وغيره بان الصيدونيين بنوها وغيرها في القرن السابع عشر الى الرابع عشر قبل الميلاد لان اول مدن الجزيرة التي سميت باسمها يلزم ان يكون قبل هذا التاريخ ولان اسم شيتيوم لا يحتاج الا بدل الشين بالحاء ليكون حيتيوم وحثيم اشعاراً بانها من ابنية الحثيين وحماتونة او حماسيا كما سماها بعضهم مشعرة باسم حماه مدينة الحثيين

وانتقل الفونيقيون من قبرس الى رودس دون ان تكون لهم حاجة الى كولمبوس فسيرهم نحو الشمال على جانب الشاطئ اداهم الى مدخل الارخيل وهو رودس وعن مسبرو (صفحة ٢٨٤ من تاريخه المذكور) عن سالون الاثيني

كيتيم

العلاقة لاحداها بالاخرى وان بعض العشائر كان ينضم الى بعضها الاخر فيقر ملوكها بالسيادة والتقدم لملك عاصمتهم وكانت هذه السيادة اولاً لملك صيدا ولما كان الملوك الرعاة يلون مصر كان ملوك سورية ناعمي البال لا يخشون غارة ولا يتقون سطواً من قبل مصر بل كانت لهم ملجأ وملاذاً في كل نازلة ونائبة اذ كان الرعاة سوريين ولكن منذ طرد الرعاة من مصر واستتب ملك الدولة الثامنة عشرة فيها طمحت ابصار ملوكها الى الاستيلاء على سورية ولا اقل من تذليل ملوكها خيفة ان يتألبوا مع الملوك الرعاة ويعاودوا الغارة على مصر وعليه فقد غزا امون هو تاب الاول (ويسميه اليونان امانوفيس) سورية الجنوبية ثم اكمل توتمس الاول خلفه اخضاع العشائر الكنعانية في فلسطين وتوغل في البلاد حتى وصل الى انحاء دمشق وكانت له وقائع عديدة مع الروتانو السالف ذكرهم فانتصر عليهم واراد تذليلهم كي لا يعاودوا العداوة له فوطئ بجحافله بلادهم كلها حتى انتهى الى الفرات واقام على ضفته على مقربة من كركميش نصباً لذكرى انتصاره. ويظهر ان الصيدونيين ومن جاورهم من العشائر خضعوا منذ حينئذٍ لفراعنة مصر واخلصوا في الطاعة لهم حتى لم يشتركوا او لم يجاهروا بالعداوة لتوتمس الثالث عند غزوته للروتانو والسوريين ولم يدخلوا حرب مجدو (اللاجون) (طالع عد ٦٢) واستسلموا لرعمسيس الاول اول ملوك الدولة التاسعة عشرة عند غارته على الحثيين ولم يعترضوا طريقه عند مروره بهم (طالع عد ٦٣) وكذا فعلوا مع ابنه ساتي الاول عند حروبه في سورية مع الحثيين وادوه الجزية ونجدوه بذخائرهم (طالع عد ٦٤) وكانوا يمالئون ابنه رعمسيس الثاني عند معاداته الحثيين ايضاً (طالع عد ٦٥) وعليه فالصيدونيون ومن جاورهم سالموا فراعنة الدول الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين مؤثرين راحتهم ونجاح تجارتهم على العصاوة والخسارة وهذا بيّن من الاثار

المصرية التي جئنا بترجمة بعضها في الاعداد التي ذكرناها هنا فانك لا تجد فيها ذكراً للصيدونيين ومدنهم في عداد من ثاروا او جاهروا بالعداوة للملوك المذكورين مع ان سائر العشائر الكنعانية حتى من انضموا بعد ذلك الى العهدة الفونيقيـة كالارواديين والصمريين حازبوا اعداء مصر . وتجد الآثار الهيروكايفية تكثر من الكلام في صناعة الفونيقيين وثروتهم

ان في المتحف البريطاني بابيراً يشتمل على حكاية سفر عامل مصري في سورية للسنين الاخيرة من ملك رعمسيس الثاني بعد عقـده عهدة الصلح مع الحثيين فهذا البابير ينبئنا حالة سورية في زمان كتبه ولذا كان له اهمية تاريخية فهذا العامل كان في بلاد الحثيين وانتهى الى حلبون (حلب) وعند عوده منها وقبل ان يبلغ الى فلسطين مر بفونيقي وذكر جبيل واسرارها واهميتها الدينية ثم بيروت ثم صيدا ثم صربتا اي صرفند ثم شاطىء تازانا (معبر نهر الحيصراني) ثم اوالتا حيث الان اخربة عدلون . ثم اتى « صور البحرية » وكلامه فيها مشعر بانها كانت حينئذٍ قرية على صخر في وسط البحر وقال « ان الماء يجلب اليها بالسفن وانه يتوفر فيها السمك » وانه سار بعد ذلك قليلاً نحو الجنوب فبلغ الى سعره وان اسمها بالفونيقية معناه الزنبور اللاسع وانه انتهى بعد ذلك الى كايكنـا المعروفة اليوم بام العواميد ثم الى اخريب وهي المعروفة الان بالزيب وانه من هنـاك ترك الساحل وسار في الجبل قاصداً حازور . ويظهر انه اتم سفره هذا آمناً لامعارض له كانه في وادي النيل بل كان يستعمل السلطة احياناً آمراً ناهياً لانه عامل مصري ومن هذا ايضاً يظهر ان الصيدونيين والبيروتيين والجبيليين استسلموا الحكومة مصر مذ تولت سورية مخلصين الطاعة والانقياد لها وبدلاً من ان يناوؤها لنيل الاستقلال الكامل لهم اجتزأوا بان تبقى لهم حكامهم الوطنيون وحرية العمل بسننهم وعدم الاعتراض لهم باسفارهم وتجارتهم وان يكون لمصر

ان الكاريين سكان الجزيرة حينئذٍ اختلطوا بالفونيقيين فزوجوهم وتزوجوا بناتهم حتى اصبحوا شعباً واحداً يسمى كاريين وفونيقيين ورقوا الحضارة درجات في الجزر والبلاد القريبة منهم ولما تقهقرت حالة الفونيقيين تقهقرت حالهم ايضاً وتوصل الفونيقيون من جهة الى اكريت فبنوا فيها مدينة ايتانوس ومن اخرى الى جزيرتي ثارة وقيثاره فادخلوا فيهما عبادة عشتروت اي الزهرة الفونيقية فكان ذلك اصلاً تفرعت عنه عبادة افروديت القيثارية معبودة اليونان . ونرى آثار اقامتهم في اوليااروس وانتيباروس ويوس وسيروس (سيرا) وعن اسطفان البيزنطي ان اوليااروس كانت للصيدونيين ومالوس للجبيليين واكتشف الفونيقيون معادن الفضة في جزيرتي سيفنوس وسيمولوس او جعلوا سكانهما يكتشفونها وكل هذه الجزائر هي من الارخبيل في بحر الروم في شمالي رودس وغربي الاناضول . ثم توصلوا الى جزيرة تاسوس (بولاية الجزر في قرب شاطئ الروملي) فاستحوذوا عليها طمعاً بمعادن الذهب التي كانت فيها وقد شهد هيرودوت هذه الجزيرة بعد عشرة قرون وقال انه دهش مما رآه في آثار الاعمال الكبيرة التي اجراها الفونيقيون في استخراج هذه المعادن

ولم يقف الفونيقيون عند تاسوس بل كان ملاحوهم يعدون ذخائرهم هناك ويسيرون سفائنهم الى الشمال ايضاً فيعبرون بوغاز الدردنيل وبحر مرمرا والبوصفور فيتصلون الى البحر الاسود غير مبالين بعواصفه التي يخشاها بحارة سفائن هذا العصر نفسه حتى انتهوا الى جنوب جبل قاف وكانت سفنهم تشحن من هنالك المعادن الثمينة ولاسيما الذهب المشهورة معادنه في تلك البلاد والقصدير اللازم لصناعتهم في عمل الصفر وكان الايباريون سكان تلك الامصار يستخرجونه من سلسلة جبل قاف ويأتون تجارهم به وبالرصاص والفضة لوجودهما في أنحاء اخرى من هذه البلاد وكان للفونيقيين محاط ومستعمرات في سواحل

هذه البحار وجزرها بقيت آثارها الى الاعصار التاريخية فاوصل القدماء اخبارها الينا

وكان تجار الفونيقيين في ذلك العصر نفسه يجدون في تسيير سفنهم على شطوط الابير (البانيا الجنوبية شمالي بلاد اليونان) وايطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية وصار لهم فيها ولاسيما في الابير مستعمرات ومحالّ تجارية ولم تنحصر تجارة الفونيقيين في هذه البحار وسواحلها بل كان لهم في مصر ايضاً تجارة وسيعة واقام كثير من تجارهم في مدن مصر السفلى وكان لهم في منف حي خاص بهم وكانت سفائن الصيدونيين والبيروتيين تسير على شطوط افريقيا حتى قرطاجنة حيث ولاية تونس الان وبنوا هناك مدينتين كمباه حيث بنيت قرطاجنة في ما بعد وهيبون على مقربة منها (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٤٨٩) وبينما كانت سفائن الفونيقيين تمخر البحور كانت قوافلهم تطوي البيد ايضاً فيغترب تجارهم طلباً للرزق والانتفاع وقد تطرقوا الى سائر انحاء سورية والى بلاد العرب والكلدان وارمينيا ايضاً وجميع الطرق التجارية من الشرق الاقصى (اي من الهند وتركستان وبلاد الكلدان) حتى انحاء جبل قاف كان اتجاهها نحو المغرب ومؤداها في صيدا وصور وكان للفونيقيين في هذه الطرق محاطّ ثم مستعمرات اخصها في حماه شاطئ العاصي وتبساك على شاطئ الفرات من جهة بادية تدمر ونصيبين على مقربة من ينبوع دجلة الى غيرها من المحال التي كان يتفاخر قدماؤها بانهم من الفونيقيين (مسبرو عن موفر واسطفان البيزنطي صفحة ٤٣٤ من تاريخه لشعوب المشرق)

﴿ عد ١١١ ﴾

في الحال السياسية على عهد الصيدونيين

قد مرّ ان العشائر الكنعانية كانت تنقسم الى ممالك عديدة قلما كان من

السؤدد السامي والفراعنة رغبوا في تنويلهم كل ما شأوا لحاجتهم اليهم اذ لم يكن في شعب مصر من يحسن نظيرهم الملاحة والتجارة (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٤٨٥)

عد ١١٢

في قيام الفونيقيين بعمارة مصر البحرية

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٩١) لم يحسن المصريون الملاحة بل كانوا مغضين لها كالاشوريين والفرس وكانوا يمقتون البحر ويحسبونه نجساً يليه اله السؤ فاذا ركب المصري البحر في سفينة خال نفسه على ظهر عدو يهدده ويلحق به نجاسة دينية فتشبثهم بهذه المعتقدات الباطلة حرم عليهم ان يكون منهم بحارون ثم ان لم يكن للاشوريين عند استفحال امرهم اسطول بحري في بحر الروم الا سفن كيليكيا وفونيقي وان لم يكن للفرس من السفن الا ما ركبه اليونان والفونيقيون والكيليكيون فباولى حجة لم يكن لفراعنة مصر من سفن الا ما قام فيها الفونيقيون والصيدونيون خاصة . وقد تبين بالاثار والتواريخ المصرية انه كان لمصر في عهد توتمس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة اسطول ينفذ سلطته ويجبي له الجزيات من الامصار الشاسعة وما تلك الامصار الا البلاد التي كان الصيدونيون يظبون التجارة فيها او حل فيها جالة منهم كقبرس وكريت وجزائر الارخبيل وشطوط افريقية الشمالية وغيرها . واذا كان جنود الفراعنة في البحر المتوسط فونيقيين فلا يعدو ان يكون كذلك جنودهم في البحر الاحمر وعليه فقد كان الصيدونيون ينقلون العساكر المصرية الى بلاد العرب الجنوبية لتدويخها او لرد اهليها الى الطاعة وهم كانوا يلون السفن التي تنقل الى مصر حاصلات الهند وبلاد العرب من معادن واحجار واخشاب ثمينة وعاج وغيره والاسفار في البحر الاحمر محفوفة بالاخطار فتستلزم ملاحين ماهرين

حتى ان الدولة السادسة والعشرين ارادت ان تسير سفنًا فلزمها ان تلتجئ الى الفونيقيين ونرى من جهة اخرى الكتاب ينبئنا ان السفائن التي بناها سليمان في ايله بعد معاهدته لحيرام ركبها ملاحون صوريون ليسيروها الى اوفير لاستجلاب الذهب ونجاح هذه السفن منذ اول اسفارها دليل على ان البحارة الصوريين كان لهم مخبرة سابقة في تلك البحار وسواحلها تلقوها عن اسلافهم الصيدونيين من لدن اشتراكهم مع المصريين انتهى

عد ١١٣

في تقهقر صيدا وسقوطها

قد كشفت لنا الآثار المصرية التاريخية عن خطوب كبيرة حدثت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على عهد ساتي الاول او قُبيله وهي ان عشائر البلاسج (قدماء بلاد اليونان) احدثوا سفائن في البحر المتوسط وبعض فصائل الليبيين اليافثيين غشوا افريقية بحرًا وحلوا على شواطئ بحيرة تريتون المسماة بحيرة فرعون في بلاد المغرب فعقدت عهدة بين البلاسج سكان جزر الارخبيل وبلاد اليونان وايطاليا وسكان كريت وصقلية وسردينيا وبين الليبين في افريقيا ودامت هذه العهدة قرونًا ولم يكن توسط البحر بين المتحالفين بمانع لهم عن المواصلات المستمرة في امور التجارة وغيرها وهذا يقتضي بلا بد مهارة قوم من المتحالفين في الملاحة وادارة السفن وعظمت صولة اصحاب هذه المعاهدة وانبسطت سلطتهم حتى غزا الليبيون في ايام منفتاح (فرعون الخروج) مصر السفلى الى ما وراء منف بالاتفاق مع بعض الايطاليين واليونان. فنجاح البلاسج في الملاحة كان جرحًا مثخنًا في نفوذ الصيدونيين الذين لم يكن لهم قبل ذاك مزاحم ولا مبار في البحر ولم يكتفِ هولاء بالمزاحمة بل كان الطبع نفسه يحملهم على معاداة الصيدونيين ليأخذوا منهم جزر الارخبيل وما جاورها في

بلادهم ويمنعوهم استفراغ معادن الذهب والفضة التي هم بها اولى . فابتدأ لصوص البلاسج يعتدون على سفن الصيدونيين في بحر الروم وشرع اعداءهم يثيرون السكان الوطنيين على جاليتهم وينجدونهم عليهم فاضطر الفونيقيون ان يتركوا مستعمراتهم في الارخبيل الواحدة بعد الاخرى فلم يبقَ لهم منها الا ثارة ومالوس وتاموس لتمكنها من الدفاع ولم ينجد فراعنة مصر الفونيقيين مسوديهم على اعدائهم بل اغضوا عن كل مساعدة لهم مادية او معنوية ولم يقف البلاسج عند هذا الحد بل قطعوا على الفونيقيين طريقهم في الدردنل والبصفر ليمنعوهم البلوغ الى البحر الاسود والى المراسى التي كانوا يتلقون فيها المعادن وذهب كولشيد (معاملة في جنوب جبل قاف) خاصة وتطرقت سفن اليونان الى تلك الامصار كافًا باحراز معادنها النفيسة

وعقب ذلك افتتاح بني اسرائيل بلاد الكنعانيين وطرد يشوع بن نون لهم من مواطنهم وتمليكه ارضيهم لشعبه فهو لم يحارب ملك صيدا لكن غزوته غيرت حالة البلاد واضنكت صيدا اذ دمر احدى وثلاثين مملكة صغيرة وقتل ملوكها وقد كانوا عضدًا للصيدونيين وتزاحمت اقدام الغارة في ساحل صيدا فضاقت الارض بهم واثقلوا كاهل اهلها وكانوا عليهم وبالاً واكرهوا على ان ينزح منهم كثيرون الى جهات عديدة والمشهور من هولاء المنازح الجاليتان الانف ذكرهما في عد ١٠٥ اي جالية قدموس الى بلاد اليونان وجالة الجرجسيين واليابوسيين خاصة الى بلاد المغرب حيث املاك تونس الان . واعتقب غزوة يشوع بن نون حلول الفلسطينيين في جنوب بلاد الكنعانيين وسترى في تاريخ العبرانيين ان هولاء الفلسطينيين اتوا من كريت وغيرها من جزر بحر الروم وسواحله بحرًا قاصدين ان يستحوذوا على مصر وكانوا من اصحاب المهدة السالف ذكرها اي البلاسج والليبيين فهبَّ رعمسيس الثالث لمقاومتهم فانتصر

عليهم واسر السواد الاعظم منهم واسكنهم في التخوم الفاصلة بين سورية ومصر اي في غزة واسدود وعسقلون وغات وعقرون وكان ذلك في اثر تملك بني اسرائيل ارض الموعد ويظهر انه لحقهم الى هناك قوم من جلدتهم فتكاثر عديدهم واشتد ساعدهم ولم يمر عليهم قرن حتى كان منهم جنود مدربون في القتال يروّعون من جاورهم وبنوا سفناً بحرية وعظمت سطوتهم وصولتهم واعانهم على ذلك خمول ملوك الدولة العشرين في مصر حتى سولت لهم انفسهم الاستيلاء على سورية الجنوبية كلها فضايقوا بني اسرائيل ستين طوالاً واذلوهم نحواً من نصف قرن وسطوا على الصيدونيين ايضاً ونكلوا بهم وفي نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد سيروا اسطولهم من عسقلون على حين غفلة الى صيدا اذا لم تكن مستعدة للقتال فافتتحوها عنوة ودمروا المدينة وابسلوا من وجدوا من اهلها فكانت بذلك نهاية سؤدد صيدا (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥٠٠)

الفصل الرابع

﴿ في الفونيقيين في عصر سيادة صور الى بناء قرطاجنة ﴾

﴿ عد ١١٤ ﴾

﴿ في جعل صور عاصمة للفونيقيين وانضمامهم اليها ﴾

قد سرَّ الفلسطينيون بقهرهم ملكة البحر وتشتيت شمل اهليها واملوا ان ترثها عسقلون مدينتهم لكنهم لم يتولوا شؤون الفونيقيين بل اكتفوا باقامة حرس في بلاد العبرانيين فكان بذلك فرجة للصيدونيين ومندوحة لنهوضهم بعد سنين قليلة من ورطة مصابهم والذين ركنوا الى الفرار من صيدا اجتمعوا في صور

حول هيكل ملكرت الذي كان مركز الامة الديني ولم تكن صور اذ ذاك الا مدينة ثانوية فزادت هذه الاحداث في عداد شعبها ورقتها الى اعلى مقام في الامة فخلفت صيدا في سؤددها واصبحت عاصمة الفونيقيين سياسة ودينًا وكان ذلك في بدائة القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولم يميز بعضهم بين بناء صور وسؤددها فجعلوا بناءها في تاريخ سؤددها ومنهم يوسيفوس فانه قال (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود) ان صور لم تبنَ الا لمئتين واربعين سنة قبل هيكل سليمان وادعى بعضهم ان يوفق بين القولين بان صور القديمة التي كانت في اليابسة وهي عريقة في القدم وصور الحديثة هي التي كانت في الجزيرة وهي التي ذكرها يوسيفوس لكن الاثار القديمة تخالف هذا التوفيق وتثبت ان صور البحرية اقدم كثيرًا من التاريخ الذي ذكره يوسيفوس وصور البرية هي التي كانت مصايب صيدا فوائد لها فانه لم يكن في الامكان توسيع نطاق الجزيرة لسكنى الغارة فيها ولم يكن فيها ماء صالح للشرب كما مر آنفًا في حكاية سفر العامل المصري وكان في شمال الجزيرة وجزيرة ملكرت مرفأ طبيعي يسع سفنًا عديدة وعليه فكانت صور ذات ثلثة احياء يفصل الماء احدها عن الاخر اي الحي البري وهو المدينة حقيقة على الشاطئ واكثرهم على ان موقعها كان في محل راس العين الان ثم الحي البحري وهو الجزيرة الاولى ثم الحي الكهنوتي حول هيكل ملكرت في الجزيرة الثانية في جانب الاولى وقد سمى اشعيا النبي (فصل ٢٣ عد ١٢) صورانية صيدا اذ قال لها « لا تعودين تفتخرين ايتها المنهتكة العذراء بنت صيدون » فعصر سيادة صور هذا افتتح سنة ١٢٠٩ ق م (على ما ذكر لانرمان) واستمر خمسة قرون اعني الى ان حاصر سرغون ملك الاشوريين صور . وفي هذا العصر خاصة استحكم اتحاد الفونيقيين وتوثقت عرى عهدتهم فان الكنعانيين بعد ان استحوذوا على اكثر اعمال سورية زمانًا طويلاً اصابتهم

في القرنين الرابع عشر والثالث عشر نكبات عديدة متتالية انتزعت اكثر املاكهم فافتتح بنو اسرائيل فلسطين وطردوهم منها وغنموا ما كانوا يملكون واخرب الفلسطينيون صيدا واسترد الاراميون حماه منهم واذلوا من كان فيها من الكنعانيين وفصلوا بذلك بين الكنعانيين الذين كانوا يسكنون لبنان وجواره واخوانهم الحثيين سكان شمالي سورية وجبل اللكام فهذه المحن حملت من بقي من الكنعانيين في شمالي فلسطين على الانضمام فاتحد سكان صور وعكا ومن بقي من الصيدونيين ثم غيرهم من العشائر كالعرقيين والصماريين والسينيين والاروادين الذين كانوا يسكنون السواحل البحرية الى ارواد فتألف منهم شعب واحد وعصبة واحدة وسموا فونيقيين على ان مدنهم الشهيرة كبيروت وجبيل وسيميريا وغيرها حفظت لنفسها استقلالها المحلي وهيئة حكومتها التي كانت الملكية مقيدة بمجالس عامة مؤلفة من اغنياء الشعب ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة الذين كان لهم الكلمة النافذة وكان هولاء القضاة يمشون في الحفلات العامة بجانب الملوك وكان الملوك يفاوضونهم في امر بعث السفراء الى صور مركز الامة وكان للكهنة نصيب وافر في تدبير شوءون الحكومة على انه لاسبيل الى القطع بما كانت تتصل اليه سلطتهم ولكن اذا راعينا ما كان يجريه كهنة بعل في اليهودية علمنا ان مقدرتهم كانت عظيمة وكانت نظامات جبيل دستورًا ومثالاً لهذه الحكومات الملكية المقيدة باراء الكهنة والاشراف وكان ملوك المدائن الفونيقية على استقلالهم بتدبير شوءون ولايتهم يقرون لملك صور بالسيادة على الامة كلها وكان يسمى حينئذ ملك الصيدونيين وان اقام في صور وله ان يبث جميع المسائل المتعلقة بالمصالح العامة وان يوقع على العهود مع الاجانب ويخضع لامرته الجنود البحرية والبرية وكان لديه مبعوثون من كل من مدن فونيقي وبقي الارواديون على شيء من الانفصال عن سائر مدن فونيقي وان كانوا من حلفائها ويقاسمونها منافع التجارة والاسفار البحرية فاصبحت صور لذلك المرفأ الاول للتجارة

والمركز العام للسياسة ولم يكن السكان فيها وفي سائر المدن يكفون للاقامة على تجارتهم واعمالهم ولتعاطي الملاحة في السفن وللخدمة في الجندية برًا وبحرًا فلزمهم ان يستأجروا بحارة اجانب خاصة من بلاد الاروادبين وكان اكثر جنودهم مستأجرين حتى كان حرس صور نفسها من الاروادبين وباقي الجنود من الشعب الليبي الفونيقي السالف الذكر من سكان سواحل افريقية وكان فريق منهم من ليديا من اسيا الصغرى (لانرمان مجلد ٦ من تاريخه صفحة ٥٠٦) وقد اشار الى ذلك حزقيال النبي بقوله (فصل ٢٧) لصور « سكان صيدون وارواد كانوا قذافين لكِ شيوخ جبلَ وحكماؤها كانوا فيك جلافطة لخصاصك (اي يضعون القِير في خروق سفنك او غيرها) . . . فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك . . . بنو ارواد مع جيشك كانوا على اسوارك من حولك »

عد ١١٥

مستعمرات الفونيقيين في مدة سيادة صور

ان انضمام الفونيقيين الى صور جدّد قواها وشدّدها ويسّر اسفارها التي كان عراها بعض الوقوف من قبل خراب صيدا واعتراض سفن البلاسج لها ولما كانوا يئسوا من معاودة الاستيلاء على الجزر المجاورة بلاد اليونان ولم يكن باقيًا لهم منها الا ثارة وميلوس وكاميروس وتاسوس والا مدينة يالبسوس في جزيرة رودس لزم ان تكون اسفارهم واتجارهم في وجهة اخرى لا يلقون لهم بها منازعًا وقد مر انه قد كان حل منهم نزلاء في المغرب وعمروا مدينة هيبونا وكمباه في املاك تونس الان وتفرع منهم ومن السكان القدماء الامة المعروفة بالليبية الفونيقية فأموا تلك البلاد في هذا العصر الصوري وعمروا سنة ١١٥٨ ق م مدينة اخرى سموها اوتيك وكان موقعها على شاطىء البحر في الشمال الغربي من قرطاجنة واخذت سفنهم تتقدم من ثمة نحو المغرب وتتجر وتقيم نزلاء

في نوميديا (محل معاملة قسطنطينية الان في جزائر الغرب وقسم من املاك تونس) وفي موريتانيا (المعروفة الان بمملكة فاس وبعض جزائر الغرب) وتطرقوا من هناك مرحلة مرحلة الى ان اكتشفوا اسبانيا وعمروا قادس مدينة في اسبانيا وتواترت اسفارهم وتوفرت جالياتهم في تلك البلاد. ولما كانوا يسمون اهليها يسمون انفسهم تورتي او توردتاني غلب على لفظهم اسم ترسيس او ترشيش فجعلوه علماً لهذه البلاد وكثرت مستعمراتهم فيها فهم الذين بنوا فيها ملاكا المعروفة حتى الان بهذا الاسم وسكس المسماة الان مُرتيل في شرقي ملاكا وابدار المعروفة الان بالماريا على شاطىء البحر المتوسط الى الجنوب الشرقي من مدريد على مسافة ٤١٠ كيلومترات . ويظهر ان من مستعمراتهم كرتايا المسماة الان الجزيرة (كانها سميت بذلك في عهد ولاية العرب اسبانيا) وهي في غربي جبل طارق على بعد ثمانية كيلومترات . وعمر الفونيقيون هنالك مدناً اخرى عديدة اقل اهمية شهدت باصلها الفونيقي اسماؤها التي ذكرها قدماء الجغرافيين وذكروا لهم مستعمرات اخرى في شمالي هذه البلاد ووجدوا اسماء مدن اخرى كثيرة في الجهة الشرقية من اسبانيا حتى سفح جبال البيرنياي تدل تلك الاسماء على ان تلك المدن عمرها الفونيقيون ولم ينقضِ قرن بعد ان عمر الفونيقيون قادس حتى تولوا اخصب الارضين واغناها في اسبانيا اعني اعمالها الجنوبية المسماة باتيك وهي الاندلس في عهد ولاية العرب وعمروها بنزلاء اتوا باكثرهم من الامة الليبية الفونيقية السالفة الذكر لحراثة الارض فاختلطوا بالوطنيين حتى قال استرابون ان اكثر السكان في تلك الانحاء كانوا في ايامه كنعانيين اصلاً وانبأتنا بعض الاثار التي اكتشفت هناك ان استعمال اللغة الفونيقية استمر الى ايام ولاية الرومانيين في قادس وملاكا وسكس وابدار السالف ذكرها (لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ٥٠٩)

واما ما كان يستجلبه الفونيقيون من اسبانيا فهو المعادن خاصة اي الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والقصدير ثم العسل والشمع والزفت فقد قال حزقيال النبي (فصل ٢٧ عد ١٢) لصور . ترشيش متجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك . وكانت تجارة الفونيقيين في اسبانيا رابحة اي ربح فقد قال ارسطو الفيلسوف الشهير (الذي ولد سنة ٣٨٤ ق م وقوله الاتي من كتابه في المعجبات فصل ١٤٧) . ان الفونيقيين الاولين الذين اتوا ترشيش استبدلوا زيتهم وغيره من بضاعتهم بمقدار كبير من الفضة حتى لم تسعه سفنهم فصنعوا ادواتهم وآنيتهم كلها حتى اناجر سفنهم من الفضة . وروى ديودوس الصقلي (مجلد ٢ صفحة ٣٦ من ترجمة هوفر) . شبت نار في احد محال جبال البيراناي فاذابت مقداراً كبيراً من معدن فضة وكان سكان تلك الاصقاع يجهلون بما يستعمل ذلك المعدن فباعوا الفضة للتجار الفونيقيين فكان هولاء يجلبون الى اسيا وبلاد اليونان وافاق اخرى من الفضة ما اكسبهم غنى وثروة تشذ عن الحصر وكان من شدة حرص هولاء التجار انهم بعد ان شحنوا سفنهم من الفضة قطعوا رصاص اناجرهم واستبدلوه بمراس من فضة .

ولذا اصبحت تجارة الفونيقيين في افريقية واسبانيا من جلّى مهامهم وكان لا بد لها من محطة بين فونيقي ومستعمراتها الشاسعة فاختاروا لذلك مالطة ونعم الاختيار فاحتلت جالة منهم فيها في اخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد وكان فيها قبلهم ليبيون فاختلطوا بنزلائهم الذين استتبعوا جزيرة كولوس (المسماة الان كوزو) لمالطة لقربها منها وقد وجدت اطلال الهياكل الفونيقية في مالطة وهي محفوظة الى الان وتخلف للفونيقيين في الجزيرتين سكان قرطاجنة وقال ديودوروس الصقلي (في مجلد ٢ صفحة ١٢ في مالطة) . ان سكانها جالية فونيقية انبسطت

تجارتها الى الاوقيانوس الغربي فكانت لهم هذه الجزيرة اوفق محطة من حيث موقعها ومرفاها الامين فاصبح سكانها في امد وجيز اصحاب ثروة وشهرة والجزيرة الثانية تسمى كولوس على مقربة من الاولى وهي ايضاً مستعمرة فونيقية ، (هوفر في تاريخ فونيقي)

اما سكان صقلية القدماء فيستدل ببعض الاثار انهم كانوا من الايباريين والليكوريين قدماء اسبانيا وجنوبي افرنسة وايطاليا وقد انضموا الى عهدة الليبيين والبلاسج الانفة الذكر وشاركوهم في غزواتهم البحرية ولكنهم لعلة يعلمها الله شقوا العصا مع اليونان وخالفوهم واعرضوا عن الملاحة وطلب الرزق في البحر وانكبوا على المشاغل في البر فافترص الفونيقيون فرصة هذه الحال فتولوا التجارة في صقلية وبعد امد وجيز توفر عداد محالهم التجارية في شواطئ هذه الجزيرة الخصبة التربة ولم يكن لهم حينئذٍ من مزاحم فان اليونان لم يعودوا الى هنالك الا بعد ثلثة قرون (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥١٠) وعن هوفر (في تاريخ فونيقي) ان الفونيقيين عمروا مدناً عديدة في صقلية منها ماكارا التي تسميها اثارهم راس ملكرت المعروف عند اليونان بهرقل Hercule ولذلك سمى اليونان هذه المدينة هرقلية ومنها بانورم المسماة الان بالرم وتسمى في اثارهم مخنات وذكر بعضهم انها كانت مركز عبادة الزهرة الصورية الى غيرها من المدن واستحوذ الفونيقيون ايضاً على جزيرة قسورة المعروفة الان بباتلريا وهي جزيرة صغيرة بين صقلية وافريقية قريبة من شاطئ افريقية وجعلوها مستودعاً للذخائر والادوات اللازمة في الاسفار

وكانت سفن الفونيقيين التي تسافر من المغرب الى اسبانيا لا بدَّ لها من المرور بجانب سردينيا فعمروا هناك مدينة كراليس حيث الان كلياري لتكون مستودعاً لتجارتهم وذخائرهم ثم نوروا على شاطئ الجزيرة الغربي وكان قبلهم

فيها قوم من جملة اصحاب المعاهدة الليبية البلاسجية السالفة الذكر وكانت لهم عناية كبرى في الماشية ولاسيما الاغنام وكان للاتجار بصوفها سوق رائجة وفي الجزيرة معادن نحاس ورصاص فتوفرت فيها محال تجارة الفونيقيين حتى استحوذوا على الجزيرة وقد اكتشفت فيها كتابة فونيقية منذ عصر ولاية الصوريين يدعى بها معبود اهل الجزيرة سردوس باتر وفي الفونيقية اب سردون وتشاهد صورة على نقود الجمهورية الرومانية (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٣١١) ويظهر انه كان لهم معاهد في كرسيكا ايضاً وانهم تطرقوا من هذه الجزر الى شطوط ايطاليا الجنوبية والى توسكانا وغيرها من اعمال ايطاليا وسترى في الكلام على تجارة الفونيقيين ان تجارهم لم يقتصروا على ابلاغ سلعهم الى مدن اوربا التي على سواحل البحر فقط بل توغلوا في افرنسة والمانيا الى بحر البلتيك براً والى جزر بريطانيا فكانوا يستبدلون في هذه الامصار عروض تجارتهم ومصنوعاتهم بحاصلات البلاد ومستخرجات معادنها

قد روى استرابون وغيره من القدماء انه كان للفونيقيين او الاحرى ان يقال لجاليتهم في قرطاجنة مستعمرات عديدة في مراكش وفي ما وراء بوغاز جبل طارق على شطوط افريقية الغربية ومن ذلك ما جاء ذكره في درج حنون Periple de Hanon الذي يظهر انه خلاصة كتاب مهم كتب في الفونيقية ولم يبقَ منه الا خلاصة موجزة في اليونانية بلغت الينا في بعض كتب القدماء اخص انبائها ان اهل قرطاجنة الليبيون الفونيقيون ارسلوا حنون هذا بستين سفينة مشحونة بجالة منهم الى ما وراء بوغاز جبل طارق لتحتل تلك الثغور فذهب بهم واخذ يحل في كل محل قوماً منهم مسمياً المدن والقرى والجزائر التي توصل اليها وما شاهده فيها ولم يتفق العلماء على مواقعها ولا على بعد احداها عن الاخرى اذ كان مقياسه مدة السفر في البحر بالشراع ولا ينفسح لنا مجال هنا

للتطويل في ذلك بل نجتزىء بان نقول ان هذا الدرج يثبت وجود مستعمرات للفونيقيين في ما وراء جبل طارق غربي افريقية وان زمان كتابته غير متفق عليه فجعل بعضهم في نحو الف سنة قبل الميلاد وبعضهم اقل من ذلك والاظهر انه كتب في القرن السادس قبل الميلاد

هل دارت سفن الفينيقيين حول قارة افريقيــة هذا سؤال من جملة من ذكره هوفر (في كتابه تاريخ فونيقي صفحة ٤٩) واجاب عليه جوابًا موجبًا اعتمادًا على ما رواه هيرودت ابو التاريخ (ك ٤ فصل ٤٢) حيث قال ما ملخصه • ليس من يجهل ان قارة افريقية تحيطها الامواه الا عند الخليج الذي يصلهـا بقارة اسيا (هذا قبـل فتح خليج السويس) فنكو ملك مصر هو على ما نعلم اول من استوضح هذا الامر فانه بعد ان رغب عن تكملة القناة الموصلة بين النيل والخليج الغربي سيّر سفنًا ملاحوها فونيقيون فسار هولاء الفونيقيون اولاً من البحر الاحمر ثم في البحر الجنوبي (اي الاوقيانوس الهندي) واذا نفدت ذخائرهم اقاموا وزرعوا الارض وانتظروا حصادها فاذا جمعوا غلتها عاودوا سفرهم وبعد ان سافروا كذلك بلغوا في السنة الثالثة اعمدة هرقل (بوغاز جبـل طارق) فاجتازوا البوغاز واتصلوا الى مصر واخبرني بعضهم امرًا لم اصدقه وربما صدقه غيري وهو ان الشمس كانت على يمين المسافرين في دورانهم حول افريقية • فهذا مثبت ان الفونيقيين داروا حول هذه القارة ويؤيده ما لم يصدقه هيرودت وما لم يمكن اختراعه وهو ان كل مسافر حول افريقيـا مبتدئًا من البحر الاحمر تكون الشمس على يمينه عند مروره بطرفها الجنوبي وعليه فالفونيقيون تقدموا البرتوغاليين الفي سنة في الدوران حول قارة افريقية

﴿ عد ١١٦ ﴾

﴿ في اتفاق الفونيقيين وبني اسرائيل ﴾

ان افتتاح بني اسرائيل فلسطين كان في عهد سيادة ملوك صيدا كما مر ولا جرم ان الصيدونيين كانوا اذ ذاك من جملة المتضافرين على مقاومة بني اسرائيل علي ان يشوع بن نون قائدهم وقتئذٍ لم يخترق تخوم صيدا فاستمرت على استقلالها مع ما يليها من المدن الشمالية خاصة وما برحت العداوة بين الفريقين تشب نارها لكل داعٍ اعواماً طوالاً الى ان استفحل امر الفلسطينيين وقويت شوكتهم وحاولوا الاستيلاء على جنوبي سورية برمته واخربوا صيدا وازالوا سؤددها فقضت الضرورة على بني اسرائيل والفونيقيين ان يغادروا ما كان بينهم من الاحن والضغائن وان يعمدوا الى الائتلاف بينهم واتفق ايضاً ان كان الاراميون اخذوا في تلك الاثناء يوسعون تخوم ولايتهم نحو الشمال فتغلبوا على الكنعانيين في حماه واستحوذوا عليها وعلى بني اسرائيل في عبر الاردن الشمالي فطردوهم منه فكان ذلك داعياً آخر للوفاق والاقلاع عن العداوة التي استمرت نحواً من ثلثة قرون واتفق ايضاً ان كانت دولة مصر ودولة اشور في تلك الحقبة على غاية من الضعف والوهن اتفاقاً لم يكن له نظير في الدولتين معاً ولذا توارد على خاطر الفريقين ان ما تلك الا فرصة سعيدة ثمينة يلزم اغتنامها لتشييد اركان مملكة وطنية مستقلة كل الاستقلال في سورية دعائمها الاتحاد الصحيح والمعاهدة المخلصة بين مملكة بني اسرائيل الجبلية ومملكة صور الساحلية وعليه فلما انقضى النزاع الذي افضى الى قتل شاول ملك اسرائيل وتمليك داود وفي السنة نفسها التي اخذ داود اورشليم من اليابوسيين وجعلها قاعدة لملكه ارسل اليه حيرام الاول ملك صور وفداً يوقع على عهدة الصداقة والاتفاق بينهما وكان ذلك في نحو سنة الالف قبل الميلاد اذ قال الكتاب (ملوك ٢ فصل

٥ عد ١١) « ووجه حيرام ملك صور رسلاً الى داود واخشاب ارز ونجارين ونحاتين فبنوا بيت داود » فالظاهر انه بعد التوقيع على عهدة الاتفاق سأل داود حيرام ان يرسل اليه مهندساً لبناء القصر الذي عزم على بنائه في مدينة صهيون وان يصحبه عملة ماهرون نجارون ونحاتون وان يؤذن بقطع اخشاب من غياض لبنان الشهيرة لزينة قصره فاتمَّ حيرام كل ما سأله داود ويتحصل من ذلك ان الحروب في عصر القضاة ومضايقة الفلسطيين لبني اسرائيل اعواماً عديدة اغفلتهم عن الصنائع التي كانوا يحسنونها ايام خروجهم من مصر بدليل اتقانهم عمل خباء المحضر اي قبة العهد واستمر حيرام هذا ما حي مسالماً داود وتوفي فخلفه ابنه ابيعل وكان على شاكلة ابيه في موادَّة داود الملك وقد سرَّ وشعبه في اذلال داود الفلسطينيين واخضاعه الاراميين والحثيين واستيلائه على دمشق وحماه وانبساط ملكه في سورية الى الفرات ثم مات ابيبعل وخلفه ابنه حيرام الثاني لسنة ٩٧٨ قبل الميلاد على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٣)

عد ١١٧

في حيرام الثاني وسليمان الملك

قد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥ عد ١) « وارسل حيرام (الثاني) ملك صور عبيده الى سليمان لانه سمع انه مُسح ملكاً مكان ابيه » ليهنئه ويوثق عرى الاتحاد بينهما وينبئنا الكتاب ان الوفاق تمكن بين الفريقين اذ قال ان سليمان ارسل يقول لحيرام « مر بان يقطع لي ارز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك واجرة عبيدك اؤديها اليك ... لانك تعلم ان ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح فرحاً عظيماً وقال مبارك اليوم الرب الذي رزق داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير » الى اخر ما قاله الكتاب من عناية حيرام بقطع الاخشاب وجعلها اطوافاً في البحر

الى الموضع الذي عينه سليمان واداء سليمان الى حيرام عشرين الف كر من الحنطة وعشرين الف كر من الزيت وسترى ذلك باكثر تفصيل في كلامنا في تاريخ العبرانيين

وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٢) ان رسالتي سليمان وحيرام الاصليتين كانتا محفوظتين حتى ايامه في خزائن اوراق الهيكل وفي خزائن سجلات الصوريين قائلاً « ان من رغب في تحقيق ذلك فما عليه الا ان يسأل حافظي هذه الخزائن اطلاعه على ذلك فيرى اني كنت في نقلها اميناً مجانباً الخلل رأيت ان اقول هذا لاعلن اني وايم الله لا ازيد على الحقيقة شيئاً واني لرغبتي في الاقبال على تاريخي دأبت ان لا اروي الا ما كان صحيحاً ولذلك ارجو ممن يطالعه ان يطمأن الى صحته ويوقن اني احسب نفسي مرتكباً جريمة كبرى تستحق الاعراض عن كتابي اذا لم ابذل الكد والجد في اثبات الحقائق بحجج راهنة » وروى رسالة سليمان كما رواها الكتاب ثم رسالة حيرام مطابقة لجوهر نص الكتاب وها كها كما رواها « من الملك حيرام الى سليمان الملك اني لاسدينَّ الله شكراً لا ينقضي على انك ورثت تاج الملك ابيك الذي كان عاهلاً تسامت حكمته وعظمت فضيلته وسأتم بطيبة قلب ما سألتنيه وسوف آمر ان يقطع لك من غياضي مقدار ما تحب من الاجوزة والجزوع من السرو والارز واجعلها في البحر اطوافاً الى المحل الذي تراه اكثر ملائمة لنقلها منه الى اورشليم واسالك ان تعوضني من ذلك مقداراً من الحنطة فانت تعلم حاجتنا اليها في هذه الجزيرة »

وروى يوسيفوس ايضاً (في ك ١ من رده اقوال ابيون فصل ٥) « ان الصوريين كانوا شديدي الحرص على حفظ السجلات الرسمية القديمة التي كتب فيها ما جرى بينهم ... ومن جملتها ان الملك سليمان بنى هيكلاً في

اورشليم لسنة مئة وثلث واربعين وثمانية اشهر قبل ان يبني اسلافهم قرطاجنة ، ثم روى فقرة من هذه السجلات وهذه ترجمتها ، ان حيرام احد ملوكهم كان يخلص الوداد لداود الملك وواصل اخلاصه لسليمان الملك ابنه واثباتًا لمودته له اهدى اليه عند بنائه الهيكل مئة وعشرين وزنة (وانبأنا الكتاب ذلك اذ قال في سفر الملوك الثالث فصل ٩ عد ١٥) وارسل حيرام الى سليمان الملك مئة وعشرين قنطار ذهب وجزوعًا من افخر الخشب امر بقطعها من جبل لبنان لسقف الهيكل وزينة جدرانه القاخرة فاهدى سليمان اليه هدايا نفيسة عديدة وكانت محبة الحكمة تزيد في الوفاق بين هذين الملكين وكانا يتطارحان الالغاز لحلها وكان سليمان يعلو على حيرام في ذلك ، واردف يوسيفوس هذا بقوله ، ان الصوريين يحفظون حتى اليوم بحرص شديد رسائل عديدة كان ينفذها كلٌّ من هذين الملكين لصاحبه واستشهد الله على نفسي اني دققت في ما نقلت عن تواريخ الفونيقيين توثيقًا للقراء وهوذا ما كتب فيها ، ولما مات الملك ابيبعل خلفه ابنه حيرام الذي زاد كثيرًا في مدن ملكه التي كانت في المشرق والحق بمدينة صور ابنية عديدة ... وقد حققوا ان سليمان ملك اورشليم كان يرسل اليه بعض الغاز ويجعل جائزة لحلها ،

يظهر ان المهندس ومديري البناء والبنايين والنحاتين الذين ارسلهم حيرام الى سليمان كانوا جميعًا من جبيل فان عملة هذه المدينة كانوا اشهر اصحاب الصنائع في فونيقي ولما كان شحن الاخشاب منها ظهر ان الارز الذي قطعت منه كان في جبال ناحية جبيل العليا لا في نواحي جبة بشري حيث الارز الان والا لزم شحن هذه الاخشاب من اطرابلس او البترون او من فرضة اخرى بينهما وقد حقق بعض سكان ناحية جبيل العليا ان في غابهم حتى اليوم اثرًا لاشجار الارز

قد اراد سليمان ان يعطي حيرام عشرين مدينة وقرية متاخمة لارض صور

ا حاجي

جاج

جزاء صنعه المعروف في تيسير زينة الهيكل فابى حيرام قبولها مخافة ان تكون هذه القرى مندوحة للخصام بين اهل المملكتين وذلك دليل على تضلعه بفن السياسة وآثر على ذلك ان يرسل اليه سليمان كل سنة ما دام الاشتغال ببناء الهيكل العشرين الف كر بُر والعشرين الف كر زيت السالف ذكرها لتكون مؤونة لعاصمته ولاسطوله ورغب سليمان في توثيق عرى الاتحاد بينه وبين مملكة صور فتزوج باحدى بنات حيرام وكان تزوج قبلها باحدى بنات فرعون ثم باحدى بنات ملك الحثيين الشماليين فكان زواجه بالاميرتين الكنعانيتين وسيلة لدخول عبادة بعل وعشتروت في اورشليم وقد عقد سليمان وحيرام شركة في تسفير السفن الى اوفير لاستجلاب الذهب وغيره من النفائس وكان الفونيقيون من اقدم الايام يتجرون ببضائع الهند الثمينة فكانت سفن الهنود تنقل حاصلات بلادهم الى سواحل اليمن وخليج العجم وكان في العربية الجنوبية عدد غفير من تجار الفونيقيين فيتلقون ثمة بضائع الهند فتحملها قوافلهم برًا الى فونيقي وسائر اعمال سورية والى مصر وما بين النهرين ولما كان الصيدونيون يسافرون في البحر الاحمر لجلب هذه البضائع الى مصر في عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لم تكن سفنهم تتجاوز اليمن واما سليمان وحيرام فكان غرضهما تسيير السفن من مرافئ الخليج العربي توًا الى سواحل الهند فاصابا الغرض وكلل النجاح مشروعهما فقد جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٨) ان ملاحي هذه السفن « اتوا اوفير واخذوا من هناك اربعمائة وعشرين قنطارًا (او وزنة والوزنة ٤٣ كيلو) من الذهب واتوا بها الملك سليمان » على انه لم يدم هذا النجاح الا ما دام ملك سليمان • وقد سمى الكتاب سفن هذه الشركة سفن ترسيس او ترشيش لمشابهتها السفن التي كان الصوريون يسافرون بها الى اسبانيا المسماة ترشيش • ونرجئ الكلام في اوفير وموقعها

الى المقالة في العبرانيين

ومات حيرام سنة ٩٤٤ ق م قبل سليمان ويظهر ان قد بقي الوفاق بين مملكة صور ومملكة بني اسرائيل الى ما بعد انقسامها الى مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل اذ لا نرى في الكتاب ولا في غيره اثر حرب بينهما في هذه الحقبة بل نرى احاب بن عمرى ملك اسرائيل تزوج بايزبال ابنة ايتو بعل ملك صور ويعلم قرّاء الكتاب المقدس ما كان للاميرة الصورية من السطوة المحزنة على زوجها الضعيف وكم عززت كهنة بعل بالنفوذ السياسي والديني في مملكة اسرائيل اولاً ثم في مملكة يهوذا بعد وفاة يوشافاط والحاصل ان مملكة صور كانت شديدة النفوذ في مملكتي العبرانيين حتى ان سلالة ايتو بعل الصورية استخلفت يوما لبيت داود نفسه في اورشليم بواسطة عتلية واستمر هذا النفوذ لصور في مملكة اسرائيل الى ان توفي يورام سنة ٨٣٠ ق م وفي مملكة يهوذا الى ان رقي يواش منصة الملك سنة ٨٢٣ ق م وسنجيء على ذكر هذه الاحداث باكثر تفصيل عند كلامنا في تاريخ العبرانيين

﴿ عد ١١٨ ﴾

في ملوك صور وما كان من الاحداث في ايامهم الى بناء قرطاجنة

ان تاريخ صور منذ عقد ملوكها العهدة مع العبرانيين الى بناء قرطاجنة معلوم حق العلم مما كتب في تواريخ صور التي ترجمها ميننـدر المؤرخ اليوناني الافسسي وحفظ لنا يوسيفوس فقرًا من ترجمته في كتـاب رده اقوال ايون واول من نعرفه من ملوكهم هو حيرام الاول صديق داود الملك وقد كان مالكًا في نحو سنة الالف قبل الميلاد وخلفه بعد وفاته ابنه ابيبعل ولا يعلم شيء من الاحداث في ايام ملكه الا محافظته على عهدة الوفاق مع بني اسرائيل وقد وجد اسمه محفورًا على حجر كريم محفوظ الان في متحف فيرنسا بايطاليا و بعد

فلورنسا

وفاته خلفه ابنه حيرام فقد جاء في فقر ميندر . وبعد موت ابيبعل قبض على صولجان الملك ابنه حيرام فعاش ثلثًا وخمسين سنة وملك اربعًا وثلثين منها وجدد بعض الابنية في صور واقام عمود الذهب الذي يشاهد في هيكل المشتري Jupiter وامر بقطع اخشاب الارز من جبل لبنان لسقف الهياكل وهدم الهياكل القديمة واقام هيكلي هرقل Hercule وعشتروت فدشَّن الاول لهرقل في شهر باريتوس (يوافق بدء هذا الشهر اواسط شباط) والثاني لما زحف بجنوده الى الشيتيين (سكان قبرس) لانهم ابوا أداء الجزية اليه فردهم الى الطاعة له وكان لديه شاب يلقب بابن عبديمون اتصل الى ان يحل جميع الالغاز التي كان يلقيها سليمان ملك اورشليم .

وجاء مثل ذلك في فقر لديوس حفظها لنا يوسيفوس حيث يقال . خلف حيرامُ الملك ابيبعل وعمر الاحياء الشرقية من المدينة وزاد كثيرًا في ابنيتها وادخل فيها هيكل المشتري الاولمبي (المؤلف يوناني فيسمي الالهة باسم الهته فهو هيكل ملكرت) الذي كان منفردًا في جزيرة فردم الفسحة التي بين الجزيرة واليابسة . ويظهر من كلام بعض الروايات ان حيرام هذا هو الذي كان في زمان داود وعلى عهد ابنه سليمان ومؤداه ان ليس الا حيرام واحد لا حيرامان لكن الارجح والاقرب الى الصواب ان حيرام الاول كان في اوائل ملك داود وخلفه ابنه ابيبعل فملك في اكثر مدة ملك داود ثم خلفه ابنه حيرام الثاني فكان حليف داود وسليمان وصديقهما ومما يؤيد ذلك ان جميع الروايات القديمة اي روايات يوسيفوس وروفينوس واوسابيوس وسنشلوس والرواية المجهولة المؤلف اجمعت على ان مدة ملك حيرام هذا كانت اربعًا وثلاثين سنة ومن المعلوم ان داود ملك اربعين سنة ويظهر من الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ١١) ان حيرام كان صديقًا لداود منذ افتتح اورشليم فلا يمكن ان يكون حيرام واحد في

ايام داود وايام سليمان بل الاظهر ان حيرام الاول كان مالكًا في صور عندما ملك داود في بني اسرائيل وحيرام الثاني ملك في صور في اخر مدة ملك داود وفي مدة من ملك سليمان ويشعر بذلك قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥) « اذ كان حيرام لم يزل محبًا لداود كل ايامه » اي ايام داود وقول سليمان لحيرام « قد علمت ان داود ابي لم يقدر ان يبني بيتًا لاسم الرب الهه » وقول حيرام « مبارك الرب الذي رزق داود ابنًا حكيمًا على هذا الشعب الكثير » فكل هذا مؤذن بان حيرام صديق سليمان كان صديق ابيه داود وكان يعلم ان داود لم يقدر ان يبني بيت الرب وقد يسر بانه رزق ابنًا حكيمًا ولا يمكن ان يكون حيرام واحدًا في المدة التي هي من فتح داود اورشليم الى بناء سليمان الهيكل فيها مع انه لم يملك الا اربعًا وثلاثين سنة كما مر

ثم مات حيرام الثاني سنة ٩٤٤ ق م قبل سليمان وحيث انه ملك اربعاً وثلاثين سنة فيكون ارتقى منصة الملك سنة ٩٧٨ في عهد داود الذي توفي سنة ٩٧٣ على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٦) وخلف حيرام الثاني ابنه بعلعزار اذ قال ميندر في الفقر التي رواها يوسيفوس (في ك ١ ضد ابيون فصل ٥) « ولما مات حيرام الملك خلفه ابنه بعلعزار (او قلا عزار) ثم مات وعمره ثلث واربعون سنة ولم يملك الا في سبع منها » هذا في رواية يوسيفوس وروفينوس ولكن في روايتي تاوافيلوس واوسابيوس انه ملك سبع عشرة سنة ولم نجد ذكرًا لشيء من اعماله وخلفه بعد وفاته ابنه عبد عشتاروت فملك تسع سنين باجماع الروايات فقال ميندر في المحل السالف ذكره « وخلف بعلعزار ابنه عبد عشتاروت ولم يعش الا تسعاً وعشرين سنة ولي الملك في تسع منها وقد تآمر عليه ابناء ظئره الاربعة فقتلوه غيلةً وملك مكانه اكبرهم مدة اثنتي عشرة سنة » ولم يذكر ميندر ولا غيره اسم هذا الملك وكان مقتل عبد عشتاروت لنحو

سنة ٩٢٨ ق م اي في نحو الوقت الذي شقَّ فيه ياربعام بن ناباط مملكة بني اسرائيل فانقسمت الى مملكة يهوذا ومملكة اسرائيل وقد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ١١ عد ٤) ان ياربعام هرب من وجه سليمان الى شيشاق ملك مصر ومكث هناك الى وفاة سليمان وعاد بعدها فشق الاسباط العشرة عن مملكة راحبعام بن سليمان فيتحصل من ذلك ان شيشاق ملك مصر كان ينوي غزوة الى سورية ومن معداته لها دسيسته لقتل ملك صور ولشق مملكة العبرانيين الى شطرين وقد تيسرت له بذلك هذه الغزوة اذ قال الكتاب (ملوك ٣ ف ١٤ عد ٢٥) • ولما كانت السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشاق ملك مصر على اورشليم فانتهب ما في خزائن بيت الرب وخزائن دار الملك واخذ الجميع واخذ كل مجان الذهب التي عملها سليمان •

ولم يستتب الملك لابن الظئر قاتل عبد عشتاروت بل استمر الشغب والهرج في الاثنتي عشرة سنة التي قضاها على منصة الملك الى ان تيسر لعلية الصوريين ان يجلسوا عليها عشتر توس بن بعلعزار اخا الملك القتيل اذ قال ميناندر • وملك عشترتوس بن بعلعزار اثنتي عشرة سنة وعاش اربعاً وخمسين سنة • ولما مات عشترتوس لم يخلفه ابنه بحسب شريعة مملكة صور بل خلفه اخوه المسمى عشتاريم ثالث ابناء عبد عشتاروت وقال ميناندر • وخلف عشترتوس عشتريم اخوه وعاش اربعاً وخمسين سنة ملك في تسع منها ثم قتله اخوه فالس واخذ ملكه وعاش خمسين سنة لم يملك الا في ثمانية اشهر منها قتله ايتوبعل كاهن الربة عشتاروت وملك مكانه اثنتين وثلاثين سنة • فان راعينا ان ما جرى من هذا الهرج والقلق في مملكة صور كان مثله في وقته في مملكة اسرائيل اذ باد فيها بيتا ياربعام وبعشا احدهما بعد الاخر رأينا شدة العلائق السياسية بين مملكتي صور واسرائيل

وكان ملك ايتو بعل في صور معاصراً الملك عمرى وابنه احاب في اسرائيل وكان كلاهما اصلاً لسلالة ملكية في قومه وزوج ايتوبعل ابنته ايزبال باحاب بن عمرى ملك اسرائيل الذي رقي منصة الملك سنة ٨٧٣ ق م وكان ايتوبعل صار ملكاً في صور سنة ٨٩٤ وايتوبعل هذا بنى مدينة البترون اذ قال ميندر في فقرة رواها يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ ف ٧) ان ايتوبعل ، هذا هو الذي بنى مدينة بتريس (البترون) في فونيقي ، التي استمرت زماناً طويلاً محصناً لرد غارات اللبنانيين على تلك السواحل الفونيقية ثم قال ميندر ، ومات ايتوبعل وعمره ثماني وستون سنة وخلفه ابنه بعل عزور فعاش خمساً واربعين سنة ملك في ست منها فخلفه ابنه موتون او موجم فعاش اثنتين وثلاثين سنة ملك في تسع منها فخلفه ابنه بيكماليون وعاش ستاً وخمسين سنة ملك في سبع واربعين سنة منها وفي السنة السابعة من ملكه فرّت اخته ديدون الى افريقية وعمرت قرطاجنة في ليبيا ، انتهى كلام ميندر كما رواه يوسيفوس الذي قال بعد ذلك ، تبين مما مر ان من ملك حيرام الى بناء قرطاجنة مئة وخمساً وخمسين سنة وثمانية اشهر وانه لما كان بناء هيكل اورشليم في السنة الثانية عشرة لحيرام فيكون بين بناء الهيكل وبناء قرطاجنة مئة وثلث واربعون سنة وثمانية اشهر مع انه اذا حسبت مدات هولاء الملوك كما رواها يوسيفوس عن ميندر لا تبلغ الا مئة وسبعاً وثلثين سنة فالثماني عشرة سنة التي هي الفرق حاصلة من اختلاف الرواية في تعيين مدة بعض الملوك مثلاً قد عين لملك موتون تسع سنين مع ان روايات اخرى جعلت مدة ملكه خمساً وعشرين سنة

عد ١١٩

في بناء قرطاجنة

توفي موتون ملك صور عن ولدين احدهما بيكماليون وعمره اذ ذاك

احدى عشرة سنة والثاني بنت اسمها اليسار ويسميها الشعراء اليسّا تكبر اخاها
ببعض سنين واوصى موتون ان يشترك ولداه في ارث ملكه ولكن الشعب كان
يرتقب فرصة لتبديل هيئة الحكومة لتغلب سطوة الاشراف فيها فثار القوم
ونادوا باسم بيكماليون واجلسوه على منصة الملك وحده واقاموا له ندوة
مشورة اكثر رجالها من الشعب واسقطوا اليسار اخته من عرش الملك فتزوجت
بزيكار بعل وسماه فرجيل سيكا وسماه غيره اشرباس او اشربال وكان خال اليسار
واعظم كهنة ملكرت وله المقام الثاني بعد الملك فكان لذلك رئيس حزب الاشراف
ولما مرت على ذلك مدة ارسل بكماليون فقتل زيكار بعل اما بدسيسة من رجال
حزب الشعب واما طمعاً باخذ ماله اذ كان غنياً فاستأت اليسار حتى طارت نفسها شعاعاً
من قتل اخيها زوجها وهمت بانشاء ثورة لتثأر بزوجها وتثل عرش اخيها وتعيد
نفوذ حزب الاشراف ومالأها في ذلك ثلث مئة عضو من رجال الندوة كانوا
من حزب الاشراف فتغلب عليهم الحزب الشعبي حتى يئس الثائرون من الفوز
بما يبتغون وآثروا مغادرة وطنهم على ان يذلوا لبكماليون وحزب الشعب
فاستولوا بغتة على سفن عديدة كانت معدة للسفر فركبتها اليسار والوف من
رجالها وساروا ينوون ان يعمروا صوراً اخرى تحت جوٍ آخر فاكسبها سفرها
على هذه الحال لقب «ديدو» وتأويله الفارة او الهاربة . وعن يوستينوس
المؤرخ اللاتيني الذي كان في القرن الثاني وكتب قصة هذه الاحداث ان اليسار
سارت اولاً بجاليتها الى قبرس ثم الى سواحل افريقيا حيث كانت جالة صيدونية
عمرت مدينة كمبه منذ نحو من ستة قرون في محل تونس الان او على مقربة
منه كما مر (عد ١١٠) وكانت الجالية الفونيقية القديمة انحط قدرها وكانت
تؤدي الجزية حينئذٍ الى ملك من الليبيين يسمى جابون فاشترت اليسار منه
ارضاً لجاليتها وعمرت فيها مدينة سمتها «قرية حدشا» اي المدينة الجديدة فكسر

اليونان هذا الاسم وجعلوه « كرشيدون » وجعله الرومانيون « كرتاكو » Carthago وفي الافرنسية كرتاج Carthage وسماه العرب قرطاجنة فهذه المدينة بنيت سنة ٨٢٢ ق م وعلى قول اخرين سنة ٨٦٠ ق م للسنة السابعة من ملك بكماليون

قد كثر ما نظمه الشعراء في اليسار ويسمونها بلقبها ديدون حتى افعموا تاريخها من الاقاصيص الموضوعة على ان ما رويناه تاريخ حقيقي وقد جعله كذلك كاتون القديم (هو مؤلف لاتيني كان في القرن الثالث قبل المسيح) وبومبايوس تروك (هو كاتب روماني كان في القرن الثاني للنصرانية) بل القديس اغوسطينوس ايضاً (في تفسير المزمور ٦٨) اعتماداً على تواريخ قرطاجنة واما ما ذكروا عن ملئها اكياساً رملاً وايهامها وفد اخيها الملك بانها اكياس ملئت بمال زوجها وطرحها في البحر بحضرتهم كبتاً لطمع اخيها ثم طلبها ان تشتري في افريقيا ارضاً بمقدار جلد ثور وقدها الجلد سيوراً رقيقة مستطيلة واخذها ارضاً بطولها لبناء مدينتها ثم انتحارها فراراً من عقدها الزواج مع هيرباس ملك المكسيتانيين فكل ذلك من الاقاصيص والحكايات الموضوعة

الفصل الخامس

(في الفونيقيين وملوك الاشوريين)

(عد ١٢٠)

في اول من غزا فونيقي من الاشوريين

وهم بعض العلماء القدماء ان نينوس باني نينوى على زعمهم اخضع لسلطته فونيقي واسيا الصغرى اعتمادًا على ما رواه كتاسياس اليوناني الذي كان عند احد ملوك الفرس في اخر القرن الخامس ق م ونقله عنه ديودروس الصقلي ذاكرًا حكاية سيميرايس امرأة نينوس وانها ولدت في عسقلان مدينة سورية وجعل يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٩) امرفال ملك شنعار وكدرلاعومر ملك عيلام وحلفاءهما (الذين حاربوا بارع ملك سدوم واحلافه في عهد ابرهيم الخليل) اشوريين اخضعوا جنوبي فلسطين بل سورية كلها وذكر مثل ذلك ابو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني وجاء في الكتاب المسمى قانون اوسابيوس ان الاشوريين حاربوا الفونيقيين في القرن السادس عشر قبل الميلاد وفي تاريخ بن العبري الآنف ذكره ان قد كانت حرب عوان بين الكلدانيين والفونيقيين في ذلك القرن وظن بعضهم ان كوشان رشعتائيم ملك ارام النهرين الذي تعبد له بنو اسرائيل ثماني سنين في ايام قضاة اسرائيل (قضاة فصل ٣ عد ٥ الى ٨) انما هو ملك اشوري ولم يستعبد بني اسرائيل فقط بل استعبد الفونيقيين ايضاً (هوفر في تاريخ فونيقي) فكل هذه الاقوال كان يستمسك بها قبل الاكتشافات الحديثة وكانت تظن صحيحة لا يرد عليها من اعتراض على ان الاكتشافات الحديثة اثبتت ان نينوس الذي سماه القدماء

اشوريا تقدم دولة الاشوريين بقرون وعند اكثرهم منهم لانرمان انه لم يوجد بل هو عبارة عما كان لنينوى التي نسبوها اليه ولبابل من السطوة والاقتدار فجعل القدماء الحكاية تاريخاً وكذا وضح الان ان ملك شنعار وملك عيلام واحلافهما لم يكونوا اشوريين وان كان بعضهم ملك البلاد التي ملك فيها بعدهم الاشوريون وقد يحتمل الصحة ان كوشان رشعتائيم كان من اسلاف الملوك الاشوريين لكن الكتاب لم يصرح بانه فعل في الفونيقيين شيئاً

ان الذي علم الى اليوم من الاثار ان اول ملوك الاشوريين حقيقة الذي جاوز الفرات غازيًا الى سورية انما هو تجلت فلاصر الاول الذي ارتقى منصة الملك سنة ١١٢٠ ق م واستمر فيها الى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد وقد كشف عن اثار له تبين حروبه سنة فسنة قال لانرمان (مجلد ٤ صفحة ١٤٦) ان الذي يظهر من هذه الاثار انه لم يتجاوز بغزواته (التي ذكرناها في عد ٧٠) جبل اللكام ولم يرَ البحر المتوسط وزعم بعض المؤرخين انه استحوذ على كيليكيا ودمَّر سواحل البحر المتوسط وادت اليه مصر الجزية لكن الذي حملهم على هذا القول انما هو اعتمادهم على اثر محطم يعرف عندهم بالصفيحة المكسرة ذكرت بها حروب في فونيقي وصيد في البحر المتوسط فنسبوها الى تجلت فلاصر الاول وليست له لمخالفتها الاثر الذي نقشت عليه تواريخ غزواته كلها ولاكتشافها في كوينجك حيث لم يوجد حتى اليوم اثر اخر له والصحيح ان الصفيحة المكسرة تشتمل على ذكر غزوات اشور نزيربال ولا سيما ان تجلت فلاصر عدَّد اثنين واربعين شعبًا خضعوا لسلطته ، من مجرى الزاب السفلى الى شط الفرات ومن بلاد الحثيين الى البحر الاسود ، ولم يذكر فونيقي ولا البحر المتوسط وزاد لانرمان على ذلك في حاشية علقها على صفيحة ١٥٤ ، انه وجد اثر لتجلت فلاصر الاول كتب فيه انه ملك البلاد حتى سواحل البحر المتوسط

وعبر عنه « بتامدى رابيتي احارى » اي بحر فونيقي الكبير وقال لكنني لا اظن ما عبر له عن هذه التخوم الغربية السابقة لملكه يلزم فهمه بحسب منطوق حروفه . على ان الاب فيكورو قال (في مجلد ٤ من مؤلفه الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ٣٦) ان تجلت فلاصر « هو اول ملك من هذه الامة جاوز الفرات واتصل بسلاحه الى سورية حتى جبل لبنان والبحر المتوسط وقد اقام تمثالاً لنفسه عند منبع دجلة ومثاله في لندره وعليه خطوط هذه ترجمتها « بعون اشور وشماس وبان كبار الالهة اسيادي انا تجلت فلاصر ملك اشور (يعدد اباءه) ملكت من البحر الكبير في ارض احارى (المغرب اي فونيقي) حتى الى بحر ارض نهري (اخر مملكته في الشرق لعل المراد البحر الاسود او بحر قزبين) واشتملت صفائح هذا الملك على تفاصيل غزواته الخمس الاولي وعدد فيها نصراته على الاراميين لكنه لم يتكلم كلاماً مخصوصاً في حربه في فونيقي بل ذكر خشب الارز (من لبنان) بين الجزيات التي افترضها على البلاد التي افتحها وان اسلافه الملوك واباءه لم ينتصروا على هذه البلاد » وعليه فاتيان تجلت فلاصر الاول الى فونيقي غير مجمع عليه حتى الان لعدم وجود اثار تصرح به

لكن المجمع عليه ان اشور نزيربال غشى فونيقي بعساكره فانه فضلاً عما كتب على صدر تمثاله القائم الان في المتحف البريطاني كما مر (في عد ٧٢) قد نقشت اخبار غزوته لفونيقي على صخر كالح حيث يقول انه لم يخضع لسلطته سورية الشمالية وبلاد الحثيين وجبال اللكام وشواطئ العاصي فقط بل يقول ايضاً انه نزل بنفسه الى فونيقي والى ساحل البحر المتوسط واخذ الجزية من صور وصيدا وجبيل وارواد وقد كتب على صخرة نمرود « وفي هذا الزمان اخذت نواحي جبل لبنان وذهبت نحو بحر فونيقي الكبير وترنمت على اعالي الجبال بتسابيح الالهة العظام وقدمت لهم المحرقات واخذت الجزية من ملوك

بلاد البحر من سكان صور وصيدا وجبيل ومحالا ومَيزا وكيزا (لا يعرف موقع هذه المدن الثلث) وارواد التي هي في وسط البحر فقد اتوني بالفضة والذهب والرصاص والنحاس والحديد وبمنسوجات الصوف والكتان وباخشاب ثمينة وجلود حيوانات بحرية وقبلوا قدمي • وفي اثر اخر وهو الصفيحة المكسرة السالف ذكرها قال • انه ركب السفن التي اخذها من مرفأ ارواد ومضى للنزهة في البحر فقتل دُخَساً (الدلفين) وانه قضى بعد ذلك اياماً يصطاد في جبال لبنان الوعرة فقتل جواميس وخنازير برية وقبض على كثير منها حياً واخذه الى بلاد اشور • ويتفاخر بانه قتلماية وعشرين اسداً • وقد كانت غزوة اشور نزيربال هذه نحو سنة ٨٦٥ ق م في ايام ايتوبعل ملك فونيقي واكتفى بما اخذه من الجزية والتقادم من مدن فونيقي المشهور انصباب اهلها على التجارة وايثارهم مثل هذه الجزى على معانات الحروب ووقوف حركة تجارتهم وقفل اشور نزيربال عائداً الى بلاده

عد ١٢١

في الفونيقيين وسلمناصر الثالث وخلفائه الى تجلت فلاصر الثاني

قد ذكرنا في العدد ٧٣ ان سلمناصر الثالث هو ابن اشور نزيربال وخلفه وانه قبض على صولجان ملك اشور من سنة ٨٥٨ الى سنة ٨٢٣ وابناً ماكان له مع الحثيين من الحروب الهائلة والمواقع العديدة وسوف نذكر في تاريخ العبرانيين ولاسيما عند الكلام في تاريخ احاب ملك اسرائيل الحروب التي انتشبت بينه وبين ملوك سورية وملك اسرائيل ومن اخبار اعماله مع الفونيقيين ما نقشه على مسلة نمرود حيث قال • في غزوتي الثامنة عشرة عبرت الفرات المرة الواحدة والعشرين وسرت بجنودي على مدن حزائيل ملك دمشق واخذت الجزية من صور وصيدا وجبيل • على انه في محالفة الاثني عشر ملكاً في سورية على

سلمناصر هذا لا نجد من اسماء ملوك فونيقي الا اسم ماتينبعل ملك ارواد ولم يكن معه من الجنود الا مئتا رجل . وان وجدنا بين عداد هولاء الملوك المتحالفين اسم احاب ملك اسرائيل وانه كان معه الفا مركبة وعشرة الاف رجل فيظهر ان الفونيقيين استسلموا الى سلمناصر على عادتهم المستمرة ولاسيما انه ورد في اثار هذه الغزوة انها انتهت بخسارة ابن هدد ملك دمشق رئيس هذه المحالفة عشرين الفا وخمس مئة رجل من رجاله تجندلوا في ساحة الحرب واضطر ابن هدد ان يفر في البحر مع روساء عماله وسلمناصر يتفاخر بانه ركب السفن في نخبة من جنوده وتأثره في وسط تيار البحر فلم يدركه (طالع عد٧٣) وتأثر سلمناصر لملك دمشق كان ولا بد من مدن فونيقي وذلك مؤذن بلا اشكال ان هذه البلاد استسلمت له وقد جرت هذه الاحداث في فونيقي على عهد موتون او ماتان بن بعلمزاد بن ايتو بعل ملك صور الذي ابتدأ ملكه سنة ٨٣٨ وانتهى ٨٢٩ على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٧) وفي ايامه خسر الفونيقيون املاكهم في جزيرتي مالوس وثاره ومدينتي كاميروس وياليسوس في جزيرة رودس اخذها من يدهم الدوريون احدى عشائر اليونان الاربع بعد حصار عنيف على ما قال لانرمان في المحل السالف ذكره

وخلف سلمناصر الثالث ابنه شمسي رامان ودام ملكه من سنة ٨٢٢ الى سنة ٨٠٩ ولم يوجد له اثر ينبئ انه غزا سورية او فونيقي ولكن ابنه وخلفه رامان نيرار الثالث (الذي رقي منصة الملك سنة٨٠٩ واستمر فيها الى سنة ٧٨٠) غار على بلاد الحثيين ثم على فونيقي وبلاد عمرى اي مملكة اسرائيل وبلاد ادوم وفلسطين ودمشق فانه قد عد في اثر له البلاد التي تؤدي له الجزية كل سنة فذكر كل ما ذكرنا من البلاد في سورية ومن جملتها . فونيقي برمتها بلاد صور وصيدا . على ان خلفاء هذا الملك كانوا على غاية من الوهن فبات الفونيقيون

وسائر السوريين ناعمي البال من قبل الاشوريين كما اسلفنا (في عد ٧٤) الى ان استوى على عرش الملك تجلات فلاصر الثاني سنة ٧٤٥ الى سنة ٧٢٦ ق م وغزا سورية غزوات احداها سنة ٧٤٣ انتصر فيها على بيزيريس ملك الحثيين واستدعى اليه الى تل ارفاد في جانب حلب ملوك سورية فاتوه بالتقادم ومن جملتهم حيرام (الثالث) ملك صور والثانية في السنة التالية اي سنة ٧٤٢ تألب فيها عليه ملوك سورية فحاصر تل ارفاد ولم يفتتحها الا بعد سنتين لكن افتتاحها يسر له قهر سائر ممالك سورية فجلا منها الوفا وادّى له ملوكها الجزية وعدد اسماءهم في احد اثاره متفاخرًا فكان بينهم حيرام ملك صور وسيبيتي بعل ملك جبيل وستة عشر ملكًا اخرون والغزوة الثالثة كانت سنة ٧٣٤ انتصر فيها على عساكر رصين ملك دمشق وفاقح ملك اسرائيل وقتل رصين ويظن ان قتل هوشع لفاقح ملك اسرائيل كان بايعازه (ملوك ٤ فصل ١٥ و ١٦) واتصل بغزوته الى غزة فهرب ملكها حنون الى مصر وعاقب شمسة ملكة العرب وجلا كثيرين من بني اسرائيل وغيرهم الى بلاده وادّى له احاز ملك يهوذا الجزية ولما همَّ تجلات فلاصر بالعود الى نينوى استدعى الملوك الذين اخضعهم فكانوا خمسة وعشرين ملكًا منهم كثير ممن ذكرت اسماؤهم انفًا وفي جملتهم سيبيتي بعل ملك جبيل وماتان بعل ملك ارواد واما صور فارسل اليها قائدًا اشوريًا ويظهر ان حيرام الثالث كان قضى نحبه فخلفه مياب بعل دفع الى القائد مئة وخمسين وزنة من ذهب افتدى ملكه بها (لانرمان مجلد ٤ صفحة ٢٢٤ عن اثار هذا الملك) ويظهر ان مياب بعل هذا غير موتون ابن حيرام الثالث الذي خلفه نحو سنة ٧٣٠ وكان في هذه الاثناء نزاع لا نعلم داعيه ولا تفصيله حمل الصيدونيين على ان يغشوا ارواد ويفتتحوها برضى ملك صور واقاموا جالة منهم فيها فاصبحوا اسيادها

ا) صلا ارواد

﴿ عد ١٢٢ ﴾

في الفونيقيين وسلمناصر الخامس وسرغون ملكي الاشوريين

ان سلمناصر الخامس (على ما وصفه لانرمان او الرابع على ما وصفه فيكورو) استوى على منصة الملك خمس سنين فقط اي من سنة ٧٢٦ او سنة ٧٢٧ الى سنة ٧٢١ او سنة ٧٢٢ ولا يعلم هل كان نسب بينه وبين تجلت فلاصر سالفه ولا كيف رقي عرش اشور وقد وجد اسمه في كثير من الاثار الاشورية ولكن لم يوجد له الى اليوم اثر تاريخي ينبئ باعمال خطيرة له وعزا لانرمان ذلك الى قصر مدة ملكه والى انه لم يكن من عادة ملوك اشور ان ينقشوا ما يخلد ذكرى اعمالهم وغزواتهم الحربية الا بعد مرور بضع سنين من ملكهم . على انه قد ورد اسمه مكررًا في الكتاب لتنكيله ببني اسرائيل وحصاره السامرة (ملوك ٤ فصل ١٧) وحفظ لنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١٤) خلاصة عن ميندر كاتب تواريخ صور انبأتنا بما كان بين هذا الملك والفونيقيين وهذه ترجمة كلام ميندر . ان إلولا (ملك صور) ملك ستًا وثلثين سنة ولما تمرد عليه الشيتيون (في قبرس) مخر اليهم باسطول فدانوا لسلطته طائعين . وارسل ملك اشور عليهم عسكرًا واستحوذ على فونيقي كلها (١) ثم عقد عهدة صلح وعاد الى بلاده على ان سكان عكا (وصيدا في ترجمة هوفر) وصور القديمة ومدنًا اخرى عديدة ثاروا على الصوريين وخلعوا نير طاعتهم واستسلموا الى ملك الاشوريين فلم يبقَ على نبذ طاعته الا الصوريون في الجزيرة فالَّب ملك اشور ستين سفينة مفعمة بالفونيقيين وفيها ثماني مئة مجذف

(١) كذا في ترجمة يوسيفوس الافرنسية عن النسخة المطبوعة في بريس سنة ١٧٠٠ ولكن ترى هذه الفقرة في ترجمة هوفر في تاريخ فونيقي (وارسل سلمناصر ملك الاشوريين اليهم وفدًا واستحوذ على فونيقي كلها) فلعل المراد انه ارسل وفدًا الى الشيتيين ليجرئهم على مقاومة الولا

فارسل الصوريون أثني عشرة سفينة فقط لمناصبة هذا الاسطول فشتتوه واخذوا خمسماية اسير من جنوده وبحارته فاكسبهم هذا الانتصار فخاراً واعلى شأنهم فعاد ملك الاشوريين عنهم تاركاً جنوده لحراسة النهر واقنية الماء ليمنعوا الصوريين الاستقاء. ودامت هذه الحال خمس سنين فاضطر الصوريون ان يحتفروا آباراً للاستقاء .

فالظاهر من هذه الاحداث ان شعوب سورية الغربية لما قبض تجلت فلاصر انتهزوا فرصة موته ليخلعوا نير عبودية اشور فتحالف ملك اسرائيل وملك فونيقي وغيرهما على الخروج من طاعة الاشوريين وقبل ان تكمل معداتهم لذلك دهمهم سلمناصر فاستسلموا اليه وادوا له الجزية فعاد الى نينوى لكنهم اضمروا العود لمناوأته مستنجدين بشباك ملك مصر الذي يسميه الكتاب سؤ وهذا بيّن مما جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٧ عد ٣) حيث قال في هوشع ملك اسرائيل . وصعد عليه سلمناصر ملك اشور فكان هوشع عبداً له وكان يؤدي له جزية . وعلم ملك اشور ان هوشع محالف عليه وقد وجه رسلاً الى سوء ملك مصر ولم يؤدِ الجزية الى ملك اشور . فعاد سلمناصر ثانية الى سورية فقبض عليه وارسله مكتوفاً الى السجن وصعد ملك اشور على الارض كلها وصعد الى السامرة وحاصرها ثلث سنين . وحينئذٍ استسلمت اليه مدن فونيقي ولم يبقَ على مناوأته منها الا الصوريون الذين في الجزيرة فكان قول ميندر ان سلمناصر عقد عهدة صلح مع ملوك سورية وعاد الى بلاده ثم رجع ثانية الى سورية مطابقاً لنص الكتاب على ان سلمناصر لم يفتتح السامرة بل فتحها بعده خلفه سرغون الذي كان قائداً لجيوشه كما سترى في كلامنا على العبرانيين ولم يفتتح هو ولا خلفه سرغون صور بل استمرت تتحمل شديد الحصار الى ان رأى سرغون ان لا نفع من حصارها واثر عليه التوقيع على عهدة

صلح تقضي على صور بدفع فدية سنوية فاسترد جنوده عنها وعاد الى اشور فنجت صور من هذه النازلة متفاخرة بثباتها ونصرها

ولا نرى بعد ذلك في اثار سرغون ذكرًا لفونيقي ففي غزوته لازورى ملك اشدود الذي كان قد عزم ان لا يؤدي الجزية واغرى الملوك مجاوريه بالعصاوة نجد ذكرًا لملوك فلسطين ويهوذا وادوم ومواب انهم نووا العصاوة وراسلوا ملك مصر ولكن لا ذكر لاحد ملوك الفونيقيين لا بالموامرة ولا بما اجراه سرغون على روساء العصاة اذ هزم ازورى الى مصر والحق به ياوان الذي اقامه العصاة على عرشه واخذ امرأته وبنيه وبناته وامتعته وخزائن قصره وخرب مدن فلسطين وجلا كثيرًا من سكانها الى بلاده واقام مكانهم جالية من بلاد الكلدان وتمت بذلك نبوة اشعيا التي نطق بها قبل سبع عشرة سنة من هذه الغزوة اي سنة ٧٢٧ حيث قال (فصل ١٤ عد ٢٩ – ٣٠) « لا تفرحي يافلسطين بان قضيب ضاربك انكسر ... بينا انا مميت اصلك بالجوع وبقيتك تقتل ولول ايها الباب اصرخي يا ايتها المدينة قد ذبت يافلسطين باسرك لان قتامًا وافد من الشمال وليس من ينفرد عن عصائبه »

لكننا نجد سرغون قد ضم قبرس الى مملكته اما بغارته عليها بنفسه واما بارساله اليها احد قواده فقد وجدت في اخربة شيتوم (لرنكا) اشهر مدن قبرس في ذلك العصر صفيحة هي الان في متحف برلين تسمى صفيحة لرنكا تبين منها ان سرغون غزا قبرس واضافها الى املاكه وان ذلك كان في السنة الحادية عشرة لملكه اي نحو سنة ٧١٠ ق م وجعل سرغون مدن فونيقي تؤدي الجزية اليه توًا منفصلة عن صور التي خسرت في مدة الحصار بعض مستعمراتها في جزر البحر المتوسط فقل نفوذها وان علا شأنها بثبات ابطالها في جزيرتهم على ان مقتل سرغون في نينوى سنة ٧٠٤ وما كان من الاضطراب بسببه كان فرصة

اغتنمها الولا ملك صور لاعادة سوُدده على مدن فونيقي وكفها عن اداء الجزية للاشوريين الا انه ما عتم ان نزلت به داهية اخرى دهماء كما سترى

﴿ عد ١٢٣ ﴾

في الفونيقيين وسنحاريب ملك اشور

ان سرغون اغتاله جندي او احد سفلة الناس سنة ٧٠٤ فهب ابنه سنحاريب الذي كان يلي بلاد الكلدان من بابل الى نينوى فاستوى على منصة الملك الى سنة ٦٨٠ فتكون مدة ملكه اربعاً وعشرين سنة . وبعد ان اخمد نار الثورة في بلاد الكلدان ومادي وارمينيا زحف بعسكر جرار نحو سنة ٧٠٠ ق م ينوي اذلال ملوك سورية وتمكين سلطته فيها بل يطمح ببصره الى الاستيلاء علي مصر ايضاً واول البلاد التي وطئتها جنوده فونيقي فكان مجرد دنوه من اكثر مدنها كافياً لاستسلام ملوكها اليه ودفعهم الجزية له فكذا فعلت ارواد وملكها عبدليت وشمرون وملكها مناحيم وجبيل وملكها اورملك ومشى على اثر هولاء صيدا وسربتا (صرفند) واكو (عكاء) واكذيب (الزيب) وغيرها من مدن فونيقي . واما الولا ملك صور الذي كان يسمى حينئذٍ ملك الصيدونيين فاقام في صور البحرية اي الجزيرة وهمَّ بتحصينها رجاء ان يسعده الحظ بالدفاع كما اسعده في عهد سرغون فخاب امله وافتتح سنحاريب المدينة ولجأ الولا الى الفرار فاقام سنحاريب مكانه اميراً يسمى ايتوبعل فاقر له بالسيادة وتعهد باداء الجزية الى ملك اشور فكان هذا ايتوبعل الثاني بهذا الاسم من ملوك فونيقي وهذه ترجمة ما كتبه سنحاريب في اثره المسمى صفيحة تيلور في هذا الشان « في غزوتي الثالثة مشيت على بلاد الحثيين اي (سورية) فراعت رهبة عظمتي لولى (اي الولا) ملك صيدا ففر الى محل شاسع في وسط البحر فاخضعت بلاده لسلطتي صيدون الكبرى وصيدون الصغرى وسربتا (صرفند) وبيت زيتي ومحاليبا

وحصا (هذه المدن الثلث لا يعرف موقعها بتاكيد) واكسيب (الزيب) واكو (عكا) فان مخافة جنود اشور سيدي حلت في مدنه المحصنة وقلاعه المسورة وفي مخازن عدده وذخائره وفي مراعي مواشيه فخضع كل ذلك لسلطاني واقمت توبعل على العرش الملكي ملكاً عليهم وافترضت عليهم جزية سنوية دائمة بمنزلة فدية تقدم لعظمتي واما مناحيم ملك شمشيمورنا (هي شمرون السالف ذكرها في شمالي فونيقي وموقعها الان غير موكد) وتوبعل ملك صيدا وعبديليت ملك ارواد واور ملك جبيل ومتينتي ملك اشدود وبودويل ملك بيت عمون وكموش نداب ملك مواب وملكرام ملك ادوم وجميع ملوك احارى (المغرب) وكل ملوك ساحل البحر (المتوسط) فهولاء جميعاً قدموا الي تقادمهم النفيسة وهداياهم الثمينة وقبلوا اقدامي ، ويستتبع كلامه في ملوك اخرين وفي حزقيا الملك كما ستراه في تاريخه ولسنحاريب أثر اخر يعرف بصفيحة القسطنطينية لوجوده في متحفها اختصر فيه تاريخ هذه الاحداث بابلغ عبارة فقال « اما لولى ملك صيدون فاخذت ملكه واقمت توبعل على عرشه وفرضت عليه جزية ، وقد نقش سنحاريب صورته على صخر عند معبر نهر الكلب ذكرى لاخضاعه سورية وفونيقي فتراها الى اليوم بين صور غزاة بلادنا من كل صوب

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٥) ما ملخصه ان في اخبار الحروب التي جرت بين سرغون وسنحاريب والولا ملك صور عبرة يُتَعظ بها فاننا رأينا المدن الفونيقية تغادر صور عاصمتها منفردة وتفتح ابوابها لملك اشور بل تغدر بملكها وآله واهل عاصمته بانجادها الاشوريين عليهم بسفنها وملاحيها وما الخوف من الجنود الاشورية بكافٍ لارتكاب هذه الخيانة والغدر فلا جرم ان الحسد والاحن حملت الفونيقيين على خيانة عاصمتهم التي اثقلت نير سؤددها عليهم واحتجنت لنفسها ارباح التجارة برمتها وعاملت غير الصوريين معاملة

خدم لها ولمحالقيها كجعلهم بحارة في سفنها وجلافطة لخصاصها وعملة في معاملها فكانوا يهوون ان يروها مدحورة مذللة لينتفعوا بخرابها ويثأروا لنفوسهم منها وتستوي وسائر مدن فونيقي فهذا سر تصرُّف صيدا وجبيل وعكا في هذه الاحوال لكن سوء العاقبة عم الطرفين فخسرت صور سؤددها بتكبرها وتجبرها واضاعت سائر مدن فونيقي استقلالها لتتشفى من غيظها وكمدها وثقل على الجميع نير اشور واشتدت وطأته وتوفرت جزياته وبئس المصير • على ان صور بعد ثل عرش الولا وتخليف ايتوبعل له اذعنت لقضاء الحال وقل ما نراها بعد ذلك حاولت استرداد سيادتها الغابرة

عد ١٢٤

في الصيدنيين وآسرحدُّون

ان سنحاريب قتله ابناه ادرَّملك وشراصار وهو ساجد في بيت نصروك الهه كما انبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٩ عد ٣٧) وكان ذلك سنة ٦٨٠ ق م ووقع الخلاف والنزاع بين ابنائه على ملكه ففاز به ابنه آسرحدون اذ انتصر على اخويه القاتلين فرقي منصة الملك من سنة ٦٨٠ الى سنة ٨٦٧ ق م فملك اثنتي عشرة او ثلث عشرة سنة وتأويل اسمه « اشور اعطى اخًا » فاخمد جذوة الشغب الذي حصل عند مقتل ابيه في بلاده واستتبت الراحة على يده في بلاد الكلدان وكان عبد ملكوت ملك صيدا وغيره من ملوك سورية استغنموا فرصة مقتل سنحاريب فهمُّوا بالتملص من سلطة اشور واداء جزياتها ومنَّى ملك صيدا نفسه انه يستقل ويخلف صور في سيادتها فنبيء آسرحدون بما يأتمرون وما يتوخون فحشد الجنود وأعدَّ العدد وغشا سورية بنفسه وسار لا يلوي على شيء حتى بلغ الى صيدا فحاصر المدينة برًا فافتتحها عنوة فلجأ عبدملكوت وبعض قومه الى الفرار بحرًا بسفنه آملين النجاة والعود الى وطنهم بعد جلاء الاشوريين عنه فاخذ

آسرحدون سفناً من مدن فونيقي الاخري وتتبع سفن صيدا التي حملت الفارين فانتصر عليها وقبض على الملك وقتله ودمر المدينة وغنم جنوده بما فيها وجلا بعض الصيدونيين الى اشور

وهاك ما نقشه آسرحدون على احدى صفائحه . ضربت مدينة صيدون التي على ساحل البحر واهلكت سكانها على اخرهم ودمرت اسوارها ومنازلها والقيت موادها في البحر ونقضت الهياكل وفر ملكها عبدملكوت في البحر كسمكٍ ليختفي عن وجه عزتي فاجتذبته اليَّ من بين الامواج واستحوذت على خزائنه من ذهب وفضة وحجار كريمة وكهرباء وصندل وابنوس ومنسوجات من الصوف والكتان وكل ما حواه قصره وجلوت الى اشور جماً غفيراً من الرجال والنساء واخذت ايضاً بقراً وغنماً ودواب الركوب والحمل واقمت سكان ساحل سورية في انحاء شاسعة وبنيت في وسط بلاد الحثيين مدينة سميتها دراسرحدون (اي مدينة او قلعة اسرحدون) واسكنت فيها القوم الذين قهرهم ذراعي في الجبال التي في جهة جبال مشرق الشمس واقمت عليهم احد عمالي حاكماً . فالمراد بهذه العبارات الاخيرة انه جلا السوريين الى اشور وجلا اقواماً اخرين من شرقي اشور فاسكنهم في سورية ولا يعلم زمان هذه الغزوة ولكن لا بد انها كانت بين سنة ٦٧٨ الى سنة ٦٧٣ ق م

وقال في اثر اخر انه دعا اليه الملوك الخاضعين له في بلاد الحثيين اي في سورية وفونيقي وفي الجزر فكانوا اثنين وعشرين ملكاً وعدهم هكذا . بعل ملك صور منسا ملك يهوذا قدموه ملك ادوم موصورى ملك مواب زليبيل ملك غزة ميتينتي ملك عسقلون ايتوزو ملك عقرون ملكي اصاف ملك جبيل ماتان بعل ملك ارواد ابيبعل ملك شمرون بودويل ملك بيت عمون احى ملك ملك اشدود . ثم يعدد عشر ملوك في مدن قبرس

وهذا الملك توغل في بلاد العرب الى حيث لم يسبق اليه احد ملوك اشور وحاول البلوغ الى اوفير بلاد الذهب فمنعه من ذلك الحرّ الشديد وصعوبة المسالك وقلة الماء فيها لكنه استحوذ على بلاد العرب واخضع مصر وهزم ترهاقة ملكها الذي كان من الدولة الحبشية التي وليت مصر واخذ منف وتاب (طيبة) واقام في اعمال مصر اقيالاً يؤدون الجزية اليه ولم يجسر منسا ملك يهوذا ان يقاومه بل ذل له واعطاه الجزية كما سترى في كلامنا عليه في تاريخ العبرانيين وجاء هذا الظافر اخيرًا فنقش صورته على صخر عند معبر نهر الكلب ونقش تحتها اخبار غزواته واذلاله مصر وكان رعمسيس الثاني ملك مصر نقش قبله صورته هناك كما اسلفنا ذكرًا لاستيلائه على سورية فكأن آسرحدون اراد ان يوعز الى الاجيال المتخلفة له ان مصر واخلاف رعمسيس انفسهم دانوا لعظمته وذلوا لسطوته ولكن في اخر مدة ملكه عاد ترهاقة فتغلب على مصر وقتل الحرس الاشوري وكان اسرحدون قد اعيته الاتعاب والمرض ولم يرَ من نفسه المقدرة على غزو مصر ثانية فتنزل عن الملك لابنه اشور بانيبال

عد ١٢٥

في الفونيقيين واشور بانيبال ملك اشور

اقام آسرحدون حفلة المبايعة لابنه اشور بانيبال بالملك في الثاني عشر من شهر ايرو (يوافق بعض شهر نيسان وبعض شهر ايار) لسنة ٦٦٧ قبل الميلاد ولا نعلم العلم الاكيد مدة استوائه على العرش لانقطاع الاثر الذي انبأنا بسني ملوك اشور السالف ذكرهم والاظهر ان اشور بانيبال استمرَّ ضابطاً صولجان الملك زهاء ثلثين سنة اي الى سنة ٦٣٧ وكان هماماً مغوارًا قاسياً محباً العلم وراغباً في المحافظة على الاثار القديمة وترك من الاثار ما لم يباره فيه احد من ملوك اشور وما عتم بعد تتوجه ان سار بجيشه الجرار يؤم مصر تداركاً لغارة ترهاقة

عليها بعد انخذاله وعند مروره في فونيقي وسورية تسارع اليه اثنان وعشرون ملكًا منها ومن جزيرة قبرس لتحيته والاعتراف بالامانة لعرشه واعطائه الجزية فلم يكونوا لينسوا ما انزله بهم ابوه واجداده وقد اكتشف عن اثر له مشوهٍ ولكن تظهر منه اسماء هولاء الملوك فترى بينهم • بعل ملك صور ومنسا ملك يهوذا وملكي اصاف ملك جبيل ويكينلو ملك ارواد وابيعل ملك شمرون • ولا بد ان مدَّ هولاء الملوك اشور بانيبال برجالهم ايضًا لمحاربة مصر وانتصر على ترهاقة في موقعة كر بنيت على ضفة النيل فانهزم الى تاب فلحقه اشور بانيبال اليها ففر الى الحبشة فاعاد ملك اشور الاقيال الذين كان نصبهم ابوه الى ولاياتهم واكثر الحامية الاشوريين في محاصن مصر وقفل الى نينوى لكنه لم يصل اليها الا وثار عليه هذه المرة الاقيال انفسهم وفي مقدمتهم نكو احد هولاء الاقيال فقبضت عليه الجنود الاشورية وعلى قيلين آخرين وارسلوهم مكبلين الى اشور فاعتمد اشور بانيبال هذه المرة الحلم فاكرم مثواهم وافاض نعمه على نكو خاصة وردهم الى ولاياتهم لكنه اضطر بعد امد وجيز ان يعود للقتال في مصر لان ترهاقة توفي فجدد ابنه اوردامان الذي خلفه في عرش الحبشة الاعتداء على املاك مصر ولا يعدو ان كان اشور بانيبال في غزواته هذه يثقل الفونيقيين عند ممره بارضهم باعداد الذخائر وامداد جنوده برجالهم

ولا نعلم ما الذي جرّأ بعل ملك صور على المجاهرة بالعصيان على اشور بانيبال في السنة الثالثة لملكه اي سنة ٦٦٤ ولا كيف مالأه على ذلك غيره من ملوك فونيقي حتى هبَّ عليهم اشور بانيبال فحاصر مدنهم وافتتحها ودام حصار صور سنين عديدة واشتد الضيق على اهلها حتى ساقهم الظماء ان يشربوا ماء البحر واضطرهم العوز الى القوت ان يفتحوا ابواب محصنهم وهاك ما كتبه اشور بانيبال على احدى صفائحه • ذلَّت بعلاً (ملك صور) وجعلته يعرض

عن طماحه ويخضع عنقه لنيري واشخصت لديَّ بناته واخوات اخيه ليكنَّ لي إماءً واتى يا ملك ابنه يبدي خضوعه لي ويقدم لي تقادم لم يسبق اليَّ مثلها ويدفع اليَّ رهينة بنته وبنات اخوته فعفوت عنه ونصبته ملكاً على البلاد ، وكل ملوك سواحل فونيقي الذين مالئوا بعلاً الجئوا الى طرح اسلحتهم صاغرين طوعاً او كرهاً ويكينلو ملك ارواد الذي كان يحسب امواج البحر تسعفه على حفظ استقلاله الجئ ان يرسل ابنته لتكون مخفورة بين حرم الغازي في نينوى ثم الجئ الى الانتحار فراراً من وقوعه بيد الاشوريين واسر اشور بانيبال ابناءه الثمانية فقتل سبعة منهم واستحيى اكبرهم اذبعل فاقامه ملكاً على ارواد واستمر الفونيقيون على طاعة ملك اشور حتى نهاية ملك اشور بانيبال . هذا ما رواه لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٧) لكنه كان روى في (مجلد ٤ صفحة ٣٤٤) ان ابناء يكينلو عشرة وانهم بعد ان كانوا فرّوا الى قبرس على ما يظهر عادوا صاغرين الى اشور بانيبال بتقادم عديدة وقبلوا قدميه فعفا عنهم واقام اكبرهم ملكاً على ارواد فلا نعلم اي الروايتين احق بالاتباع وكانت في هذه الاثناء غارة التتر الشهيرة فانهم جاؤوا جماً غفيراً من بلادهم في الشمال فخيموا في اسيا الصغرى وسورية وبلغوا تخوم مصر حيث اقاموا مدة ثم انقلبوا نحو الشمال فاضروا بالمزارع والحقول في فونيقي لكنهم لم يدنوا من المدن المحصنة الا عسقلون فانهم دخلوها وانتهبوا كل ما كان فيها حتى هيكل الزهرة اقدم هياكلها لان هيكلها في قبرس وجزيرة قيثارة بُنيا بعد هذا الهيكل بزمن طويل كما روى هيرودت (ك ١ فصل ١٠٥)

الفصل السادس

﴿ في الفونيقيين في مدة ملوك الكلدان والفرس ﴾

﴿ عد ١٢٦ ﴾

في انقراض دولة الاشوريين وخلافة دولة الكلدان لها وغزوة نكو ملك مصر لسورية وفونيقي

خلف اشور بانيبال بعد وفاته ابنه اشور اديليلان كذا وجد اسمهُ مكتوباً على قطعة من اجرّ في كالح « انا اشور اديليلان ملك العساكر ملك اشور ابن اشور بانيبال » وكان هذا الملك واهن العزيمة مع ان ملكه انبسط حتى لم يمكن ضبطه ونشأ في شرقيه دولة ضمت اليها عشائر الماديين كلها وتعاقبت الحروب بين الاشوريين والكلدان في بابل الى ان ولّى اشور اديليلان ملك اشور نبو بلاسر الكلداني على بابل واعمالها او جعله قائداً لجنوده هناك ولما رأى من نفسه القوة ومن ملك اشور الوهن سمى نفسه ملك بابل وحالف شيكسر ملك الماديين ونكو الثاني ملك مصر على الخروج على ملك اشور وقرض دولته وخراب نينوى فجيش شيكسر جنوده وسار بها نحو نينوى فلم يلقَ معارضاً الى ان بلغ ابواب المدينة واقام عليها الحصار ولولا ان غارة التتر السالف ذكرها تكرهه على العود الى مملكته لافتتحها حينئذٍ على انه بعد ان فتك بالتتر وطردهم من مملكته عاد الى حصار نينوى بجنوده وجنود نبو بلاسر ملك بابل ولم تنبئنا الآثار كيف كان سقوط نينوى بل انبأنا قدماء المؤرخين ان الحصار دام سنتين فلم تمكّن مناعة اسوارها اعدائها من افتتاحها على ان دجلة طغى يومئذٍ طغياناً فوق عادته فاقلب جانباً من الاسوار فتيسر الفتح للاعداء فدخلوا المدينة ولما يئس ملكها القى النار في

قصره فاحترق هو ونساؤه وخزائنه فدك الظافرون ابنيـة المدينة كلها دكاً حتى اسسها وكذا زالت عظمة هذه المدينة وانقرضت دولتها كما تنبأ عليها الانبياء ولم تقم من ورطتها بل لم يعد يعلم اين كانت الا في هذه السنين الاخيرة فانه ظهر انها كانت في محل كوينجك الان وكان خرابها سنة ٦٢٥ على قول بعضهم او سنة ٦٠٦ على قول اخرين وهو الاظهر وسنجيء على تفصيل ذلك في تاريخ العبرانيين واقتسم ملك بابل وملك مادي املاك دولة الاشوريين

عفواً من القراء عن تخطي سبيل الغرض رغباً في توفر الفوائد وفي التمهيد لادراك الكلام الاتي حق ادراكه : لم تنجُ فونيقي من القلق والمشاق من جرى هذه الاحداث فان نكو الثاني ملك مصر خرج على سورية اما بقضاء المحالفـة مع نبو بلاسر ملك بابل على قول بعضهم او طلباً لنصيبه من تركة ملك اشور على قول غيرهم فسار نكو بجيش جرار من منف في فصل الربيع من سنة ٦٠٨ في طريق اسلافه فالتقاه يوشيا ملك يهوذا في مجدو (اللاجون) يريد منع عبور العساكر المصرية حفظاً لامانته لملك اشور فقتله نكو وبدَّد شمل عساكره ولما رأى ملك صور وسائر ملوك فونيقي ما حل بملـك يهوذا تلقوا جنود مصر بالترحاب وخضعوا لنكو ملك مصر متذكرين ما انزله الاشوريون بهم من الضنك والعسف والخراب وما كان لصيدا في ايام سيادة مصر عليها من النجاح والفلاح وتوصل نكو ملك مصر بغزوته هذه الى كركميش على الفرات . ونكو هذا هو الذي جعل ملاحي السفن الفونيقية يسافرون على نفقتـه حول قارة افريقية مبتدئين من البحر الاحمر وعائدين الى مصر في طريق بوغاز جبل طارق كما مر (عد ١١٥) الا ان هذا السفر لم يكرر ولم يعنَ بحفظ مذكرات المسافرين فلم يكن منه النفع المرغوب فيه للتجارة

ان تذليل الاشوريين لملوك فونيقي والاستيلاء على بلادهم لم يوقفا حركة

تجارتهم ولا نقصا غنى صور ولا اخمدا حمية الفونيقيين ورغبتهم في الاتجار والاغتراب بل اقاموا جاليات عديدة منهم في غربي البحر المتوسط اي في اوربا ولما انتقص القصدير في معادن اسبانيا في الايام التي نكتب تاريخها امعن تجارهم في المغرب حتى بلغوا جزائر بريطانيا طلباً للقصدير من معادن كورنويل الشهيرة ذكر ذلك استرابون (ك ٣ من تاريخه) وسنجيء على الكلام في تجارة فونيقي في فصل مخصوص

عد ١٢٧

في الفونيقيين وبختنصر وحصاره صور

قد مرَّ ان نكو ملك مصر بلغ بجنوده ظافراً الى كركميش فشقَّ على نبوبلاسر ان يستحوذ على سورية كلها وخشي ان يملك ما بين النهرين كاسلافه توتمس وساتي ورعمسيس وكانت الشيخوخة والمشاق اضعفت عزيمته فلم يرَ من نفسه المقدرة على ادارة جيشه في مقاومة ملك مصر فاشرك في ملكه ابنه نبوكدونصر الذي يسميه العرب بختنصر (وتأويله الاله نبو يحفظ الاكليل) وفي سنة ٦٠٦ ق م خرج بختنصر لمقاومة ملك مصر في كركميش على ضفة الفرات فكان بين الجيشين المصري والبابلي موقعة هائلة دارت الدوائر بها على المصريين فتتبعهم الكلدان على اعقابهم في سورية كلها وفتحت مدن سورية وفونيقي ابوابها للكلدان مستسلمة لهم كعادتها المستمرة وبلغ بختنصر بجحافله الى تخوم مصر يريد الاستيلاء عليها لكنه اضطر ان يعود الى بابل لوفاة والده سنة ٦٠٤ وروى باروز انه نظم حينئذٍ سورية والبلاد التي استولى عليها باقامة قواد مخلصين لحاميته التي تركها في المدن التي خضعت له ورؤساء يخفرون الاسرى العديدين ويقتادونهم الى بابل وأجد السير بشرذمة من جنده الى بابل حيث كل ملكا سنة ٦٠٤ واستوى على منصة الملك وحده الى سنة ٥٦١ ق م فيكون ملك ٤٣

سنة وحده وسنتين مع ابيه

ان بختنصر عاد الى سورية سنة ٦٠٢ ليقتص من يواقيم ملك يهوذا لدخوله في المحالفة عليه مع نكو ملك مصر ويزيل اثار الثورة من سورية فاكره يواقيم على الخضوع لملك بابل وعلى اداء الجزية اليه واخذ بختنصر بعض آنية الهيكل ولا نرى ذكرًا في غزوته هـذه لملوك فونيقي فيظهر انهم اظهروا له الخضوع وادوا اليه الجزية وعهدوا له بحفظ الامانة فلم يضر بهم على ان يواقيم ما برح سهل الانخداع بدسائس ملك مصر ولذلك عاد يسعى بخلع نير بابل طبق ما جاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٤ عد ١) حيث قال فيه ٠ وفي ايامه صعد نبوكدنصر ملك بابل فكان يواقيم عبدًا له ثلث سنين ثم عاد فتمرد عليه ٠ فهب بختنصر هذه المرة الثالثة الى سورية سنة ٥٩٩ فتوفي في تلك الاثناء يواقيم وخلفه ابنه يوياكين فلم يمكنه ان يقاوم جنود ملك بابل اكثر من ثلثة اشهر والجىء ان يسلم نفسه وآله الى يد عدوه فاخذهم بختنصر اسرى الى بابل وجلا معهم عشرة الاف رجل من نخبة بني يهوذا ودخل اورشليم واستلب كل ثمين في الهيكل وقصر الملك واقام متنيا عم يوياكين ملكًا مكانه وسماه صدقيا وفي هذه الغزوة ايضًا لا نجد ذكرًا في الكتاب ولا في الاثار ولا في كتب المؤرخين لملوك فونيقي ومدنها فظهر انهم ما برحوا على طاعة ملك بابل فكانوا احكم من بني يهوذا مع انذار ارميا لهم بالاذعان لملك بابل وعدم الاتكال على مصر

على ان بختنصر اضطر ان يعود بعد تسع سنوات الى سورية اي سنة ٥٩٠ وكان اذ ذاك ملكا صور وصيدا وغيرهما من ملوك فونيقي شركاء في المحالفـة مع ملك مصر وصدقيا ملك يهوذا وملكي العمونيين والموابين ايضًا وزيَّن لهم الاقدام على هذه المحالفة نفرة وقعت بين ملك بابل وملك مادى اذكان مات شيكسر ملك مادى حليف بختنصر وحموه وخلفه ابنه استياج فنشأ الخـلاف

بينهما ذاك شأن كل دولتين قويتين متجاورتين فاغتنم ملوك سورية ومصر فرصة هذا الخلاف لخلع طاعة ملك بابل فهب عائدًا الى سورية وانبأنا حزقيال النبي انه وقف قليلاً بين يفكر اي الطريقين يسلك اولاً أطريق اورشليم ام طريق صور اذ قال النبي (فصل ٢١ عد ٢١) « ان ملك بابل وقف عند ام الطريق في رأس الطريقين ليباشر عرافة... فاذا العرافة في يمينه اورشليم لينصب المجانيق » عليها . فقسم جحافله الى قسمين سار برأس احدهما الى اورشليم وسيّر الاخر الى صور فاقام الحصار عليها وسنأتي في تاريخ العبرانيين على ذكر ما كان من حصاره اورشليم ووقوفه عنه قليلاً حتى هزّم حفرع ملك مصر احد ملوك الدولة السادسة والعشرين فيها الذي كان يظهر انه اتى لنجدة صدقيا ملك يهوذا ثم عوده الى حصار اورشليم الذي استمر ثمانية عشر شهرًا وهرب صدقيا والقبض عليه واشخاصه امام بختنصر الذي فقأ عينيه وذبح ابناءه بحضرته واخذه مكبلاً في السلاسل الى بابل وجلا معه كل علية القوم في يهوذا وحرق الهيكل وقصر الملك وقتل عظيم الكهنة وستين رجلاً من الاعيان وولّى جدليا على اورشليم

واما صور فاقامت جنود بختنصر الحصار عليها وحان اتمام ما تنبأ عليها به حزقيال النبي اذ قال (فصل ٢٦ عد ٢ وما يليه) « بما ان صور قالت على اورشليم نعمّا قد انكسرت مصاريع الشعوب وتحولت اليّ فانا امتلئ اما هي فخربت لذلك هكذا قال الرب هاءنذا عليك فاصعد عليك اممًا كثيرة كما يصعد البحر امواجه فيدمرون اسوار صور ويهدمون بروجها واسحي غبارها عنها واجعلها صخرًا عاريًا فتصير مبسطًا للشباك في وسط البحر ... هاءنذا اجاب على صور نبوكدرصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك بخيل وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير فيقتل بناتك في الصحراء بالسيف ويجعل عليك مترسة ويركم عليك

تلاً ويرفع عليك المجنب ويلقي على اسوارك صدمات متجنيقه ويهدم بروجك بادوات حربه ولكثرة خيله يغطيك غبارها ومن صوت الفرسان والعجلات والمراكب ترتعش اسوارك اذ يدخل ابوابك دخول مدينة قد ثغرت وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك ويقتل شعبك بالسيف وانصاب عزتك تهبط الى الارض ويسلبون ثروتك وينهبون تجارتك وينقضون اسوارك ويهدمون بيوتك الشهية ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه وابطل زجل اغانيك وصوت كناراتك لا يسمع من بعد واجعلك صخرًا عاريًا فتكونين مبسط شباك ولا تبنين في ما بعد ، ودام الحصار على صور ثلث عشرة سنة وملكها ايتوبعل الثالث وابطاله يبدون آيات الشجاعة والتجلد والثبات والجئ° الصوريون ان يغادروا المدينة البرية اولاً وان يتحصنوا في المدينة الجزرية فدكت جنود بختنصر ابنية المدينة حتى جعلوها قاعًا صفصفًا وكلوا عن افتتاح الجزيرة وكان بختنصر قد مضى الى بابل فعاد الى صور سنة ٥٧٤ وشدد الحصار بنفسه فقيل انه افتتح الجزيرة عنوة وقيل ان ايتوبعل الثالث سئمت نفسه هذا الحصار الطويل ورأى الخراب الملم بشعبه لانقطاعهم عن التجارة والاشغال فاستسلم لبختنصر واعترف بسيادته عليه وذكر لانرمان الروايتين الاولى في المجلد السادس (صفحة ٥٣٠) والثانية في المجلد الرابع (صفحة ٤٠٢) واسر بختنصر ايتوبعل وكثيرًا من اعيان قومه وقادهم الى بابل وفرَّ فريق من المحاصرين بسفنهم الى قرطاجنة ولم تعد صور منذ يومئذٍ الى مجدها واتساع تجارتها واسفار جالأتها واقام بختنصر على صور ملكًا اسمه بعل واستسلمت له سائر مدن فونيقي وذل اهلها له صاغرين

﴿ عد ١٢٨ ﴾

في الحرب البحرية بين اسطول حفرع ملك مصر والاسطول الفونيقي من قبل بختنصر

ان حفرع ملك مصر ابطأ كثيرًا على صور بانجاده لها كما ابطأ على اورشليم ولم تتكامل معداته الحربية الا بعد افتتاح صور وكانت سلطة الكلدان توطدت في فونيقي وسورية فلم يجرؤ حفرع على ايقاد نار الحرب برًا فجهز اسطولاً بحريًا لم يكن لمصر مثله منذ عهد توتمس الثالث واستأجر له بحارة وجنودًا يونانا وكاريين (هم سكان كاريا في اسيا الصغرى تجاه جزر الارخبيل) وسير اسطوله نحو فونيقي آملاً ان يهيج مدنها على ثورة يخرجون بها عن طاعة الكلدان على ان توخر جنود بختنصر في فونيقي ومخافة اهلها ان يحل بهم ما حل في صور قبلهم خيبا مسعى حفرع بل انقلب الفونيقيون عليه وجهزوا سفنهم البحرية وضمت اليها سفائن جزيرة قبرس وسيروها تعترض مسير الاسطول المصري فكانت موقعة هائلة بين الاسطولين في امواه قبرس وكان النصر فيها لاسطول مصر فتتبع الاسطول الفونيقي حتى اتى يتطلب غرامة الحرب من المدن الساحلية وافتتح صيداء عنوة لان ملكها كان رئيس الاسطول ونهبها وغنم ما فيها واخذ ايضًا حفرع ارواد وجبيل وسالمته باقي مدن فونيقي وقد وجدت اطلال ابنية في جبيل وارواد على نمط الصناعة المصرية واكتشف فيها آثار كتب عليها اسم هذا الملك كانه بانيها على ان تسلطه على فونيقي لم يثبت الا زمانا وجيزًا اي نحوًا من ثلث سنين او اربع لان بختنصر عاد الى فونيقي واخضعها بل قصد مصر ايضًا فاستولى عليها وثل عرش حفرع واقام مكانه ملكًا يسمى احمس وقد تفاخر بختنصر كاتبًا في احد اثاره انه نزل الى مصر وقلب ملكها عدوه عن منصته واقام عليها ملكًا اخر وقهر المصريين واثخن في ارضهم وكان كل ذلك مصداقًا لنبوات

حزقيال في الفصول ٢٩و٣٠و٣١و٣٢ من سفر نبوته حيث يهدد مصر باستيلاء بختنصر عليها وخرابها واذلال ملكها المتكبر وانبوات ارميا حيث قال (فصل ٢٤ عد ٣٠) « هكذا قال الرب هآنذا اجعل فرعون حفرع ملك مصر في ايدي اعدائه وطالبي نفسه كما جعلت صدقيا ملك يهودا في يد نبوكدرصر ملك بابل عدوه وطالب نفسه » وقال في ذلك ايضاً (فصل ٤٦ عد ٢٤) « قد اخزيت بنت مصر وجعلت في ايدي شعب الشمال ... وافتقد فرعون وجميع المتوكلين عليه واجعلهم في ايدي طالبي نفوسهم في يد نبوكدرصر ملك بابل وايدي عبيده »

عد ١٢٩

حالة صور في عهد ملوك بابل بعد فتح بختنصر لها

قد مر بك ان بختنصر اقام بعلاً ملكاً على صور بعد اذلاله لها وحفظ لنا يوسيفوس (في كتاب رده اقوال ابيون ك ١ فصل ٧) فقرة من تواريخ صور التي ترجمها ميننددر الى اليونانية تيسر لنا بها استقراء تاريخ ملوك صور في باقي مدة ولاية البابليين فقال ميننددر « حاصر بختنصر مدينة صور على عهد ايتوبعل ملكها الذي خلفه بعل فملك عشر سنين وبعد وفاته انتقل الملك من الملوك الى قضاة فولى القضاة اكنيبعل بن بالوق شهرين ووليه كالب بن عبداى عشرة اشهر ثم ابار عظيم الكهنة ثلثة اشهر ثم موتون وجيروست ابنا عبد ريم ست سنين . ثم بلاتور سنة وبعد ذلك استدعي الصوريون مود بعل من بابل وملكوه فملك اربع سنين وخلفه اخوه حيرام وملك عشرين سنة » وكان اذ ذاك كورش ملك الفرس مالكاً في البلاد واذا جمعت هذه المدات معاً كان مجموعها اربعاً وخمسين سنة وثلثة اشهر (بعضها من مدة ايتوبعل) وحصار صور بُدئ فيه للسنة السابعة لبختنصر وكورش ملك الفرس رقي منصة الملك للسنة الرابعة من

ملك حيرام » (لعل الاصل الرابعة عشرة من ملك حيرام) انتهى كلام ميندر
والظاهر منه انه بعد ان ولى بعل صور مدة عشر سنين اي من سنة ٥٧٣ الى
سنة ٥٦٣ ثار الصوريون عليه وثلوا عرشه واستبدلوا الحكومة الملكية بحكومة
جمهورية يسمى رئيسها شفط اي حاكماً او قاضياً فلم تستقر لهم حال بل تتالى
الحكام فيهم تتالي الاشهر كما رايت ومدة هذه الثورة توافق مدة جنون بختنصر
فكأن الصوريين انتهزوا فرصة جنون ملك بابل وما صحبه من القلق والاضطراب
ليتملصوا من ولاية بابل ويردوا على انفسهم استقلالهم ولما لم تستقم حالة
الجمهورية استدعوا موربعل الذي يظهر انه كان من سلالة ملوك صور وكان
سجيناً في بابل او ارسله اليهم نابونيد ملك بابل حينئذٍ فملك في صور سنة ٥٥٥
ولكن لم يدم ملكه الا اربع سنين كما مر وتوفى سنة ٥٥١ وخلفه اخوه حيرام
الرابع واقام على منصة الملك اربع عشرة سنة خاضعاً لسلطة بابل ثم خضعت
فونيقي لكورش ملك الفرس بعد ظفره بملك بابل سنة ٥٣٧ فعاش حيرام
خاضعاً لكورش ست سنين وتوفى سنة ٥٣١ ق م وخلفه ابنه موتون

﴿ عد ١٣٠ ﴾

في الفونيقيين في عهد ملوك الفرس

ان بختنصر اعتراه الجنون في اخر ملكه حتى حسب نفسه ثوراً يُعلف
بعشب الارض ويمشي على الاربع ويأوي البراري الى ان مات سنة ٥٦٢ او
سنة ٥٦١ ق م وسوف نبسط الكلام في ذلك في تاريخ العبرانيين وخلفه ابنه اويل
مروداك الذي اطلق يوياكين ملك يهوذا من السجن وعظم مثواه (ملوك ٤
فصل ٢٥ عد ٢٧) ولم يملك الا سنتين وقتله صهره زوج اخته وملك مكانه
وسمى نرغل سار سور (اي الاله نرغل يحفظ الملك) فملك اربع سنين فقط
وقتل في موقعة مع كورش والفرس سنة ٦٥٥ وخلفه ابنه بلاباراسكون ولم

يستقم الملك له الا اشهرًا وحطه اشراف المملكة وبايعوا نابونيد بالملك وبينما كان يعني بتجديد معابد الالهة والاثار القديمة كانت في بلاد مادي احداث مهمة فان كورش ملك الفرس انتصر على حميه استياج ملك مادي وثل عرشه وحكم في كل البلاد التي في شمالي بلاد الكلدان وشرقيها فلم يعد مفر من انتشاب الحرب بينه وبين الكلدان وكان حينئذٍ ان وقعت نفرة بين الملك واشراف مملكته فآثر العزلة متنحيًا عن العناية بالمملكة وعاهدًا بتدبيرها الى ابنه بلشصر وكان كورش يقترب من بلاد الكلدان فالجئ بلشصر ان يلي بنفسه امرة جيشه لمناواته فعبر كورش دجلة ولم يغادر نابونيد عزلته الا للسنة السابعة عشرة من ملكه فتولى قيادة جيوشه لكنه غُلب واخذ اسيرًا واستمر ابنه بلشصر محاربًا الى ان افتتح كورش بابل ليلة الوليمة التي صنعها بلشصر لالف من عظمائه وشرب الخمر في آنية الذهب والفضة التي اخذها بختنصر من الهيكل في اورشليم وظهرت له اليد التي كتبت على الحائط «منامنا ثقل وفرسين» (دانيال فصل ٥) اي جعل الله ايامك معدودة ووزن اعمالك وفصلك من الملك وسترى ذلك باكثر اسهاب في تاريخ العبرانيين وانقرضت بذلك مملكة بابل وخلفتها مملكة الفرس سنة ٥٣٧ واذ انتهينا من بيان ذلك فنرى الان ماكان للفونيقيين مع كورش وخلفائه

اسلفنا الكلام في ان حيرام الرابع ملك صور خضع لكورش فان المدن الفونيقية كلها خضعت له دون مقاومة بعد افتتاحه بابل وكانت تؤدي له الجزية التي كانت تؤديها الى الكلدان وقد عد كورش في احد اثاره «جميع ملوك فونيقي» بين الملوك الذين قدموا له جزياتهم النفيسة في بابل وقال في هذا الاثر «وقد جمعت هولاء الشعوب (اي المسبين الى بابل) واعدتهم الى بلادهم» فكان ذلك مصداقًا لما جاء في الكتاب ان كورش امر بعود اليهود المسبيين الى فلسطين

وبتجديد بناء الهيكل وعاش كورش بعد فتح بابل ثماني سنين ومات قتيلاً في الحرب التي كانت له مع بعض قبائل التتر في الشمال سنة ٥٢٩ وخلفه ابنه كمبيس وبعد ان ثار لابيه من التتر وقتل اخاه سمرديس حشد جنوده قاصدًا مصر فاجتاز سورية وفونيقي فلم يلقَ الا التجلة والاذعان لسلطته بل نجده ملوك فونيقي باسطولهم لافتتاح مصر التي استولى عليها واثخن في ارضها وقتل ملكها احمس وتوغل فيها حتى الصعيد بل قصد ان يغزو الحبشة فكانت هذه الغزوة وبالاً عليه اذ عاد منها مدحوراً بل فاقدًا رشده ولما خضع له سكان ليبيا في غربي مصر طمع ان يستولي على قرطاجنة فامر جنوده البحرية ان تسافر اليها بالسفن فابى الفونيقيون الاذعان لامره لان سكان قرطاجنة اقرباؤهم وكانت بين الفريقين محالفة اخاء فترفعوا عن الاخلاف بايمانهم وحقوق نسبهم ولما تمنع الفونيقيون من المسير اصبح باقي الاسطول غير كافٍ لهذه الغزوة ولم يرَ كمبيس من السداد ان يغالظ الفونيقيين الذين انقادوا اليه طائعين وكانت نخبة جنوده البحرية وملاحيه منهم ونشأت ثورة على كمبيس في بلاده فاضطر ان يعود مسرعاً ولدى امتطائه جواده متلهوجاً سقط على سيفه فجرحه فلم يبالِ بجرحه وداوم سفره فاصابته الغنغرية في جرحه فمات في الطريق في محل يسمى عقبتان اختلف في موقعه فقيل في جهة جبل الكرمل وقيل في جهة حماه . وكان احد المجوس الذي سمى نفسه سمرديس بن كورش ولي البلاد بضعة اشهر فقتله داريوس (ويسميه العرب دارا كما سترى في تاريخ العبرانيين) وارتقى منصة الملك من سنة ٥٢١ الى سنة ٤٨٥ ق م واستمر الفونيقيون على جادة الطاعة له ولم يشتركوا في الثورة التي نشأت عليه في اكثر اقاليم ملكه وقسم داريوس مملكته الى تسع عشرة ستراپي اي ولاية وكانت الخامسة منها فونيقي وسورية وفلسطين وجزيرة قبرس وكانت الجزية المفروضة عليها ثلث مئة وخمسين وزنة من فضة

تؤديها كل سنة وقد الحق بهذه الولاية عشائر العرب في برية سورية وتخوم مصر وكان هولاء معفين من الجزية

وبعد وفاة داريوس خلفه ابنه كي خسرو (كذا يسمى العرب كسركس) من سنة ٤٨٥ الى سنة ٤٦٥ واشتهر في حروبه مع اليونان وحفظ الفونيقيون الامانة له ولم يكن في بلادهم ما يستحق ذكرًا الا ان اليونان بعد حربهم الشهيرة معه في سلمينا سنة ٤٨٠ ارسلوا اسطولهم يهدد قبرس وساحل اسيا الصغرى بالتنكيل بهما والاستيلاء عليهما ورقى ابنه ارتحشستا (ويسميه ابن خلدون ارتشخار) الاول منصة الملك سنة ٤٦٥ الى سنة ٤٢٥ فكان الاسطول اليوناني في ايامه يسطو على سواحل فونيقي انجادًا للمصريين علي الفرس وكان والي سورية وفونيقي اذ ذاك رجلاً يسمى بيفابيس كانت له موقعة هائلة عند مصب النيل مع القائد اليوناني فانتصر عليه لكن هذا الوالي عصى بعد ذلك ملكه ارتحشستا وظفر بالجيش المنفذ لاخضاعه وتوفى ارتحشستا وخلفه ابنه كي خسرو الثاني فلم يملك الا خمسة واربعين يومًا وقتله اخوه وملك مكانه ولم يدم ملكه الا ستة اشهر وثلَّ عرشه اخ اخر له وسمى داريوس الثاني فملك الى سنة ٤٠٥ وخلفه ابنه ارتحشستا الثاني فعصى عليه افاغوراس ملك سلمينا وبسط ولايته على جزيرة قبرس برمتها واخذ اسطوله ينكل بسكان سواحل كيليكيا وسورية ولما استراح ارتحشستا من حربه مع اليونان هم باخضاع افاغوراس فاقام الحصار على قبرس ست سنوات وكان ينجدها هاكورى ملك مصر الى ان اقر افاغوراس بسيادة ملك الفرس عليه فابقاه في ملكه وفرض عليه جزية سنوية وكان ذلك سنة ٣٨٠ (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفيحة ٥٢ و٥٣) وخلف ارتحشستا الثاني ابنه ارتحشستا الثالث الملقب اوكوس وقبض صولجان الملك من سنة ٣٥٩ الى سنة ٣٣٨ وهام في ان يوطد ولايته في مصر فانتصر على جنوده نكتنا نبو

ملك مصر فثار على ارتحشستا ملوك قبرس وتاناس والي فونيقي وغيرهم اما القبرسيون فردهم بعض عمال ملك الفرس الى طاعتـه واما الفونيقيون ومن حازبهم فزحف ارتحشستا اليهم بجيش جرار مؤلف من ثلاثمائة الف رجل من المملكة ومن عشرة الاف مستأجر يوناني واقام الحصار على صيدا حيث تحصن تاناس والي فونيقي فدافع اهلوها بعض الدفاع ثم طلبوا الامان وعرضوا على الغازي الاستسلام فلم يجب متمناهم وروى ديودوس الصقلي انه اجتمع منهم اذ ذاك اربعون الفاً في بيوتهم والقوا فيها النار مؤثرين الاحتراق على نحر الفرس لهم فبادوا عن اخرهم فعادت سورية الى طاعة الفرس زماناً طويلاً وغشى ارتحشستا مصر فاستظهر على نكتانبو ملكها وفتحت له مدن مصر ابوابها وارکن ملكها الى الفرار واقام ملك الفرس عمالاً في البلاد التي دانت له وكان ذلك لسنة ٣٤٥ ق م فعاودت العزة والعظمة مملكة الفرس على ان ذلك لم يكن الا لزمن وجيز لان ارتحشستا الثالث مات مسمماً سنة ٣٣٨ ولم يستمر ابنه ارسيس على منصة الملك الا سنة وقضى قتيلاً بدسيسة بغواس وزيره وخلفه داريوس الثالث الملقب كودمان سنة ٣٣٧ وفي هذه السنة نفسها رقى اسكندر بن فيلبوس المكدوني منصة ملك اليونان فسلبَ داريوس ملكه وكان اليونان يكثرون التطاول على فونيقي ولكن لم يتم استيلاؤهم على مدنها الا في سنة ٣٢٢ حين ذلت صور لاسكندر الكبير

﴿ عد ١٣١ ﴾

في فهرس اسماء ملوك صور نقلاً عن لانرمان

ذكر لانرمان في حاشية علقها على المجلد السادس من تاريخه القديم للمشرق فهرساً لملوك صور فآثرنا تعريبه هنا كما رواه والعهدة عليه في تعيين سني الملوك

حيرام الاول	ملك نحو سنة ١٠٠٠ ق م	
ابيبعل	. . . .	لاتعرف سنو ملكه
حيرام الثاني	٩٤٤	
بعل عازر	٩٤٤	الى سنة ٩٣٧
عبد عشتروت	٩٣٧	٩٢٨
دليل عشتروت	لاتعرف سنو ملكهم	
عشتروتي		
عشتوريم		
فاليبا		
ايتوبعل الاول	ملك سنة ٨٨٤	الى سنة ٨٤٤
بعل عازر الثاني	٨٤٤ :	: ٨٣٨
ماتان	٨٣٨ :	: ٨٢٩
بيكماليون	٨٢٩ :	: ٧٨٩
حيرام الثالث	نحو ٧٧٠	
موتون الاول	: ٧٣٠	
الولا	: ٧٢٤	
ايتوبعل الثاني	لاتعرف مدة ملكه ...	
بعل	نحو ٦٧٠	
ياملك	: ٦٥٠	
ايتوبعل الثالث	: ٥٩٠	
اتبعل	: ٥٧٤	

بعل الثاني	٥٧٤ الى ٥٦٣
قضاة	٥٦٣ : ٥٥٩
بعل لاتور	نحو ٥٥٦ : ٠٠٠
مور بعل	٥٥٥ : ٥٥١
حيرام الرابع	٥٥١ : ٥٣١
موتون الثاني	نحو ٥٣١

ومن بعد هذا الملك الاخير امست فونيقي ولاية من ولايات الفرس كما رأيت

الفصل السابع

(في تجارة الفونيقيين)

عد ١٣٢

في تجارة فونيقي وصور خاصة على ما ذكرها حزقيال النبي

قضت على الفونيقيين حالة بلادهم ان يكبوا على التجارة فان موقعها على ساحل البحر المتوسط بين المشرق والمغرب جعلها محطة للتجارة بين سكان قارتي اسيا واوربا وتوسطها بين مصر وما يليها غربًا وجنوبًا وبين فلسطين وسورية وبلاد العرب جنوبًا وشرقًا وبين سورية الشمالية واسيا الصغرى وما يليهما شرقًا وشمالاً صيرها نقطة الدائرة للمعمور المعروف وقتئذٍ وقل ما كان من ارضها خصيبًا خاصة بعد ان استحوذ بنو اسرائيل

على اكثر ما كان منها سهلاً وصالحاً للزراعة وحصروا الفونيقيين في مدنهم الساحلية ويسير من السهول المجاورة لبعضها ومن هضاب لبنان والجأتهم هذه الحال نفسها الى اتقان الصنائع والحرف والاكباب على العمل وعلى نقل مصنوعاتهم الى الافاق التي كان اكثر سكانها على حالة الهمجية وقلة الالمام والاهتمام بالصنائع وكانوا يستبدلون مصنوعاتهم بما يحتاجونه اليه او يعود بالنفع الاوفر عليهم من حاصلات غيرهم فانبسطت تجارتهم الى كل افق وضرب تجارهم في كل صوب وعظمت ثروتهم وتوفر غناهم ولا نرى اليق بهذا المقام من ذكر ما رواه حزقيال النبي في تجارة صور التي يراد بها كل مملكة صور اي فونيقي لا مدينة صور وحدها فقد قال هذا النبي في الفصل السابع والعشرين من نبوته • ترشيش (ويريد بها اسبانيا) متجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامة اسواقك ، ثم ذكر النبي ياوان واراد بها جزائر اليونان وبلادهم وتوبل وماشك واراد بها سكان البلاد الواقعة في الشمال من بلاد اشور وما بين بحر الخزر والبحر الاسود حيث كرجستان (طالع عدد ٤١) فقال • ياوان وتوبل وماشك متجرون معك وبنفوس الناس وانية النحاس اقاموا موسمك ، ثم ذكر آل توجرمة واراد بهم سكان ارمينيا (طالع عدد ٤١ ايضاً) فقال • آل توجرمة بالخيل والفرسان والبغال اقاموا اسواقك ، وذكر بني ددان واراد بهم سكان جنوب العربية (طالع عدد ٣٣) وجزاير البحرين فقال • وبنو ددان متجرون معك وجزائر كثيرة تجار يدك وقد ادت قرون العاج والابنوس قياضاً لك ، ثم ذكر ارام واراد بها بلادهم في سوريا وما بين النهرين فقال • ارام متجرة معك في كثرة صنايعك وبالبهرمان والارجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت اقامت اسواقك ، ثم ذكر فلسطين فقال • يهوذا وارض اسرايل متجرتان معك بحنطة منيت

(محلٌ اشتهر بجودة حنطته) والحلاوى والعسل والزيت والبلَسان اقامتا موسمك . ثم ذكر دمشق وما يليها فقال . دمشق متجرة معك بكثرة صنايعك من اجل كثرة كل غنى لك بخمر حلبون (حلب) وبالصوف الابيض . ثم ذكر دان وياوان واراد بهما على الراجح جزاير البحر المتوسط وبلاد اليونان فقال . دان وياوان بالغزل اقامتا اسواقك وكان في موسمك حديدها المصنوع وقصب الزريرة (وهو قصب يتداوى به) ثم ذكر ددان والراجح ان المراد به شعبٌ كانت مساكنه في اطراف العربية من جهة الهند فقال . ددان متجرة معك بالنمارق (وهي الطنافس التي توضع فوق الرحل) للركوب . ثم ذكر العرب فقال . العرب وجميع روساء قيدار هم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس فانهم بهذه اتجروا معك . ثم ذكر شبا ورعمه واراد بهما سكان حضرموت وسكان الشاطي العربي من خليج العجم (طالع عد ٣٣) فقال . تجار شبا ورعمه متجرون معك وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب اقاموا اسواقك . واتبع النبي كلامه ذاكرًا عدة مدن في بلاد العرب والجزيرة والعراق فقال . حاران وكنة وعادان وتجار شبا واشور وكلمد متجرون معك هولاء يتجَّرون معك بالانسجة الفاخرة باردية من السمنجوني والوشي وبالنفائس من الثياب المبرمة المشدودة بالحبال المعكومة (المشدودة بثوب) بين بضائعك . ثم ذكر سفن ترشيش واراد بها السفن التي كانت تسير الى اوفير استجلابًا للذهب فقال . سفن ترشيش سيارةٌ لك لموسمك وقد امتلأتِ وصرتِ ذات مجد عظيم في قلب البحار .

ان في اقوال النبي حزقيال هذه ما يغني عن البيان في سعة تجارة فونيقي ووفرة موادها وكفنا في زيادة التفصيل نأتي في الاعداد التالية على تجارتها في اسيا ثم في افريقيا ثم في اوربا

﴿ عد ١٣٣ ﴾

﴿ في تجارة فونيقي في اسيا نسبة الى الجهات الثلث التي كانت تسير فيها ﴾

كان لتجارة الفونيقيين في اسيا ثلاثة فروع فتسير احدها في الجنوب وثانيها في المشرق وثالثها في الشمال فكانت قوافلهم تسير جنوبًا حتى اليمن وحضرموت وعمّان فتنقل مصنوعاتهم وتجيء من هذه البلاد بالذهب والحجار الثمينة والبخور والمرّ الى غيرها من سلع التجارة وتاتي من مواني عدن وكنّه ببضائع الهند والحجار الثمينة والعاج والاخشاب ذات الرائحة الزكيّة وتتلقى من اطراف اليمن بضائع الحبشة وحاصلاتها وهي الذهب والعاج والآبنوس وريش النعام وكان عملتهم في نقل هذه البضائع عشيرة قيدار في برية العربية والمدينيين والادوميين في العربية الحجرية وكانت قوافل اليمن تسير الى الشمال فتجاوز مكه ويثرب وتصل الى حجر مدينة العربية وتنتهي الى فونيقي في طريق بلاد موآب وعمّون واما قوافل حضرموت وعمان فكانت تمرّ على جرّه وهي مرفاء على خليج العجم ترسو به السفن الآتية من الهند وكانت قوافل اخرى تقلها من هناك مجتازة بلاد العرب في طريق الحجاج في هذه الايام الى ان تنتهي الى صور

واما الفرع الثاني من تجارتهم فكان في شرقي بلادهم اي في بابل ونينوى وكان الدوريون عملة هذا الفرع كما كان العرب والمدينيون عملة الفرع الاول فكانت قوافلهم تعدو لبنان وبعلبك فتنتهي الى حمص وتأخذ من ثم القوافل الميممة نينوى الطريق المستطرق الان ايضًا اي تجاوز حماه وحلب والرها ونصيبين فتصل الى بلاد الاشوريين حيث كان نزالة فونيقيون يتلقون بضائع بلادهم فيبيعونها هناك ويبعثون الى زملائهم في فونيقي بضائع اشور وحاصلاتها . واما القوافل التي تيمم بابل فكانت تسير في البرية مارة بتدمر

وتسير توًا الى تبسك على الفرات فان هذه المدينة كانت محطة للتجارة تاتيها بضائع بابل بالفرات وبضائع سورية وفونيقي وفلسطين على القوافل . ولم ينبئنا حزقيال النبي ما كانت تجلبه صور من بابل على ان تجارة بابل في تلك الايام معروفة ومدارها على الانسجة القطنية والصوفية الفاخرة وعلى الحلى والاثاث التي مهر البابليون في صياغتها وحفرها وعلى العطور التي كانوا يستقطرونها وكان استعمالها عامًا في المشرق وعلى الحجار الثمينة الى غيرها وكانت قوافل بابل تجيء بحاصلات اسيا الداخلة من بخارى فيتلقاها الفونيقيون من ايديهم ويوصلونها الى بلادهم وبهذه الوسيلة عرف السوريون الحرير الذي جاء ذكره في نبوة حزقيال

واما الفرع الثالث وهو تجارة الفونيقيين في الشمال فكان مجهولاً لولا ان يصرح به حزقيال النبي بذكره تجارة صودمع توبل وماشك وآل توجرمة بنفوس الناس اي الرقيق وانية النحاس والخيل والبغال ولا مرآء بان هذه البلاد يراد بها الاقاليم الشمالية المجاورة البحر الاسود وبحر قزبين ومنها كرجستان اي بلاد الكرج المعلوم الاتجار فيها بالفتيات وتوجرمة هي ارمينيا والحاصلات التي يشير النبي اليها هي حاصلات هذه البلاد الى اليوم الا ان غزوات روسيا المتأخرة حظرت الاتجار بالرقيق في تلك البلاد . وبلاد الارمن مشهورة حتى الان بغناها بالخيل الجياد حتى كان الاشوريون والفرس لا يبتاعون خيل مركبات ملوكهم الا من ارمينيا وقد علمت مما مر ان جالة الفونيقيين اتصلت الى جنوبي جبل قاف وكانت لهم مستعمرات عديدة على ساحل البحر المتوسط وفي اكثر جزره والى شطوط البحر الاسود

ولا مرية في تسيير الفونيقيين سفنهم في خليج العرب وخليج العجم والاوقيانوس الهندي للاتجار وحسبك في الدلالة على ذلك ما جاء في سفر

الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٦ وفصل ١٠ عد ١١ وعد ٢٢) حيث قيل ان سليمان اشترك مع حيرام ملك صور في عمل سفن في عصيون جابر بجانب ايله على خليج عقبة من البحر الاحمر وسير هذه السفن الى اوفير لجلب الذهب وان سفن سليمان وحيرام لم تكن تأتي الا مرة في كل ثلث سنين ولو مخرت في البحر الاحمر وخليج فارس فقط لما اقتضى لسفرها كل هذا الزمان فكانت تسير اذًا في بعض الاوقيانوس الهندي ايضًا ولا علم مفصل لنا بمواد هذا الاتجار الا بما ذكره الكتاب حيث قال « فارسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان قومًا ملاحين عارفين بالبحر فاتوا اوفير واخذوا من هناك اربع مائة وعشرين قطارًا من الذهب واتوا بها الملك سليمان » وقال بعد ذلك « وكذا سفن حيرام التي كانت تحمل ذهبًا من اوفير جأت منها بخشب صندل كثير جدًا وبحجارة كريمة » الى ان يقول ان هذه السفن كانت تأتي « حاملة ذهبًا وفضة وعاجًا وقردة وطواويس » وسنزيد كل ذلك بيانًا في كلامنا على سليمان في تاريخ العبرانيين ولا يعدو ان كانت سفن الفونيقيين تقل الى بلاد اوفير مصنوعاتهم وما يرغب فيه من حاصلات بلادهم

﴿ عد ١٣٤ ﴾

في تجارة فونيقي في افريقية

قد كان لتجارة فونيقي في مصر رواج لا مزيد عليه فكان للفونيقيين احياء برمتها في مدن مصر السفلى والعليا وكان كل ما يحتاج اليه المصريون من وراء البحار جلبه لهم الفونيقيون اذ لم يكن منهم ملاحون بل كانت البحارة نجسة عندهم كما مرّ وروى هيرودت (في الكتاب الاول من تاريخه) ان الفونيقيين وحدهم كانوا ينقلون بضائع مصر وحاصلاتها الى جميع الامم وقال النبي حزقيال (فصل ٢٧ عد ٧) مخاطبًا صور « البز الموشى من مصر كان ما

نشرته شراعاً لك ، فكان هذا البز (وهو نسيج من قطن موشى) من سلع تجارتهم ولم يقف تجار فونيقي على حدود مصر بل حفظت لنا في حطام المؤرخين القدماء آثار تنبئنا بتواصل مستعمراتهم ومحاط تجارتهم من تخوم مصر الى ما وراء بوغاز جبل طارق خاصة بعد ان عمروا قرطاجنة واهم الجالات الفونيقية الافريقية هي التي اقامت على ساحل الاتلنتيك في اعمال مراكش حتى روى استرابون (ك ١٧ فصل ٣) ان الصوريين عمروا هناك ثلثمائة مدينة ولما تركت صور جالتها هذه في ايام الاشوريين استحوذ عليها البربر سكان تلك البلاد ولما سير اهل قرطاجنة حنون السالف الذكر بجالة فونيقية حديثة وجد هناك بعضاً من النزالة القدماء ومن شاء زيادة التفصيل في مستعمرات افريقية الفونيقية التجارية فليطالع كتاب هوفر في تاريخ فونيقي (فصل ٣) وكانت فصيلة الفونيقيين المسماة الليبين الفونيقيين تنقل سلع تجارتهم من آنية وانسجة وحلى الى داخلية افريقية وتجلب لهم من هنالك حاصلات تلك البلاد من معادن واخشاب ثمينة وجلود وعاج لكثرة الافيال في صحارى افريقة

عد ١٣٥

في تجارة فونيقي في اوربا

قدم بك ذكر جاليات الفونيقيين العديدة في اوربا وكان اخص داعٍ لاغترابهم الاتجار وقد تطرقوا الى اوربا بطريقين احدهما من جهة جزر البحر المتوسط التي كانت لهم محاط تجارة في اكثرها فتوصلوا منها الى بلاد اليونان ومن صقلية وسردينيا وكورسيكا الى شطوط ايطاليا وافرنسة وامعن تجارهم في هذه البلاد والثاني من جهة افريقيا وبوغاز جبل طارق وتوصلوا به الى اسبانيا وعمروا مدناً كثيرة فيها كما رأيت عند ذكر جالياتهم وتطرقوا من هناك الى

البرتغال والى بعض جزر الاتلنتيك ولم يقف الفونيقيون عند تجارتهم في مدن اوربا الساحلية بل اشغلوا قوافل كانت تتوغل في البلاد فتبلغ اقصاها فتجوب افرنسة وجرمانيا وتتصل الى البلتيك فالكهرباء كانت من بضائع الفونيقيين منذ عهد سيادة صيداء وهي لا توجد الا على شطوط البلتيك فتعين ان يكونوا قد جلبوها من هنالك وكذا كانوا يجلبون القصدير من كورنويل في انكلترا ولا يظن ان سفنهم كانت تتوصل حينئذٍ الى البلتيك وان قال به بعضهم

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٤٥) ما ملخصه ولدت الحضارة في مصر واشور ولكن كان الفونيقيون دعاتها ورسلها فلا تجد بلدًا من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق الا رائث فيه آثار تعليمهم وما كان لاسفارهم فيه من بث مبادي التمدن فقد جعل نفوذهم ونشاطهم بلاد اليونان وايطاليا وفرنسة واسبانيا تغادر حالتها الاولى البربرية وتصبح اسيوية الى ان احرزت بنفسها النجاح الذي رقاها الفونيقيون اول درجاته فلا يمكن ان يقدر الفونيقيين حق قدرهم في ما تفضلوا به على العالم القديم وما سبقت خطاهم اليه في مدارج التمدّن ولا يبعد عندي ان يتحقق ذات يوم ما يراه الان بعض العلماء واجنح انا اليه وهو ان سكان صيدا وصور هم اول من باح باسرار العمل بالمعادن الى شعوب اوربا الغربية فاذا استقرينا آثار عصر النحاس في بلادنا فلا نجد جيلاً جديدًا ادخله وازال عصر الحجر بل نجد النفوذ الفونيقي علّم قدماءنا العمل بالنحاس قبل الحديد فكانت الآنية والادوات والاسلحة تعمل من حجر فاخذوا يعملون من النحاس ما عملوه بعدًا من الحديد فكذا كان في اسبانيا وايطاليا وغاليه اي افرنسه وجرمانيه وجزر بريطانيا وباقي البلاد الشمالية ودليل ذلك ان هيئة هذا المتاع واحدة والنقوش عليها واحدة حتى تحسبها خرجت من معمل واحد وهيئة كلها اسيوية فالفونيقيون كانوا يحتاجون المعادن الثمينة لانفسهم ولتجارتهم وهذه علة امتدادهم

السريع في مستعمراتهم في اسبانيا

يكاد البنادقة والهولنديون والانكليز انفسهم في هذه الاعصر لا يساوون الفونيقيين في اعصرهم بامتداد تجارتهم وكانوا اينما حلّوا عمروا محاط لتجارتهم واصبحت معاملهم بعد ذلك مدناً كبيرة فان السكان الذين كانوا على جانبٍ من الهمجيَّة كانوا يجتمعون حول المعامل الفونيقية كلفاً بالنفع منها وبالعيشة الحضرية وبتعلم الصنائع فالشعب الغير المتمدن يكتسب شيئاً فشيئاً خصال المتمدنين ويجري على اثرهم بمقتضيات عيشه وراحته فتتوفر حاجاته فيسعى بايجاد ما يقيم بها من حرفةٍ او صناعة او تجارة او زراعة فتحصل الحضارة والعمران وكما نرى اليوم جيلنا يقتدي بالاوربيين هكذا كان الاوربيون يقتدون بقدمائنا لعمران بلادهم فقد اخذوا عنا الصناعة فنستردها الان منهم مكمَلةً وليس من يقيم نكيراً على ان الفونيقيين ادخلوا الحضارة والتمدن في اوربا وغيرها فقد كان مهد الصنائع والعلوم والتمدن مصر وبلاد الكلدان وفونيقي على ان الفونيقيين كانوا رسل هذا التمدن والتقدم في المعمور كله فلا ينكر العالم القديم فضلهم

ان هـذه التجارة التي استمرت قروناً وانبسطت الى افاق المعمور حينئذٍ افعمت مدن فونيقي بالثروة والغنى فكان ذلك نفسه اكبر معـين على سقوطها وزوال مجدها لوجهين الاول ان هذه الثروة هاجت مطامع الملوك الاشوريين والكلدان والفرس فكلفوا بالاستيلاء عليها والثاني انها حملت الفونيقيين على البذخ وافسدت ادابهم فساداً لا يقدر ولهذا قال حزقيال النبي (ف ٢٨ عد ١٣) لملك صور اي لاهل مملكتها «كنت في عدن جنة الله وكان كل حجر كريم كساءً لك من الياقوت الاحمر والياقوت الاصفر والماس والزبرجد والجزع واليشب واللازورد والبهرمان والزمرد وصنعت بيوت حجارتك من ذهب.... من كثرة اتجارك امتلأ باطنك جوراً وخطئتَ ... بكثرة اثامك في ظلم

اتجارك دنّست مقادسك فاخرجت من وسطك نارًا فاكلتك وجعلتك رمادًا على الارض على عيني كل من يراك »

الفصل الثامن

﴿ في صناعة الفونيقيين ﴾

عد ١٣٦

في البرفير ويُعرف بالارجوان

لم يكن الفونيقيون تجارًا فقط يضربون في الارض قياضًا لبضاعتهم بغيرها بل اشتهروا ايضًا بالصناعة فكان لهم مصنوعات عديدة نأتي على ذكر اخصها فانهم لم يكونوا يتجرون بمصنوعات الاشوريين والكلدان والمصريين فقط بل كان لهم تجارة وسيعة من صنع ايديهم ولبعض مصنوعاتهم منزلة كبرى من الاعتبار في العالم القديم

ومن اوّل مصنوعاتهم وافخرها صبغ البرفير اي الارجوان الذي كان يرغب فيه قدماء الشعوب وكان ملبس الملوك وموضع الاسراف وليس من نكير ان اول من اخترعه الكنعانيون سكان ساحل البحر المتوسط اي الفونيقيون ونُسب اختراعه في الاقاصيص الوثنية الى ملكرت معبود الصوريين وكانوا يأخذون مادة هذا الصبغ من حيوانات بحرية من ذوات الصدف وقد اطال ارسطو وبلين في الكلام على البرفير وصبغه وعلى الحيوانات التي يؤخذ من احشائها وعلى وقت اصطيادها وكيفية اخذ هذه العصارة من احشائها ولون الارجوان كان احمر بنفسجيًا وحمرته تكون ناصعة او يخالطها لونٌ اخر صادرٌ

من خاصة في الحيوان الذي تؤخذ الصبغة منه واجود البرفير واثمنه وما كان منه ملبس الملوك هو ما أخذت صبغته عن الحيوانات العايشة في البحر بجانب صيدا وصور وجوارهما وكان يستعمله خاصةً ملوك اشور وارام وبابل وفارس ومدين كما جاء في نبوات حزقيال وارميا ودانيال وكان ملوك اسيا يسرفون باستعمال البرفير في ملابسهم وفي زينة قصورهم ولم يكن الفونيقيون يأخذون هذا الصبغ من البحر المجاور مدنهم فقط بل يجلبونه او يعملون به في انحاء اخرى ايضاً واخص مصائدهم لهذا الحيوان ومعاملهم للصبغ كانت صور على ما ذكر استرابون وصيدا على ما ذكر اكايمنضوس الاسكندري وصارفند وقيسارية اللدّ وقبرس وشطوط الموره في بلاد اليونان والجزر تيثاره وكريت ورودس وغيرها وقد ذكر حزقيال النبي ارجوان جزاير اليونان لصور اذ قال (ف ٢٧ عد ٧) « والسمجوني والارجوان من جزاير اليشة كانا غطاءك » وكانوا يصبغون بهذه الصبغة انسجةً من قطن وصوف وحريرٍ وخاصةً انسجة الصوف الناعم الرقيق الذي كان يستجلب من برية سورية ولما كانت مادة هذا الصبغ غالية الثمن فلم يكونوا يصبغون بها الا اجود النسيج وكان لهم بهذا الاختراع ثروةٌ كبرى وارباح لا تقدر

عد ١٣٧

في صنع الفونيقيين الزجاج

من اشهر مصنوعات الفونيقيين الزجاج وقد عزا كثيرٌ من القدماء استنباطه اليهم فقد سبقهم المصريون الى اختراع نوع من الزجاج لكنه لم يكن شفافاً وكانوا يصطنعون منه آنية صغيرة او يطلون به الآنية الخزفية ويصنعون منه حلىً كالعقود التي يحب السودان الى اليوم التحلي بها وترى آثاراً لمصنوعاتهم هذه من اقدم الايام على ان الزجاج الشفاف اخترعه الفونيقيون على الارجح

وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعاتهم هذه الزجاجية لا ينحط اعتبـاراً عن مصنوعات البندقية (فانيسيا) في القرون الوسطى . وقد روى بلين (في التاريخ الطبيعي فصل ٣٦) كيف وفق الفونيقيون الى اختراع الزجاج فقال ما ملخصه . ان في فونيقي المتاخمة لليهودية عند ذيل جبل الكرمل مستنقعاً يظن ان منه اصل نهر بالوس (المعروف الان بنهر النعمان) الذي يصب في البحر المتوسط غير بعيد عن بتولمايس (عكا) وامواه هذا النهر عميقة غير سريعة الجري وليس على ضفتي النهر من رمل الا عند مصبه وهناك تغسله امواه البحر وتنقيه فيصبح ابيض نقياً خالصاً بعدان كان لا يصلح لشيء . وحكوا ان بعض المتجرين بالنطرون (ملح البارود) حلوا في هذا الموضع وارادوا ان يطبخوا لهم طعاماً فلم يجدوا حجارة ليجعلوها أثافي فجعلوها من قطع النطرون المشحونة سفينتهم به ولما اضرموا النار رأوا الملح يذوب وينصب على الرمل فيتكون منه سائل براق فاستغربوه وهداهم الى اصطنـاع الزجاج فهذا هو اصل الزجاج . فلهذه الحكاية اصل تاريخي فالتجار الفونيقيون اضرموا النـار في خرق صخر يجمع لهيبها فحصلوا بادي بدء على تزجج ملح النطرون وبهـذا قام اختراعهم فمن عرفوا الزجاج قبل الفونيقيين كانوا يستعينون على صنعه بمحلول البوتاس (القلي) مأخوذاً من حرق بعض النبات فلم يكن زجاجهم شفافاً اما الفونيقيون فاعتاضوا عن القلي النباتي بالقلي المعدني فكان زجاجهم شفافاً وكان مركز معامل الزجاج عند الفونيقيين صيدا وصرفند كما كان مركز معامل الصبـاغة حول صور وكان اجود الرمل الذي يتخذونه لصنع الزجاج رمل نهر بالوس (النعماني) فكان اشبه برمل فنتبلو في افرنسة في هذه الايام . وفي متاحف اوربا كثير من مصنوعات الفونيقيين الزجاجية وهي شاهدة لهم بطول الباع والمهارة العجيبة بهذه الصناعة

عد ١٣٨

في اصطناع الفونيقيين المتاع والانية الخزفية والمعدنية وغيرها

اشتهر الفونيقيون ايضاً في عمل المتاع والآنية الخزفية وكانت هذه الآنية من اخص اصناف تجارتهم واستمروا على ذلك عندما تاهت اسفارهم الى جزر بريطانيا بالاتلنتيك فكان من مشحونات سفنهم هذه الآنية يعطون اهل تلك البلاد اياها قياضاً بالقصدير وقال برّو (في كتابه في الصناعة في القدم السالف ذكره مجلد ٣ صفيحة ١٦٨) ما ملخصه . كانت معامل الآنية من ارواد الى صور وكان يشحن من هذه الفرض بربع كل سنة مقدار وفير من الجرار والقدور والكؤوس والصحاف الى غيرها من المتاع فتوزع في الافاق حتى على شواطي الاتلنتيك وذهب اكثر العلماء الى ان الفونيقيين علموا اليونان هذه الصناعة مستدلين بان مصنوعات اليونان القديمة من هذه الآنية ان هي الا منقولة عن مثال فونيقي وما وجد منها في بعض جزر الارخبيل خاصة في ثارة ومالوس يظهر انه من صنع الفونيقيين انفسهم عند احتلالهم هذه الجزر . وقد مر بك في مقالة الحثيين ان الاب دي كارا يرى ان سكان بلاد اليونان القدماء تلقوا هذه الصناعة عن الحثيين على ان الحثيين ظعنوا من جوار فونيقي اي من سورية الشمالية الى اسيا الصغرى ثم الى بلاد اليونان على مذهبه فتعود هذه الصناعة الى اصل واحد . وليس من نكير ان اليونان حسنوا وكملوا مصنوعاتهم الخزفية فترى عليها رسوم هندسية مدققة وامثلة ازهار وهيئات تطابق قوانين الصناعة مع ان مصنوعات الفونيقيين نراها ضخمة متينة لا دقة في صناعتها ولا بدع فان غرض الفونيقيين انما كان التجارة والربح وان يصنعوا لعملائهم البرابرة آنية متينة لا يسهل انكسارها في استعمالها اليومي ولم يتعمدوا اتقان الصناعة والظرف لما يقتضي لصنعه من الوقت الطويل فيغلى

ثمنه فلا تروج البضاعة

اشتهر الفونيقيون ايضاً بالمصنوعات المعدنية ولكن يظهر انهم لم يعملوا بالحديد ولا بالفولاذ بل كانوا يأخذون المصنوعات الحديدية من البلاد التي يسهل صنعها بها لوجود معادن الحديد فيها لكنهم حازوا قصبات السبق في العمل بالصفر اي النحاس الاصفر وحسبك شاهداً لذلك ما جاء في الكتاب عما صنعه الصوريون من الآنية واثاث الزينة في هيكل سليمان وبلاطه (سفر الملوك الثالث فصل ٧ من عد ١٣ الى عد ٤٦) وكثيراً ما جاء في الخطوط الهيروكليفية على عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصر ذكر آنية الصفر من صنع الفونيقيين وكان يقدم للفراعنة من جملة مواد الجزيات المقدمة لهم آنية من هذه توصف بالظرف وبديع الصناعة وقال استرابون (في ك ٣) ان التجار الفونيقيين كانوا يشحنون الى جزائر بريطانيا اسلحة من الصفر مع الآنية الخزفية ولا غرو ان كانت هذه الاسلحة مثالاً لما استدلَّ به على العصر النحاسي في اوروبا

وقد ذكر هوميروس الشاعر مرات الكؤوس التي يصنعها الصاغة الفونيقيون من معادن ثمينه وابان شديد رغبة اليونانيين في نوالها وقد وجد بعضها في جزيرة قبرس وفي تسكانا في ايطاليا نقلها التجار او الجالة الفونيقيون اليها . وفي متحف الواتيكان في رومة واللوفر في باريس شيء كثير وجميل منها . وقد اكتشف منذ بضع سنوات في عمريت وطرطوس قطع كثيرة من الحلى مرصعة بجواهر فشهدت بمهارة الصاغة الفونيقيين ونبوغهم في صنع الحلى

وذكر حزقيال النبي مهارة الصوريين في صنع العاج ايضاً يزخرفون به المساكن والمتاع باشكال بديعة وكانوا يستجلبون اسنان الافيال اللازمة لذلك بطريقين فكانت قوافل اليمن تأتيهم من الهند بشيء من ذلك وسفنهم في البحر المتوسط

تأتيهم بشيء منه من شمالي افريقيا اذ كانت الافيال حينئذٍ كثيرة في نواحي مراكش والجزائر وتونس لا كما اصبحت الان محصورة في الانحاء الواقعة تحت خط الاستواء واكثر مصنوعات العاج التي كشف عنها في اطلال قصور الاشوريين صنعتها ايدي الفونيقيين

لم يكن للفونيقيين ارض كافية لتحصيل قوتهم بالزراعة ولذلك اكبوا على الملاحة والتجارة والصناعة ومع هذا اجادوا كثيراً استثمار ما كان لهم من الارضين فقد توفرت في جوانب صور وصيداء وبيروت وجبيل كروم العنب فكانوا يعصرون منها ومن عنب لبنان خمرهم التي طارت شهرتها حتى كان يرغب فيها في رومة في ايامها وفي بلاد اليونان وبارتها في الشهرة خمر حلب (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفيحة ٥٤٧ وما يليها) وروى رنان انه وجد في ضواحي صور آلات للحراثة اكمل وامتن منها في ايامنا (كتاب بعثه الى فونيقي صفحة ٦٣٣) وقد اشتهروا ايضاً بتقديد الاسماك اي جعلها قطعاً وتمليحها ووضعها في الهوا لتجف فتحفظ مؤونة وزاداً فقد سبقوا في ذلك الهولاندي الذي نصب له كرلوس الخامس ملك المانيا تمثالاً وكان لمصايد صور وبيروت دخل كبير من صنف تجارتهم هذا وقد اشتهر الفونيقيون ايضاً بهندسة الابنية وتحصين الحصون فكانوا اساتذة لغيرهم من القبائل في هذا الفن ومزية ابنيتهم ضخامة حجارها وحسن تنجيدها وهم اول من عني بتبليط الازقة والشوارع في المدن فان شوارع صور وقرطاجنة بلطت عند بنائها كما يظهر من اشعار فرجيل ولا حاجة الى القول انهم اول من صنع السفن وعلم الناس صنعها . (عن هوفر في تاريخ فونيقي فصل ٤)

الفصل التاسع

(في ايجاد الفونيقيين الكتابة بالحروف وفي لغتهم وعلومهم)

عد ١٣٩

في ان الفونيقيين اخذوا حروف الكتابة عن الخطوط الهيروكليفية

سلف لنا كلام في عد ٥٢ ان قد اجمع القدماء على ان الفونيقيين اول من وضع الكتابة بالحروف ولم يخالف الحدثاء القدماء في هذا بل زادوه اثباتاً وشفعوه ببيان انهم اخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروكليفية فقد صرح شمبوليون الكاشف عن كنوز الخطوط الهيروكليفية ان الحروف الفونيقية اشتقت من هذه الخطوط وقد اطال واجاد العالم عمنويل دي روجه باثباته هذا الاشتقاق وبيان طريق التوصل اليه فقال ان العلاقات السياسية والتجارية بين المصريين والسوريين كانت كثيرة متلاحقة فكان يضطر الكاتب في كل هنيهة ان يرسم بالخطوط المصرية كلمات او اسماء اعلام مأخوذة عن اللغات السامية فاستلزم الامر استلزاماً طبيعياً لا مناص منه الاصطلاح على روابط مقررة ليكون بين اللفظ السامي واللفظ المصري ما امكن من المشابهة وقد كان بين اللغتين بعض تهجيات متشابهة وما لم يكن متشابهاً أصطلح على تأدية لفظه بالخطوط المصرية اصطلاحاً ثابتاً لا يتغير . وبعد ان وضع روجه هذا الاساس لغرضه اخذ يطالع ويعارض بين الحروف الفونيقية والعلامات المصرية المرسومة في اقدم الايام فتيسر له ان ينظم جدولاً يضع فيه الحروف الفونيقية على جانب الخطوط المصرية فظهر به اشتقاق الاولى من الثانية لان الحروف الفونيقية

اثنان وعشرون حرفاً كعدد حروف لغتنا السريانية فوضع تجاهها اثنين وعشرين علامة هيروكليفية تشابه تلك الحروف بلفظها فكانت صورة خمس عشرة علامة منها اشبه بصور خمسة عشر حرفاً من الحروف الفونيقية والحروف السبعة الباقية تبعد صورها عن العلامات الهيروكليفية المقابلة لها ولكن يمكن ردها اليها واليك هذا الجدول في الصورة عد ٧ فمن امعن النظر فيها لم يمترِ ان الفونيقيين اخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروكليفية وقد قال دي روجه ان هذا الاختراع كان في عهد ولاية الملوك الرعاة في مصر التي دامت على القول الاظهر من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قبل الميلاد ونعم الاختراع الذي اعتيض به باثنتين وعشرين علامة بسيطة عن الوف علامات يحتاج الكاتب تعلمها واتقان فن التصوير فان اكثر العلامات الهيروكليفية صور طيور وحيوانات وهيئات بشرية فجاد الفونيقيون على العالم كله بهذا الاختراع وزادوا فضلهم فضلاً بنشرهم حروف كتابتهم مع بضائع تجارتهم في جهات المعمور المعروف يومئذٍ كما سترى في العدد الآتي قال رنان كانت حروف هجاء الفونيقيين صنفاً من البضائع التي يشحنونها

عد ١٤٠

في ان حروف كتابة الفونيقيين اصل لحروف الكتابة في كل اللغات

قال لانرمان (مجلد ٦ صفيحة ٥٥٣) لانعرف احرفاً للكتابة سبق وجودها حروف الفونيقيين بل نعلم ان كل ما بقي له اثر من الحروف وجميع الحروف المستعملة اليوم في كل اللغات قد صدرت تواً عن الحروف التي وضعها الفونيقيون او تفرعت عن احد فروعها فالحروف الفونيقية ام وحروف سائر اللغات اولادها ان العلماء الباحثين في اصول اللغات ومعارضة بعضها ببعض قسموا اللغات

وحروف كتابتها الى طوائف كما قسم علماء البوتانيك النبات وعلماء الزولوجية الحيوان الى طوائف مراعين في ذلك درجات البنوة بين الحروف الاصلية التي هي الفونيقية وبين حروف سائر اللغات

فالحروف المعروفة يسهل ردها الى خمس طوائف مطابقة للجهات الخمس التي ضرب بها الفونيقيون للاتجار وهذه الطوائف هي السامية بفرعيها العامين السرياني والعربي ثم اليونانية الايطالية بفرعيها اليوناني واللاتيني ثم الايبارية وهي كتابة لايباريين سكان اسبانيا ثم الطائفة الشمالية وتشتمل على الكتابات القديمة عند الاسكندينافيين (وهم جالة اتت من اسيا فحلت في شمالي اوروبا في اسوج ونروج) والجرمانيين والصقالبة قبل تنصرهم ثم الطائفة الهندية الحميرية وقد امتازت بان زاد ذووها على حروفها خطوطاً اصطلحوا عليها لتدل على حركة الحروف فغيرت هذه الزيادة هيأتها ويظهر ان مصدر هذه الطائفة كان بلاد العرب الجنوبية فتفرعت من هناك الى افريقيا من جهة فتكون منها كتابة الاحباش والليبيين فكانت مع كتابة الحميريين قدماء سكان اليمن طائفة مستقلة وامتدت من جهة اخرى الى اريا (وهي اقليم من بلاد فارس حيث خراسان الان) فتكون منها نوع كتابة مخصوص ثم الى الهند الذي رد العالم البراش وبر (Albrecht Weber) اقدم حروف كتابته الى مصدر فونيقي وتفرع من هذا الاصل فروع عديدة ترد الى خمس طوائف نضرب عن تفصيلها هنا طلباً للايجاز

ان لكل هذه الطوائف من الكتابة اماً واحدة هي حروف الفونيقيين اوصلوها الى الافاق مع بضائع تجارتهم فالطائفة السامية نتجت من تجارة الفونيقيين مع بلاد ارام وشطوط الفرات ودجلة والطائفة اليونانية الايطالية مصدرها اسفار الصيدونيين لتجارتهم في الارخبيل وغيره من جزر البحر المتوسط

وفي بلاد اليونان واليونان انفسهم يعزون دخول حروف الكتـابة عندهم الى جالية قدموس الفونيقي ويسمون الحروف فونيقية ثم الطائفة الايبارية مصدرها تجارة صور مع اسبانيا الجنوبية واما مصدر طائفة الكتابة الشمالية فيظهر انه كان في الانحاء المجاورة البحر الاسود حيث كان قدماء الجرمانيـين والاسكنديناڤيين قبل مهاجرتهم الى اوروبا وقد مر بك ان الفونيقيين اتصلوا بتجارتهم الى تلك الانحاء فاوصلوا حروفهم الى سكانها فحملوها معهم الى اوروبا عند مهاجرتهم واما الطائفة الاخيرة وهي الهندية الحميرية فلا مراء ان مصدرها تجارة الفونيقيين مع سكان جنوبي العربية وبواسطتهم مع سكان الهند من جهة وسكان افريقيا الشرقية من اخرى وترى مثالاً لذلك في الجدول التالي عد ٨ المنطوي على الحروف الفونيقية والعبرانيـة واليونانية واللاتينية فيظهر لك ما بينهما من المشابهة فتقيس غيرها عليها . اما الحروف العربية التي نستعملها الان فالمشهور ان عبد الحميد الكاتب البغدادي انما هو الذي اكسبها الهيئة التي تراها في ايامنا والحروف السريانية التي تجدها الان في كتبنا البيعية قد اخذت عن الحروف المسماة استرنكلية وهو اشبه بالفونيقية وكان ذلك في نحو القرن الثاني عشر للميلاد

عد ١٤١

في الحروف الفونيقية وماطرآ عليها من التغير

ان الحروف الفونيقية على ما توصلت الينا بالخطوط التي كشف عنها في صيداء وشيتيوم اي لرنكا في قبرس وفي هذه الجزيرة ومالطة ومرسيليا هي الحروف نفسها التي كانت تستعمل في كتابة اللغة العبرانية والفروع الصادرة عنها كلغـة الموابيين وغيرهم من شعوب فلسطين وقد ثبت ذلك بالكتابات القديمة التي وجدت على عين شيلوحا وعلى صفيحة ميشع في بلاد مواب (وسنأتي على ذكر

هذين الاثرين في تاريخ العبرانيين) وعلى فصوص خواتم واختام لبعض اليهود القدماء على ان هذه الحروف قد طرأ عليها بعض التغير بكرور الايام فلا تمكننا ندرة الاثار الفونيقية من تفصيل ما طرأ على كل حرف منها من التبدل في كل مكان وزمان لكنه يتيسر لنا مراعاة هيئات هذه الحروف في ثلثة اعصر العصر الاول كانت فيه على هيئتها الاولية ومدة هذا العصر من عهد ولاية الرعاة في مصر الى القرن السادس قبل الميلاد وكان يكتب هذه الحروف لا الكنعانيون فقط بل جميع الشعوب الاراميين ايضاً وفيها كتبت الاثار السالف ذكرها وصفيحة من الصفر دالة على تقدمة من احد ملوك صيدا المسمى حيرام الى بعل لبنان وتمتاز هذه الكتابة عما سواها خاصة بان بعض احرفها معوج ملتوٍ كثير الزوايا وقد امسى بعد ذلك مستديراً مستقيماً واما العصر الثاني فنقسم فيه كتابة الفونيقيين الى صيدونية وقرطاجنيـة فالصيدونية التي استعملت من القرن السادس قبل الميلاد الى صدر النصرانية تجد مثالها في الاثار التي وجدت في قبرس وصيداء وفي صفيحة يهو ملك جبيل وفي مسكوكات المدن الفونيقية في ساحل سورية وقبرس وفي الكتابة التي نقشت على مدفن تبنيت ملك صيدا وفي ما كتب على مدفن ابنه وخلفه اشمون عازر وهاتان الكتابتان كشف عنهما من امد قريب في صيدا وقد كتبتا في اواسط القرن الرابع قبل الميلاد . وتمتاز حروف هذه الآثار عما قبلها بكونها اكثر استدارة واقل تعرجاً ويكون اوسطها ضخماً وطرفها رقيقاً واما الكتابة القرطاجنية فتجد مثالها على مسكوكات قرطاجنة وصقلية وعلى ما وجد من الاثار فيهما وفي الكتابات القديمـة التي وجدت في مرسيليا وفي سردينيا وهي قريبة كثيراً من الكتابة الصيداوية واشبه بها لكن حروفها غير منسوقة على خط مستقيم بل محدبة تحديباً لطيفاً . واما العصر الثالث فتسمى احرفه البونية اي الفونيقية الحديثة وكانت تستعمل

على الساحل الغربي من البحر المتوسط منذ زهاء مئتي سنة قبل الميلاد واستمرَّ استعمالها مدة بعد استيلاء الرومانيين ولها مثال في صفائح وجدت في قرطاجنة ومالطة وصقلية وسردينيا وفي بعض مسكوكات اسبانيا ويظهر منها جلياً ان الكتّاب ارادوا وقتئذٍ جعل الحروف بسيطة فترى اكثر الحروف في هذه الكتابة استغنى عنها بخط واحد منها واخذ في تعليق الحرف الواحد بالآخر فتعسر قراءة ما كتب فيها

﴿ ١٤٢ ﴾

في لغة الفونيقيين

ان لغة الفونيقيين سامية فهي اخت اللغة العبرانية التي تكلم بها العبرانيون والعربية التي تكلم بها العرب وهولاء ساميون بلا مراء ولذلك عقب بعض الجاحدين على موسى بجعله الكنعانيين والفونيقيين من ذرية حام ولغتهم سامية فيلزم ان يكونوا من ذرية سام ولكن طاش سهم الجاحدين فاخطأ الغرض فلا تدل اللغة دلالة اكيدةً على الاصل ابداً فان قدماء سكان بابل واشور حاميون وكان يملك فيهم نمرود بن كوش بن حام وما من قائل بان اللغة الكلدانية او الاشورية حامية بل هي سامية والسكان القدماء في اليمن وحمير هم من نسل حام وكانوا هناك قبل ان يحل بينهم بنو قحطان الساميون وما من منكر ان اللغة الحميرية من فروع العربية فهي سامية وقد اثبت كثير من العلماء حتى رنان نفسه ان الفونيقيين وسائر الكنعانيين وان كانت لغتهم سامية هم اقرب اصلاً الى المصريين من الساميين وبين المصريين والفونيقيين اشتراك في كثير من العقائد الدينية والمعبودات وقد ثبت بالتقليد المستمر عند الفونيقيين ايضاً انهم اتوا سورية من ساحل خليج العجم ولم يكن هناك الا ولد حام ويستدل من بعض الآثار المصرية ان شعب كفتا الذي يعبرون به عن الفونيقيين يقرب



منهم اصلاً لان بعض الخصال والسمات الطبيعية مشتركة بين الفريقين ولنا ما لا يحصيه عادّ من امثال من حلوا في بلد وتكلموا بلغة اهله والظاهر ان سكان سورية قبل الفونيقيين ساميون فاخذوا لغتهم فمن الثابت اذًا ثبوتًا علميًا ايضًا ان الفونيقيين وسائر الكنعانيين حاميون اصلاً ولغتهم سامية (عن لانرمان مجلد ١ صفحة ٢٧٥)

ليس من يمتري ان لغة الفونيقيين لاتختلف عن لغة العبرانيين الا اختلافات قليلة كما مر (في عد ٤٩) فليستا لغتين بل هما فرعا لغة واحدة وبين اصول الفرعين والفاظهما مطابقة تامة يسند القول بها الى المعارضة بين الآثار التي اكتشفت مكتوبة بالفرعين ككتابة عين شيلوحا وصفيحة ميشاع بالعبرانية وكتابة الآثار الفونيقية باللغة الفونيقية وقد مر ان اشعيا النبي سمى اللغة العبرانية كنعانية وترى في كتب العلماء اليونان اسمي اللغتين الفونيقية والعبرانية مترادفين ينزل احدهما منزلة الاخر وقد سلف لنا كلام في فروع اللغة الفونيقية في عد ٤٩ فطالعه • وقد استمرت اللغة الفونيقية في سورية فلم تنسخها غزوة اسكندر الكبير ولا ولاية خلفائه فقد كثر استعمال اللغة اليونانية في المدن وبين علية القوم وعلمائهم ولكن ما برح السواد الاعظم من الاهلين يتكلمون باللغة السامية ووجدت مسكوكات منقوش عليها بالفونيقية والعبرانية حتى ايام القياصرة الرومانيين الاولين • وكذا استمر استعمال اللغة البونية اي الفونيقية في قرطاجنة ازمنة متطاولة حتى روى بروكوب والقديسان اغوسطينوس وايرونيموس ان سكان قرطاجنة وما جاورها من البلاد ما فتئوا يتكلمون باللغة البونية الفصحى حتى القرن الثاني بعد الميلاد

﴿ عدد ١٤٣ ﴾

في اثار الفونيقيين

قل كثيرًا ما بلغ الينا من آثار الفونيقيين ولسؤ البخت لم نتوصل الى ما كان منه كبير فائدة فنقضي العجب من ان هذا الشعب الذي اوجد الكتابة بالحروف ونشرها في المعمور كله لم يخلف لنا من آثارهِ الا ما ندر وكان قليل الفائدة يسير العائدة ونرى المصريين والاشوريين على تعسر رسم علاماتهم واعتياص حل رموزها ملأوا صخور المدافن وحجارة الهياكل وصفائح القصور من الآثار الجزيلة النفع واحتفروا في الاجرّ ما يساوي كتبًا ضخمة مشتملة على تواريخهم وانسابهم وعلومهم بكل فن فهل اغفل الفونيقيين طمعهم بالارباح عن تخليد ما ترتاح اليه الارواح او استلبت صروف الحدثان ما خلفوه لنا فلم ننعم بالحظوة به

فالآثار الفونيقية المكتوبة التي جمعت الى الان كثيرة تتجاوز بعض الوف ولكن ندر ما كان منها غير مكتوب على تمثال او نصب اقيم لاحد الالهة او على مدفنٍ كتب عليه اسم من دفن فيه وبعضها فونيقي وبعضها قرطجني وهو اكثرها ولا يختلف بعضه عن البعض الاخر الا في اسماء الاعلام وقد عُنيت جمعية الكتابات السامية والصنائع الجليلة بجمع هذه الكتابات القديمة ونشرها وطبع منها القسم الاول في الخطوط الفونيقية والقرطجنية فكان شاهدًا مصرحًا بقصور هذه الاثار عن تبيان حقايق تاريخية مهمة فجل ما اشتمل عليه من البينات التاريخية هو صفيحة يهو ملك قيل جبيل ولا تحوى الا اقامة هذا الملك نصبًا تكرمة لعشتروت بعلة جبيل والصفيحة مشوهة كثيرًا والملك الذي نصب هذا التمثال كان بعد كورش وقبل اسكندر الكبير وهو ابن يهربعل وحفيد ارو ملك. ثم ما كتب على مدفن تبنيت وابنه اشمون عازر ملكي صيدا ولا يتحصل منه

الا الدعوات على من يجترىء ان يسطو على مدفن الملكين ثم قطعة من الصفر محفوظة في مكتبة الامة في باريس لا يفهم منها الا ان ملكاً اسمه حيرام ملك صيدا قدم تقدمة لبعل لبنان ولا يعلم منها اهو حيرام صديق سليمان امُ هو حيرام اخر ثم وجد في صور اثر ذكرت فيه تقدمة لبعل شمائيم (اي اله السموات) قدمها عبدليم بن ماتان بن عبدليم بن بعل شمار وهذا الاثر هو بعد عهد اسكندر الكبير فهذا اخص ما وجد في فونيقي حتى الان من الآثار المهمة ووجدت فيها بعض مسكوكات لكنها متأخرة عن عهد اسكندر الكبير

على انه قد وجد في قبرس اكثر مما وجد في فونيقي من هذه الآثار ولكن ليس منها ما تقادم عهده على القرن الرابع قبل الميلاد فقد اكتشف بوكوك في لرنكا ثلثة وثلاثين اثراً مكتوباً واكتشف لويس روس الالماني ثلثة اثار اخرى في جوار لرنكا ولكن قل فيها ما يهم فبعضها دال على تقادم لعشتروت وللاله راسف او رسبو مشبهاً بابلون ومؤرخ بعهد الملك ملكياتون وبومياتون وغيرهما من امراء هذه السلالة وبعضها الاخر يحتوي حساب نفقة بعض الهياكل كما وجد مثل حساب هذه النفقات في بلاد اليونان . وقد وجد في مصر بعض اثار فونيقية مكتوبة خاصة على اسوار هيكل اوزوريس وفي ابيدوس وغيرها وليس فيها ما يهم ووجد في جزيرة والوس وفي اثينا اثار دالة على تقادم للالهة مكتوب عليها بالفونيقية واليونانية ووجدت في مالطة اثار فاحدها دال على تقدمة لملكرت اله صور وبعضها كتب عليه « تقدمة لملك بعل تقدمة لملك عشتروت تقدمة لملك اوزيريس » ووجد مثل هذه الآثار الدالة على تقادم في صقلية وفي بالرمو خاصة وفي سردينيا وفي افريقيا ايضاً

على ان الاثر الذي اكتشف في مرسيليا سنة ١٨٤٥ يستحق ذكراً خاصاً لقدمه ولطول عبارته فيظهر انه كتب في القرن الخامس قبل الميلاد واحسن

ترجمة لهذا الأثر ما عني بها الاب برجيس معلم اللغة العبرانية في كلية باريس وخلاصة ما كتب فيه حساب هيكل بعل صافون في قرطاجنة في زمان الحاكم (شفط) الس بعل بن بودتانيت والس بعل بن بودشمون وقد عين فيه ثمن المحرقة ان كانت ثوراً او خروفاً او جدياً او عصفوراً ثم ثمن الحليب والدهن وكل ما يدخل في تضحية الذبائح وتقدمة التقادم للآلهة ويضاف الى ما مر من الكتابات تكملة لذكر كل ما نعلمه من اللغة الفونيقية بعض المئات من الكلم والاعلام التي ذكرها الكتاب اليونان واللاتينيون ولا يؤمن فيها من التحريف والتصحيف ثم ابيات شعر وردت في رواية لبلوت مصحوبة بترجمتها اللاتينية لا يؤمن فيها غلط النساخ وقد جد بعضهم في اصلاحها ولا يعلم هل اجادوا فهذا ما نعلم من اثار الفونيقيين

﴿ عد ١٤٤ ﴾

في علوم الفونيقيين

لاجرم ان الفونيقيين مهروا ببعض العلوم وان ندر كثيراً ما بقي لنا من حطام اثارهم العلمية فقد كان لاخوانهم العشائر الكنعانية كتب وتأليف في علوم وفنون عديدة قبل غزوة يشوع بن نون لبلادهم ايضاً فاننا نرى في سفره (فصل ١٥ عد ١٥) ان كالب بن يفنا ء صعد الى سكان دبير وكان اسم دبير قبلاً قرية سفر ، اي قرية الاسفار والكتب وهي في جوار الخليل فان كان للكنعانيين من تلك الاعصر اسفار وكتب علمية يجمعونها في مكاتب فالفونيقيون اولى بمثل ذلك لسبقهم سائر قبائلهم الى الحضارة والتمدن ونرى في الآثار المصرية اسم شاعر مجيد كان من المقربين الى ملك الحثيين عند محاربته رعمسيس الثاني على اسوار قادس . وكما كان للبابليين كتب اوانس وللمصريين اسفار طوت الحاوية شرائعهم ورسوم دينهم كان للفونيقيين اسفار تنطوي على

شرائعهم ورسوم دينهم وقانون احكامهم على سبيل وصايا سموية مقدسة وكانوا يعزون هذه الاسفار الى اله لهم يسمونه تاوت ولعله طوت اله المصريين. وكان في مدن فونيقي خزائن تحفظ فيها سجلات ترقم بها بغاية الضبط الاحداث المهمة وتواريخ المملكة وما يجرى لها كما رأيت مرات في فقر ميندر المأخوذة عن سجلات صور وكان للفونيقيين مقالات دينية وجغرافية غير داخلة في اسفار تاوت القانونية وكتب اخرى عملية موضوعها الزراعة والصنائع والحرف النافعة . وقد ذكرنا آنفًا (في عد ١١٥) رحلة حنون مع جالته في الاتلنتيك وقد كتب اخبارها في درجه

ولما شرع علماء اليونان في عهد خلفاء اسكندر الكبير يكتبون تواريخ شعوب اسيا ترجم باروز تاريخ بابل ومانيتون تواريخ مصر وكتب غيرهما تواريخ فونيقي نقلاً عن سجلاتها وآثارها ومن هولاء ثيودت وهيبسيكرات وموخ او موكوس ولم تبقِ لنا الايام مما كتبه هولاء الا اسماءهم بل بقي لنا شيء مما نقله ميندد وديوس عن تواريخ صور قد مر معنا ذكره واحسن ما بلغنا من كتب الفونيقيين المترجمة الى اليونانية انما هو ترجمة فيلون الجبيلي (غير فيلون اليهودي) لكتاب سنكونياتون البيروتي المشتمل على الكلام في اصل العالم وموالد الالهة فسنكونياتون ألّف هذا الكتاب وجعله تقدمة لابيعل ملك بيروت فتقبله بالمسرة وحفظ لنا اوسابيوس القيصري (في كتابه الاستمداد الانجيلي ك ١ فصل ٦) فقرات من ترجمة فيلون الجبيلي وهاك ما علقه اوسابيوس عليها . ان هذه الامور عنى بشرحها سنكونياتون وهو مؤلف قديم جدًا يقال انه كان قبل حرب ترويا ورووا انه كتب التاريخ الفونيقي متحريًا الصدق ونشر فيلون الجبيلي جميع مصنفات هذا المؤرخ بعد ان ترجمها من الفونيقية الى اليونانية وذكر ذلك خصمنا المعاصر لنا يريد به (برفير الفيلسوف الشهير الذي

كتب خمسة عشر كتاباً يضاد النصرانية بها) وروى اسابيوس عن برفير ان سنكونياتون بيروتي موطناً وانه اخذ مادة تاريخه عن ايروبعل كاهن الاله ياهو وقدم كتابه لابيبعل ملك البيروتيين فسر به وانه كان قبل حرب ترويا قريباً من عصر موسى كما يظهر من تواريخ الملوك الفونيقيين

ثم ذكر اوسابيوس بعض ما كتبه فيلون الجبيلي في مقدمة ترجمته وخاصة انه عنى بها بياناً لضلال من زعموا ان قصص الالهة ليست حقيقة بل هي رموز مجازية دالة على حوادث طبيعية وتقلبات فلكية ثم كلفاً بمعرفة تاريخ الفونيقيين بغير كتب اليونان الذين قلما مرافق بعضهم بعضاً بل آثروا انتقاد احدهم كلام الاخر على توحيد مساعيهم للتوصل الى الحقائق ومما مر يظهر انه لم يصب من زعم ان سنكونياتون كان بعد عصر اسكندر الكبير فهو اقدم منه كثيراً بل الواضح ان فيلون الجبيلي كان في عهد خلفاء اسكندر ومن شاء الاطلاع على فقر سنكونياتون هذه فليطالعها في كتاب اوسابيوس السالف ذكره او في تاريخ فونيقي لهوفر (ف٤) وقد روى الاب مرتين اليسوعي اكثرها في كتابه تاريخ لبنان (جز ٢) الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه وقد اضربنا نحن عن اثباتها هنا طلباً للايجاز ولانها اقاصيص لا ينتفع بها الا بمعرفة خرافاتهم بموالد الالهة وبدء العالم وقد استشهدنا ونستشهد بما صلح منها

الفصل العاشر

(في ديانة الفونيقيين)

عد ١٤٥

في الوثنية عند الفونيقيين وغيرهم

قضت جميع القبائل العريقة في القدم ان لا بد للعالم من موجد ومدبر وحملهم على ذلك النظر البديهي الى هذا الكون وما اشتمل عليه والى انه لا يمكن ان يكون علة لنفسه ثم تقليد الاباء القدماء بان الله خالق العالم وكل ما فيه ولذا رسخ تصور الاله في اذهان جميعهم فلا نرى قبيلة لم تقر بوجود الاله او لم يكن لها مساجد ومعابد على ان الجهل غشى بصائرهم فلم يدركوا ان هذا الاله روح بسيط وازلي تعالى عن مدارك البشر بل جعلوه كالهيوليات او جعلوها صادرة من جوهره بغير طريقة الخلق ونظروا الى اسمى الكائنات فتوهموها هذا الاله السامي فعبدوها ولذا لم تخلو قبيلة من عبادة الشمس اذ رأوها اسمى الكائنات واتبعوا بها القمر وسائر الكواكب السيارة وغيرها من النجوم فاختلفت اسمآء المعبودات اختلاف القبائل وقلما اختلف موضوع العبادة فعبد المصريون الشمس يسمونها رع او عمون رع وعبدها السوريون يسمونها بعل شمائيم اي رب السموات قال برو (مجلد ٣ صفحة ٧٦) اذا تفحصنا في ديانة الفونيقيين فنجد انهم اخذوا معبوداتهم واسماءها عن الكلدان لانهم اتوا من جوارهم وكسوها بملابس مصرية لانهم كانوا في اول امرهم يخضعون لمصر هذا ولا يختلف دينهم عن سائر اديان الشعوب في سورية عدا اليهود الا في

امور خارجية وطفيفة ونجد هذه الاديان ودين البابليين والاشوريين كانها صادرة عن مبدأ واحد وهو تصور اله وحيد وقدير سماه كل من العشائر اسماً دالاً على احدى صفاته فسماه الحثيون الشماليون ست اوستخ وتأويله القدير على كل شيء ودعاه الاراميون هداد (ولعله حاد حاد) وتأويله الوحيد او الواحد الاحد والعمونيون ملوك اي الملك والمتسلط والموابيون كموش او كموس وتأويله الضابط او المتولي والفونيقيون بعلاً وتأويله السيد او الرب وسائر العشائر الكنعانية بعلاً او ايلاً وتأويله الاله كما كان البابليون يسمونه ايلو وبواه اي الموجود بالاطلاق والازلي وهذا اشبه باطلاق العبرانيين كلمة يهوه على الله فليس بعل الفونيقيين الا بيل الكلدانيين وليست عشتروت عند اولئك الا استار او اشتار عند هولاء (برو في مجلد ٣ من تاريخ الصناعة في القدم صفحة ٦٨) وليست عشتروت سورية الا فانوس اي الزهرة عند اليونان الذين اخذوا معبوداتهم عن الفونيقيين . ان اله الفونيقيين وجميع المشركين القدماء كان واحداً ومتعدداً معاً فان الاله الواحد عندهم كان ذا اقانيم عديدة يسمونها بعليم اي الالهة وليست الا الوهيات ثانوية صادرة عن الاله السامي وهي صفات وقوات متألهة صادرة عن الاله غير المدرك فكان عند جميعهم الاله السامي ومن دونه الهة اخرون . وكذا كان مذهب البابليين والاشوريين وانفرد الفونيقيون بان جعلوا تعدد الالهة غالباً من قبل المحل لا من قبل الصفات فالبعل الذي كان يعبد في صور وصيدا ولبنان وحرمون وغيرها تعدد فكان بعل صور وبعل صيدا وبعل لبنان وبعل حرمون الى غيرها . وقد احكم العالم دي فوكوا اذ قال : ان هذه التسميات المخصوصة كانت تمحو من ذهن عامتهم الخاصة الاولية للمعبود وهي الوحدانية ولا تترك لها الا تصوراً مشوشاً . ولكن الوحدانية هي الحقيقة مثلاً ملكرت اله صور الاعظم الذي بثت جالياتهم عبادته في اقصى الافاق ليس

هو الا بعل فقد وجدت صفيحة في مالطة كتب عليها ، تقدمة الى الرب ملكرت بعل صور ، فهو اذًا الاله السامي معتبرًا الهًا محليًا محاميًا لصور واسمه دال على ذلك فان اصله ، مالك قريت ، ملك المدينة اي ربها فجعل ملكرت او ملقرت

عد ١٤٦

في معبودات الفونيقيين

اكثر الفونيقيون كالبابليين من رصد الكواكب ومراقبات حركاتها فادهشهم نظام الكواكب وفعل الشمس في الكون والناميات خاصة فعزوا كل ما في الطبيعة الى الكواكب لاسيما ملكتها وهي الشمس فعبدوها لا بما انها مظهر للقدرة الربانية بل لاعتقادهم اياها الهًا فصار بعل عندهم كناية عن الشمس يسمونه بهذا الاعتبار بعل شمائيم اي رب السموات واشهر معبوداتهم خاصة في جبيل ادونيس ويسمى تموز ايضًا ومعنى ادون او ادونيس كما سماه اليونان السيد او الرب وهو بمقتضى اقدم تقليداتهم الاله الشمس يتصورونه يموت في الخريف اذ تجفُّ نضارة النبات وتذوى ثماره ويحيي في الربيع اذ يعاوده الخصب والازهار فيدنو اىناع ثمره فيحتفلون لعيده في الخريف فتلبس نساؤهم كلها ملابس الحداد ويذهبنَ الى ضفة نهر ادونيس (وهو نهر ابراهيم الان) فينحنَ على تموز اي على موت الطبيعة المجملة بازهارها وثمارها وكانت النساء في جبيل يجززنَ شعرهنَّ اشعارًا بالحداد او يطفن وشعرهن مسترسل حائرات بائرات يتغنينَ بالمراثي على تموز حسرات فاذا جاء الربيع احتفلوا بعيد قيامة ادونيس اي بعود نضارة النبات وازدهائه بالازاهر والثمار واكثروا من الملاهي والطرب والمزح فهذا سر هذا الاحتفاء الذي لم تكن عامتهم لتدركه بل كانت تحسبه واقعيًا وكانت نساء العبرانيين يشاركنَ الفونيقيات في الرثاء والحداد ولا يتعظن

بنصائح الانبياء ومنهم حزقيال اذ قال (فصل ٨ عد ١٤) « ثم اتى بي (الملاك) الى مدخل باب بيت الرب الذي هو جهة الشمال فاذا هناك بنساء جالسات يبكين على تموز » واصبح تموز في عهد ولاية اليونان صياداً في سورية مغرماً بامه عشتروت وبينما كان يوماً يصطاد في غاب لبنان غير بعيد عن جبيل حسده الاله اراس اليوناني فتقمص بخنزير بري ورصد له في طريقه فكان عراك شديد بينهما افضى الى قتل ادونيس وقد مرّ ان حكاية قتله نقش مثالها على صخر في قربة الغينة في الفتوح حيث ترى صورة وحش يفترسه وبجانبها صورة عشتروت وهي الزهرة تبكيه ثم اعادته من الموت وصورة قيامته منقوشة على صخر في المحل المعروف بالمشنقة في بلاد جبيل

وقد جعلوا السيارات السبع المعروفة عندهم بُعولاً اي الهة واطلقوا على جميعها اسم كبيريم جمع كبير ومعناه القدير وكان عددها عند الفونيقيين ثمانية اي الكواكب السيارة السبعة مع العالم المكون من مجموعها وسموا ابا هذه الآلهة زديق ومعناه البار وجعلوا الكبير الثامن وهو كناية عن مجموع افلاك الكواكب كوكب القطب الشمالي (الذي تسميه العامة المسمار) وكانوا يتخذونه هادياً في اسفارهم وسموه اشمون اي الثامن وكانت الحية مثالاً له ولباقي الالهة الكوكبية لحسبانهم انها تمثل بتعرجها حركة الكواكب في الافق وكانوا يربُّون حيات في هياكل اشمون تلحس جراح من استشفع به فتبرئها اذ كان من معتقداتهم ان اشمون وسائر الكبيريم اوجدوا عقاقير الطب والى ذلك يعزَى ما ذكره دانيال النبي في نبوته عن التنين في هيكل بابل

ولم تكن الالهة عندهم ذكوراً فقط بل كان لهم آلهة اناث ايضاً فكانت عشتروت زوجاً لبعل وكان لكل من البعول الثانوية بعلة وكلما كان للبعل خاصة شمسية كان للبعلة خاصة قمرية ولذا كانت عشتروت عندهم القمر ويجعلونها من

جملة الكبيريم على اننا نجد الاثار القديمة الفونيقية تصف الالهة او البعلة بانها « مظهر » او « وجه » الاله الذكر فيظهر انهم كانوا يعتقدون الاثنين واحداً لايمتاز احدهما عن الاخر الا بما يصلح به ان يكون زوجًا للاخر والالوهية واحدة بينهما مثناة بالتجلي الخارجي فكأنهما اقنومان لذات واحدة وما ذلك الا اثر الاعتقاد الاولي بالوحدانية مشوشًا . وكانوا يدعون البعلة ملكات شمائيم اي ملكة السموات كما يدعون الاله بعل شمائيم اي رب السموات . وكان من هذه الازواج في صيداء بعل صيدون وعشتروت وفي جبيل تموز وبعلة . وفي صور ملكرت وعشتروت وفي قرطاجنة بعل حمون وتانيت التي تسميها الاثار « فني بعل » اي وجه بعل وكان عند الحثيين الشماليين سات وساتة وعند الاراميين في دمشق هدد واترغات وكانت عبادة عشتروت اعم من جميع عبادة الآلهات فقد ورد ذكرها على اختلاف اسمائها في كثير من الآثار التي كشف عنها في فونيقي وقبرس ومالطة وصقلية وسردينيا وقرطاجنة

ومن الغريب اننا نجد عندهم نوعًا من الثالوث فتراهم يعبدون في كل مدينة ثلثة من الالهة فكان لهم في صور ملكرت وبعل وعشتروت وفي صيدا بعل وعشتروت واشمون وفي قرطاجنة تانيت وبعل حمون واشمون وفي جبيل ايل وادونيس وبعلة جبيل . وكان في مصر ثالوث لكل مدينة من مدنهم الكبيرة فكان في تاب امون رع الاله الاعظم وزوجه موت وابنه خنسو فيألف ثالوثهم من اب وابن وزوجة ويعتقدون الثلاثة الهًا واحدًا (لانرمان مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ و ١٧٤) . وكان للنار دخل في عبادتهم ينزلونها منزلة مبدا الحياة وينبوع كل فاعلية لنسبتها الى الشمس ومصدر كل ولادة وابادة وكانت عندهم الالهة الشمسية والكوكبية نارية طبعًا وكان يختص بذلك بعل ملوك كما سيأتي بعيد هذا ومثله بعل حمون الذي تأويله الاله المحرق وهو احد

معبودات قرطاجنة ومثله الاله راسف وتأويله الصاعقة ي النار السموية وسماه اليونان بعد ذلك ابولون وثاوس والاراميون في دمشق ادار وهو من معبودات الاشوريين وكان الحجر الناري رمزًا للاله الناري وكان الصوريون يسجدون لمكرت ممثلاً بحجر لماع وكان عند الفونيقيين والعرب نوع من العبادة للحجارة وكانوا يسمون هذه الحجارة المكرمة بيت ايل اي مسكن الله متوهمين ان الله يسكنها لاسيما الحجارة التي يروى بعضهم انها نزلت من الجو ملتهبة فيعتبرونها نزلت من الكواكب وكان لون هذه الحجارة المكرمة غالبًا اسود فيستدلون بذلك ان اصلها ناري . وجاء في الخطوط المسمارية ذكر سبعة حجارة سوداء كانت تعبد في هيكل ارك في بلاد الكلدان وعبادة حجر حمص استمرت شهيرة حتى ايام الملوك الرومانيين وقد وجدت صورة هذا الحجر منقوشة على مصكوكات في سورية وحمص وسلوقية والرها وغيرها

عد ١٤٧

في ذبائح الفونيقيين

لم تكن في الوثنية قبلة لم تعتد تقدمة الضحايا لالهتها بل كانت تقدمة الذبائح والضحايا منذ اول العالم وعند كل امة فنرى هابيل وقاين ابتدآها ونرى نوحًا قدم ذبائحه لله اثر نجاته من الطوفان على ان الفونيقيين امتازوا عن سائر الامم القديمة بتقدمة الضحايا البشرية قال برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٧٤) لم نجد آثرًا عند المصريين او الكلدان للتضحية بالناس تكرمة للالهة بل انفرد السوريون بهذه العادة السيئة التي حملتها جالاتهم الى مستعمراتهم والى قرطاجنة خاصة . واسوأ الصنيع في ذلك تقدمة الضحايا تكرمة لبعل ملوك اذ كان الاباء انفسهم يطرحون اولادهم في النار المضطرمة ومصدر هذا الصنيع المخيف تصورهم طبع الاله ناريًا واعتقادهم شيئًا من الالوهية في النار فيضحون

باولادهم ليشتركوا في شيء من الالوهية او يسترضوا الاله المتغضب . وكانت الضحايا البشرية عندهم اعظم الضحايا ويقدمون بها غالبًا بكر اولادهم او احدث مولود لهم معتقدين انهم بذلك يكرمون الاله بانفس ما يملكون

وقد استمرت هذه العادة عندهم الى النهاية على انهم دخلوا من قديم الدهر طريقة البدل فكانوا يستبدلون الضحية البشرية بالتضحية بحيوان او طير من الاوالف كثور او خروف او جدى او حمامة الى غير ذلك وقد تبين في الصفيحة التي وجدت في مرسيليا (قد مر ذكرها عد ١٤٣) ما يصلح لهذه الضحايا من الحيوان والطائر وما الثمن المفروض لكل منها . ولم تكن البقرات تصلح لهذه الضحايا اذ قال برفير (ك ٢ فصل ٢) ان المصريين والفونيقيين لو خيروا بين اكل لحم البشر او لحم بقرة لاختاروا اكل لحم البشر ولذلك لم تكن البقرة تصلح عندهم ضحية (رواه هوفر في تاريخ فونيقي فصل ٤) وكان الفونيقيون يستبدلون ايضًا الضحايا البشرية باقامة نصب كعمود او تمثال تكرمة للالهة ويعتاضون احيانًا عنها بنذرهم ان يخدموا في احد الهياكل عمرهم او مدة منه فبكل ما مر ينبئنا بما كان احكم تونيب الانبياء لبني اسرائيل على اتباعهم عادات الكنعانيين وتقديم العبادة لالهتهم والاقتداء بهم وتحذيرهم اياهم من ذلك اشد التحذير ومع هذا حدث مثل هذه الفظائع احيانًا في شعب اسرائيل كما سترى في تاريخ العبرانيين وامتدت هذه البربرية من اقدم الايام الى جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان وغيرها مع الجاليات الفونيقية . فقد اوصل الفونيقيون دياناتهم ومعبوداتهم وعاداتهم الى حيث اوصلوا بضائعهم وحروف كتابتهم وتمدنهم فكانوا موصلاً بين المشرق والمغرب لما حسن ولما قبح فاخذوا عن الكلدان والمصريين معتقداتهم الدينية ومعبوداتهم فبثوها في الآفاق ولذا كانت الاديان الوثنية ومعبوداتها واحدة اصلاً وجوهرًا وان

داخلها اختلاف في الاسماء او زيادات على الاصل او تغيرات اقتضتها حالة البلاد او الجهل بالاصل او الاهواء الشخصية

﴿ عد ١٤٨ ﴾

في كهنة الفونيقيين وهياكلهم

كان كهنة بعل وعشتروت عند الفونيقيين في اعيادهم يلبسون ملابس النساء ويخضبون وجوههم بالحمرة ويزججون حواجبهم ويكحلون عيونهم ويعرون ايديهم الى الكتف ويحملون بايديهم سيوفاً او يتنكبون حراباً ويتأبطون دفوفاً او معازف يضربون بها ويرقصون ويضجون ويدورون على عقب واحد وينعطفون برأسهم الى الارض عند دورانهم فيمرغون شعورهم بالوحول ويعضون اذرعهم ويخدشون اجسامهم بسيوف وحراب كما جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٨ عد ٢٨) فاذا سال دمهم قدموه ضحية لالهتهم الدموية وكان كثير منهم يعوهون اعضاءهم عند صنع هذه المجان والشعوذات ومع هذا كان هولاء الكهنة نافذين في امور مملكتهم يصغى لهم الحكام ويستشيرونهم ويعملون بمشورتهم ويحملون الامة على ما شأوا ويكثرون من الحيل خدعة للشعب في امر عبادة الالهة وفي ما يهوون ولم يخزهم ويفضح مكرهم وينكل بهم مثل ايليا النبي عند ما جعل احاب ملك اسرائيل يجمع اربعمائة وخمسين نبياً او كاهناً من كهنة بعل واربعمائة من كهنة عشتروت ويمتحنهم بان يقدموا ضحية لبعل ويستميحونه آية يثبت بها انه الاله الحق ففعلوا واكثروا من الهتاف والتضرع اليه ومن تخديش اجسامهم على عادتهم بالسيوف والحراب حتى سالت دماوهم فلم يكن من مجيب ولا مصغ فقبض عليهم ايليا وذبحهم عن اخرهم حذاء نهر قيشون بجانب الكرمل (ملوك ٣ فصل ١٨) ولا تسأل عما كانت خصالهم وادابهم فانهم كانوا يبيحون اعظم المنكرات بل يجعلون بعض الرذائل

فضائل ولا سيما في امر الشهوات البدنية ولنا بكل ذلك عبرة لمن يعتبر فهو شاهد كانه محسوس وبرهان كانه ممسوس على ان العقل البشري اذا ترك وهواه ولم يهده وحي سموي تسكع في دياجير الظلمة وتاه في بيداء الجهل ولو كان ثاقبًا ومتوقدًا وركب الغرور وقادته اميالهُ فاستحسن ما ظهر قبحه واقترف الفظائع يظنها فضائل واضاع رشده وسوَّد محامده وغشى محاسنه باطمار خلاعته فاهدنا اللهمَّ الصواب فانت منبع كل حق وخير وليس من دونك سداد ولا رشاد

ويظهر انه لم يكن للعشائر الكنعانية في اقدم ايامها هياكل ومعابد بل كانوا يعبدون الهتهم على قمم الجبال والمشارف فيقيمون هناك عمودًا او نصبًا او صخرًا يسمونه بيت ايل اي مسكن الرب فيعبدونه ويجلونه وعنهم اخذ بنو اسرائيل المشارف التي ورد ذكرها مكررًا في اسفار الملوك واخبار الايام حيث كانوا يتعبدون عند جحودهم وتركهم عبادة الله الحقة على ان المدائن الشهيرة كان فيها من اقدم الايام هياكل فان هيكل ملكرت في صور كان معاصرًا بناء المدينة وقال هيرودت ان كهنة صور انبأوه انه قد مضى على بنائه الى ايامه ٢٣٠٠ سنة كما مر على ان اطلال الهياكل والمعابد الباقية من قبل عهد ولاية اليونان في سورية مؤذنة بان الفونيقيين اتبعوا فيها هندسة الهياكل في مصر وعليه فيكونون قد شرعوا في بناء الهياكل بعد ولاية المصريين عليهم ولا اقل في ان يكون ذلك بعد ترددهم الى مصر على ان هيئة هذه الهياكل كانت حجرة ضيقة لكن محوطة باسوار فسيحة يتكون ضمنها عرصة مكشوفة وقد يكون فيها احيانًا رواق من خشب ودلنا على ذلك اخربة هيكل الزهرة في الباف في قبرس والمعابد الباقية في مالطة التي يسمونها كازا الكرندي اي البيوت الكبيرة وما جاء في الكتاب عن هيئة هيكل سليمان الذي كان مهندسوه فونيقيين وما بلغته الينا

باخوس

حطام بعض المؤلفين القدماء عن هيئة هيكل ملكرت في صور وكان امام هياكلهم غالبًا رواق ارفع من سائر البناء ويليه معبد تقدم به الضحايا والتقادم ثم معبد اخر ثم قدس اقداس لا يحل للعامة ولا لجميع الكهنة الدخول اليه وكان بجوانبه مخادع للخدام فكذا كان هيكل صور وكذا تنبئنا اطلال هيكل الباف السالف الذكر وكذا كان هيكل اورشليم كما انبأنا الكتاب على انه لم يكن في قدس الاقداس في هيكل الله الا تابوت العهد واما في هياكل الفونيقيين فكان مثال الالهة السري لا تمثال بهيئة بشرية بل حجر او صخر يسمونه بيت ايل اي مسكن الله كما مر وكان في هيكل ملكرت قطعة كبيرة من الزمرد تمثل بلمعانها طبيعة الاله النارية وكانوا ينزلونها منزلة كوكب سقط من السماء فالتقطته عشتروت وكان الحجر الممثل عشتروت في هيكل الباف مخروطي الشكل ولهم بهذا الشكل اشارة يستحى ببيان المراد بها ويدلون بها على تواصل الخصب والنمو

ولم يبقَ لنا من اطلال الهياكل المهمة في فونيقي الا اخربة هيكل عمريت المعروف هناك بالمعبد وقد اعتبره العلماء الباحثون في الاثار اشبه بالهياكل المصرية ففي وسط عرصته مخدع او معبد كانوا يضعون فيه تمثال المعبود وجدران هذا المعبد وسقفه اربع بلاطات كبيرات ثلاث قائمة مقام الجدران والرابعة سقف للمعبد وكانت الجهة الرابعة تحجب بستائر تمنع نظر العامة الى الحجر الالهي المنحدر من الجو ويتلخص من صفيحة يهوملك المار ذكرها ان هيكل بعلة جبيل كان مبنيًا على هذا النمط وكان له رواق واعمدة وكانت نقوش الهياكل الداخلية تطلى بالذهب ولكن مذابحها كانت من الصفر

عد ١٤٩

في اثار ابنية الفونيقيين

شكا اهل العلم بالاثار ندرة آثار الابنية في فونيقي كما شكوا ندور خطوطها القديمة فوجدوا بين دجلة والفرات وفي وادي النيل اطلال القصور واخربة الهياكل والاهرام والمدافن مرت عليها القرون وحدثانها فاستعصت عليها واستمرت الى اليوم تشهد لمن بناها وتبين اسلوب الصناعة في تلك الايام وكثيراً من الحقائق واما فونيقي فكانت افقر البلاد بهذه الاثار فندر ما كان منها فيها وهل علة هذا الندور انه لم تقم فيها آثار في الاعصر الاول او دكت هذه الاثار ومحقت بعد انشائها فالذي اراه انه لم ينشأ في فونيقي اثار بمقدار ما انشىء منها في ما بين النهرين ومصر اذ لم يكن في فونيقي ملوك مثل فراعنة مصر وسلاطين اشور وبابل وفارس الذين انبسط ملكهم وعظمت سطوتهم وشذت عن العدد شعوبهم وتسامت ثروتهم وتوفر عدد الاسرى عندهم يشغلونها ببناء الاثار ولم يكن لملوك فونيقي على ضيق بلادهم وقلة شعبهم ميل الا الى التجارة والصناعة فجعلوا فخرهم بهما وببعثهم الجاليات لا بالعساكر الغازية الى الافاق على انهم لم يخلوا من اقامة اثار كثيرة بالنسبة الى ضيق بلادهم وقلة عددهم وقد روى العالم برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٩١) علة ندور ما نشاهده الان منها نقلاً عن رنان (في كتاب بعثه الى فونيقي) فقال ما ملخصه « ان الاثار الفونيقية اندر من غيرها من الاثار والعلة في ذلك توفر سكانها في كل عصر على ضيق ارضها فقد توالى فيها اليونان والرومانيون والبيزنطيون والصليبية الى سكانها الان وكلما شأوا البناء استيسروا كسر الحجارة القديمة او نقلها على قطع حجارة حديثة فدكوا على ذلك كثيراً من هذه الاثار لا سيما في عصر الصليبيين اذ كانت الحال تضطرهم الى اقامة اسوار

منيعة ولم يكن الوقت يسعفهم على قلع الحجارة او قطعها من مقطعها على ان الاثار الجبلية كانت اوفر حظًا من الساحلية لسهولة نقل حجارة هـذه بالسفن كما يصنع حتى اليوم وصعوبة نقل ما لا يحمله الجمـل في الجبل مع كثرة الصخر فيه فمن ذلك ما صنعه احمد باشا الجزار وعبدالله باشا واليا عكا في ابنيتهما وما صنعه قبلهما الامير فخر الدين المعني على ان تتالي المذاهب الدينية في هذه البلاد ساعد ايضًا على تدمير بعض هذه الاثار من ذلك هدم المسيحيين بعض معابد الوثنيين ويلحق بذلك جهل بعض السفل الذين يهدمون او يكسرون بعض هذه الاثار ليستطلعوا من تحتها الخبايا والكنوز ولهذه الاسباب لم يبقَ لنا من الاثار الفونيقية القديمة الا ما قل ومنه ما هو في ام العواميد وعمريت ٠ واشهر ما يعرف من صنع الفونيقيين بقايا اسوار جزيرة ارواد وبقايا هيكل سليمان واسواره في اورشليم فان مهندسيها وعمالها فونيقيون ثم الطبقة الاولى من بناء بعلبك وما سلف ذكره من اثار ام العواميـد في جنوبي صور واثار عمريت في جنوبي ارواد وجميعها دالٌ على ان من سمات ابنية الفونيقيين ضخامة حجارها ومناعة بنائها

على ان اثار الفونيقيين الباقية في مستعمراتهم اكثر منها في اوطانهم فيرى منها في قبرس وما يليها من جزائر البحر المتوسط وفي بلاد اليونان وصقليـة وسردينيا ومالطة وقرطاجنة وانحائها واول ما اصطنعوه نقر مساكنهم في الصخور فكانوا يوسعون المغاور الطبيعية ويهندمونها او ينقرون في الصخور مسكنًا يأوون اليه في الشتاء وترى كثيرًا من مدافنهم منقورًا في الصخور فلم يصنعوا كل ما تراه حبًا بالموتى بل نقروا كثيرًا منه لسكناهم ٠ وروى برو (مجلد ٣ صفحة ١٠١) ان في عمريت بيتًا مؤلفًا من عدة مساكن منقورة في صخر واحد طول واجهته ثلثون مترًا وعرضه كذلك وعلو جدرانه نحو ست مترات ومثل هذا

المحل المعروف بدير زهبان مار مارون في جانب منبع العاصي حيث تجد مخادع عديدة منقورة في صخر واحد فتنسبها العامة الى هولاء الرهبان وهي من صنع الاقدمين ولعل بعض الرهبان اتخذها مسكنًا وترى كثيرًا من هذه المخادع في لبنان وسواحله وقد قسم رنان وتابعه في ذلك برو (مجلد ٣ صفحة ١١١)الاثار الباقية في فونيقي الى ثلثة اقسام اثار فونيقية محضة ومنها اثار عمريت واثار داخلها النمط اليوناني الروماني ومنها صخر نقر فيه جرن للعماد وجد في جبيل واثار يونانية رومانية محضة ومنها اثار المشهد الذي وجد في البترون · وبعض الاثار التي وجدت في بيروت

قل ما استعمل الفونيقيون العقد في ابنيتهم فلم يوجد له حتى الان مثال الا في مدفنين او ثلثة بين مدافن صيدا ومنها مدفن اشمون عازر السالف ذكره ولم تبنَ هذه المدافن المعقودة قبل عهد اسكندر بل كانوا يعتاضون من العقد حيث لزم مثلاً في الابواب او السقوف بحجارة طويلة او عريضة كمقتضى الحال قال رنان (في كتاب بعثه الى فونيقي صفحة ٤٠٨) « لم يكن قدماء الفونيقيين يعرفون عقد الابنية » وقل ما تجد في الابنية الفونيقية المحضة من الاعمدة الا ما كان قصيرًا فيظهر انهم كانوا يستعملون الاعمدة للزينة او يلصقونها بالعضائد لا كما كان يستعملها المصريون والفرس واليونان ليحملوا عليها اعالي البناء وسقوفها ولم يوجد حتى اليوم قاعدة فونيقية للاعمدة ووجد لها تيجان مختلفة الاشكال والنقوش اختلاف سائر نقوشهم على ابواب الهياكل او المساكن وفي رفارف الابنية (كرنيش) وغيرها لا محل لتفصيلها بل نكتفي ايجازًا بما لخصناه هنا عن تاريخ الصناعة في القدم للعالم برو المكرر ذكره

﴿ عد ١٥٠ ﴾

في مدافن الفونيقيين

اكثر ما بقي لنا في مدن الفونيقيين من آثارهم المدافن فقد وجد كثير منها في جبيل وبيروت وصيدا وصور ولا سيما عمريت واكثر هذه المدافن مؤلف من عدة قبور منقورة في الصخر كامثالها في اليهودية وبلاد العرب ومصر فتجد في محالها مخدعاً او عدة من مخادع ينفتح في جوانبها الحاد تضم فيها الجثة محنطة ضمن نعش وللمدافن التي اكتشفت الى الان في عمريت وصيدا وصور وعدلون نمط واحد فكلها حفر في الارض ينحدر اليها بجب وهي اقدمها عهداً او ينزل اليها بمدرج وفي الاسفل فسحة تنفتح في جوانبها الحاد الموتى . وتختلف مدافن جبيل عن هذه بانها منقورة في صخور يتوصل اليها دون حاجة الى جب او مدرج وكان غالباً لكل اسرة مقبرة على حدتها ومن كان من الموتى حسيباً او ذا اهمية وضع في ناووس وسط المخدع المعد له قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ٥٨٨) لم يكن مثل الفونيقيين شعب دفن مع موتاه اشياء نفيسة على انه ندر ان تجد مدفناً من هذه لم يسلب منه ما كان فيه من الحلي او الاشياء الثمينة ولو بقيت كان لنا منها ادلة مهمة على صناعة القدماء واحوالهم وما بقي من هذه المدافن نفسها يخشى عليه ان يحطمه من ينتبشون الكنوز فلا يجدونها ويخسروننا كنوزاً لا يعلمون قيمتها

على ان المدافن التي كشف عنها في فونيقي كانت قليلة النفع للعلم اذ قل ما كتب عليها الا اسم المدفون فيها على ان مدفني تبنيت وابنه اشمون عازر ملكي صيدا السالف ذكرهما كتب عليهما مطولاً ولكن اكثر ما اشتملت عليه تلك السطور انما هو دعاء على من يسطو على قبريهما فظهر ان تحطيم المدافن وسرقتها كانا منذ عهدهما لان اشمون عازر كتب على مدفنه « لا تفتحن

قبري متطلبًا كنوزًا فليس ثمه كنز ، ويظهر انه خشي ان لا يصدقه السارقون فيقولوا له دعنا نرَ ان كنت صادقًا في ما تقول ولذلك لجأ الى وسيلة اخرى وهي الاستغاثة بعشتروت وغيرها من الالهة ان تعاقب من يجسرون ان يرفعوا الغطا عن ناووسه بموتهم دون عقب وباعدامهم الراحة في الرقاد الاخير لانهم لم يحترموه في غيرهم وقد كرر هذا الدعاء مرتين روى ذلك برو (في مجلد ٣ صفحة ١٣٨) وقال من اهتم بهذا المقدار بصيانة مدفنه ومن سمى الموت رقادًا فهو بلا مراء ممن يعتقدون ان النزول الى القبر لا يعدم الانسان كل شيء ونتج منه ان الفونيقيين كالمصريين والكلدان اعتقدوا الوفاة رقادًا في القبور وان لهم بعد ذلك حياة اخرى وان هذا محصل من آي عديدة في الكتاب ينهي بها الله والانبياء بني اسرائيل عن التشبه بالامم المجاورة لهم بالعرافة وسوال الموتى عن احوال واحداث ومن ذلك سوال شاول العرافة ذات التابعة في عين دور ان تصعد له صموئيل من بين الموتى (ملوك ١ فصل ٢٨)

ان الناووسين اللذين وجدت بهما جثتا ملكي صيدا أُتي بهما من مصر اذ ليس من نوع حجرهما في سورية وعلى غطائها صورتا الملكين مجسمتين وقد وجد مثل هذه الصور على اغطية القبور في اكثر البلاد التي استوطنتها جاليات فونيقية فبعضها حفر فيه الراس وحده وبعضها جعلت اليدان فيه طويلة بطول الجسم كله وكان الفونيقيون يضعون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج او خزف واصنامًا صغيرة من خزف تمثل عشتروت وبعل او باس الاله المصري او غيرها وكانوا يدرجون الجثة بلفائف ويغطون غالبًا الوجه والعينين بغشاء رقيق من ذهب وكان الاغنياء يلفون الجثة كلها بغشاء من ذهب ويرسمون عليه سمات الوجه وكل هذا من عادات المصريين التي استمسك بها الفونيقيون شديد الاستمساك ويوجد في قبورهم ايضًا كثير من الحلي يدل على مهارة عجيبة

في الصناعة ولم يوجد حتى الان في مدافنهم ما يدل على انه كان يوضع فيه ماكل كمدافن المصريين ولم يكن من عادة الفونيقيين ان يقيموا اصناماً في هياكلهم ولكن كان لهم اصنام عديدة يقيمونها في بيوتهم للعبادة لها وينصبون على اسوار الهياكل خاصة اوثاناً على سبيل النذر ولم يتجد حتى الان من نحت الفونيقيين الا قليل من الاصنام الكبيرة ومن الصور على المدافن ولكن كثر في متاحف اوربا العامة والخاصة وجود الاصنام الصغيرة من حجر او خزف او نحاس تمثل الالهة وتشبه كل الشبه التماثيل التي وجدت في مدافن الفونيقيين وجالاتهم على ان هذه التماثيل الصغيرة يرى بعضها بديع الصناعة بالغاً حد الاعجاز في الاتقان وبعضها مشوشاً غير محكم الصناعة وهو غالباً من حجر او خزف او نحاس والوجه في ذلك انه كان متحتماً على كل اهل بيت من الفونيقيين ان يكون لهم صنم فالبيوت الفقيرة كانت تستغني بهذه التماثيل السافلة صناعة لقصر يدها عن الحصول على تمثال من صنع عامل ماهر وذكر برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم) وجهاً اخر وهو ان هذه التماثيل السافلة لم توجد في فونيقي نفسها بل في مستعمراتها فيظهر ان سكانها الاولين قلدوا صناعة نزلائهم بعمل هذه التماثيل فلم يحكموا . والثابت الان عند مشاهير العلماء ان الفونيقيين اخذوا في صناعتهم شيئاً عن المصريين وشيئاً عن الكلدان والاشوريين فكان لهم نمط خاصٌ بهم قائم بنفسه ادركوا به قصبات السبق ولا سيما في المصنوعات الدقيقة الصغيرة

فهرس الفصول والاعداد

﴿ الفصل الرابع ﴾

﴿ الفصل الخامس ﴾

(في شجرة الحيوة وشجرة معرفة الخير والشر والحية ومعصية الانسان)

﴿ الفصل السادس ﴾

(في الاباء الاولين قبل الطوفان)

﴿ الفصل السابع ﴾

(في الطوفان)

﴿ الفصل الخامس ﴾

(في الفونيقيين وملوك الاشوريين)

﴿ الفصل السادس ﴾

(في الفونيقيين في مدة ملوك الكلدان والفرس)

﴿ الفصل السابع ﴾

(في تجارة الفونيقيين)

﴿ الفصل الثامن ﴾

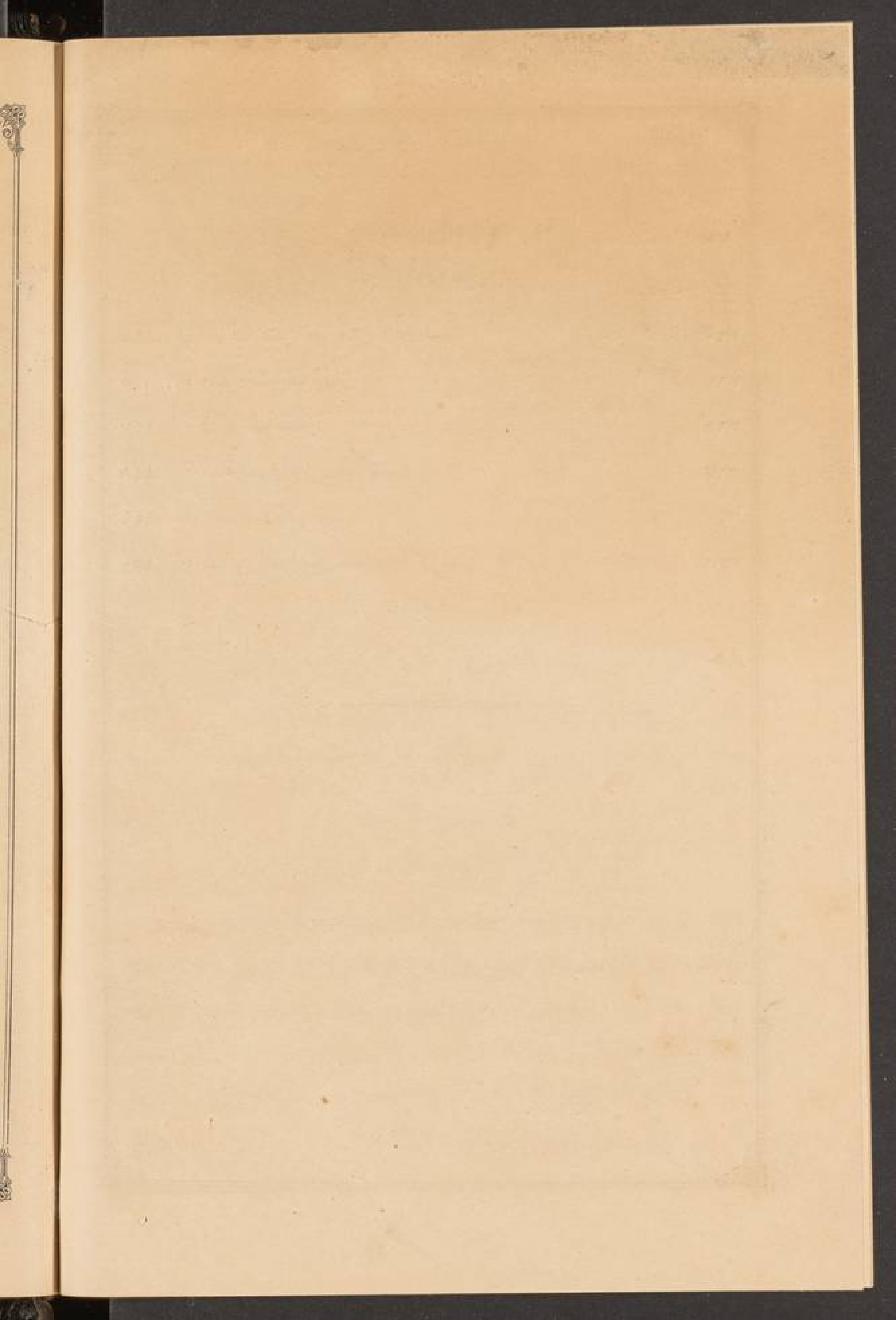
(في صناعة الفونيقيين)

﴿ الفصل التاسع ﴾

(في ايجاد الفونيقيين الكتابة بالحروف وفي لغتهم وعلومهم)

الفصل العاشر

(في ديانة الفونيقيين)



فهرس هجاءي

لما تضمنه هذا المجلد الاول بحسب الاعداد المتقسم عليها

(ا)

(خ)

(د)

(ر)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

وجنوبي ايطاليا وفي صقلية مصر وقرطاجنة وبلاد العرب والكلدان وارمينية ثم حالهم السياسية على عهد سؤدد صيدا ١١١ مسالمتهم لفراعنة مصر موثرين راحتهم ونجاح تجارتهم على الحرب ثم قيامهم على اسطول مصر البحري ١١٢ تسطي البلاسج عليهم واضطرارهم الى ترك اكثر مستعمراتهم في بحر الروم والى انقطاعهم عن السفر الى البحر الاسود ١١٣ مضايقة بني اسرائيل والفلسطيين لهم ثم جعلهم صور عاصمة لهم وانضمامهم اليها ١١٤ توثق عرى اتحادهم ثم مستعمراتهم في مدة سؤدد صور في افريقيا واسبانيا ومالطة وصقلية وسردينيا وايطاليا ومراكش وغيرها ١١٥ ما كانوا يستجلبونه من اسبانيا خاصة الفضة وكثرتها ثم دوران سفنهم حول قارة افريقيا ثم اتفاقهم مع بني اسرائيل ١١٦ ما كان بين حيرام الثاني وسليمان ١١٧ تزوج سليمان بابنة حيرام واحاب بايزبال ابنة ايتوبعل ونفوذ مملكة صور في مملكتي بني اسرائيل . ثم ملوك صور الى بناء قرطاجنة ١١٨ اول من غزا فونيقي من الاشوريين ١٢٠ هل غزاها تجلت فلاصر الاول . ثم حملات اشور نزيربال عليها . ثم غزوات سلمناصر الثالث لها واستسلامها اليه ١٢١ خسارة الفونيقيين بعض املاكهم في جزر الارخبيل اخذها منهم الدوريون اليونان ثم غارة رامان نيرار الثالث عليها ثم استحواذ سلمناصر الخامس عليها ١٢٢ استسلام مدنها الى سنحاريب عدا صور ١٢٣ حملة اسرحدون عليها وخضوع ملوكها له ١٢٤ خضوعهم لابنه اشور بانيبال ثم عصيانهم عليه وقهره لهم ١٢٥ خضوعهم طوعًا لنكو ملك مصر وتواصل جالياتهم في اوروبا ١٢٦ . استسلامهم الى بختنصر اولًا ثم محالفتهم ملك مصر عليه وحصاره صور ١٣ سنة وتدميرها ١٢٧ محاربة اسطولهم الاسطول المصري في امواه قبرس ١٢٨ حالتهم مع ملوك الفرس وخضوع حيرام الرابع لكورش ١٣٠ انقيادهم وانجادهم لكمبيس ابنه وخلافهم له في غزوة قرطاجنة . ثم استمرارهم على الطاعة لداريوس وابائهم الاشتراك في الثورة عليه . ثم ما كان لهم مع باقي ملوك الفرس . ثم حملة ارتحشستا عليهم وحصاره صيدا ثم . ولاية اليونان على فونيقي ثم فهرس ملوك فونيقي ١٣١ تجارة فونيقي ١٣٢ تجارتها في اسيا بفروعها الثلثة ١٣٣ تسيار سفنهم في بحر الهند ومواد تجارتهم

(ل)

(ن)

(ه)

(و)



مثال للحروف والهجاء المسمارية

א، أ، ا.

ב، ب، با، اب، بي، يب، بو، وب.

ג، ج، جا، اج، جي، يج، جو، وج.

ד، د، دا، اد، دي، يد، دو، ود.

ה، ه، ......

ו، و، وا.

ז، ز، ز، زا، از، زي، يز، زو، وز.

ח، ح، حا، اح، حي، يح، حو، وح.

ט، ط، طاء.

י، ي، يا.

כ، ك، كا، اك، كي، يك، كو، وك.

ל، ل، لا، ال، لي، يل، لو، ول.

מ، م، ما، ام، مي، يم، مو، وم.

נ، ن، نا، ان، ني، ين، نو، ون.

ס، س، سا، اس، سي، يس، سو، وس.

ע، ع، ......

פ، ف، فا، اف، في، يف، فو، وف.

צ، ص، صا، اص، صي، يص، صو، وص.
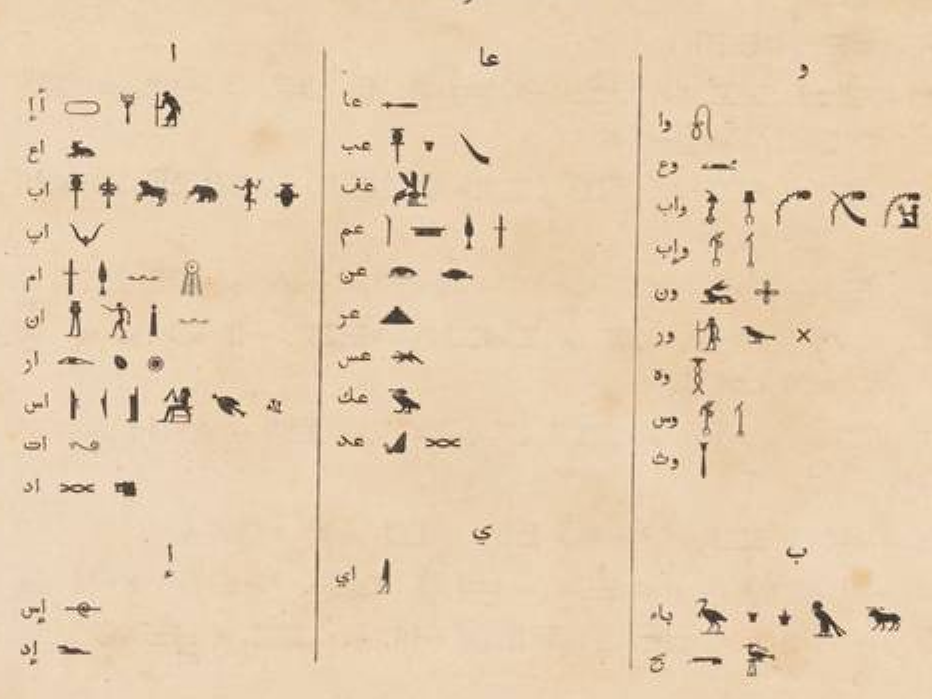
ק، ق، قا، اق، قي، يق، قو، وق.

.ور ، ؛رو ، ؛هر ، ؛ري ، ؛ار ، ؛را ، ر ، ר
.وش ، ؛شو ، ؛هش ، ؛شا ، ؛شي ، ؛اش ، ؛شا ، ش ، ש
؛تو ، ؛هت ، ؛تي ، ؛ات ، ؛تا ، ت ، ת
.وت ،

مثال للحروف الهيروكليفية

ش	م	أ
ق	ن	إ
ج	رل	عا
خ	ه	ي
ت	ح	و
د ت	ك	ف اوڤ
ث	س	باء اوڤ
		پ

تهجيات هيروكليفية



اس

بت

ف

فا

فو

فوت

پ

پاه

پر

پح

پك

پق او پخ

پد او پت

م

ما

ما

مع

مو

من

مر

مح

مس

مت

ن

نو

نب

نو

نم

نس

نر

نخ

نس

نت

نش

ر

رر

رح

رس

رد او رت

ه

هب

هن

حاء

حاء

حع

حو

حب

حپ

حم

حن

حر

حح

حس

حق

حت

ك

كا

كع

كو

كب

كپ

كم

كن

كر

س

سا

سو

سب

سپ

سم

سن

سر

سح

سح

ست

سخ

ش

شا

شو

شن

شف

شپ

شر

شس

شتپ

خ

خب

خپ

خم

خن

خس

دب

دم

دن

دود

ذ

ذا

ذر

ذد

تب

تم

تن

تر

تس

د

ده *

دب

ج

جر

ق

قا

ت

تا

تاه

تي

Paris. — Imprimerie Nationale. — Juillet 1893.



